الفكاهات العصرية

مجلة روائية أدبية تاريخية

لصاحبها

عبد الله غريب

السنة الاولى

العدد ١٥

روايات يثوب الكهل منها ... بتفكهة وتخلية لفكر

ويقرأها الفتى فيطيب نفساً ... بما يلقيه من خبر وخُبر

خليل مطران

الفكاهات العصرية

مجلة روائية أدبية تاريخية

لصاحبها

عبد الله غرايبة

السنة الاولى

العدد ١٥

روايات يثوب الكهل منها ... بتفكهة وتخلية لفكر
ويقرأها الفتى فيطيب نفساً ... بما يلقيه من خبر وخُبر

خليل مطران

رواية

مكنونات باريس

تاليف

القصصي الشهير في عالم التحرير

اوجين سو

تعريب

الكاتب البليغ والطبيب البصري البارع

الدكتور ابراهيم شدودي

مطبعة العرب

الجزء الاول

الفصل الاول

الخمارة

انه في ليلة ممطرة شديدة البرد من ليالي شهر اكتوبر عام ١٨٤٣ اجتاز جسر الشانج « جسر من جسور نهر السين في باريس » رجل طويل القامة قوي العضل كأنه جبار من الجبابرة مرتدٍ ثوباً قصيراً وسراويل من كتان أزرق. وتوغل في الحي القديم ذي الازقة المظلمة الكائن بين سراي المحكمة وكنيسة نوتردام

وعلى رغم حذر الحكومة وشدة مراقبتها لذلك الحي ظل يأوي اليه عدد عظيم من لصوص باريس وقتلتها ويعقدون فيه مجتمعاتهم السرية

وأكثر ما كانوا يجتمعون في الخمارات السافلة التي يديرها رهط من أجلاف باريس المجرمين

وكانت الريح شديدة في تلك الليلة يسمع لها دويٌ في أزقة ذلك الحي الموحش. واضواء المصابيح ضئيلة تنعكس أشعتها على مجاري مياه المطر الموحلة

والبيوت في ذلك الحي قديمة العهد سوداء قليلة النوافذ تكاد تتلاصق شرفاتها لضيق الازقة

ولتلك البيوت دهاليز قذرة مظلمة تؤدي الى درج أقذر وأكثف ظلاماً تكاد تكون عامودية بحيث لا يرقاها الصاعد الا بالجهد والتمسك بحبال ممدودة الى جانبيها

وظل الرجل الذي أتينا على وصفه يسرع الخطى حتى انتهى الى زقاق يقال له زقاق الفول كائن في وسط الحي فتثاقل في مشيته مطمئناً لدنوه من مسكنه

وكان الظلام حالكا والريح تنسف ماء المطر على الجدران فيسمع لخريره صوت تنقبض له النفس .

واذ ذاك دقت الساعة العاشرة في برج سراي المحكمة

وكنت ترى هنالك بعض النسوة مستظلات تحت أبقية عميقة كالمغاور في منعطفات الازقة فوقف الرجل عند واحدة من تلك النسوة الصامتات الكئيبات وأمسك بذراعها وقال لها

— مساء الخير يامغنية !!

فتخلصت هذه من ذراعه وتقهقرت بضع خطوات

وأجابت بصوت ينم عن الخوف

— مساء الخير أيها السفاح ... لا تؤذني ...

وكان السفاح هذا من المجرمين العظام قضى الجانب الاكبر من عمره مسجوناً وقد أطلقت عليه وهو في السجن كنية السفاح . وكان يخشى بأسه كل أهل الحي فحين سمع جواب المرأة ضحك مقهقهاً وقال لها

— لا بد لك ان تسقيني في الخمارة كاساً من الخمر وتدفعين ثمنها. وان لم تفعلي فانني ارقصك بلا دف ولا مزمار

فارتعدت فرائص المغنية وأجابت

— ويلاه ليس لدي فلس واحد

— لا بأس من ذلك فان صاحبة الخمارة تمهلك الى الغد

— هيهات ان ترضى بذلك . ولا سيما اني مدينة لها باجرة ثيابي هذه

فاستولى الغضب على السفاح واكفهر وجهه وصرخ قائلا

— متى تعلمت المناقشة والجدال ؟

ثم وثب ليقبض عليها فركضت امامه مذعورة وهي تصرخ وتستغيث وولجت دهليزاً حالك الظلام فتبعها الرجل

يعدو عدو النمر وراء فريستـه وما لبث ان قبض على ذراعها الناحل بكفه الغليظة وقال لها

— تعالي اعلمك الرقص

وما كاد السفاح يتم عبارته حتى سمع من ورائه صوتاً خشناً يقول له

— لا بل انا أعلمك الرقص

— من هذا ؟ ؟ هو أنت يابراروج ؟ أجبني ولا تضغط كذا على ذراعي . . . هو أنت بلا شك فان هذا زقاق بيتك . . . . كفاني من هذا المزاح

فاجابه القابض على ذراعه

— أنا لست براروج

— ها ها ! ! بما انك لست صديقي براروج فسأزلزل الارض تحت قدميـك . . . ولكن ماهذه اليد الناعمـة التي المسها ؟ انها يد امرأة لا يد رجل

— ان هذه اليد التي أعجبتك نعومتها هي أخت هـذه

وشعر السفاح بيد قبضت على عنقـه كأنها ملزمة من حديد فكاد يختنق

اما المغنيـة فما كادت تفلت من يد السفاح حتى صعدت على درج وجدتها عنـد آخر الدهليز ثم وقفت وقالت لمنقذها المجهول

— أشكرك ياسيدي على انتصارك لي ودفاعك عني . فلولاك لكان السفاح ضربني لان ليس لدي نقود لاسقيه كأساً من الخمر . ولعله كان يريد المزاح . اما الآن وقد أفلتُّ من يده فارجوك ان تخلي سبيله . وكن على حذر منه . فهو السفاح ....

فاجابها المدافع عنها

— اذا كان هو سفاحاً فأنا من القتلة الذين لا يهابون الموت

ثم دار العراك والتحم الخصمان فلم تعد تسمع في ذلك الظلام الدامس سوى صوت الملاكمة يتخلله شهيق المتضاربين وزفيرهما .

وبعد بضع دقائق دارت فيها رحى الصفع رأى السفاح من شدة بأس خصمه وقوة عضلاته وسرعة لكماته ماذهب بصبره فحاول ان يتملص من بين يديه وصرخ قائلا وهو يحرق الارم

— من أنت أيها الوحش المفترس ؟ اصبر فانك ستنال مني جزاءك وجزاء المغنية التي أتيت تدافع عنها ! !

وما كاد السفاح ينتهي من عبارته حتى انهالت عليه الضربات سراعاً تباعاً فكان كالسندان تحت المطارق وسمع خصمه يقول له

— خذ . خذ . هذه هي النقود التي أجازيك بها . اقبض . استلم .

— آخ . واخ عنق عنقي ! ! خنقتني . . . اذا كنت لا تفلت عنقي أعض أنفك

— ان أنفي صغير جداً فلا تراه في هذا الظلام الدامس . خذ . . خذ

— تعال اذاً الى قرب المصباح

— تعالى ليحملق كلٌّ منا في عيني خصمه . ولكن خذ قبل أن ترى وجهي على ضوء المصباح . . . أقبض

وأخذ هذا الرجل المجهول يدفع السفاح الى الوراء ويده لا تزال مطبقة على عنقه حتى أخرجه من ذلك الدهليز المظلم وجره الى قرب مصباح الزقاق الضئيل النور

وكاد السفاح يترنح لشدة الضرب ولكنه تجلد وحمل على خصمه بكل قوته وقد أخذ منه الغيظ وانعقد زبد الغضب على شفتيه ولا سيما حين رأى على ضوء المصباح ان خصمه ربعة يكاد يكون نحيل الجسم ولا تدل ظواهره على قوته الغريبة

واستأنف الخصمان العراك وكان الرجل المجهول على صغر جسمه من أمهر المصارعين فما كاد يتمكن من السفاح حتى صرعه مرتين

ورأى السفاح من شدة مراس خصمه ماذهب بعزيمته ولكن أبت عليه عزة النفس الاقرار بعجزه فأعاد الكرة مرة ثالثة وهو يزعق كالخنزير المجروح فلما رأى خصمه ذلك عاد الى طريقته الاولى وانهال عليه يلكمه لكماً متواتراً متلاحقاً كأنه المطر المدرار حتى رنحه فوقع على الارض كالثور المطعون وهو يتمتم قائلا

— كفاني . . . اني أقر بعجزى . . . كفاني

وخرجت المغنية من مخبئها أثناء المعركة ودنت من المدافع عنها وقالت له

— اشفق عليه . يالله !! يالله !!

ثم أردفت بلهجه العجب

— ولكن من أنت ؟ فان هذا السفاح الذي صرعته مراراً وضربته حتى ترنح لم يقهره أحد من أهل هذا الحي سوى رجلين أحدهما يدعى معلم المدرسة والآخر الهيكل .. واني اشكرك على كل حال لانه ربما كان ضربني لو لم تدافع عني

فلم يجب الرجل المجهول مخاطبته بكلمة ولكن راقه حديثها اذ لم تسمع اذنه صوتاً أعذب من صوتها ولا أشجى نغمة

فحاول أن يتميز ملامحها ولكن شدة الظلام وضعف ضوء المصباح حالا دون ذلك .

أما السفاح فظل صريعاً كالميت بضع دقائق ثم تحركت ساقاه وذراعاه واستوى واقفاً

ففزعت المغنية وعادت الى مخبئها في الدهليز وهي تقول للمدافع عنها

— كن على حذر ! ! انه يريد الانتقام .

— لا تخافي يابنيتي . فان كانت الحلاوة التي أكلها لم تشبعه فما زال لدي شيء كثير منها

فلما سمع السفاح هذا القول من خصمه أجابه

— أشكرك ياسيدي على هذا الكرم الحاتمي . وقد كفاني ما أكلته من حلاوتك اذ لا أخال معدتي تستطيع هضمه قبل مرور ٢٤ ساعة تمضي من تاريخه واذا تقابلنا مرة أخرى أشاور معدتي قبل أن أتقدم لمناولة حلاوتك

فقال له الرجل بصوت ملؤه الغضب

— ألست راضيا بما نالك ؟ أتتطلب المزيد؟

فنظر السفاح الى خصمه نظرة الاجلال والتعظيم كما تقتضيه القوة البدنية في طبقة الرعاع وقال له

— لا . لا انني لا أشكو ولا أطلب المزيد فقد أشبعتني ضرباً . ولكن اعلم انه لم يصرعني أحد في هذا الحي كله سوى رجلين أحدهما أصلب من الحديد ويلقب بالهيكل لشدة نحوله والآخر اذا لطم الثور يصرعه ويلقب بمعلم المدرسة

— وبعد ؟

— وبعد قد وجدت فيك أستاذاً لي . وسوف تجد أستاذاً لك أيضاً يوماً ما عاجلا أو آجلا .. اذ لا بد لكل رجل من أستاذ يصرعه ويدوس رأسه . وبما انك قد دست رأس السفاح فيمكنك أن تفاخر بذلك وتتيه عجباً في كل الحي .

ولكن من أنت ؟ فانك تتكلم لغة اللصوص كانما أنت واحد منهم. فان كنت لصاً فلستُ من أهل مهنتك. نعم انني ذبحت كثيراً لانني حين يصعد الدم الى رأسي أرى كل شيء أحمر فأطعن بالسكين على الرغم مني ... غير انني كفرت عن الدم الذي سفكته فيما مضى بقضاء خمس عشر سنة في السجن. وقد انقضت مدتي ولم أعد تحت المراقبة ويمكنني ان أسكن العاصمة. ولم يبق للقضاة شأن معي. وانني ما سرقت قط طول حياتي... وان كنتَ في ريب مما أقول فسل المغنية

فقالت المغنية

— نعم أنا أشهد ان السفاح لم يسرق قط

قال الغريب

— تعال اذن نشرب معاً كاساً من الخمر فتعرف من انا تعال ولا تكن حقوداً

— كيف احقد عليك ؟ الم اقل لك انك استاذي ؟ وهل يسعني انكار علو منزلتك وانت امهر مصارع رايت واسرع ضارب عرفت ؟ وانني لا انسى طول حياتي ضرباتك التي تساقطت على رأسي تساقط المطارق على السندان فانني لم

أذق مثلها بعد .. وهي طريقة حديثة أرجوك أن تعلمني اياها

— أعيد عليك الامثولة متي شئت

فضحك السفاح مقهقهاً كالقرد وأجاب

— لا. لا أرجوك أن لا تعيد الامثولة عليّ بل على غيري لانني ما زلت مترنحاً. ولكن مالنا ولهذا. خبرني هل تعرف باروج فقد وجدتك في دهليز البيت الذي يسكنه ؟؟

فبدت على وجه الغريب دهشة يمازجها الكدر عند سماع سؤال السفاح وأجاب

— باروج ؟؟ لا أعرف من هو باروج ثم أن البيت الذي رأيتني في دهليزه يسكنه اناس كثيرون

— صدقت ولا ينبغي لي المداخلة في شؤونك. ان لباروج غرفة استأجرها في هذا البيت ولكنه قلما يرى في الحي اذ يقضي اكثر أوقاته في قهوة الشانزيلزي. فدعنا من ذكره

ثم التفت الى المغنية وقال لها

— والله انك فتاة رقيقة القلب. واني وأيم الحق ما كنت أريد ضربك. وانت تعلمين انني لا أضر بفتاة ضعيفة مثلك

ولم اكن اقصد في تهديدي اياك سوى المزاح . ومهما يكن من الامر فأنتِ جديرة بشكري لانكِ لم تطلبي من هذا الرجل ان ينتقم لك حين كنتُ تحت قدميه .تعالي اذن واشربي معنا كأساً من الخمر على نفقة صديقنا هذا الجديد

ثم وجه خطابه الى أستاذه وقال له

— الا توافق على أن نتعشى في خمارة الارنب الابيض عوضاً عن أن نشرب الخمر ؟

فابتسم الغريب واجاب

— اوافق عن رضى واقوم بنفقة العشا . أتأتين معنا يامغنية ؟

فاجابته — اشكرك ياسيدي.ان مارأيته من مضاربتكما غير نفسي وافقدني ما كنت اشعر به من الجوع

فقال لها السفاح

— هذا اعتذار فارغ .ان مفتاح البطن لقمة.وانت تعلمين أن الاطعمة لذيذة في خمارة الارنب الابيض .

فقبلت المغنية الدعوة ومشى الثلاثة نحو الخمارة .

وفي اثناء مضاربة السفاح مع المجهول كان رجل طويل

القامة مرتد ثياب فحام مختفياً في دهليز مظلم يرقب المضاربة وهيئة الاضطراب بادية على وجهه وعند ما مشى الثلاثة نحو الخمارة اقتفى أثرهم .

وكانت خمارة الارنب الابيض على مقربة من ساحة الملائكة فلما وصلوها دخل السفاح والمغنية اولاً وتبعهما الغريب ولكنه قبل أن يلج الباب دنا منه الفحام وكلمه باللغة الالمانية بلهجة تدل على الخشوع وقال له

— ارجو سموكم ان تكونوا على حذر

فلم يجب الغريب بل هز كتفيه هزة من لايهاب الموت ودخل الخمارة وراء رفيقيه . وظل الفحام واقفاً ينصت عند الباب ويختلس النظر الى داخل الخمارة من حين لاخر

وكانت خمارة الارنب الابيض واقعة في منتصف زقاق الفول وتشغل الطابق الاسفل من بيت شاهق . وعند بابها مصباح معلق ومكتوب على احد الواحه الزجاجيه باحرف حمرا هذه الكلمات : — « هنا غرف للنوم »

أما الخمارة فهي قاعة فسيحة دانية الجدران سوداء السقف لكثرة ما عاق عليه من هباب الدخان . مضاءة بنور

مصباح ضئيل .

والى كل من جانبها ست موائد وستة مقاعد من خشب ملصوقة اطرافها بالحائط . وعند اخرها باب يؤدي الى المطبخ . وفي الجهة اليمنى باب اخر يؤدي الى دهليز مظلم يصعد منه الى غرف متشعثة للنوم يؤجر فيها الفراش بما قيمته ثلاثون بارة في الليلة

وكانت صاحبة هذه الخمارة تدعي بونيس وهي أمراة تناهز الاربعين طويلة القامة ضخمة الجثة عريضة الكتفين سمراء البشرة تكسو شفتها العليا واسفل ذقنها بعض شعرات وكان صوتها خشن يقرب من اصوات الرجال وذراعاها ضخمتان ويداها غليظتان مما يدل على قوة بدنية نادرة المثال .

وكان هنالك رجلان قبيحا الصورة جالسين الى احدى الموائد يتحدثان همساً وعلامات القلق باديه على وجهيهما وامامهما كأسان من الخمر قلما يشربان منها

وعلى بعد بضع خطوات منهما شاب في مقتبل العمر لم يتجاوز السادسه عشرة ناحل الجسم شاحب اللون غائر الخدين ذابل العينين كان جالسا الى جانب مائدة وظهره

مسند الى الحائط وساقاه ممدودتان على المقعد الخشبي ويداه في جيوبه . وكان يدخن بغليونه فلا ينزعه من بين شفتيه الا ليجرع جرعة من كوب خمر كان امامه ثم يعود الى التدخين

اما الزبائن الاخرون الذين كانوا اذ ذاك في الخمارة فلم يكونوا على شيء يستدعي الانتباه

ولا بد لنا ان نصف للقارئ أصحابنا الثلاثة الذين دخلوا الخمارة وهم السفاح والمغنية والغريب لما لهم من الاهمية في هذه الرواية

أما السفاح فهو رجل طويل القامة عريض الكتفين قوي العضل ذو شعر أشقر باهت ضارب الى البياض وحاجبين كثيفين . وقد أخلق جدة أديمه البؤس وأشغال السجن الشاقة تحت أشعة الشمس . فاكتسب وجهه لوناً اسمر نحاسياً لا تراه الاّ في وجوه المساجين

ولكنه على الرغم من كنيته « السفاح » التي ترتعد لها الفرائص لم تكن ملامحه تدل على الشراسة الوحشية بل على السذاجة الفطرية والجراءة الفائقة الحد

والمغنية فتاة لم تتجاوز السادسة عشرة ذات جبين صافي

البشرة كأنه صحيفة من العاج المصقول . ووجه مستدير كوجوه الملائكة وعينين زرقاوين نجلاوين تنمان عن الكآبة وتظللهما أهداب نامية غضة . وخدين أسيلين يكسوهما زغب الصبا الحريري وعليهما مسحه خفيفه من الحمرة . وفم صغير قلما يبتسم . وانف كحد السيف . وذقن مستديرة . وعلى الجملة كانت ملامح وجهها جميلة جداً تأخذ بمجامع القلوب . ولها عند صدغيها غديرتان من شعرها الذهبي تصلان الى منتصف خديها على شكل نصف دائرة . ويزين جيدها الجميل عقد من المرجان . وكانت مرتدية ثوباً واسعاً ينم عن قامة هيفاً الين من الخيزران . وعلى كتفيها شال أصفر يتصالب طرفاه على صدرها .

وللمغنية هذه صوت رخيم هو الذي وجه اليها التفات الرجل الغريب الذي أنقذها من بين يدي السفاح

وكان أهل ذلك الحي السافل مغرمين بصوتها وكثيراً ما كانوا يتألبون حولها ويتوسلون اليها أن تغني لهم . ولذلك لقبت بالمغنية .

وكانوا يلقبونها أيضاً بالعذراء لما آنسوه في وجهها من

دلائل الطهر والعفاف

اما الغريب الذي دافع عن المغنية فيدعى رودلف وهو رجل يبلغ الخامسة والثلاثين ربعة متناسب الاعضاء ولم تكن ظواهره تدل على شيء من تلك القوة الغريبة التي أظهرها في مصارعة السفاح

وكان يصعب على الناقد معرفة اخلاق ذلك الرجل بمجرد النظر الى ملامح وجهه لما فيها من التناقض والارتباك

فكانت غضون جبينه تدل على الرجل المفكّر . وانتصاب قامته ورفعة رأسه وشجاعته كانت تدل على انه رجل مقدام اذا قال فعل وان ما لديه من القوة البدنية تجعل له سلطة على الناس

على انه في مصارعته مع السفاح لم يبد غضباً ولا حقداً ولشدة وثوقه من قوته ومهارته في المصارعة والمضاربة وخفة حركاته كان ينظر الى السفاح بعين الازدراء ويضحك هازئاً منه كلما صرعه

وكان على جانب عظيم من الجمال حتى ان صورته كانت اقرب الى صور النساء منها الى صور الرجال . له عينان سوداوان حلتهما الحور . وأنف أقنى وفم كخاتم سليمان . وشعر

اسود لامع وحاجبان كقوسين. وشاربان رقيقان انعم من الحرير اما لباسه ونوع الحديث الذي كان يتعمده فلم يختلفا في شيء عن ملابس بقية زبائن الخمارة وحديثهم ولم يكن في ظواهره المادية ما يميزه عن اولئك الاجلاف سوى بياض يديه ونعومتهما . اما صفاته الادبية ولا سيما ثباته وشجاعته وطلاقة وجهه فكانت ترفعه عنهم بمراحل

ولما دخل الخمارة هولاء الثلاثة الذين اتينا على وصفهم وضع السفاح يده على كتف رودلف وقال موجهاً خطابه الى كل زبائن الخمارة

— حيوا ايها الاصدقاء استاذ السفاح !!! . واعلموا ان هذا الرجل الذي اقدمه لكم صرعني واذاقني من حلاوة كفه ما يزال طعمه تحت لساني ... واني اعلن بذلك الراغبين الذين يريدون ان يعرفوا كيف تفلق الرؤوس ... واخص منهم بالذكر معلم المدرسة والملقب بالهيكل فانهما قد وجدا استاذهما ... واني مستعد للرهان على ذلك

ولما اتم السفاح عبارته اتجهت انظار الجالسين الى رودلف وبدت على وجوههم علامات المهابة والخضوع . وبشت

صاحبة الخمارة في وجهه وتركت مكانها واقبلت عليه تسأله ماذا يشرب وهو تنازل من لدنها لم يتعوده زبائن خمارة الارنب الابيض من ذي قبل حتى ان معلم المدرسة والملقب بالهيكل مع ماهما عليه من شدة البأس لم ينالا بعض التلطف الذي ابدته صاحبة الخمارة لرودلف

وبينما كانت بونيس «صاحبة الخمارة» تمسح المائدة التي اختارها رودلف للجلوس دنا منها أحد الرجلين الكئيبين اللذين كانا يتساران وقد أتينا على ذكرهما وهمس في أذنها قائلا

— ألم يأت الاعرج البدين اليوم ؟

— نعم جاء

— وهل كانت في صحبته كاليباس ابنة مرسيال الذي قُطع رأسه ؟ الا تتذكرين أسرة مرسيال من جزيرة الرافاجور؟

فاكفهر وجه بونيس وأجابته بصوت خشن

— أظننتني جاسوسة ياهذا حتى ابتدرتني بهذه الاسئلة؟ او هل حسبت انني افشي اسرار زبائني ؟

فعاد الرجل الى مكانه وهو يتمتم وقال لرفيقه

— لعل الاعرج البدين تأخر في شارع التامبل ليقضي

لباته من الشاب المدعو جرمان

— ايريدون قتله ؟

— لا وانما يريدون تأديبه لانه خان بعض رفاقه والذي اطلعهم على الخبر هو باروج

— هذا امر يعني الاعرج البدين . والغريب ان هذا الرجل ماكاد يخرج من السجن حتى كثرت لديه المشاغل

وحين وقع نظر السفاح على الشاب النحيل الذي اتينا على وصفه قال له

— الا زالت تكرع من الخمر يابربيلون ؟

فظل الشاب ممدداً ساقيه على المقعد ولم يتحرك واجاب السفاح بصوت خافت ابح ودخان غليونه يتصاعد من فمه وانفه

— وسأظل اكرع فاني افضل الجوع والعري على الامتناع عن شرب الخمور والتدخين

ودنت بونيس صاحبة الخمارة من العذراء وبعد ان حيتها تأملت ملابسها وقالت لها

— انني اسر كلما ارى عليك هذه الملابس التي أؤجرها لك لانك نظيفة وتحسنين المحافظة عليها : فان هذا الشال

الجميل الذي على كتفيك لا اؤجره لغيرك من النساء القذرات مثل تورنون وبولوت . وفضلا عن انني اؤجرك هذه الملابس الجميلة قد اهتممت بتهذيب أخلاقك منذ دخلت هذه الخمارة حتى أصبحت والحق يقال أحسن نساء الحي سلوكاً ولا عيب فيك سوى انك على الدوام كئيبة مكدرة خجولة ولكن لا غرابة في ذلك لانك ما زالت صغيرة السن . وانا على يقين من انك بعد ثلاث سنين تصبحين الطف واجمل امرأة في زقاق الفول من اقصاه الى ادناه .

فتنهدت المغنية ونكست رأسها الى الارض ولم تجب فقال السفاح وهو يشير الى نفسه والى رودلف والمغنية

— آتينا لنتعشى يا اماه بونيس

فوجهت بونيس جوابها الى رودلف لانها رغبت في استمالته اليها لما سمعته عن شدة بأسه ليكون لها نصيراً وقت الملمات وقالت له

— ماذا تأكل ياسيدي ؟

— سلي السفاح فهو يطلب وانا انفق

فالتفتت بونيس الى السفاح وقالت له

— ماذا تطلب لكم انتم الثلاثة ؟

— آتينا بزجاجتين من الخمر وثلاثة ارغفة وثلاثة اطباق من الاورليكان « وهو خليط من فضلات الاطعمة »

— ما زلت تحب بطنك وتحسن انتقاء الاطعمة

ثم التفت السفاح الى العذراء وقال لها

— اما جئت بعد يامغنية ؟

— لا ياسفاح

فقال لها رودلف

— اتريدين طعاماً اخر غير الاورليكان يابنيتي ؟

— لا . اشكرك لست جائعة

فضحك السفاح وقال لها

— لماذا اراك منكسة الرأس ولا تنظرين الى استاذي اخائفة انت من ان تقع عينك على عينه ؟

فاحمر وجه المغنية وظلت مطرقة . وبعد هنيهة اتت بونيس بالنبيذ والطعام وبعد انصرافها قال السفاح لرودلف

— نعم أن ضرباتك علمتني الرقص ولكنني على رغم ذلك أعد نفسي سعيداً بالتعرف بك

— الأنك وجدت الاورليكان لذيذاً ؟

— نعم هذا من جهة . ومن جهة اخرى لأني اتمنى ان اراك تأخذ بثاري وتعلم معلم المدرسة الرقص اذ انه يرقصني دائماً

— انك غريب الاطوار ياهذا . اتظن انني لسواد عينيك اهجم على معلم المدرسة كالكلب البولدوج ؟

— لا ولكن هو يثب عليك متى سمع الناس يقولون انك أشد منه بأساً

— ما زال لديَّ كثير من الحلاوة التى ذقتها فيمكنني ان اشبعه اذا اراد

وبعد سكوت وجيز اردف

— ما اشد هذا البرد الا تشرب معي زجاجة خمر بالسكَّر ؟

فاجابه السفاح — لا بأس من ذلك

قال روداف — ولكي يتم التعارف فيما بيننا يذكر كلٌّ منا حقيقة امره

فاجابه السفاح — انا الاجهر السفاح . قضيت ردحاً من الدهر في السجن ومهنتي الآن استخراج الاخشاب التى

تأتي على شكل أطواف عائمة على نهر السين فيرقصني البرد في الشتاء ويشويني القيظ في الصيف . واقضي خمس عشرة ساعة في الماء كانما جسمي مؤلف من نصف رجل ونصف ضفدع . هذه هي حقيقة أمري

قال ذلك ورفع يده اليسرى الى جبينه مسلما على رودلف سلاماً عسكرياً واردف

— وانت ياسيدي لم اتشرف برؤيتك في اخي قبل ليلتنا هذه. فاسمح لي أن أقول لك بكل حرية انك دخلت هذا الحي كأنك داخل بيت ابيك. أو كأنك فاتح من الفاتحين داخل بلاداً اخذها بحد السيف. يالله من ذلك الهجوم الذي بادرتنا به كانما انت صاعقة منقضة من السماء عقبها تلك الضربات الشديدات التي وقعت على رأسي كالمطر المنهمر . . انني لا اتمالك عن ذكرها والاعجاب بسرعتها . . . ولكن خبرني ياسيدي اما لك مهنة اخرى غير تعليم السفاح الرقص؟

— أن مهنتي النقش على المراوح واسمي رودلف

— النقش على المراوح ؟ ولعل هذا هو السبب في بياض يديك ؟ وما يحملك على المجي الى هذا الحي وهو حي اللصوص

والقتلة المجرمين الذين على شاكلتي وانت من الصناع المفيدين الذين يقيمون في الاحياء الجميلة ؟

— اتيت هذا الحي لرغبتي في معاشرة اهله

فهز السفاح رأسه هزة ارتياب واجاب

— لقد رأيتك في دهليز بيت براروج . وفي ذلك الكفاية . . . تقول انك لا تعرفه ؟

— ما بالك ياهذا . امرادك أن تقلقني بتكرار ذكر براروج ؟ حرقته نار جهنم .

انك تخطئ ايها الاستاذ اذا اسأت الظن بي وخامرك ريب فيَّ . واذا شئت أقص عليك حكايتي ولكن على شرط أن تعلمني فن الملاكمة الذي ذقت حلاوته اذ لا بد لي من هذا العلم

— رضيت بالشرط ياسفاح . وحين تنتهي من حكايتك تقص علينا المغنيه حكايتها ايضاً

فقالت المغنية — لا بأس من ذلك غير أن حكايتي قصيرة

قال السفاح . — وانت ايضاً تقص علينا حكايتك

ياصاحبي رودلف

— لك ما شئت وها انا ابداء .

قال السفاح — قلت انك تنقش على المراوح وهي مهنة حسنة وكم تربح منها ؟

أجاب رودلف ـ ان ربحي في فصل الشتاء لايتجاوز الثلاثة فرنكات في اليوم . ولكني في فصل الصيف أربح أربع فرنكات لان النهار يطول

— وأظنك تكثر من البطالة؟

— صدقت انني لا أرغب في العمل طالما يوجد في جيبي فلس واحد . وليست نفقاتي قليلة فاني أنفق قرشين كل ليلة أجرة نوم فقط ..

فوضع السفاح يده على قبعته علامة للاحترام وأجاب

— عفوك ياسيدي هل تنفق أنت قرشين على نومك كل ليلة؟

فابتسم رودلف حين قال له السفاح (ياسيدي) اذ أدرك أنه يريد بذلك التهكم ثم قال

— و نني ما خلا أجرة النوم أدخن بقرش . وأفطر بقرش

وأتعشى بثلاثة قروش. وأشرب خمراً بنصف قرش. فيكون مجموع ما أنفقه في اليوم سبعة قروش ونصف. ولا أعمل الا جانباً من الاسبوع وأقضي الجانب الآخر في اللهو ومعاقرة بنت الحان اذ ليس لي من ذوى القربى من يثقل كاهلي فان الهواء الاصفر قد أبادهم عنه بكرة أبيهم

فقال له السفاح

— وماذا يدعى صاحب المعمل الذي تشتغل فيه؟

— يدعي المسيو جوتيه ويقيم في شارع بوردنيه وهو حمار قليل الادراك. غليظ القلب بخيل خرب الذمة. ويفضل ان تفقاء احدى عينيه على أن ينقد الفعلة أجورهم. هذه هي علاماته المميزة فاذا تاه وعثرت عليه ياسفاح فلا تعده الى بيته بل دعه يذهب لجهنم الحمراء. وقد تعلمت هذه المهنة في محله قبل ان اتجاوز الخامسة عشرة وما زلت حتى اليوم أعمل في هذا المحل. وقد ساعدني الحظ في القرعة فلم أدخل الجندية واسمي رودلف دوران. وهذه حكايتي كلها

فنظر السفاح الى المغنية وقال لها

— الآن دورك يامغنية. وأقص أنا حكايتي في الآخر

لتكون فاكهة الحديث

الفصل الثانى

«المغنية والسفاح»

قال السفاح للمغنية

— قصي علينا حكايتك من أولها

فقال رودلف

— نعم ابدأي بتاريخ أهلك

قالت المغنية :—انني لا أعرف لي أهلاً

فبدت الدهشة على وجه السفاح وقال للمغنية :

— انا اذن من اسرة واحدة لانني انا أيضاً لم أعرف أهلي

— أنت أيضاً ياسفاح ؟

— نعم انني لقيط من لقطاء أزقة باريس مثلك يا بنيتي

فقال رودولف

— ومن رباكِ يامغنية؟

— لا أعلم ياسيدي . وغاية ما أتذكره انى كنت وأنا بنت ست سنين عند عجوز عوراء ذات أنف أعقف كالمنقار وعين واحدة مستديرة ولذلك كانوا يلقبونها بالبومة

فضحك السفاح حتى بانت نواجزه وقال وهو يقهقه

— انني أعرف تلك البومة وكأني أراها أمامي الآن

واردفت المغنية :— كانت تلك العوراء تكلفني ببيع سكر الشعير على الجسر الجديد وهي وسيلة للتسول وطريقة من طرق الشحاذة . . . وكانت تمنع عني الاكل وتضربني حتى تدميني ان أتالم أربح قرشين على الاقل في يومي

— قال رودلف أواثقة أنتِ من ان تلك العجوز لم تكن أمك ؟

— نعم انني على ثقة تامة من ذلك لان العجوز نفسها كانت تعيرني انني يتيمة لا أب لي ولا أم وانها وجدتني على مزبلة في أحد الازقة .

قال السفاح

— كانت العجوز اذن تعلمك الرقص على طريقة استاذي حين كنت لا تربحين قرشين في يومك ؟

— نعم وبعد « العلقة » كنت أنام على كيس القش فيؤلمني البرد من ألم أشد شديداً

أجابها السفاح

— ولا عجب في ذلك فان ريش الحقول لا يدفيء مثل ريش النعام

— وفي كل صباح كانت العوراء تفطرني ضرباً مثلما تعشيني ثم ترسلني الي مونفوكون لاتيها بدود وتجمله طعماً للسمك لانه كان لها دكان عند جسر نوتردام تبيع فيه كل أدوات صيد السمك. وأنتما تعرفان المسافة بين زقاق موتيليري الذي كنت اسكنه مع البومة وبين مونفوكون فتصوروا ما كنت اقاسيه في قطع تلك المسافة الشاسعه وأنا بنت سبع سنين اتضور جوعاً وارتعش برداً

فقال لها السفاح وهو يقدح الصوانة بزناده ليشعل غليونه

— ان تلك الرياضة كانت سببا في اعتدال قامتك ومرونة أعضائك فلا تجوز لك الشكوى يا بنيتي

— قالت المغنية: وحين أعود بالدود قرب الظهر وأنا خائرة القوى تعطيني العوراء كسرة من الخبز

فقال لها السفاح وهو يمص غليونه مصاً متتابعاً له صوت كصوت قبلات الحبيب

— ان قلة الاكل كانت سبباً في نحول خصرك فصار

يشبه خصر النحلة فلا يجوز لك أن تشكي من ذلك أيضاً

ثم التفت الى رودلف وقال بدهشة

— ما ذا أصابك أيها الرفيق ؟ فاني أراك مفكراً كئيباً

العل ذكر شقاء هذه الفتاة أثر في فؤادك؛ لقد نال كل واحد

منا نصيبه من الشقاء

أجابته المغنية

— لاريب عندي في أن ما صادفته أنت من الشقاء

لا يعد شيئاً بالنسبة الى ما صادفته أنا

— ماذا تقولين ؟ .ماذا تقولين ؟؟ انك تهزين يافتاة .

فاعلمي أن نسبتك اليّ نسبة السلطانة الى العبد الذليل .واقل

اوجه التفضيل انك كنت تنامين على كيس من القش

وتأكلين كسرة من الخبز أما انا فكنت اتوسد الغبراء في

دهاليز افران الجبس التى عند كليشي لكي لا اموت برداً

وكنت آكل ما أجده في المزابل من جزوع الكرنب

وقشور الأثمار وفضلات البقول البالية

اجابت المغنية

— أن الرجال اقوى من النساء واصبر على الشقاء .

والذي زاد طينتي بلة انني كنت ضئيلة الجسم ضعيفة القوى

اظللت تذكرين ذلك؟

— انني لا انساه طول حياتي. فحين كانت العوراء تضربني اقع على الارض لاول ضربة فتبدأ في عجني بيديها ورجليها وتقول بصوت مرتجف من الغضب: «تبا لك ما اضعف قواك انك لاتحملين اكثر من لطمة واحدة. وكانت تدعوني بيجريوت وهو اسم اختلقته

قال السفاح

— وبعد أن تعودي بالدود من مونفوكون ماذا كنت تصنعين ؟

— كانت العوراء ترسلني للتسول حتى يجن الليل. وكانت عند المساء تجلس بالقرب من الجسر الجديد وتقلي بطاطس بالزيت وتبيعه للمعوزين. وعلى رغم تضوري من الجوع وقت الغروب لم تكن تعطيني كسرة من الخبز. واذا غضب الله علىَّ وقلت لها اني جائعة كانت تضربني وتقول لي: «لا تأكلين الا اذا تصدق عليك الناس بقرشين» وكان الضرب يزيدني

ألما على ألم الجوع فابكي بكاء شديداً حتى تسح دموعي وكانت العوراء تعلق في عنقي طبقاً صغيراً من القش تضع عليه سكر الشعير وتوقفني عند الجسر الجديد حيث كنت ارتجف برداً في زمن الشتاء وعلى رغم ألم البرد والجوع كان يتغلب على النعاس فأنام وأنا واقفة. ولكن لا يطول نومي كثيراً لان العوراء كانت ترفسني بنعلها لتيقظني وأظل هكذا واقفة على الجسر حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً وطبق السكر معلقاً في عنقي وكثيراً ما كنت أبكي وأنتحب . وكان عابرو السبيل حين يرونني على تلك الحال تأخذهم الشفقة عليّ فيجزلون لي العطا حتى كان مجموع ما يتصدقون به عليّ في الليلة غرشان وأحياناً ثلاثة غروش فأعطيها للعوراء . ولكي تتحقق هذه الحيزبون من انني لا أحفظ لنفسي جانباً مما اجمعه من احسان الناس كانت تفتش كل جيوبي وثنايا ثوبي وتفتح فمي وتنظر فيه

قال السفاح

— مهما يكن من الامر فان الثلاث غروش التي كنت تجمعينها احياناً مبلغ لا يستهان به

— هو ما تقول ولذلك رأت العوراء من مصلحتها ان

تضربني كل يوم ضرباً مؤلماً قبل ان تأخذني الى الجسر لتحملني على البكاء امام عابري السبيل فتزداد ارباحها

— ان عملها هذا يدل على اصالة الرأي مثلما يدل على غلاظة القلب ولكن اما كنت تتشوقين الى الا كل من السكر الذى كنت تحملينه ؟

— أترتاب من ذلك ياسفاح وهو أمر طبيعي نعم كنت أتمنى أن آكل شيئاً من ذلك السكر ولكني ما ذقته الا مرة واحدة وكان ذلك سبباً في عذابي ثم خلاصي وذلك انني في ذات يوم بينما كنت عائدة من مونفوكون أحاطت بي زمرة من صغار الفتيان فضربوني وسرقوا مني الطبق.

فعدت الى البيت وأنا عالمة بما سينالني من العقاب فاكلت ضرباً بدلا من الخبز. وعند المساء قبل أن ترسلني العوراء الى التسول عند الجسر لم تكتف بضربي لتبكيني بل صارت تنتف شعر رأسي من عند صدغي وهو مكان شديد الاحساس فكنت أصيح كالمجنون لشدة الالم والدم يسيل على وجهي والسبب في ذلك لانني لم أجمع في اليوم السالف من الصدقة ما كان مفروضاً عليّ جمعه

فاكفهر وجه السفاح وقطب حاجبيه وضرب المائدة بقبضته الضخمة وقال بلهجة تنم عن شدة التأثر

— لعنة الله على تلك الحيزبون لقد بالغت في التوحش ان ضرب الأطفال يعد أمراً فظيعاً فما بالكم بتعذيبهم مثل ذلك العذاب الاليم . . . لعنة الله عليها

وكان رودولف يصغي الي حديث الفتاة ولما رآى ما ابداه السفاح من علامات الانفعال والتألم أخذته الدهشة وقال له

— ماذا أصابك ياسفاح ؟

— ما ذا أصابني ؟ ماذا أصابني ؟ كيف ! ! ألم تتأثر أنت مما قالته المغنية . أو لم تسمع كيف كانت تلك العوراء الضارية تعذبها ؟ ألعل قلبك قاس مثل قبضتيك

فلم يجبه رودولف بل قال للمغنيه

— اتمي حكايتك يابنيتي

— وبعد ان نتفت العوراء جانباً من شعر صدغي حملتني طبق السكر وذهبت بي الى الجسر واتخذت لها مكاناً أمامي لتقلي فيه البطاطس وكانت في كل آونة تهددني وتريني قبضتها الغليظة . وكان الجوع أخذاً مني لانني لم آكل شيئاً منذ

الامس فتخلى الله عني وأضاع رشدي فأخذت قطعة من السكر وأكلتها.

— برافو يابنيتي !!

— ثم أكلت قطعتين

— برافو برافو !!

— وكانت على مقربة مني بائعة برتقال ترقبني فقالت للعوراء « ألا ترين يابومة كيف ان بيجريوت تأكل رأس مالك ؟ »

فقال لها رودولف

— وكيف تخلصت من هذه الورطة يامسكينة؟

— انى رأيت الاهوال بسبب تلك الهفوة. فقد رأتني العوراء وأنا أأكل السكر ولكن لم يكن في امكانها ضربي للحال لانشغالها بقلي البطاطس

فضحك السفاح حتى استلقى على ظهره وقال

— في الحقيقة ان مركز الحيزبون كان حرجاً أو بالحري كان مركزها الحربي صعباً

— وأخذت العوراء تهددني من بعيد بالشوكة الحديدية

الغليظة التي تخرج بها البطاطس من المقـلاة . . . ولما انتهت من عملها أتت اليّ وامسكت بيدي من دون ان تفوه بكلمـة ولا أدري كيف لم أمت حينئـذ رعباً . ولا أزال أتذكر ذلك الحادث كأني أراه الآن امام عيني .

كان ذلك اليوم عيـد رأس السنة وكان بائعو الالاعيب منتشرين على جانبي الجسر الجديد ولا يخفى ماتجـده الفتيات من الفرح في مشاهدة تلك العرائس الصغيرة

فقال لها السفاح

— ألم تحصلي على واحدة من تلك العرائس يا مغنيـة ؟

— رباه !! كيف احصل على ذلك ومن كان يمن عليّ بعروس ألعب بها . . ولكن مالنا ولهـذا دعني ياسفاح أتم حكايتي .

قلت ان ذلك اليوم كان عيد رأس السنة وكان البرد قارصاً ولم يكن عليّ من الدثار سوى ثوب واحد رقيق خلق لا فوقه ولا تحته . وكنت منتعلة قبقابا من الخشب ولا جوارب في رجليّ

وحين أمسكت العوراء بيـدي بلل ثيابي عرق الخوف . والذي زادني رعباً هو ان العجوز لم تسخط وتصخب

وتلعن مثل عادتها بل كانت تزمجر كالوحش الجائع . وبعد ان قبضت على يدي صارت تسرع في مشيتها. تسرع . تسرع حتى اضطررت ان اركض لالحق بها .

وبينما أنا أجري أفلت القبقاب من احدى رجلي فلم أجسر على أخبار العوراء بذلك وظللت اجري وادوس الحصى برجلي العارية حتى تجرحت ولما وصلت الى البيت كان الدم يسيل منها فصرخ السفاح صرخة غضب وضرب المائدة بقبضته وقال

— تباً لتلك الكلبة العوراء أن قلبي يتفطر حين اتصور هذه الفتاة تجري وراء تلك العجوز اللعينة والدم يسيل من قدمها

واستطردت المغنية حديثها فقالت

— ولما صعدنا الى البيت اوصدت العوراء الباب فجثوت على ركبتي عند قدميها وتضرعت اليها ان تغفر الذنب الذي ارتكبته في أكل السكر . فلم تجبني . وفتحت درج خزانة هناك واخرجت منهُ كماشة من حديد

فصرخ السفاح قائلا

— كماشة !! ماذا ارادت أن تصنع بالكماشة ؟

— قال رودلف

— لعلها ارادت أن تضربك بها ؟

اجابت المغنية وهي ترتعش لتلك الذكرى

— لا . لا اتت بالكماشة لتخلع ضرساً من اضراسي

فحين سمع السفاح ذلك صرخ صرخة اهتزت لها اركان الخمارة واتبعها بوابل من اللعنات فشخص اليه كل من كان في الخمارة واخذتهم الدهشة فقال له رودلف

— ماذا اصابك ياهذا ؟

— ماذا اصابني !! تسألني : ماذا أصابني اني والله اذبح تلك العوراء اللعينة اذا ظفرت بها

ثم وجه حديثه الى المغنية وقال وهو شاهر سكينة

— اين هي ؟ دليني اين هي لا ذهب وأغمد هذه السكين في قلبها وقبل أن تجب المغنية السفاح قال لها رودلف

— وهل خلعت ضرسك يا بنيتي تلك العوراء القاتلة ؟

— نعم يا سيدي ويصعب عليك تصور ما كابدته من الألم . فانها امسكت رأسي بين ركبتيها كما تمسك قطعة الخشب بالملزمة وظلت تزعزع ضرسي طوراً بالكماشة وطوراً باصابعها القوية حتى اقتلعته

فصرخ السفاح ووضع يديه على رأسه وقال بصوت يتهدج لشدة الغضب

— لعنة الله على تلك العاتية كيف طاوعها قلبها على هذا العمل الفظيع ! !

قال رودلف

— وكيف امكنك الهرب من تلك العوراء اللعينة ؟

— انني في الغد عوضاً عن ان اذهب الى مونفوكون هربت الى جهة الشانزيلازيه . وعزمت على أن أظل اجري حتى أصل الى اخر العالم خوفاً من الوقوع مرة ثانية في قبضة العوراء . فظللت اجري . اجري . اجري حتى انتهيت الى احياء مجهولة لا أعرفها .

ولما جن الليل دخلت مستودعا للاخشاب وجدته هنالك فبت فيه ليلتي تحت الواح مسندة الى الحائط ولم اشعر ببرد ولو كان لديَّ في تلك الليلة كسرة خبز أسد بها الرمق لكنت عددت نفسي سعيدة

قال السفاح :- مثلما كنت أعد نفسي سعيداً حين ابيت في افران الجبس

فعادت الفتاة وقالت

— وفي صباح الغد لم اجسر على الخروج من مستودع الاخشاب لتصوري أن العوراء تبحث عني في كل مكان لتقلع بقية اضراسي وأنها تجدني لا محالة اذا خرجت من مخبأي

فقال السفاح

— كفى . كفى . لا تذكري لي تلك العوزاء الشريرة فان حديثك أصعد الدم الى رأسي . وقد فهمت مما ذكرت انك كنت في شقاء مهلك ذقت منهُ الامرين . . . وانني الآن نادم على تهديدي اياك بالضرب وتخويفك . . على انني وايم الحق ما كنت ناوياً على ضربك

— ما كان يمنعك عن ضربي وليس لي من يدافع عني ؟

— أن نفس هذا السبب الذي تظنينه يحملني على ضربك هو الذي يمنعني عن ذلك . أجل انني لا اضربك لأن ليس لك من يدافع عنك . أو بالحري لم يكن لك من يدافع عنك . اذ قد وجدت الآن مدافعاً وهو المسيو رودلف . وقد شهدت كيف انه علمني الرقص .

قال رودلف موجها حديثه للمغنية

— اتمي حديثك يا بنيتي . كيف خرجت من مستودع الخشب ؟

اجابت العذراء

— وفي الغد عند منتصف النهار وجدني صاحب المستودع في مخبأي فظن انني اريد سرقة اخشابه فذهب بي الى مركز البوليس فقلت للضابط انني متشردة لا مأوى لي فارسلني الى السجن . وفي الغد ارسلوني الى المحكمة فبعد أن نظر القاضي في امري حكم بادخالي اصلاحية الاحداث وابقاي سجينة فيها حتى أبلغ السادسة عشرة . واني لا ازال حتى الساعة اشكر القاضي على ذلك الحكم العادل

ولما دخلت الاصلاحية عجبت حين رأيتهم يطعموني ولا يضربوني فعددت ذلك السجن نعيما بالنسبة الى بيت العوراء ثم انهم علموني الخياطة . ولكنني لسوء الحظ كنت كسولة وكلما سنحت لي الفرصة اكف عن الخياطة واغني ولا سيما حين كنت أرى الشمس . ولا اذكر انني رأيت مرة شعاع الشمس في ساحة السجن وأمكنني الامتناع عن الغناء... وكان يأخذ مني السرور أحيانا حين أتصور انني لست سجينة

وكان الاحداث المسجونون يطربون لسماع صوتي فلقبوني بالمغنية وما زلت ادعى كذلك حتى اليوم . ولم يعد أحد يذكر اسمي الحقيقي وهو بيجر يوت .

ولما بلغت السادسة عشرة خرجت من السجن فوجدت عند بابه صاحبة هذه الخمارة فعرفتني لانها كانت تزور رفيقات لي من المسجونات وكانت حين تراني في السجن تعدني بانها تجد لي عملا ارتزق منه اذا ذهبت الى خمارتها حين خروجي

فقال السفاح

— نعم . نعم لقد تذكرت الآن . . .

فقالت المغنية

— ولما رأتني بونيس صاحبة هذه الخمارة بشت في وجهي وقالت لي : « اذا أقمت في خمارتي ألبسك ثيابا جميلة وأطعمك أطعمة لذيذة فتصبحين سعيدة » غير انني خامرني الشك وأسأت في بونيس الظن ورفضت ما عرضته عليّ وقلت في نفسي : « انني أحسن الخياطة ولديّ مئتا فرنك . . . وقد قضيت ثماني سنين في السجن أفلا يحق لي ان أتمتع بالحرية بضعة أيام ؟ وانني في عملي هذا لا أضر بأحد .. ومتى أنفقت

قال رودلف

— هكذا اذن انفقت كل ما كان لديك من النقود في النزهة في الخلاء

فهل تحبين الخلاء الى هذا الحد يابنيتي ؟

— نعم ياسيدي ان كل مطامعي تنحصر في سكنى الخلاء. أما الضحوكة فانها تفضل سكن باريس والنزهة في شوارعها

فقال لها السفاح

— ألم تبق جانباً من نقودك ريثما تجدين عملاً ؟

— نعم أبقيت خمسين فرنكا . ولكن اتفق انني عرفت امرأة فقيرة تدعى لورين كنت أكلفها بغسيل ثيابي وهي على جانب من الصلاح والبساطة وكانت اذ ذاك حاملاً والفقر يضطرها الى العمل نهاراً وليلاً للحصول على القوت ومازالت تجهد قواها حتى مرضت وكانت حينئذ على وشك الولادة فطردها صاحب الغرفة التي كانت تأوي اليها لانها عجزت عن دفع أجرتها . ولحسن حظها قابلتها في نفس اليوم الذي طردت فيه فاويتها الى غرفتي ثم استأجرت لها غرفة في جواري فسرت بذلك سروراً عظيما اذ انها وجدت سريراً تستريح

عليه بعد الولادة . وفي مدة النفاس أسعفتها بما كان باقياً لدي من النقود حتى أمكنها استئناف عملها

فقال رودلف

— وما ذا فعلت بعد ان أنفقت ما كان باقياً لديك من النقود على المسكينة لورين وولدها ؟

— بحثت عن عمل ولكن بعد ان سبق السيف العزل وكنت أظن باديء بدء اني لا أبحث طويلا لاجد عملا لانني كنت أحسن الخياطة فأخطأ ظني

وأخذت أبيع ما كان عندى من الثياب شيئاً فشيئا وأستعين بثمنها ولما لم يبق لي ما أسد به الرمق طردني صاحب الغرفة التي كنت آوى اليها فخرجت هائمة على وجهي ولا أدري أين أقضي ليلتي وكان قد مضى عليّ يومان لم أذق فيهما طعاماً

ولحسن حظي جمعتني الصدفة في ذلك اليوم بصاحبة هذه الخمارة لانها كانت تعرف غرفتي وظلت تحوم حولي منذ خروجي من السجن لتستغويني فلما عرضت علي أن تأويني الى خمارتها هذه لم يسعني الا الرضى لاني كنت على آخر رمق

لشدة الجوع ولم أكن أعي ما أفعل ثم انهم سقوني خمراً وكان ما كان

قالت ذلك وسترت وجهها بيديها

فتأثر رودلف لمقال الفتاة وقال لها بصوت ملؤه الحنان والتعطف .

— وكم مضى عليك من الزمن وأنت مقيمة في هذه الخمارة؟

— منذ ستة أسابيع

قال رودلف

— يلوح لي يابنيتي ان قد تملكتك الكآبة بعد قص حكايتك علينا ... فأجابته المغنية بصوت حزين

— ويلاه ياسيدي!! انني لم أسلك قط في حياتي مثل هذا المسلك

فقال لها السفاح بلهجة التهكم

— لعلك آسفة على انك لست خادمة مطبخ في أحد المطاعم القذرة . أو راعية خنازير عند قوم أحط من الخنازير

فتنهدت تلك التعسة تنهداً عميقاً وأجابت

— ان الانسان يجد بعض التعزية في سلوك السبيل

القويم والابتعاد عن العار مهما عانى من الشقاء في ذلك السبيل فأغرب السفاح في الضحك وأجابها

— ما أصغر عقلك ! ! هل كان يجب عليك أن تسلكي سبيل الحكمة وتكوني في مصاف القديسات الطاهرات لتشرّي في قدر والديك اللذين لا تعرفينهما ؟

— ان والديّ القياني على قارعة الطريق كجرو من اجراء الكلاب . . . ولكن لعل لهما عذراً . فقد يجوز ان الفاقة حملتهما على ذلك العمل الفظيع ... فلا أنقم عليهما ولا اتذمر . ولكني أرى كثيرات من الفتيات أقل شقاء مني

قال لها السفاح

— اتظنين انك تعسة شقية ؟ ماذا تريدين اذن أن تكوني انك تحاكين فينوس في جمال وجهك وما زلت في فاتحة العمر اذ لم تبلغي السابعة عشرة بعد . ولك صوت شجي كصوت البلابل . ومع هذا كله تشكين وتتذمرين ؟ فماذا تقولين اذن متى أحنت الاعوام ظهرك وأخلقت جدتك وسودت وجهك وبيضت شعرك وأصبحت مثل بونيس صاحبة هذه الخمارة ؟ ؟

— انني لحسن حظي لا أصل الى هذا السن

— لعلك تجدين طريقة تمنع الشيخوخة

— لا وانما أجلي لا يطول لانني مصابة بسعال سيء الانذار

— انك كثيرة الهواجس وتتصورين أحياناً انك جثة باردة محمولة على نعش . فتباً لك ما أصغر عقلك !!

فقال لها رودلف

— هل تنتابك هذه الافكار مراراً؟

— أحياناً ... ولعلك أنت يامسيو رودلف تفهم هذه الامور اكثر من سواك فاصغ اليَّ : انني حين أذهب كل صباح لاشتري حليباً بالربع قرش الذي أخذه من بونيس وأرى بائعة الحليب تعود الى قريتها راكبة عربة صغيرة يجرها حمار أتمنى ان اكون مثلها وأقول في نفسي انها عائدة الى بيتها ذي الهواء النقي الطلق المحاط بالغيطان والاحراش حيث تجد أهلها ومحبيها . ثم أعود الى مسكني المظلم في هذه الخمارة حيث لا يرى الانسان أصابعه في رابعة النهار

فقال لها السفاح

— دعي عنك هذا التلون ولا تحاولي اقناعنا بانك شريفة

المبادئ

— ويلاه كيف يمكنني أن اكون شريفة يارباه ؟ ان هذه الثياب التي عليّ ليست لي بل لبونيس فضلا عن انني مديونة لها بثمن الاكل وأجرة النوم فلا يمكنني ان أبرح هذا المكان. وان أنا حاولت ذلك تقبض عليّ كانني سارقة .... فأصبحت ملكاً لها كأنما أنا قطعة متاع من امتعتها ولا بدّ لي لنيل الحرية من تسديد الدين الذي يثقل كاهلي

وما كادت المغنية تتم عبارتها حتى انتفضت كالعصفور بلله القطر وترقرق الدمع في عينيها فكان كقطر الندى يرف على النرجس وشخصت عيناها الى الفضاء وشعرت بانقباض في صدرها وتملكتها الكآبة .

وكان رودلف يصغي الى حكايتها باهتمام شديد وهو يفكر في أمرها وكيف ان يد الاقدار الفت بها في باريس وهي ابنة ست عشرة سنة ولا قريب لها ولا حبيب ولا نصير ولا مجير حتى أنهكها الشقاء ومزقتها انياب الفقر واخنى عليها الدهر بكلكله .

وقد حدت هذه الافكار برودلف الى ذكر ابنة له

ماتت وهي في السادسة من عمرها ولو انها بقيت على قيد الحياة لكان عمرها ست عشرة سنة ونصف مثل المغنية تماماً

وهذه الذكرى ذادته عطفاً وحنانا على المغنية بعد الذي سمعه من تاريخ شقائها

وفي تلك الاثناء خرج احد الزبائن من الخمارة وقبل ان يغلق الباب رأى رودلف خلفه ذلك الفحام الطويل القامة الاسود الوجه الذي عرفه القارئ .فأشار اليه اشارة أظهر له فيها استياءه من اصراره على القيام في ذلك المكان لحراسته غير ان الفحام لم يكترث لذلك وظل واقفاً مكانه عند مدخل الخمارة

وازدادت المغنية كآبة وكانت جالسة الى جانب الحائط وظهرها مسند اليه ورأسها منحن على صدرها وعيناها الزرقاوان بجولان في ارجاء الخمارة فكأن أفكاراً سوداء كانت تشغل مخيلتها

وكانت كلما وقع بصرها على رودلف يرتد كليلاً وهي لاتدري ما هو ذلك التأثير الذي كان لهذا الرجل المجهول عليها .

وصارت تشعر بانقباض وضيق صدر وهي في مجلـ ـ ندمت

على اطلاعه على حقيقة أمرها وتاريخ حياتها الشقيـه أما السفاح فعلى عكس ذلك كان وجهه يطفح بشراً ولم يذق غيره الاورليكان فاكله كله.. وبعد ان كرع ما كانوا طلبوه من الخمر ازداد زهواً وعربدة لان الخمرة تحل عقدة اللسان وفارقه الخجل الذي كان استولى عليه حين صرعه رودلف وقهره على أمره وأصبح له استاذاً ولا سيما بعد الذي رآه من كرم أخلاق هذا الرجل. وقد أعجب السفاح بقوة رودلف العضلية اعجاباً جعله ينظر اليه نظر الصعلوك الى الجبار فصار يخشاه ويجل قدره

فتجرد السفاح عن رذيلة الحقـد ومفاخرته في كونه لم يسرق قط طول حياته صفتان تدلان على انه لم يبلغ منتهى الخشونة

ولم يخف ذلك على رودلف فبات ينتظر حكاية السفاح بذاهب الصبر

ولم تكد المغنية تنتهي من سرد حكايتها حتى قال له

— قد أتى دورك ياسفاح وها نحن اليك مصغون

فكرع السفاح كأساً من الخمر وقال

— لقد وجدت انت يامغنية في اول نشأتك من ينظر في امرك وارسلت لك يد المقادير تلك العجوز العوراء فالتقطتك وآوتك حتى اليوم الذي دخلت فيه سجن الاحداث . اما انا فلا اذكر انني نمت ليلة واحدة على فراش قبل ان بلغت التاسعة عشرة من عمري وذلك ايام دخلت في الخدمة العسكرية

فقال له رودلف

— هل خدمت في العسكرية ؟

— نعم خدمت ثلاث سنين وساجي على ذكر ذلك فيما يلي . قلت انني لم انم قط على فراش حتى بلغت التاسعة عشرة وكنت أأوي الى دهاليز افران الجبس واقبية المنازل الخربة في كليشي ومقالع الحجارة في مون روج فكان لي كما تريان قصور في باريس وقصور في الضواحي .

— وماذا كانت حرفتك ؟

— غاية ما أذكره يا استاذي انني كنت من المتشردين في أول عهدي ثم دخلت في خدمة رجل يجمع الخرق البالية من الازقة فكان يوسعني ضرباً .

واول حرفة احترفتها هي مساعدة الجزارين على ذبح

الخيل في مون فوكون . وكان عمري اذ ذاك عشر سنين . واول ما شرعت في ذبح الخيول شعرت ببعض التأثير ولكن لم يمض عليَّ شهر واحد حتى زال ذلك التأثير وأصبحت على عكس ما كنت عليه من قبل اي انني صرت اجد لذة في الذبح. ولم يكن جزار من الجزارين لديه سكاكين تعادل التي كانت عندي في المضأ فكنت كلما نظرت اليها أشعر بميل الى استعمالها في غير مهنتي. أما الاجرة التي كنت اقبضها على ذبح الخيول ؛ فهي قطعة من لحم حصان مريض ذبح بعد موته أما الخيول التي كانت تذبح وهي حية فكانت تباع لحومها الى أصحاب المطاعم ولا سيما في حي مدرسة الطب فيقدمونها الى ذبائنهم كانها لحوم ثيران أو لحوم غنام أو طيور بحسب رغبة طالبيها .

فقال له رودلف

— وما هو اسمك . كيف كانوا يدعونك ؟

— كنت اذ ذاك القب بالابرش لأن شعر رأسي كان لشدة شقرته يكاد يكون ابيض كخيوط الكتان

— الا تذكر لنا شيئا عن والديك ؟

— كان والداي يعادلان بشهامة النفس والديَّ المغنية أما مسقط رأسي فهو زقاق من الازقة

— هل لعنت والديك لانهما نبذاك ؟

— وما الفائدة من لعنهما ؟ نعم انهما جنيا عليَّ في ايجادي ولو انهما صنعاني كما ينبغي للوالدين أن يصنعا اولادهما اعني لو انهما جعلاني صلداً كالصخر لا يؤثر بي جوع ولا برد ولا عطش لهان عليّ الامر لان لاميل لي للسرقة

— هل اصابك جوع و برد ولم تسرق ياسفاح؟

— نعم ما سرقت قط مع أني قاسيت من الشقاء ما لا يصبر عليه غيري فكنت اذا مسني الجوع ولم أجد ما اسد به الرمق اصوم يوماً ويومين صابراً على ألم الجوع مفضلا هذا العذاب على سرقة كسرة خبز

— اكان رادعك عن السرقة خوفك من السجن؟

فضحك السفاح حتى بانت نواجزه واجاب

— ايمكن ان يمتنع الجائع عن سرقة الخبز خوفاً من ان يجده ! . كنت اصبر على ألم الجوع مع علمي انني لو سرقت

اجد القوت في السجن . فلم يكن اذن خوفي من السجن هو رادعى عن السرقة بل كان الرادع كرهي لهذه الرذيلة

فسر روداف بهذا الجواب الحسن ومدّ يده ليصافح ذلك الرجل الذى احتفظ بفضيلة الشهامة على رغم ما تحمله من الشقاء . فنظر اليه السفاح نظرة تنم عن الدهشة والاحترام ومدّ يده متردداً لشدة الخجل حتى لم تكد اصابعه تلمس يد رودلف كانما شعر أن ما بينه وبين ذلك الرجل الغريب هوة لاقرار لها . وبعد المصافحة قال له رودلف

— يعجبني أن اراك شجاعا عزيز النفس على رغم شقاك .

فاخذت الدهشة من السفاح واجاب

— شجاع عزيز النفس !! انا ؟؟ انك تمزح ياصاح

فاجابه روداف بلهجة الجد

— نعم أن الذي يعضه ناب الجوع ولا يسرق كسرة خبز وهو قادر على ذلك يعد في مذهبي شهماً عزيز النفس

فاطرق السفاح مفكراً ثم قال

— نعم . . . حقيقة . . . قد يمكن أن يكون حكمك هذا عادلا

— اتعجب لما قلته لك !

— واي عجب ! ! لان الناس ينظرون اليَّ نظرهم الى الكلب الاجرب. ولم اسمع قط من احدهم ما سمعته منك.. والاعجب من ذلك اني شعرت بتأثير غريب في نفسي حين قلت لي اني شجاع عزيز النفس

ثم نكس السفاح رأسهُ الى الارض وتاه في عالم الافكار فقال له رودلف

— بماذا تفكر ياسفاح ؟ مابك ؟

— والله لاأدري مابي . . غير ان كلامك أحدث في فؤادي اضطراباً وقد سررت به أكثر مما كنت أسر لو قيل لي انني أقوى من الهيكل ومعلم المدرسة وأشد مراساً... وسروري هذا غريب لم أشعر بمثله قط . . . ومما لا ريب فيه ان كلامك هذا . . . والضربات التي ذقت حلاوتها حين علمتني الرقص . . ودعوتك اياي للعشاء على نفقتك . . .

ولم يتم السفاح عبارته كأنما عجز لسانه عن التعبير عن افكاره وبعد سكوت وجيز هتف قائلا .

— كفى كفى .. لقد أسرتني بكرم أخلاقك وجعلتني رهين اشارتك طول حياتي فأيقن بانني أفديك بدمي اذا قضت الحال

فتكلف رودلف عدم الاكتراث لكي لا يظهر على وجهه ماألم به من التأثر من كلام السفاح وقال له

— وهل ظللت زمناً طويلاً تتعاطى مهنة ذبح الخيول ؟

— نعم . وكنت في بادىء الامر اشفق على تلك الحيوانات الضئيلة الطاعنة في السن التي لا تدافع عن حياتها. ولكن لما بلغت السادسة عشرة وغلظ صوتي لم تعد تأخذني الشفقة ساعة ذبح الخيول بل على عكس ذلك صرت أشعر بدافع الى ذلك العمل وأجد فيه لذة غريبة. ولم تعد تطيب لي الحياة بدونه ... وكانت تسكرني رائحة الدم ساعة الذبح فلا أعود أشعر بجوع ولا نصب . وأظل أذبح . أذبح أذبح .. فكنت تتمنى ان تراني وقت العمل ... لم أكن ألبس سوى سراويل (بنطلون) من الكتان. واترك باقي جسمي عارياً واقف شاهراً سكيني ومن حولي خمسة عشر حصاناً ينتظر كل منها نوبته

وحينما كنت أشرع في الذبح يختنق رأسي فأشعر بطنين في أذني وتنسدل غشاوة حمرا امام عينيّ فأرى كل شيء أحمر. واذبح . واذبح واذبح حتى تكل ذراعي وتقع السكين من يدي ... ولا يمكنك ان تتصور ما كنت أشعر به من السرور فلو انني كنت من اصحاب الملايين لكنت ابذل نصف ثروتي لامارس حرفة الذبح

فقال له رودلف .

— لعل تلك الحرفة حببت اليك القتل وسفك الدماء !

— ربما كان ما تقوله هو الحقيقة . ولما جاوزت السادسة عشرة تزايد بي حب الذبح الى درجة الجنون حتى لم اعد احسن العمل وصرت اتمنى ان اذبح كل خيول باريس بضربة سكين واحدة . فطردوني من المذبح . فأردت الدخول في خدمة الجزارين لشغفي بحرفة الذبح فلم يرض بي احد ونظروا كلهم اليّ نظرة تنم عن الازدراء والسخرية

فاضطررت اذ ذاك الى البحث عن عمل آخر ارتزق منه فلم يفتح الفتاح عليّ بشيء وفي تلك الايام السوداء عضني ناب الجوع وتعودت الصبر والصيام

وكنت اذ ذاك قوي البنية شديد العضل فعرضت نفسي على احدى فرق الجيش وحين سألوني عن اسمي وعمري وشهاداتي اجبتهم: اما اسمي فهو الابرش . ولكي تعرفون عمري انظروا الى ذقني . وليس لديَّ من الشهادات سوى واحدة اخذتها من صاحب مقلع حجارة كنت من عماله وهاهي . ولما وجدوني اهلا للخدمة العسكرية اجابوا طلبي

فابتسم رودلف وقال له

— لو انك دخلت خدمة الجيش في زمن الحرب لكان هان عليك الوصول الى رتبة ضابط نظراً لما أنت عليه من قوة الجسم والشجاعة وحب الذبح

— نعم . نعم . كم كان حظي سعيداً لو أتاح لي الدهر خوض معامع الحرب لانني اتلذذ بذبح اعدائنا الانكليز والالمان أكثر من تلذذي بذبح الخيول والثيران . ولكنني لسوء حظي وجدت عوضاً عن الحرب. القوانين العسكرية الصارمة ومضض الامتثال لها

وفي ذات يوم هاج عليَّ غضب الجاويش لانني لم أسرع في الامتثال لاوامره فأمسكني من ذراعي ولكزني فازددت

عصياناً فدفعني فدفعته فأمسك بخناقي فأتحفته بضربة (بونية) فانتصر بعض الجنود للجاويش وتألبوا جميعهم عليّ وأوسعوني ضرباً فتولاني الغضب وصعد الدم الى رأسي واحتقنت عيناي فصرت أرى كل شيء أحمر. وكنت ساعتئذ في المطبخ والسكين في يدي فأخذت اطعن. اطعن. اطعن. يميناً وشمالا كما كنت انحر الحيول في المذبح. فقتلت الجاويش وجرحت جنديين جراحاً بالغة فكانت ثم مجزرة اصبت فيها ثلاثة رجال باحدى عشر طعنة. ثم احدى عشر طعنة تماماً. وخرجت من المعمعة والدم يقطر من يدي وثيابي. ثم ان السفاح نكس رأسه الى الارض وبدت على وجهه الكآبة ولزم السكوت

وكان رودلف يراقب كل حركاته وسكناته فقال له

— في أي شيء تفكر ياسفاح؟

— لا أفكر في شيء

واستأنف حديثه فقال

— ثم تكاثر عليّ الجنود وأحاطوا بي من كل جانب وشدوا وثاقي. ثم ساقوني الى المحاكمة فحكم عليّ بالاعدام

— وكيف امكنك الخلاص من القتل؟

— انهم عدّلوا حكم الاعدام واستبدلوه بالسجن والاشغال الشاقة خمس عشرة سنة . وقد فاتني ان اذكر لك انني في أول الخدمة العسكرية خلصت جنديين من الغرق في نهر المارن وكانت فرقتنا معسكرة اذ ذاك على ضفاف ذاك النهر . وأيام كانت فرقتنا في مدينة روان لعبت النيران في حي من أحياء المدينة فذهب نفر من الفرقة للمساعدة على اطفاء النار وكنت منهم . ولما وصلنا الى حيث كان الحريق بلغ مسمعي ان عجوزاً تعذر عليها الخروج من غرفتها لان النيران احاطت بها من كل جانب . فاندفعت لانقاذها وكان سعير النيران يشوي شيئاً . وبعد جهد جهيد انقذت تلك العجوز ولكن اصابني حروق بليغة ولا سيما في احدى قدميّ . وقد تمسك المحامي عني بهاتين الحادثتين وبذل كل ما كان لديه من الفصاحة في الدفاع عني حتى رقت قلوب القضاة فاستبدلوا الشنق بالسجن خمس عشر سنة كما ذكرت

ولما علمت بتعديل الحكم وتحققت من انني ذاهب الى عذاب السجن تملكني اليأس وكدت اثب على المحامي عني وأخنقه

— عجباً هل اخذ منك اليأس لانهم خففوا عقوبتك؟

— نعم لان الحكم بالاعدام على القاتل عدل مثل الحكم بالسجن على السارق. فلكل ما يستحق ولا تشك أن الذين حالوا دون شنقي ومنعوني من التمتع بحبل المشنقة وأدخلوني السجن رغم انفي قد اساؤا اليّ بذلك. لانني تحملت من وخز الضمير في سنين السجن الاولى مالا يعد الموت بجانبه شيئاً لان صورة المقتول لا تبارح مخيلة القاتل

— انك اذن تألمت من وخز الضمير ياسفاح؟

— ان ضميري لا يخزني الآن لاني كفرت عن ذنبي بعذاب الاشغال الشاقة. ولكن في أول سني السجن كنت كل ليلة ارى احلاماً مزعجة تقشعر لها الابدان. كنت ارى الجاويش والجنديين مضرجين بدمائهم وارى خلفهم عشرات ومئات والوفاً من الجنود ينتظر كل منهم الساعة التي ينحر فيها كما كانت الخيول ينتظر بعضها بعضاً ايام كنت انحرها بالمذبح فكان يخيل اليّ ان الدم يصعد الى راسي وانني اشرع في ذبح اولئك الرجال مثلما كنت اذبح الخيول. وحين اشعر بأن اخذ مني الوصب كل مأخذ اصحو من النوم وجسمي مبلل بعرق بارد كماء

الثلج ..

ــ تباً لها من أحلام مزعجة فدع عنك ذكرها ياسفاح وقل لي ألم تتعلم السرقة في السجن فان السجن أفضل مدرسة لهذه المهنة؟

ــ صدقت ان اكثر المسجونين من اللصوص وكثيراً ما كانوا يهزأون بي حين اظهر لهم كرهي للسرقة فكنت اضربهم بالجنزير الحديد. وهناك عرفت معلم المدرسة وقد ذقت من ضرباته ما ذقته من لطماتك

ــ ان هذا المعلم كان اذن مسجوناً مثلك وقد قضى مدته في السجن؟

ــ لا بل كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة ولكنه تمكن من الفرار

ــ كيف هرب من السجن اولم يش به أحد

ــ لو خانه كل رفاقه فلا أخونه انا لاني ان فعلت ذلك يقال ان خوفي منه دفعني الى الوشاية به

ــ وكيف لا يقبض البوليس عليه. ألم تعلن مصلحة السجون أوصافه

— لم تبق له اوصاف تعرف لانه شوه صورته التي صنعها الله فلم يعد يعرفها سوى الشيطان الرجيم

— كيف شوه وجهه؟

— كان انفه طويلاً فجدعه ثم انه غسل وجهه بماء النار وهو حمض آكل قلب كيان سحنته

— انك تمزح ولا شك

— لا وأيم الحق . واذا جاء الليلة ترى اني لم أقل سوى الحقيقة . قد كان له انف طويل كمنقار الصقر فأصبح مجدوعاً شنيع الصورة والذي زاده قبحاً ان له شفتين كل واحدة منهما أغلظ من قبضتي هذه وان وجهه ممزق مرقع مثل ثوب الذبال

— لم يعد احد يعرفه اذن ؟

— لقد فر من السجن منذ ستة شهور . وبعد ان شوه وجهه رآه البوليس السري اكثر من مئة مرة فلم يعرفه

— ماهي الجناية التي ارتكبها حتى حكم عليه بالسجن؟

— ان جناياته عديدة وهي السرقة والتزوير والقتل وقد لقبه المسجونون بمعلم المدرسة لانه من العلماء وخطه جميل

— وهل يخشى الكل بأسه؟

— كانوا كلهم يخشون بأسه ولكنهم لا يعودون يكترثون به اذا علمته الرقص مثلما علمتني . . . ياربّاه . ياربّاه كم أتمنى ان أرى ذلك ! !

— كيف يكسب رزقه ؟

— انه شارك عجوزاً شريرة مثله وذات دهاء ومكر . على أننا لم نرها قط مع انه قال مراراً لصاحبة هذه الخمارة انه سيجيء بها يوماً من الايام لنتعرفها

— وهذه المرأة تعاونه على السرقة ؟

— وعلى القتل أيضاً . ويقال عن هذا الرجل انه يفاخر في ان شريكته هذه عاونته على قتل ثلاثة أشخاص . منهم تاجر بقر قتلاه منذ ثلاثة أسابيع على طريق بواسي وسلباه

— انهم سوف يلقون القبض عليه عاجلا أو آجلاً . ولكن أنت ياسفاح ماذا فعلت بعد خروجك من السجن ؟

— انني دخلت في خدمة محل تفريغ المراكب عند رصيف القديس بولص وما زلت اكسب منه خبزي حتى اليوم . .

— لماذا آثرت سكنى هذا الحي ولست من اللصوص ؟

أشنع من منظر ذلك الرجل . فان ماء النار الذي غسل به وجهه اتلف جلد خديه وجبينه وذقنه فامتلىء وجهه كلوماً غائرة قاتمة اللون . وتورمت شفتاه فصار منظرهما قبيحاً جداً

وفضلا عن هذا فانه جدع أنفه كما تقدم فلم يبق منه سوى ثقبين في وسط وجهه المفزع . اما عيناه فكانتا صغيرتين مستديرتين براقتين يتطاير منهما الشرر كانهما عينا وحش ضارٍ

وكان لابساً على رأسه قبعة مستديرة من الفرو الطويل الزغب تستر ثلاثة أرباع جبينه وتزيد منظره هولا

وكانت قامته لاتزيد عن الخمسة اقدام وثلاثة قراريط وله رأس كبير الحجم هائل كرأس الحمار غائر بين كتفين عريضين قويين تكاد تظهر تلافيف عضلاتهما من تحت ردائه . وله ذراعان ضخمتان وساعدان مفتولان كانهما ساعدا أسد . ويدان قصيرتان غليظتان يكسوهما شعر كثيف حتى منبت الاظافر . وساقان مقوستان بعض التقويس تكسوهما عضلات ضخمة تدل على قوة شديدة نادرة المثال

اما هيئة ذلك الرجل الوحشي واضطراب عينيه الملتهبتين الحائمتين فمما يعجز عن وصفه القلم

والمرأة التي جاءت بصحبة معلم المدرسة كانت عجوزاً مرتدية ملابس نظيفة وهي ثوب أغبر اللون وشال اسود منقوش بخطوط حمراء. وعلى رأسها قبعة بيضاء ولما أبصرها رودلف وقعت عينه على أحد جانبي وجهها فرأى لها عيناً زرقاء صغيرة وانفاً أعقف كمنقار الصقر وشفتين رقيقتين وفكاً بارزاً. وعلى الجملة كانت هيئتها تدل على الخبث والمكر مما جعل رودلف يذكر تلك العجوز العوراء الملقبة بالبومة التي ذكرتها المغنية في حكايتها.

وأراد ان يطلع المغنية على ذلك الفكر الذي طرأ عليه وحين التفت نحوها ووقع نظره عليها رآها شاخصة الى تلك العجوز وعيناها جاحظتان ووجهها اصفر كوجوه الاموات لشدة الرعب. ثم انها امسكت بذراعه بيد مرتجفة وقالت له همساً:

— يارباه. هذه هي البومة... البومة.. العوراء!!

وبعد ان حدث معلم المدرسة شخصاً يدعى بربليون همساً تقدم متثاقلاً في مشيته نحو المائدة الجالس عليها رودلف ورفيقاه السفاح والمغنية ووقف امامهم وقال موجهاً خطابه للمغنية

— أنت ايتها الشقراء الجميلة اتركى هذين الحيوانين وتعالي اجلسي معي

فلم تجب المغنية بكلمة ولكنها انكمشت والتصقت برودلف وهي ترتعد لشدة الخوف ولما سمعت البومة مقال معلم المدرسة ضحكت حتى بدت نواجزها وقالت

— وأنا لا اغار على رجلي المحبوب

قالت العوراء ذلك وهي لم تلحظ بعد ان المغنية هي نفس الفتاة بيجريوت التي كانت تسومها العذاب الاليم

ولما لم تجب المغنية طلب معلم المدرسة تقدم نحوها وقال لها

— أمصابة أنت بداء الطرش يا شقراء ؟ اما سمعت طلبي فان أنت لم تأت على عجل أقتلع احدى عينيك فتصبحي عوراء مثل امرأتي البومة

ثم وجه حديثه الى رودلف وأردف

— وأنت يا كبير الشاربين اذا كنت لا تسلمني هذه الفتاة عن طيبة خاطر ابقر بطنك

فارتعدت فرائص المغنية واصطكت اسنانها وابتهلت

الى رودلف قائلة

— يارباه ! ! يا رباه ! ! انقذني منه يا سيدي ناشدتك الله

فأجابها رودلف بكل سكينة وهو لا يزال شاخصاً الى معلم المدرسة

— لا تخافي يا بنيتي انك تبقين الى جانبي ولا تبرحين مكانك وبما ان هذا الخنزير الشنيع قد كدرك منظره وكدرني مخبره فسأطرحه خارج الخمارة

فنظر اليه معلم المدرسة شذراً وقال له

— أنت ؟ ؟

— نعم أنا

قال رودلف ذلك ونهض على رغم توسل المغنية اليه بعدم التحرش بذلك الوحش

وكانت هيئة رودلف تدل على الشجاعة وثبات الجاش وشدة المراس وكان شرر الغيظ يتطاير من عينيه البراقتين فحين رآه معلم المدرسة على تلك الحال تراجع خطوتين الى الوراء . ثم اخرج شيئاً من تحت ردائه ولو لم تثب عليه رفيقته العوراء وتمسك بذراعه وتصيح مستغيثة لكان قتل

رودلف لا محالة

وبينما كانت تلك البومة ممسكة بذراعه قالت له

اصبر دقيقة واحدة أيها الحبيب ودعني اقول كلمة وبعد ذلك يمكنك ان تفترس هذين الحيوانين لانهما لا يفلتان من بين يديك

فنظر معلم المدرسة الى رفيقته العوراء نظرة المندهش اما هذه العجوز فحين دخلت الخمارة ووقع بصرها على المغنية ظلت شاخصة اليها تمعن فيها النظر هنيهة ثم تطرق الى الارض كأنها تنبه ذاكرتها حتى تذكرتها وعرفتها

وبعد ان استأذنت معلم المدرسة بالحديث قالت وقد اخذت منها الدهشة

— ماذا ارى ؟ هذه هي بجريوت سارقة السكر

ثم وجهت حديثها الى المغنية وأردفت وهى تتهددها بقبضة يدها

— كيف وجدت في هذا المكان ؟ ألعل الشيطان ارسلك ؟ أتقعين دائماً تحت مخالبي ؟ بشري نفسك بالخير ياملعونة فاني ان لم اقتلع كل اسنانك فسوف لا اترك في

عينيك دمعة واحدة . وسأطلعك على امور يذوب لها قلبك حزناً لاني اعرف الذين ربوكِ قبل ان اجدك

وقد رأى معلم المدرسة في السجن الرجل الذي أتى بك الى منزلي وأنت طفلة ولديه الآن ادلة قاطعة على ان اللواتي ربينك سيدات غنيات فهتفت المغنية قائلة

— هل عرفت من هم اهلي ؟ اصادقة انت فيما تقولين ؟

— انك لن تعلمين قط ان كنت اعرفهم ام لا فهو سرٌ بيني وبين المعلم واني لا اتردد في استلال لسانه ان هو اطلعك على ذلك السر

ابشري خيراً يابيجريوت فانك سوف تبكين دماً مما ستعرفينه

فأجابتها المغنية بصوت حزين

— يا رباه . انني اتمنى ان لا اعرف من هم اهلي

وبينما العوراء تتكلم كان معلم المدرسة يتأمل رودلف خلسة فلم يمكنه أن يتصور ان هذا الرجل الربعة الضامر يمكنه منازلته في الضرب والمصارعة . ثم انه دنا منه وقال للعوراء بلهجة الامر

— كفاك حديث . ولا بد لي من تمزيق وجه هذا الحيوان لاصبح أجمل منه في عيني حبيبته الشقراء

وما كاد معلم المدرسة يتم عبارته حتى وثب عليه رودلف فوقف وقفة الملاكم وقبضتاه أمام وجهه واعلا جسمه مائلا الى الخلف وساقاه منفرجتان احداهما مقدمة والثانية مؤخرة

وفي تلك الاونة فتح باب الخمارة بعنف شديد واقبل الفحام الذي عرفه القاري وهو طويل القامة ضخم الجثة كأنه جبار من الجبابرة فدفع معلم المدرسة الى الوراء ودنا من رودلف وهمس في اذنه باللغة الالمانية قائلا

— هلمّ بنا يامولاي فان الكونت والكونتس قادمان الى هنا وقد اصبحا في أول الزقاق . . .

فلما سمع رودلف ذلك الخبر خانه الصبر وبدت على وجهه علامات الغضب فدفع الى صاحبة الخمارة ديناراً ثمن ما قدمته من مأكول ومشروب وجرى الى جهة الباب فأراد معلم المدرسة أن يقف في وجهه ويقطع عليه الطريق فبادره رودلف باربع لطمات على وجهه باسرع من لمح البصر فترنح واصابه دوار فهوى كالثور المنحور ولو لم يتوكاء على مائدة كانت

على مقربة منه لكان خرصريعا على الارض

ولما رأى السفاح ذلك لمعت عيناه سروراً وهتف قائلا

— (برافو على دينك) يارودلف هذه هي نفس اللطمات التي ذقت حلاوتها وعلمتني الرقص . ولا شك اني اتعلمها بعد درسين اخرين

أما معلم المدرسة فبعد أن عاد الى صوابه جرى وراء رودلف ليقبض عليه فلم يجده لانه توغل مع الفحام في ازقة ذلك الحي المظلم

وحينما عاد معلم المدرسة الى الخمارة مزمجراً غضباً أقبل شخصان من طرف الزقاق المقابل للذي فر منه رودلف ورفيقه ودخلا الخمارة وهما يلهثان تعباً كأنهما قطعا مسرعين مسافة بعيدة مشياً على الاقدام وما كادا يستقران حتى اجالا طرفهما في كل ناحية من الخمارة ثم قال احدهما

— ما اتعس حظنا !! لقد ذهب . . . وضاعت هذه الفرصة مثل غيرها وكان هذان القادمان يتكلمان بالانكليزية.

أما المغنية فبعد ذهاب رودلف خشيت أن تفتك بها العوراء ولا سيما بعد الذي أصاب صاحبها معلم المدرسة فاغتنمت فرصة انشغال الجميع بدخول ذينك الغريبين

الجديدين وار كنت الى الفرار لا تلوي على احد

الفصل الثالث

﴿ توماس سيتون والكونتس ساره ﴾

وكان بين زبائن خمارة الارنب الابيض وبين الشخصين اللذين دخلا بعد ذهاب رودلف بون بعيد من حيث المنزلة

واحد هذين الشخصين يدعى توماس سيتون وهو رجل طويل القامة معتدلها قد وخط الشيب شعر رأسه ولكنه أبقى على سالفيه وحاجبيه ذو وجه اسمر ناتي العظام وهيئته تنم عن القساوة والصرامة . وكان مرتديا (سترة) مزررة من أعلاها الى أسفلها كأنها ثوب جندي .

أما رفيقه فكان صغير السن لم يتجاوز الرابعة والثلاثين جميل الصورة غير أنه شاحب اللون . وكان سواد عينيه وشعر رأسه واهدابه وحاجبيه يظهر بياض وجهه العاجي

ضدان لما استجمعا حسنا * والضدُّ يظهر حسنهُ الضدُّ

واذا تأمل الناقد البصير مشية ذلك الشخص ونحول خصره ونحافة ملامحه لا يخفى عليه انها امرأة متخفية في زي رجل . وهي الكونتس ساره ماك جريجور اخت توماس

سيتون

وبعد أن سرحا نظريهما في كل اركان الخمارة قالت الكونتس لاخيها بالانكليزية

— أطلب لنا مشروبا ياتوماس وسل عنه الحاضرين لعلنا نقف منهم على خبر

قالت الكونتس ذلك وظلت واقفة تمسح عرقاً بارداً كان يتصبب من جبينها وجلس اخوها على احدى الموائد وقال يبونيس صاحبة الخمارة بعبارة فرنساوية لاعيب فيها

— أرجوك ياسيدتي أن تقدمي لنا مشروباً

وقد أدهش قدوم هذين الشخصين كل زبائن خمارة الارنب الابيض لانهم ماتعودوا أن يروا ابينهم اناساً من الطبقة الراقية . وكانت ملابس توماس وأخته تدلان على انهما من علية القوم . وكان يستدل من هيئة الاضطراب البادية على وجهيهما انهما لم يقدما الى ذلك الحي الا لأمر ذي بال .

وكان السفاح ومعلم المدرسة والعوراء جميعهم ينظرون الى ذينك الشخصين وهم مستغربون

ولم تكن بونيس أقل استغراباً من زبائنها لانها ما

رأت قط في خمارتها مثل ذينك الغريبين . فأخذمنها الذهول وظلت واقفة مكانها فقال لها توماس

— لقد طلبنامنك مشروبا ياسيدتي فأرجوك ان تابي طلبنا

فأبرقت اساريربونيس عند سماع ذلك الحديث اللطيف وأقبلت الى حيث كان توماس وأخته جالسين واسندت ذراعها الى مائدتهما وقالت

— أتريدان لتراً من النبيذ أو زجاجة مختومة ؟

— أرجوك أن تأتينا بزجاجة نبيذ وكأسين وماءقراح

ولما أتتهما بونيس بالمطلوب أعطاها توماس ريالا ورفض أن يأخذ الباقي له بعد خصم ثمن المشروب وقال لها

— خذي أنت ما بقي من الريال وأرجوك أن تجلسي وتشربي معنا كأس نبيذ.فنظرت بونيس الى توماس وأخته نظرة كلها دهشة وامتنان وقالت

— ما أكرم أخلاقكما ياسيدي

فقال لها توماس

— لقد وعدنا صديق لنا أن يوافينا الى خمارة في هذا الحي ولا ندري اذا كانت هي هذه أو غيرها

— هذه الخمارة تدعى خمارة الارنب الابيض ياسيدي وأنا صاحبتها .

فأشار توماس الى ساره اشارة خفية وأجاب بونيس

— نعم . نعم تذكرت الآن . لقد قال لنا انه ينتظرنا في خمارة الارنب الابيض

— ما هي أوصاف صديقكما هذا ؟

— ربعة ضامر الجسم أسود شعر الرأس والشاربين .

— لعله الرجل الغريب الذي كان هنا منذ برهة وجيزة وقد جاءه فحام طويل القامة وذهب به

قال توماس

— نعم واننا نبحث عن هذين الرجلين

قالت ساره

— هل كانا هنا وحدهما ؟

— ان الفحام لم يجلس في الخمارة ولم يشرب اما الرجل الذي تبحثان عنه فانه تعشي هنا مع المغنية والسفاح

واشارت بونيس بيدها الى السفاح الذي كان لايزال جالساً في مكانه فالتفت توماس واخته اليه وبعد ان

تأملاه قالت ساره لأخيها بالانكليزية

— أتعرف هذا الرجل ؟

— لا . ان كارل ظل مقتفياً أثر رودلف حتى دخل أزقة هذا الحي المظلم فلم يعد يعثر عليه . ولكنه لما رأى مورف متخفياً في زي فحام وهائماً حول هذه الخمارة يسترق النظر الى داخلها من حين لآخر ظن ان رودلف هنا ! فاسرع واخبرنا . ولكن المرجح عندي ان مورف رآه وعرفه

وبينما توماس واخته يتحدثان همساً بالانكليزية نظر اليهما معلم المدرسة وقال للعوراء بلغة لا يفهمها سوى أوباش باريس ولصوصها

— ان هذا الرجل دفع الى بونيس ريالاً ونحن الآن في منتصف الليل والمطر منهمر والعاصفة شديدة فمتى خرج مع رفيقته نتبعهما فانقض على الرجل وأسلبه فلا يمكنه الصراخ لأن في صحبته امرأة

فأجابته البومة العوراء

— كن مطمئن البال أيها الحبيب . اذا صرخ الرجل مستغيثاً فان ماء النار في جيبي فأكسر الزجاجة في فمه

وبعد سكوت وجيز اردفت

متى عثرت على الفتاة بيجربوت لا بد لك من ارجاعها بواسطة البوليس ومتى عادت الينا وأصبحت في قبضة يدي اغسل وجهها بماء النار ايضاً وأشوه خلقتها فلا يمكنها المفاخرة بجمالها بعد ذلك

فابرقت اسارير معلم المدرسة عند سماع مقال العوراء وقال لها

— لا شك انني اتزوجك يوماً ما ياعوراء لأن لا نظير لك بين النساء في المهارة والشجاعة . . . وقد عرفت قدرك حق المعرفة ليلة فتكنا بتاجر الابقار فقلت في نفسي

— هذه هي امرأتي . لانها تعمل احسن من رجل

— صدقت أيها الحبيب . فلو كان للهيكل امرأة مثلي ترافقه وتعاونه لما كان قبض عليه رجال البوليس وهو مباشر للجناية

— لقد نال ما يستحقه . فانه لا يخرج من السجن الا الى المشنقة

وقد بلغ بعض حديث معلم المدرسة والعوراء أذن ساره

فقالت لتوماس

— ما هذه اللغة الغريبة التي يتكلم بها هذان الاثنان؟

ثم اشارت الى السفاح وأردفت

— ارى ان نسأل هذا الرجل عن رودلف لعله يطلعنا على بعض اخباره

— لا بأس من التجربة

ثم وجه توماس حديثه الى السفاح وقال له

— جئنا هذه الخمارة على امل ان نرى صديقاً لنا ينتظرنا فلم نجده وقد قيل لنا انه تعشى معك واذ كنت تعرفه نرجوك ان تخبرنا الى أين ذهب

— اعرفه لانه علمني الرقص منذ ساعتين مدافعاً عن المغنية .

— ألم تره قط من ذي قبل ؟

— لا . رأيته الليلة لأول مرة في الدهليز المؤدي الى بيت باروج

قال توماس سيتون لبونيس صاحبة الخمارة

— آتينا بزجاجة نبيذ اخرى

وقد شربت بونيس كل الزجاجة الاولى اما توماس والكونتس فلم يذوقا النبيذ وظل كأساهما مملوئتين مثلما كانتا

وقبل ان تذهب بونيس لتأتي بزجاجة النبيذ قال لها توماس وهو يشير الى السفاح

— ارجوكِ ان تضعي الزجاجة الجديدة والاقداح على مائدة حضرته اذا سمح لنا

قال ذلك وانتقل هو وأخته الى مائدة السفاح فسر هذا بقدومهما عليه

وظل معلم المدرسة والعوراء يتحدثان همساً في كيف يهاجمان توماس وأخته ساعة خروجهما من الخمارة . اما هذان فانتقلا الى مائدة السفاح وما لبثت بونيس ان جائتهم بزجاجة النبيذ وجلست تشرب معهم بدون دعوة ثانية

فملأ توماس الكؤوس وبعد ان شرب نخب السفاح قال له

— قلت اذن ياصاح انك وجدت صاحبنا رودلف في مدخل بيت براروج ؟

فكرع السفاح كأسه وأجاب

— نعم يا سيدي

— براروج !! ما أغرب هـذا الاسم !! ومن هو براروج هذا ؟

فأجاب السفاح بلغة لصوص باريس

— هو رجل من زمرة المهربين

ثم وجه حديثه لصاحبة الخمارة وقال

— ان نبيذك هذا فاخر يامدام بونيس

فقال له توماس وهو يملأ كأسه

— ولهـذا السبب لا يلزمك ان تبقي كأسك فارغـة ياصاحبي. ولكنني لم أفهـم ما قلته لي عن براروج . أكان رودولف خارجاً من عنده ؟

فأجابه السفاح بلغة اللصوص أيضاً

— قلت لك ان براروج من زمرة المهربين

فنظر توماس اليه مدهوشاً وقال له

— ماذا يعني جوابك انني لا أفهم هذه اللغة

فكرر السفاح عبارته باللغة الفصحى وأردف

— انك اذن ياسيدي لا تتكلم الارجو (هي لغـة اللصوص والاوباش)

فازدادت دهشة توماس ونظر الى أخته وأجاب

— ألا رجو ؟

فقال له السفاح بنفس هذه اللغة

— انك من الرجال البسطاء أما رودلف فهو من الرفاق القادرين نعم انه من الفعلة الذين لا يختلطون بأهل هذا الحي وحرفته النقش على المراوح ولكنه على رغم ذلك يتكلم الارجو أحسن مما اتكلمها أنا . وبما انك تجهل هذه اللغة فأقول لك بالفرنساوية الفصحى :- ان براروج مهرب . وفضلاً عن ذلك له قهوة في ساحة الشانزيليزه . نعم أقول انه مهرب ولا اريد بذلك النميمة لأن براروج نفسه يفاخر في ذلك ولا يخشى بأس رجال الشرطة لانه يفلت من بين أيديهم كما يفلت الزئبق من بين الاصابع

قالت ساره

— وما الذي حدا برودلف الى الذهاب لبيت هذا الرجل؟

— والله ياسيدي . . . أو ياسيدتي لا أعرف السبب في ذلك وانني متأكد من صدق ما أقول مثلما أنا متأكد من شرب هذه الكاس التي اجرعها داعياً لكم بطول البقا

قال له توماس

— ماهي أوصاف براروج وماهي التجارة التي يتعاطاها والبضائع التي يبيعها ؟

— براروج يبيع كل ماتحرم الحكومة بيعه . ويعمل كل مالا يجوز عمله ... هذه هي خطته . أليس كذلك ياأماه بونيس ؟

فاجابت صاحبة الخمارة

— ان براروج طويل الباع في ارتكاب المنكرات وهو يتعاطى أشغالا سرية في بيت بشارع التامبل ... وقد أجمعت الآراء على ان ذلك البيت موضوعاً للظنون والشبهات . . ولكن مالي ولهذا الحديث فهذه أمور لاتعنيني . . .

فقال توماس للسفاح

— وما هو عنوان براروج في ذلك الشارع ؟

— نمرة ١٣٠ ياسيدي

فهمس توماس في اذن أخته

— سأرسل كارل غداً الى ذلك البيت لعله يقف على خبر

فقال السفاح موجهاً حديثه لتوماس

— يمكنك ان تفاخر بانك تعرف رودلف لانه شديد

المراس وطيب القلب . ولولا الفحام لكان تشاجر مشاجرة عنيفة مع معلم المدرسة الجالس هناك مع البومة العوراء

وفي تلك الاونة دقت الساعة الثانية عشرة ليلاً في برج دار المحافظة وصار ضوء مصباح الخمارة ضئيلا . وانصرف كل الذبائن الذين كانوا يعاقرون ولم يبق منهم سوى السفاح وتوماس وأخته ومعلم المدرسة والعوراء .وكان هذان الاخيران في زاوية يتكلمان همساً فقال المعلم للعوراء

— لا بدّ لنا من الخروج الآن والاختباء في الدهليز المقابل لهذه الخمارة لكي نرى صاحبينا ساعة خروجهما فاذا مشيا لجهة الشمال نتبعهما الى منعطف زقاق سانتيلوا . واذا اتجها نحو اليمين نتبعهما ونختبيء بين انقاض البيوت الخربة التي بالقرب من سوق الكروش وهنا لك حفرة كبيرة . وقد خطر لي خاطر .

وبعد ان أتم عبارته مشي لجهة باب الخمارة وتبعته البومة العوراء وحينما مرّا بيونيس قالت لهما هذه

— ألا تشربان شيئاً الليلة ؟

— لا ياماه بونيس فانا دخانا هنا لنتقي شر المطر الذي

داهمنا ونحن على الطريق

قال معلم المدرسة ذلك وخرج مع رفيقته . وسمع لاغلاق الباب خلفهما صوت فافاق توماس وأخته من تأملهما فقاما وشكرا السفاح على الاخبار التي أطلعهما عليها فودعهما هذا وانصرف قبلهما .

وكانت اذ ذاك الريح شديدة والمطر منهمراً . وكان معلم المدرسة والعوراء كامنين في دهليز مظلم امام باب الخمارة بحيث يريان الذين يخرجون منها . وحين انصرف السفاح أبصراه ورأيا انه اتجه نحو البيوت الخربة التي أشار اليها معلم المدرسة. وبعد قليل انقطع صوت وقع اقدامه لشدة صفير الريح ودوي المطر

— وخرج توماس وأخته غير مباليين بالعاصفة والسيل المنهمل وسارا في الجهة المعاكسة للتي سلكها السفاح

فلما أبصرهما معلم المدرسة قال للعوراء همساً

— لقد هلكا لامحالة ... افتحي زجاجة ماء النار : وكوني على تمام الاستعداد

فاجابته العوراء

— فلنخلع حذائينا لكي لا يسمعا وقع اقداماً حين نتبعهما ٠

— صدقت ياعزيزتي العوراء صدقت لا بد ان نمشي خلفهما مشية اللصوص

ثم خلعا حذائيهما ومشيا الى جانب جدران البيوت من دون ان يسمع لوقع اقدامهما صوت حتى انهما كادا يلمسان توماس وأخته وهذان لم يشعرا بهما

وكان توماس يكلم اخته قائلا

— من حسن حظنا ان عربتنا تنتظرنا عند آخر هذا الزقاق لان المطر بللنا حتى العظم ٠ ألا تشعرين ببرد ياساره !

وكانت غارقة في لجة الافكار فلم تجب هذه أخاها على سؤاله كانها لم تسمعه بل قالت له

لعلنا ياتوماس نقف على خبر من ذلك المهرب براروج

فلم يجبها توماس ووقف بغتة وقال

لقد ضللت عن الطريق . كان يلزمنا أن نتجه نحو الشمال حين خرجنا من الخمارة اذاً ان في الطريق المؤدي الى عربتنا بيتاً خرباً لم أره قبلا فلا بدّ من العودة على العقب

فلما سمع ذلك معلم المدرسة والعوراء اختبأ في أحد

الدهاليز المظلمة لكي لا يراهما توماس وأخته متي عكسا اتجاه سيرهما وقال المعلم للعوراء همساً

— حسن . حسن . انني أفضل أن يعودا على عقبيهما ويمرا بجانب البيت الخرب لاتمكن من تنفيذ الخطة التي رسمتها

وعكس توماس وأخته وجهة سيرهما فمرا ثانية بباب خمارة الارنب الابيض ووصلا الى ذلك البيت الخرب وهو بيت تهدم وأزيلت أنقاضه ولم يبق منه سوى أقبيته وهي حفر عميقة مظلمة كالمغاور ممتدة الى جانب الطريق .

وفي تلك الاونة وثب معلم المدرسة على توماس سيتون وثبة النمر الضاري وقبض على عنقه بيده الغليظة وقال لهُ

— هات ما معك من النقود أو القي بك في هذه الحفرة

ثم ان ذلك اللص القاتل دفع سيتون الي الوراء فافقده الموازنة ثم أمسك باحدى يديه فأصبح معلقاً فوق فوهة الحفرة وأمسك باليد الثانية ذراع ساره

وقبل أن يبدي توماس أقل حركة أدركته البومة العوراء واستخرجت كل ما في جيوبه بأسرع من لمح البصر

أما ساره فلم تصرخ ولم تحاول المقاومة ولكنها قالت

بصوت ملؤه السكينة

— أعطه كيسك يا أخي

ثم قالت لمعلم المدرسة

— اننا لا نصرخ ولا نستغيث فلا تؤذينا

ولم يكن توماس سيتون اقل شجاعة من اخته فأظهر من ثبات الجاش ما يدهش وقال لمعلم المدرسة

— اتريد ان نتساوم ؟ ان محفظة الجيب التي اخذتها رفيقتك مني ملؤها اوراق لا تفيدك شيئاً فاعدها الى وغداً انقدك خمسماية فرنك

فاجابه اللص بصوت اجش وهو يهز رأسه

— نعم . نعم . تريد أن تنصب لي أحبولة اقع فيها . . . اسمع نصيحتي وسر في طريقك واحمد الله الذي نجاك من شر اعظم

فقالت العوراء لرفيقها

— لا بأس من الاتفاق فدعنا نساومه واذا ظهر لنا انه صادق في ما يقول فلا تتردد في ارجاع المحفظة اليه

ثم وجهت حديثها لتوماس واردفت

— هل تعرف غيطان سان ديني ؟

— نعم

— أتعرف مكان سانتوان ؟

نعم

— ان الغيطان في الجهة المقابلة لسانتوان منبسطة ويمكننا ان نرى بعضنا بعضاً عن بعد فاذهب الى هناك وحدك في صباح الغد وخذ معك النقود فتجدني في انتظارك ومعي المحفظة فأسلمك واستلم منك .

فقال لها معلم المدرسة

— واذا اوقعك في احبولة ؟

— انني اعقل من ان اقع في احبولة رجل بسيط مثل هذا فضلا عن ان لا سبيل لنصب الحبائل لان الانسان يرى هنالك الاشباح عن بعد شاسع . نعم ان لي عيناً واحدة ولكن نظرها احد من نظر النسر فاذ رايت مع صاحبنا هذا رجلا آخر فلا اقبل عليه واركن الى الفرار

فخطر لساره خاطر وقالت لمعلم المدرسة

— قد يجوز ان تكون العوراء عالمة بحقيقة الامر على

خلاف ما تتصور

ولقد تحققت الآن انك كنت معنا في خمارة الارنب الابيض فهل رأيت هناك الرجل الذي ذهب مع الفحام ؟

— نعم رايته وهو ضامر الجسم كبير الشاربين . ولولا القليل لكنت اكلت جانباً من وجه ذلك الحيوان ولكن لم يترك لي وقتاً كافياً وابتدرني بلطمتين جميلتين فألقاني صريعاً . وهذه هي أول مرة قهرت فيها . ولكني سوف انتقم

قالت ساره

— هذا هو الرجل الذي أسألك عنه بعينه

— انقديني الف فرنك فأقتله

— ويلا لك ليس المراد قتله

— ما هو المراد اذن ؟

— اذهب غداً الى غيطان سان ديني فتجد هنالك رفيقي هذا وحده فيقول لك ما يلزمك عمله واذا نجح عملك لا اعطيك الف فرنك بل الفين

فقالت العوراء لرفيقها همساً

— يظهر لي أن في الامر سبيلا الى كسب المال وان صاحبينا هذين هما عدوان لدودان للرجل الذي لطمك ويريدان الانتقام منهُ . فلا بدَّ من الذهاب الى المحل المعين وانا أذهب بدلا منك وأقوم مقامك فان مبلغ الالفين فرنك لا يستهان به ايها الحبيب .

فقال معلم المدرسة الى ساره

— حسن . تذهب امرأتي غداً الى المكان المعين فتقولون لها ما يلزم عمله ثم انظر في الامر

— غداً ينتظرها رفيقي بعد الظهر بساعة بين سانتوان وبين طريق الريفولت

— حسن . ومتى قابلته امرأتي ترد اليه محفظته

قال توماس

وانا انقدها خمسماية فرنك بدل المحفظة وجانباً من المال الذي وعدناك به مقابل العمل الاخر

— حسن والآن ارجوكما أن تذهبا من جهة الشمال ونحن نذهب من جهة اليمنى واياكما ثم اياكما أن تتبعانا والا ...

قال معلم المدرسة ذلك وامسك بذراع العوراء وسارا

فرحين ومشى توماس واخته نحو ساحة كنيسة نوتردام.

ومن غريب الاتفاق أن السفاح حين خروجه من الخمارة داهمه المطر فدخل قبوا من اقبية ذلك البيت الخرب ليتقي شر البلل وقد شهد من مكمنه كل المحاورة التي دارت بين معلم المدرسة ورفيقته العوراء من جهة وتوماس واخته وقد اهتم السفاح كثيرا بما عرضته ساره على معلم المدرسة بشأن رودلف نخاف أن يلحق لصاحبه الجديد اذى وتأسف على عدم امكانه وقايته منه ولعل الذي اولد فيه هذه العاطفة نحو رودلف هو بغضه لمعلم المدرسة وللعوراء فصمم على تنبيه رودلف الى الخطر الذي ينتظره. ولكن كيف يمكنه ذلك؟ وقد نسي عنوان رودلف الذي انتحل صنعة النقش على المراوح. وقد يجوز أن لا يعود رودلف الى خمارة الارنب الابيض فكيف يمكنه ان يجده

وبينما السفاح غارق في تلك الافكار كان يتبع خطى توماس وساره فرآهما ركبا عربة كانت تنتظرهما في ساحة كنيسة نوتردام.

ولما سارت العربة تعلق بها من خلف وبعد منتصف

الليل بساعة وقفت العربة في شارع المرصاد ونزل منها توماس وساره ودخلا بيتاً هناك .

وكان الظلام حالكا فلكي يعرف السفاح ذلك المكان في الصباح اخرج سكينة من جيبه وخط بها علامة على جزع شجرة كانت هنالك ثم عاد الى بيته بعد أن طال غيابه عنه ونام في تلك الليلة لاول مرة نوماً هادئالم تزعجه فيه الاحلام المريعة ولا سيما رؤية الجاويش الذي ذبحه في المعسكر

الفصل الرابع

(النزهه)

وفي اليوم الذي عقب تلك الحوادث التي اتينا على ذكرها كان الطقس جميلا واشعة الشمس تملا الفضأ وتتألق في كبد السماء ولم يبق لزوبعة الامس اثر .

أما الحي الذي دخله القارئ معنا فما زالت اذقته مظلمة بسبب ضيقها وارتفاع البيوت على رغم ضيأ ذلك اليوم البهيج .

وفي صباح هذا اليوم ذهب رودلف الى ذلك الحي كانه لم يذكر الخطر الذي حاق به ليلة الامس وولج ذقاق الغول

متجهاً نحو خمارة الارنب الابيض وكان مرتدياً ثياب الفعلة مثل الامس . ولم تكن تلك الملابس على بساطتها تضعف من جماله الطبيعي وخفه حركاته وليونة عضلاته وقوته النادرة المثال .

ولما وصل الخمارة كانت صاحبتها بونيس واقفة عند بابها تستنشق الهوا فلما ابصرت رودلف قالت له .

— لاشك يا سيدي انك قادم لتأخذ ما بقي لك من العشرين فرنك التي دفعتها الي ليلة الامس . فالباقي لك سبعة عشر فرنكا ونصف . واعلم أن بعد ذهابك من الخمارة جاء رجل طويل القامة حسن البزة وبصحبته امرأة صغيرة السن متنكرة بذي الرجل وجلسا مع السفاح وشربا نبيذاً وسألا عنك .

— هل شربا حقيقة مع السفاح ؟ وماذا قالا له

— لقد تكلموا عن أمور كثيرة ولاسيما عن ذوبعة الامس وقد اكثروا من ذكر باروج في حديثهم .

— هل يعرفان باروج ؟

— كلا ولكن السفاح اخبرهم عن أصله وفصله وقال

لها انك . . .

— حسن حسن ليس هذا المراد

— ما مرادك اذاً هل تريد الباقي لك من العشرين فرنك

— نعم . . . وقد اتيت ايضاً لاخذ المغنية وانزهها في ضواحي المدينة هذا اليوم

— هذا لا يمكن ياصاحبي .

— لماذا ؟

— لا يمكنني ان أطلق سراحها وكل ما عليها من الثياب ملك لي فضلا عن انها مديونة لي بتسعين فرنك ثمن أكل واجرة منامة لانها مقيمة عندي تأكل وتنام ولم تدفع الي بارة واحدة منذ ستة اسابيع .

— المغنية مديونة لك بتسعين فرنك ؟

— نعم بتسعين فرنك ونصف . ولكن ماذا يهمك ذلك يا ولدي ؟ العلك تريد ان تسددعنها ذلك الدين ؟ ان كان هذا مرادك فافعل وأظهر كرمك الحاتمي فاخرج رودلف من جيبه خمس ذهبات قيمتها ماية فرنك واعطاها لصاحبة الخمارة وقال لها

— خذي هذه قيمة مالك عند المغنية وقولي لي كم تساوي الملابس التي تؤجرينها لتلك الفتاة ؟

فدهشت بونيس من كرم ذلك الرجل واستولى عليها الطمع فارادت ان تبتذ من رودلف ما امكنها من النقود وبعد ان لزمت الصمت برهة وجيزة قالت .

— أن الملابس التي اجرتها لهذه الفتاة لا تقل قيمتها عن ماية فرنك.

— انك تهذين يا سيدتي امثل تلك الاطمار البالية التي رايتها على المغنية تساوي ماية فرنك ؟ هذا غبن فاحش . فغاية ما ادفعه اليك ثمنها هو الباقي لي مما دفعته لك الامس وعشرين فرنكا اخرى فقط .

— انني أذن أبقي ثيابي أيها المحترم ولا تخرج المغنية من هذا المكان وأنا حرة في بيع ما أملكه بالثمن الذي أريده .

فنقدها رودلف الثمن الذي طلبته وقال لها

— خذي لا بارك الله لك في هذا الربح فانه حرام واذهبي حالا وأتيني بالمغنية

فوضعت بونيس النقود في جيبها وهي تقول في نفسها

— لاشك ان هذا الرجل سرق المحل الذي يشتغل فيه أو انه ورث ارثاً عظيما

ولما رآها روداف مترددة قال لها

— اذهبي حالا واتيني بالمغنيـة وقولي لها انني سأذهب بها الى النزهة في الخلاء ولا تزيدي على ذلك كلمة واحـدة واياك ان تقولي لها انني سددت ديونها .

— لماذا ؟

— ماذا يعنيك ؟

— صدقت ياسيدي هذا أمر لا يعنيني والافضل عندي ان تظل المغنية معتقدة انها مازالت مديونة لي وتحت سلطتي

وبعد ان غابت بونيس برهة من الزمن عادت الى روداف وقالت له

— ان المغنية لم تصدق كلامي . وقد احمر وجهها خجلا حين قلت لها انك هنا . . . ولكن لما أفهمتها انني أسمح لها بقضاء اليوم في الخلاء كادت تجن لشدة الفرح

وما كادت بونيس تتم عبارتها حتى أقبلت المغنية مرتدية نفس الملابس التي كانت عليها ليلة الامس ولما أبصرت

رودلف وعرفته تولاها الخجل وتورد خداها ونكست رأسها الى الارض. فقال لها رودلف

— أتريدين يابنيتي ان تذهبي معي لقضاء النهار في الخلاء بين الغياض والجنائن ؟

— نعم ياسيدي أريد ذلك بكل سرور بما ان مدام بونيس سمحت لي بالفسحة فقالت لها بونيس

— نعم لقد سمحت لك بذلك يابنيتي لانني مسرورة من سلوكك الحسن فتعالي قبليني قالت بونيس ذلك ومدت وجهها القبيح للمغنية ولكنّ رودلف دفعها وأمسك بذراع الفتاة وخرج بها من الخمارة تاركا بونيس تسخط وتلعن وتزمجر فقالت المغنية لرودلف

— كن على حذر يامسيو رودلف اذلا يبعد أن بونيس ترميك بشيء على رأسك لانها من النساء الشريرات

— كوني مطمئنة من هذا القبيل يابنيتي . . . لكن مابك ! يظهر لي انك مرتبكة حزينة . . . فهل أنت متكدرة من مجيئك معي ؟

— لا بل بالعكس . . . لكن . . . أراك تعطيني ذراعك

لامسك به

— وما المانع من ذلك ؟

— انك من الفعلة . . فاذا أبصرك أحد ممن يعرفونك وقال لرئيسك انه رآك مع امرأة ربما يعود ذلك عليك بالضرر

ثم سحبت ذراعها من ذراعه بلطف وأردفت

— تقدمني وامش وحدك وأنا اتبعك حتى نصل الى حاجز المدينة ومتى أصبحت في الحقول أدنو منك

فاثرت في رودلف رقة عواطف المغنية فأمسك بذراعها ثانية وقال لها

— لا تخافي . . . ولا سيما اننا سنجد عند رصيف الزهور عربة تنقلنا الى حيث نريد الذهاب . أتريدين ان نذهب الى مكان معين من الخلاء ؟

— ان الاماكن كلها تستوي في عيني مازالت في الخلاء . . . فما أجمل الحقول وما أنقى الهواء . وقد مضى عليَّ ستة أسابيع لم أرَ في خلالها الحقول وغاية ماكنت أصل اليه في نزهتي سوق الزهور

— وهل كنت تأتين هذا السوق لتشتري زهوراً ؟

— لا اذ لم يكن لدي فلوس لاشتري الزهور وأنما كنت آتي لاراها عن بعد واشم روائحها الذكية. وكانت تسرني جداً في ذلك السوق رؤية الفتيات بائعات الزهور النظيفات الملابس اللواتي كن يبتعن الزهور ويحملنها في سلال جميلة ويذهبن بها ضاحكات

— لاريب عندي انك تسرين جداً اذا كان لديك زهور جميلة تضعيها على نافذة غرفتك!

صدقت في ما تقول يامسيو رودلف فان مدام بونيس في يوم عيدها أهدت الىَّ شجرة ورد صغيرة ولا يمكنك ان تتصور كم سررت بتلك الهدية ففارقني الضجر ولم أعد أهتم بشيء سوى تلك الشجرة . وكنت أقضي الساعات الطويلة في عد أوراقها وزهورها . ولكنَّ الهواء فاسد في الحي الذي أسكنه حتى ان شجرة الورد أخذت في الذبول والاصفرار بعد يومين ولما رأيت ذلك . . . . ولكنك ستهزأ بي يامسيو رودلف ...

— لا لا أتمي حديثك .

— انني بكيت شجرة الورد لما ماتت وحزنت حزناً شديداً

لانها أورقت وأزهرت لي وأنا لا أستحق ذلك ... لانني....

ونكست الفتاة رأسها الى الارض واحمر وجهها خجلاً

— اهني عليك يابنيتي لا شك انك حينما تتأملين حالتك تمنين ان ...

— أتمنى أن أتخلص منها اليس هذا ما تريد ان تقول يامسيو رودلف ؟نعم انني تمنيت ذلك أكثر من مرة ومنذ شهر نظرت الى نهر السين من أعلى الجسر وحدثتني نفسي بأن القي بها في اليم ولكنني عدت فنظرت الى ما حولي فوقعت عيني على الشمس والزهور فقلت في نفسي ان النهر يدوم حيث هو فيمكنني أن ألقي بنفسي فيه كل حين وما زلت بنت ستة عشر سنة ونصف .... ومن يعلم ما في الغيب

— وحين كنت تقولين من يعلم ما في الغيب.. ؟هل كنت تتوقعين شيئاً

— نعم ...

— وما ذا كنت تنتظرين ؟

— كنت اؤمل ان الاقي أحداً من ذوي الاخلاق الابية يجد لي عملا ارتزق منه لاخرج من عند بونيس صاحبة

الخمارة. وكان هذا الامل يعزيني. والذي كان يزيدني تعزية هو انني على رغم التعاسة التي كنت فيها ما أسأت قط الى أحد. ولو انني وجدت نصوحاً مرشداً لما كنت وصلت الى ما حيث انا الآن. قلت ان تلك الافكار كانت تعزيني بعض التعزية ولكن موت شجرة الورد زادني حزناً وغماً.

— الا زلت حزينة على تلك الشجرة حتى الآن ؟

— نعم وها هي

وأخرجت الفتاة من جيبها صرة مربوطة بشريطة حمراء داخلها بقايا شجرة الورد

— هل حفظتها ؟

— اعندك ريب في ذلك ؟ فان هذا كلما املك على الارض

— كيف !!! الا تملكين شيئاً على الارض ؟

كلا

— وهذا العقد المرجان الذي تلبسينه ؟

— هو لبونيس صاحبة الخمارة

— الا تملكين ثوباً أو قبعة أو منديلا ؟

كلا .. كلا .. كلا .. لا املك شيئاً في العالم سوى

بقايا شجيرة الورد ولذلك تراني شديدة الاحتفاظ بها

ولما وصلا الى رصيف الازهار كانت عربة هناك تنتظرهما فركباها وقال رودلف للسائق

— اذهب بنا الى سان. ديني وهناك أدلك على الطريق التي يلزم اتباعها

فسارت بهما العربة وكانت أشعة الشمس ساطعة بهية والسماء صافية سنية والهواء عليلاً بليلا

ثم بدرت من المغنية التفاتة فوجدت الى جانبها في العربة ثوب امرأة فدهشت وقالت لرودلف

— ما ذا أرى ؟ هذا ثوب امرأة

— نعم هو لك يابنيتي وقد أتيت به لتتقي اذى البرد .

فازدادت الفتاة دهشة لانها ما تعودت قط مثل تلك المجاملة فشخصت الى رودلف وقالت له

يا رباه كم أنت طيب القلب يا مسيو رودلف لقد اخجلتني

أيخجلك انني طيب القلب؟

— كلا ولكنك لا تتكلم الآن مثل ما كنت تتكلم

بالامس فكانك بدلت برجل آخر

— اصدقيني يا بنيتي اتفضلين أن أكون رودلف الامس أو رودلف الساعة ؟

— افضل ان تكون مثل ما أنت الآن

— انني أرى فيك امراً عجيباً يا مغنية

— ما هو ؟

— هو انك نسيت ما قالته لك العوراء ليلة الامس من انها تعرف الذين ربوك

— انني ما نسيت ذلك وقد فكرت فيه في الليل الغابر وبكيت بكاء شديداً .. ولكنني على يقين من ان ما قالته العوراء كذب وانها لفقت هذه الحكاية لتدمي بها قلبي

— وان صح ذلك ألا تسرين بلقاء اهلك ؟

— أواه يامسيو رودلف ! ما فائدتي من لقاء اهلي اذا كانوا لا يحبونني ولو فرضنا انهم كانوا يحبونني فقد اقسموا الآن ان لا يروني لاني اجلب لهم العار والخزي وربما كان ذلك سبباً في هلاكهم

— اذا كان اهلك احبوك من ذي قبل فانهم يغفرون

لك ذلتك ويعودون الى محبتك

وفي تلك البرهة وصلت العربة الى سانتوان عند ملتقى طريق سان ديني وطريق الريفوات

ولما أبصرت الفتاة ما هنالك من الحقول اشرق جبينها ولمعت عيناها سروراً وزايلتها الافكار السوداء التي اكفهر لها وجهها عند ذكر العوراء وأطلت رأسها من نافذة العربة وصفقت فرحاً وهتفت قائلة

— ما اسعد حظي يا مسيو رودلف يا ما اسعد حظي ! انظر ما اجمل هذا العشب الاخضر وهذه الحقول الناضرة أفلا تسمح لي بالنزول من العربة لاتمتع بجمال الطبيعة فان أحب شيء اليَّ ان اجري بين الغيطان

— فلنجري معاً يا بنيتي

قال رودلف ذلك وأمر السائق بالوقوف فقالت له المغنية

— كيف أتريد أنت ايضاً ان تجري مثلي يا مسيو رودلف ؟

— نعم وهذا يسرني كثيراً

— ما اسعد حظي

وما كادت أقدامها تطيء الارض حتى امسك رودلف بيد الفتاة وجرى بها مسرعاً بين الحقول فكادت تجن اشدة الفرح وأخذت تضحك ضحكاً له نغمة كنغمة الكروان

ولكنها بعد ان ركضت شوطاً صغيراً خانتها قواها وتواترت أنفاسها ذلك لعدم اعتيادها ترويض جسمها فوقفت لترتاح قليلا . ثم جلست على جزع شجرة ملقاة هنالك عند حافة حفرة وقد علت وجهها الشاحب حمرة خفيفة وأبرقت عيناها وبدت على وجهها علامات الفرح والبشر وطهارة القلب

وبعد ان استراحت وأمكنها الكلام قالت لرودلف بصوت ينم عن الحبور والامتنان

— تبارك الله العظيم الذي جعل لنا هذا اليوم جميلا مهيباً

فلما سمع رودلف تلك المسكينة الطريدة الضائعة تشكر الله الذي جعلها تتمتع بحرارة الشمس ورؤية الحقول تأثر تأثيراً شديداً حتى فاض الدمع من عينيه

— وما كادت الفتاة تجلس على جزع الشجرة حتى ظهر من تلك الحفرة رجل كان مختبيء فيها وضحك

مقهقهاً بأعلى صوته فالتفتت الفتاة مذعورة فأبصرت السفاح فجرت نحو رودلف تحتمي به ولما رأى السفاح ما اصابها من الخوف الشديد قال لها

- لا تخافي لا تخافي

ثم وجه حديثه الى رودلف وقال له ما اغرب هذه الصدفة يامسيو رودلف انكما ما كنتما تتوقعان ان ترياني هنا . وأنا ما كنت اتوقع ذلك ايضاً

فقال له رودلف وقد تملكته الدهشة

— ماذا تصنع هنا ؟

— انا ساهر على مصلحتك يا استاذي ولكن واعجباً لهذه الاعجوبة التي عملتموها وهي انكم اتيتم الى القصر الذي اقضي فيه فصل الصيف

واشار بيده الى الحفرة التي كان فيها

— دعنا من هزلك وقل لي ماذا تصنع هنا ؟

— ستعرف ذلك عما قريب ولكن مكنني أولا من أن أذهب الى عربتك وأصعد اليها وارقب منها .

قال ذلك وصعد على العربة الواقفة على مقربة منهم وسرح

نظره في كل جهة من ذلك الفضاء ثم عاد مسرعا نحو رودلف فقال له هذا

— والآن أما تشرح لي معنى فعالك هذه ؟

- خيراً خيراً ياسيدي واسمح لي بسؤال واحد . كم الساعة الآن

فنظر رودلف في ساعته واجابه

- الساعة الآن اثنى عشر ونصف

- حسن ما زال لدينا وقت كاف فان العوراء لا تصل الى هنا قبل نصف ساعة

فهتف رودلف والتفتا معا

- العوراء!!

- نعم العوراء . واليك ياسيدي الحكاية بالاختصار . انه بعد خروجك من خمارة الارنب الابيض مساء أمس ..

فقاطعه رودلف الحديث وقال

- ثم دخل شخصان أحدهما رجل والاخر امرأة متنكرة بذي رجل وقد سألاعني كل هذا أعرفه . ولكن ماذا جرى بعد ذلك؟

- وبعد ذلك دعواني للشرب معهما وطلبا مني أن احدهما

عنك فلم أقدر ان اجيبهما بشيء لانني لم أكن أعرف عنك سوى انك تحسن اللكم بقبضة يدك ثم بعد ذلك عرفت عنك شيئاً جعلني ارتبط بك حياً وميتاً يا سيدي روداف وانني والله لا ادري لماذا اراني متعلقاً بك تعلق الكلب بصاحبه وذلك منذ قلت لي أن لي قلباً وشرفاً

- اشكرك ياصاحبي ولكن أرجوك أن تتم حديثك

- ولما لم يقف الرجل والمرأة المتنكرة على خبر مني خرجا من الخمارة وخرجت أنا أيضاً . ولما انتهيت الى آخر الزقاق اشتد وقع المطر فدخلت قبوا في بيت خرب هناك اتقاء البلل وافترشت لوحا من الخشب وجدته في ذلك المكان وتوسدت قطعة من حجر الجبس ونمت كالملك

- وبعد . وبعد ؟ . . .

- وما كادت اجفاني تنطبق حتى ايقظني صوت حديث فنهضت للحال وسمعت معلم المدرسه يكلم رجلا اخر كلام وداد . فادرت ازني وانصت فعرفت صوت الرجل والمرأة المتنكرة اللذين دعواني للشرب معهما في الخمارة

فبدت الدهشة على وجه روداف وقال

- سمعتهما يتحدثان مع معلم المدرسة والعوراء!!

- نعم كانا يتكلمان معهما وقد اتفقوا ان يلتقوا اليوم عند الساعة واحدة بعد الظهر عند ملتقى طريق سان ديني وطريق الريفولت

- هنا اذن ؟

- نعم هنا يا سيدي

فقالت المغنية لرودلف

- كن على حذر من معلم المدرسة

فقال لها السفاح: — طمني بالك يا بنيتي فان معلم المدرسة لا يأتي وانما يرسل العوراء

فقال له رودلف

- كيف ان الرجل والمرأة المتنكرة اللذين اتيا الخمارة للبحث عني تعرفا بمعلم المدرسة والعوراء؟

- لا علم لي ولعلي لم أفق من نومي الا بعد ان تحدثا ولكني سمعت الرجل يطلب من العوراء ان توافيه الى هذا المكان لتعيد اليه محفظته مقابل خمسمائة فرنك . فيظهر ان معلم المدرسة حاول سرقة ذلك الرجل في بادئ الامر ثم بعد

ذلك تكلم معه بلهجة لاتشم منها رائحة العداء

— ان ذلك أمر غريب !!

فقالت المغنية

— يارباه ! اني خائفة عليك يامسيو رودلف

فقال لها السفاح

— ان المسيو رودلف ليس ولداً صغيرا لتخافي عليه . بل ربما كان الخوف على معلم المدرسة

فقال له رودلف

— اتم حديثك ياصاحبي

— وسمعت الرجل والمرأة يعدان معلم المدرسة بألفي فرنك ان هو صنع معك أمراً أجهله . وقد اتفقوا على ان العوراء تأتي الى هنا ومعها المحفظة فتعطيها للرجل مقابل الخمسمائة فرنك ثم يقول لها ماذا يريد عمله معك لتعود وتخبر بذلك معلم المدرسة وهذا يقوم بانجاز العمل

فلما سمعت المغنية ذلك ارتعدت فرائصها اما رودلف فابتسم ابتسامة تدل على عدم المبالاة فقال له السفاح

— من أنت يااستاذي روداف حتى يتبرع ذلك الرجل

بألفي فرنك للذي يناويك

- سأخبرك من انا بعد حين

- ولما سمعت يا استاذي ذلك الحديث بشأنك قلت في نفسي : « لا بدا لي ان اعرف أين يسكن ذلك الرجل وتلك المرأه اللذان كلفا معلم المدرسة بمناواتك اذ لا يخلو ذلك من فائدة فلما افترقا عن معلم المدرسة والعوراء خرجت من مكمني وتبعتهما خافت الخطى وظلا يسيران وأنا وراءهما حتى وصلا الى عربة كانت تنتظرهما في ساحة كنيسة نوتردام فركباها وتعلقت بها من خلف فسارت بنا الى شارع المرصد ووقفت. وكان الظلام حالكاً ولم اكن أرى شيئاً فلكي أعرف ذلك المكان اذا عدت اليه نهاراً جرحت بسكيني جزع شجرة وجدتها هناك وجعلت ذلك علامة اعرف بها ذلك المكان

- حسن يا صاحبي

- وفي هذا الصباح عدت الى ذلك المكان فرأيت على بعد عشر خطوات من الشجرة أثر اقدام في وحل الزقاق فاقتفيت ذلك الاثر حتى وصلت الى باب جنينة فيها بيت الرجل والمرأة

ـ أشكرك ايها الصديق لقد صنعت معي جميلاً عظيما وانت لا تدري

ـ عفوك يا أستاذي رودلف لقد فعلت ما فعلت، وأنا عالم بأنني أخدمك

ـ أشكرك أيها الصديق وأتمنى أن اكافئك على حسن صنيعك ولكنني لسوء الحظ لست الا فاعلا فقيراً. ولوانهم يبذلون الفي فرنك في سبيل مناواتي. وها أنا شارح لك ذلك فاصغ اليّ: ازلديّ سراً في قطع العاج لعمل المراوح بالة ميكانيكية ولكن هذا السر ليس لي وحدي وانما لي شريك استعين به على اخراج ذلك الاستنباط الى حيز العمل ولاشك ان الرجل والمرأة اللذين يريدان الايقاع بي لا بغية لهما سوى الاطلاع على سر تلك الآلة الميكانيكية مهما كلفهما الامر لان من وراء ذلك ربحاً عظيماً يعود عليهما.

ـ أما الرجل والمرأة هما اذن . . .

ـ هما صاحبا المعمل الذي كنت اشتغل فيه ولم ارد ان أطلعهما على سر اختراعي

فاقتنع السفاح بذلك التعليل الملفق نظراً لقلة ادراكه وعاد

رودلف فقال له

- والآن على اي عمل صممت ؟

- صممت على ان انتظر العوراء التي ستأتي الى هنا لموافاة الرجل واحاول ان اسمع ما يدور بينهما من الحديث لعل من وراء ذلك فائدة تعود عليك . ولا يوجد في كل هذه الحقول سوى هذا الجزع فكأنه وضع هنا عمداً لاجلس عليه واراقب عن بعد . والمكان الذي عينته العوراء للاجتماع بالرجل هو على بعد بضع خطوات من هنا فلا يبعد انهما يقصدان مكاننا هذا ليجلسا على هذا الجزع فاذا لم يأتيا الى هنا ولم يمكنني ان اسمع حديثهما اظل كامناً مترقباً حتى يبتعد الرجل عن العوراء فانقض عليها وأخذ منها بثار المغنية وادوس عنقها بنعلي واظل دائساً حتى تقول لي من هم اقارب المغنية لانها ذكرت بالامس في سياق الحديث انها تعرفهم فماذا تقول في هذا الرأي يااستاذي .

- اراه رأياً صائباً ولكن لا بد من تعديله

- تكلم يا أستاذي

- ألا تعرفك العوراء؟

— انني رايتها مساء الامس لاول مرة في الخمارة

— اليك اذن ما يلزمك عمله : ابق كامنا في هذه الحفرة حتى ترى العوراء قادمة عليك فاخرج اذ ذاك من مكمنك

— أخرج اكسر عنقها ؟

— لا . . . ارجئ ذلك الى وقت اخر . . أما اليوم فكل ما اريده منك هو أن تمنعها عن الحديث مع الرجل لانه هذا متي رآك معها لا يتجراء على الدنو منكما واذا فعل ذلك فلا تفارق العوراء طرفة عين لكي لا يتمكن الرجل من الكلام معها

— واذا لاح لي انه مستاء من تطفلي أعلمه الرقص بلطمتين لانه ليس معلم المدرسة ولا الاستاذ رودلف وابقى ملازماً للعوراء كظلها بحيث اسمع أقل كلمة يقولها لها الرجل فمتى رأى مني ذلك لا يلبث ان يذهب ومتى انفردت بالعوراء اعلمها الرقص بكفين (من قعر الدست) وساتلذذ بذلك تلذذي بشرب كاس من نبيذ برجونيا فلا تمنعني يا استاذي

— قلت لك ان ترجئ ذلك الى وقت اخر . . والان قل لي الا تعرفك العوراء ان كنت لصاً او لا ؟

— كلا . . الا اذا كان معلم المدرسة كلمها بشأني واخبرها

بانني اكره السرقة

اذا وجدتها عالمة بحقيقة امرك وبانك تكره السرقة فلا بد لك من ان تظهر لها ما يغير افكارها

يا الله ماذا تقول يا مسيو رودلف لقد يصعب عليّ القيام بهذه الوظيفة

— سوف ترى انه لا عار في ما اكلفك به فمتى ابتعد الرجل عن العوراء ورأيت هذه متكدرة لعدم حصولها على الخمسماية فرنك التي كانت تعد بها نفسها تلطف اليها واقنعها بأن لديك طريقة أخرى لكسب المال وانك كامن هنا تنتظر رفيقاً لك وان معلم المدرسة يربح مالاً طائلا اذا شارككما في العمل

عجباً !!

— وبعد انتظار نصف ساعة مع العوراء تقول لها أن رفيقك لم يأتِ وانك ترجيء العمل الى وقت آخر ثم تتفق مع العوراء على الالتقاء بها وبمعلم المدرسة في مكان معين غداً صباحاً أفهمت ؟ والليلة عند الساعة العاشرة تجدني في انتظارك عند الشانزيلزه فاخبرك بالباقي

— اذا كان المراد من عملك هـذا هو نصب أحبولة فكن على حذر لأن معلم المدرسة رجل خبيث ماكر ولقد ضربته فاذا خامره أقل ريب فيك لا يحجم عن قتلك

— كن مطمئناً ..

— عجباً انك تتلاعب بافكاري وتقلبها كما تشاء ولكن مهما حاولت اقناعي فانني لا أزال اتصور انك تدبر مكيدة لمعلم المدرسة والعوراء فاسمح لي ان أقول لك كلمة يامسيو رودلف .

— تكلم

— انني لا اتصور انك تريد القبض على معلم المدرسة وتسليمه للبوليس ولكنك اذا حاولت ذلك تجد فيه صعوبة عظيمة

— ولكن لا بد لي من ذلك لمناقشة معلم المدرسة والعوراء الحساب لانهما يتآمران مع الذين يريدون الاضرار بي وان عاونتني يا سفاح لا يصعب علينا الانتصار

— كيف لا اعاونك ؟ ..

ثم سرح السفاح بصره في الخلاء وقال لرودلف اسرع بالذهاب مع المغنية اسرع فاني أرى شبحا عن بعد والمرجح

عندي انه شبح العوراء اما أنا فسأكمن في مخبئي هذا

— لا تنس الليلة عند الساعة العاشرة

— لا انسى سأوافيك الى الشانزيلزه وظل رودلف برهة معه منكساً رأسه الى الارض وغارقاً في لجة من الافكار فلم تجرأ المغنية على الكلام معه فكانت شاخصة اليه وهيئة الكآبة بادية على وجهها ولما رفع رودلف رأسه ورآها على تلك الحال بش وقال لها بصوت ملؤه الحنان

— بماذا تفكرين يا بنيتي ؟ لا شك ان لقاء السفاح كدر صفاك وقد كنت قبل ان نراه على غاية من السرور

— لا بل انني سررت بلقائه هنا لأن في وجوده فائدة لك

— ألم يكن هذا الرجل ممتازاً بين زبائن خمارة الارنب الابيض ببعض العواطف الحسنة

لا علم لي يامسيو رودلف فانني قبل ليلة الامس قلما كنت أحدثه وكنت اتصوره شريراً مثل الآخرين

— دعينا من التفكر بكل هذه الامور يا بنيتي لأنه يسؤني ان أراك حزينة ولا سيما انني أتيت بك الى هنا

لتقضي نهارك في هناء وحبور

انى سعيدة للغاية يا سيدي لانني لم أخرج من باريز منذ أمد بعيد

— منذ كنت تذهبين الى النزهة مع صديقتك الضحوكة أليس كذلك ؟

— نعم يا سيدي والفرق بين الحالتين انني كنت أذهب للنزهة مع تلك الصديقة في فصل الربيع أما الآن فنحن في فصل الخريف ولكن لا باس من ذلك فان منظر الحقول يلذ لي في كل الفصول

ولما أتمت المغنية عبارتها فكرت في انها بعد تلك النزهة الجميلة ستعود الى مسكنها المظلم العفن في ذلك الحي القذر فتولتها الكآبة واخذها الحزن كل ما أخذ فغطت وجهها بكفيها وبكت فلما رأى رودلف ذلك دهش وقال لها

— ما ذا أصابك يا بنيتي ؟ ما ذا يحزنك

فمسحت المغنية دموعها واجابت وهي تتكلف الابتسام .

— لا تؤاخذني على كآبتي هذه ولا تعرها اقل التفات اقسم لك ان ليس بي شيء وانما خطر لي خاطر ابكاني وها قد

عاودتني البشاشة

- لكنك كنت على غاية من السرور منذ برهة ؟

فاجابته الفتاة والدمع لا يزال يترقرق في عينيها

- نعم وهذا هو السبب في حزني

فادرك رودلف الحقيقة حين سمع هذا الجواب. ومالبثت المغنية ان عاودها سابق زهوها وفكرت في اغتنام الفرصة والتمتع بصفاء يومها واقلعت عن الاهتمام بالمستقبل. وبعد سكوت وجيز قال لها رودلف

- هل أحببت أحداً في حياتك ؟

- كلا يامسيو ردولف

- لماذا ؟

- لقد رأيت الناس الذين يترددون على خمارة الارنب الابيض. ولكي يُحب الانسان لا بد ان يكون ذا مبادي شريفة . . ولكن مالنا ولهذا الحديث فدعنا منهُ اذا شئت

- لك ما تريدين . . . فلنتكلم في أمور أخرى . . . لكن مابالك تنظري اليَّ هكذا ! ... وهاقد ترقرق الدمع في عينيك الجميلتين مرة ثانية ... فهل أنا سبب أشجانك ؟

— لا بل بعكس ذلك ان ما أراه من عطفك عليَّ يحدو بي الى البكا حتى صدق بي قول الشاعر

طفح السرور عليَّ حتى انه * من كثر ماقد سرني ابكاني

ثم يظهر لي انك لا ترجو من مجيئك بي الى هنا سوى سروري. والدليل على ذلك ما أراه على وجهك من علامات الارتياح حين تراني سعيدة . ولم تكتف بالمدافعة عني ليلة الامس بل منحتني أحب شيء اليّ وهي النزهة في الحقول في مثل هذا اليوم البهج

— أصادقة أنت في ماتقولين ؟ أسعيدة أنت ؟

— لست أنسى لذة هذا اليوم طول حياتي

— انني يابنيتي اقضي أحياناً ساعات طويلة أتصور الحالة التي اتمناها لاكون سعيداً . من غنى ومجد ورفعة مقام الى غير ذلك مما تتوق اليه نفسي . وأكثر من بناء العلالي والقصور . وأنت الا يخطر لك مثل هذه الخواطر ولا تبنين مثلي بعض القصور على الامل ؟

— نعم كان يخطر لي مثل هذه الخواطر أيام كنت في السجن قبل دخولي خمارة بونيس فكنت أقضي أوقاتي كلها

في الغناء وبناء العلالي والقصور كما تقول ولكني بعد ذلك العهد لم تعاودني تلك الافكار الا نادراً ولكن بالله عليك قل لي يامسيو رودلف ما هي القصور والعلالي التي تبنيها ؟

— لقد سبقتك الى هذا السؤال فابدأي أنت في شرح امانيك .

— ارجوك ان تشرح انت عني ما اتمناه لارى اذا كنت تحذر افكاري

— اتصور ان هذه الطريق توصلنا الى قرية جميلة بعيدة عن الطريق العمومية مبنية على سفح جبل وتتخلل بيوتها الاشجار الباسقة

— ويوجد الى جانبها نهر صغير . وعند آخر القرية توجد مزرعة جميلة فيها جنينة غناء كلها زهور و رياحين وفي وسطها بيت ولهذا البيت طابق سفلي فيه مطبخ للعمال وقاعة فسيحة للاكل لصاحبة المزرعة : .

وللبيت نوافذ ذات اغلاق خضراء تبهج النظر اليس كذلك يامسيو رودلف ؟

— فلنفرض ان خشب النوافذ اخضر وانا من رايك

استحسن اللون الاخضر. ولنفرض ان صاحبة المزرعة عمتك

- طبعاً يلزم ان تفرض ذلك وهل تفرض انها امرأة صالحة؟

- نعم افرض انها تحبك مثل امك وانك تحبينها

فضمت المغنية يديها ورفعت عينيها الى السماء وبدت على وجهها علامات الحبور وقالت

- نعم نعم انني أحبها واساعدها على العمل وعلى الخياطة وتدبير المنزل والغسيل وتجفيف الاثمار للشتاء وعلى كل عمل ولا أدعها تشكو من كسلي . . . . وأول ما أفعله في الصباح هو انني . . . .

- صبراً يا بنيتي صبراً أمهليني لاتمم لك وصف البيت فافرض ان غرفتك في الطابق الاول .

فالتصقت الفتاة برودلف ولمعت عيناها فرحا وقالت

- غرفتي ! يالها من سعادة !

- نعم غرفتك لها نافذتان تشرفان على حديقة الزهور وعلى غيطان نضرة يسقيها النهر الصغير ومن وراء ذلك النهر سفح جبل تكسوه اشجار سنديان قديمة وترى هناك من خلال تلك الاشجار قبة جرس الكنيسة . وترين من النافذة

اربع ابقار ترعى العشب في حقل مفصول عن الجنينة بسياج من شجر الزيزفون

- يا لحسن حظي اذا كنت ارى الابقار من نافذة غرفتي ولا سيما اذا كان بينها بقرة بيضاء جميلة فانني اعلق في عنقها جرساً واعودها ان تدنو مني وتأكل من يدي

— نعم ان تلك البقرة البيضاء موجودة بين الابقار وانها صغيرة السن وتدعى موزيت . ولكن دعيني أولاً أنتهي من وصف غرفتك. فلنتصور ان جدرانها مكسوة بنسيج عجمي جميل وان ستاير نوافذها من نفس ذلك النسيج. ولنفرض ان شجرة ورد كبيرة معرشة على حائط البيت من جهة غرفتك وان أغصانها تحيط بنوافذها بحيث يمكنك كل صباح أن تمدي يدك وتقطفي طاقة من الورد المبلل بندى الصباح

— انك يامسيو رودلف من أبرع المصورين

— فلننظر الآن في كيف تقضين نهارك . عند الصباح توقظك عمتك من النوم وتقبل جبينك بحنان وتأتيك بشيء من اللبن السخن لان صدرك ضعيف . وبعد ان تشربي اللبن تنهضين وتجولين جولة في المزرعة فترين البقرة موزيت

جمالا . وصارت المغنية تنظر تارة الى تلك الحقول وتارة الى وجه رودلف والذهول باد على وجهها فقال لها رودلف وهو يبتسم .

— ماذا تقولين في هذه المناظر يامغنية : ألست مصوراً ماهراً ؟

فنظرت اليه المغنية نظرة تنم عن الحيرة الممزوجة بشيء من الخوف اذ قد خيل لها ان ما تراه من خوارق الطبيعة وقالت لرودلف

- ماذا أرى ؟ . . . يارباه افي يقظة أنا أم في منام ! لقد بدأ يتولاني الخوف . . . كيف ! ! أتتجسم تلك الخيالات الوهمية التي وصفتها وتصير حقيقة ؟

— لا ابسط من ذلك يابنيتي . . . فان صاحبة هذا المزرعة هي مرضعتي التي ربتني هنا . . . وقد كتبت لها هذا الصباح بانني قادم لاراها وقد اعجبك وصفي لانني كنت اصور لك الطبيعة مثل ما هي

فتنهدت الفتاة تنهداً عميقاً واجابته .

— صدقت يا مسيو رودلف انني لا أرى في هذه المناظر

الطبيعية شيئاً خارقاً للعادة

وكانت تلك المزرعة واقعة عند اخر قرية بوكينفال وهي قرية صغيرة منفردة مجهولة وتبعد عن ايكوان مسافة مرحلتين وبناء على طلب رودلف سارت العربة في طريق تظللها اشجار الكرز والتفاح المغروسة على جانبيها .

وكانت المغنية صامتة حزينة على رغم ارادتها مما جعل رودلف يأسف أسفاً شديداً لانه كان السبب في حزنها وبعد بضع دقائق مرت العربة أمام باب فسحة المزرعة وظلت تسير حتى وقفت أمام باب خشبي تظلله اغصان دالية عتيقة فقال رودلف لرفيقته

— ها قد وصلنا يابنيتي . فهل أنت مسرورة ؟

— نعم يا مسيو رودلف . ومع هذا يخيل الي الآن بأن سيتولاني الخجل حينما اقابل صاحبة المزرعة فلا اجسر على النظر اليها

لماذا ؟

— صدقت يامسيو رودلف انها لا تعرفني

ولم تملك المغنية نفسها عن التنهد وقد رأت حين وصولها

ما اثبت لها أن أهل المزرعة كانوا ينتظرون قدوم رودلف لانه ما كاد السائق يفتح باب العربة حتى اقبلت امرأة تناهز الخمسين مرتدية ثياباً بسيطة ولكنها على غاية من النظافة وهيئتها تنم عن الحزن والدعة والنباهة فتقدمت نحو رودلف وقابلته باحترام ولهفة ولما ابصرتها المغنية احمر وجهها خجلا ولم تنزل من العربة الا بعد تردد ولما دنت صاحبة المزرعة من رودلف قال لها

— أسعد الله نهارك يامدام جورج اترين كيف اني ادقق في انجاز الوعد

ثم انه نقد الحوزي اجرته وقال له لم اعد في حاجة اليك فيمكنك أن تعود الى باريس

ودنت المغنية من رودلف وعلامات القلق بادية على وجهها وقالت بصوت خافت لا تسمعها مدام جورج

— يا رباه . كيف ارجعت العربة الى باريس يامسيو رودلف؟

— نعم ارجعتها ...

— وبونيس صاحبة الخمارة ؟

- ماذا تعنين ؟

- واسفاه لا بد لي من الرجوع اليها الليلة لا بد من ذلك حتما والا تعاملني معاملة السارقة . . . فان هذه الثياب التي عليّ ملك لها . . . فضلا عن انني مديونة لها . . .

- ارجوك أن تطيلي بالك ولا تؤاخذيني . . .

- لا أواخذك . . . وعلى مَ ؟

- على انني لم أقل لك قبل الآن بانك ما عدت مديونة لصاحبة الخمارة فانني دفعت اليها كل ما كان عليك من الدين . ويمكنك الان ان تقيمي هنا اذا اردت وان تبدلي هذه الثياب التي عليك بثياب اخرى تعطيك اياها مدام جورج فان لها قامتك ولا تمتنع عن أن تعيرك بعض ثيابها . وهي منذ الآن ستبداء في أن تكون لك بمثابة العمة .

وبينما رودلف يتكلم كانت الفتاة تنظر تارة اليه وتارة الى مدام جورج وهي لا تصدق ما ترى وما تسمع كانها في منام ثم قالت بصوت مرتجف لشدة الانفعال

- كيف ! الا اعود الى باريس ؟ . . ايمكنني أن اقيم هنا ؟ وهل تسمح لي هذه السيدة بذلك ! . . . امكن هذا ؟

أصدق ما كنت أبنيهِ من القصور والعلالي في عالم الخيال ...

فقال لها رودلف

- نعم قد حقق الله امالك

لا ... لا ... اني لا استحق كل هذه السعادة

ان كل الحظوظ التي ينالها المرء من دنياه لا تجعله سعيداً

- أواه ! اشفق عليّ يامسيو رودلف ولا تسخر بي ولا تغشني فان ذلك يضربي

فاجابها رودلف بصوت مملوءه الحنان

- صدقي ما أقوله لك أيتها الفتاة فاعيد عليك بانه يمكنك البقاء في هذه المزرعة والتمتع بالقرب من مدام جورج بتلك العيشة الهنيئة التي وصفتها لك ونحن في الطريق وقد سرك وصفها ولو ان مدام جورج ليست عمتك فانها ستهتم بك اهتماماً شديداً يضارع اهتمام الام بولدها واذا سئلت عنك تجيب بانك ابنة أخيها ولا بأس من هذه الكذبة الصغيرة فانها ترفع مقامك في أعين المزارعين . . . فانت المخيرة اذن في تحقيق آمالك أو خيبتها

فبدت على وجه المغنية علامات الدهشة والشكر وترقرق

الدمع في عينيها فسال على خديها وهتفت قائلة

— انك اذن يا مسيو رودلف ملاك من السماء لانه لا يفعل فعالك الكريمة ويأت بناصر التعساء ويخفف عنهم وطأة الشقاء الا ملائكة السماء

فابتسم رودلف ابتساماً مملوءه الحنان والرقة وقال لها

— اعلمي يا بنيتي بانني وان كنت صغيراً قد تحملت من الآلام مالا قبل لغيري به . فقد فقدت ابنة لو انها بقيت لكانت الآن من عمرك . . . وهذا يبين لك السبب الذي لاجله اشفق على التعساء ذوي الآلام ولا سيما أنت يازهرة مريم أو بالحري ياماري وهكذا ادعوك من الآن فصاعدا . فاذهبي مع مدام جورج الى الغرفة المعدة لك وقبل ذهابي نتحدث معاً فاتركك وأنا سعيد اعلمي بانك أصبحت سعيدة

فلم تجب زهرة مريم بكلمة ولكنها جثت على ركبتيها وأمسكت بيد رودلف وقبلتها و بللتها بدموع الشكر والسرور ثم تبعت مدام جورج وهذه تنظر اليها وتعجب من جمالها ورقة عواطفها

الفصل الخامس

موروف ورودلف

وبعد ذهاب زهرة مريم الى غرفتها مع مدام جورج دخل رودلف فناء المزرعة فوجد هنالك الرجل الطويل القامة الذي كان متنكراً بزي فحام وجاء الخمارة وانذر رودلف بقدوم توم وساره

واسم هذا الرجل موروف وهو كهل يناهز الخمسين وقد خط الشيب شعره . عريض الوجه احمره حليق الذقن . له الفتان قصيرتان شقراوان مستديرتان على خده بشكل الهلال

وكان موروف هذا على رغم سنه وسمنه نشيطا سريع الحركة . وعلى رغم هيئته الدالة على برودة الطبع كانت تظهر عليه علامات الطيبة وثبات الرأي ولم يكن من أصحاب المزارع بل كان انكليزياً من علية القوم

ولما دخل رودلف الفناء وجد موروف واقفاً امام عربة سفر صغيرة وهو يضع فيها طبنجتين بعد أن اعتنى بتنظيفهما فقال له رودلف

— لمن أعددت هذا السلاح ؟

— هذا أمر يعنيني وحدي يامولاي . فاهتم أنت بامورك وأنا أهتم بأموري

— هل طلبت أعداد الخيل ومتى يكون ذلك ؟

— يكون كل شيء معداً متى جنّ الليل حسب أمرك

— هل وصلت هذا الصباح ؟

— نعم وصلت عند الساعة الثامنة صباحاً بحيث أمكن مدام جورج ان تعد كل شيء على مهل

— أراك عبوساً . فمابا لك ؟ ألست مسروراً مني ؟

— ألا يمكنك يامولاي اتمام العمل الذي صممت عليه بدون ان تعرض نفسك للاخطار ؟

— لا بد لي ياصاحبي من ان ارتدي بملابس القوم الذين أريد معرفتهم والتخلق باخلاقهم واتباع عوائدهم ليمكنني الاختلاط بهم من دون ان تخامرهم بي الظنون

— ولكني أرى هذه الوسائل كلها لا تجدي نفعاً فقد رأيت ليلة الأمس حين ذهبنا عند باروج لنقف منه على أخبار ذلك التعس ابن مدام جورج كيف ان ذلك القاتل

الذي صادفته في مدخل بيت براروج انقض عليك حين اعترضته وهو يتهدد الفتاة وأراد الفتك بك وكم تحملت من الالم في ردع نفسي عن الذهاب الى معونتك

— انك اذن لست واثقاً من قوتي وشجاعتي يا مسيو موزف ؟

— لا بل انا واثق من ذلك كل الوثوق اذ انك اثبته لي مراراً عديدة . فاحمد الله على أن برتران الالماني علمك ضرب السيف وكراب علمك الملاكمة . ولا كور الباريسي علمك الضرب بالعصا والكلام بالارجو اذ كنت في حاجة الى كل تلك التعليم لتخرج فائزاً من كل اعمالك الخطرة . هذا فضلاً عن انك شجاع مقدام ولك عضلات تحاكي الفولاذ في مكانتها . وعلى رغم ضمور جسمك ونحول خصرك تصرعني بسهولة وتتغلب عليَّ كما يتغلب حصان السباق على حصان المعصرة . . . هذه هي الحقيقة . . .

— ما الذي تخشاه اذن ؟

— لا ازال مصراً على رأيي وهو أنه لا يليق بك التحرش بالرعاع الذين تصادفهم ولا تتصور ان الذي يحدو بي الى

النصح هو ما اتحمله من المشقة والحياء حين اتخفى بزي فحام واسود وجهي بالفحم فاصبح كالشيطان الرجيم وأنت تعلم اني من أشراف القوم ويعلم الله انني لا أشكو من ذلك على ما فيه من الانحطاط وعلى رغم شيبي ورزانتي لا احجم عن التخفي بزي رقاص على الحبل اذا وجدت في ذلك فائدة تعود عليك

— لا ريب عندي في ذلك يا مورف لعلمي انك اذا صممت على أمر ونقشته في مخيلتك لا يقوى الشيطان على نزعه ولو تثلمت مخالبه وتكسرت انيابه

— انك تطنب في مدحي يا مولاي ولا شك انك مصمم على ...

وتوقف مورف عن اتمام عبارته فقال له رودلف

— لا تخف اتم عبارتك

— لا شك انك مصمم على عمل تتهور فيه تهور المجانين

— انك أيها المسكين تضيع وقتك في نصحي ولا سيما انني أرى نفسي الان في سعادة افاخر بها ... فانني هنا ..

— نك هنا في مكان صنعت مع أهله الخير فلا أجهل

ذلك وان هذه المزرعة النادرة المثال التي اسستها في هذه البقعة لم تبتغ منها سوى اجازة الحراث النشيطين ذوي المبادي القويمة وتعليمهم وتشجيعهم . وهو عمل يعود بالفوائد الجمة على أهل هذه البقعة أن بعض الناس الابرار يهتمون باصلاح انواع الحيوان أما انت فتهتم باصلاح حال الانسان وهو من الاعمال التي يفاخر بها . . . . وافضل ما فعلت انك جعلت مدام جورج مديرة لاعمال هذه المزرعة. اما الفتاة الجديدة التي احتضنتها واكتنفتها بعنايتك . . . كفى يامولاي انك لبيب تفهم بالاشارة فلا تدعني اطيل الحديث في هذا الموضوع

— لماذا يامورف ؟

— انك يامولاي تفعل كل ما يخطر على بالك . . .

فاجابه رودلف وقد خانه الصبر

— انني افعل ما اراه عدلا

— قد يخيل اليك ان كل ما تفعله عدل وكثيراً ما يخطىء ظنك

فاجابه رودلف بلهجة شديدة لا بل انني أفعل ما هو عدل أمام الله وضميري

— لقد قلت لك اننا نختلف في الرأي فدعنا من هذا الجدال

انما نحن باختلافٍ عقولٍ * مثلما نحن باختلاف وجوه

فاستولى الغضب على رودلف وقال بصوت الآمر

— وانا احتّم عليك الكلام

فاجابه مورف بأنفة

— انك ما امرتني قط بالسكوت حين اتكلم يا مولاي الامير فلا تعودني الامر بالكلام حين أريد السكوت

فازداد غضب رودلف وقال بصوت متهدج

— انت تعلم يامسيو مورف انني لا احب السكوت عما يجب الاباحة به

فاجابه مورف بعنف

— فليعذرني سيدي الامير لأن السكوت من مصلحتي

— ان انا تنازلت معك الى حد أن يرتفع التكليف بيننا فهذا اقبله على شرط ان تكون حر الضمير في كل شؤونك معي

ويصعب وصف ما بدا على وجه رودلف من العظمة عندما تكلم بهذه الكلمات الاخيرة فاجابه مورف

— قد بلغت الخمسين من عمري عرفت بسمو الآداب فما كان ينبغي لك ان تكلمني بمثل هذا الكلام

— اخرس !!

— ماذا تقول ياسيدي ؟

— اقول لك اخرس !!

فاجابه مورف بفتور

— لقد اخطأت يا سيدي في معاملتك لي هذه المعاملة حتى جعلتني اتذكر سابق خدمتي لك

— خدمتك !! الست اكافئك عليها من كل وجه ؟

ولا بد لنا من التصريح بان رودلف لم يقصد من كلماته القاسية اهانة مورف باعتباره خادماً عنده . ولكن هذا حملها على ذلك المعنى لسوء الحظ . فاحمر وجهه خجلاً ووضع يديه على رأسه بهيئة المهان المتألم . ثم تغيرت هيئته بغتة والقى نظره على رودلف الذي كان وجهه منكمشاً لشدة الغضب وقال له بصوت ينم عن الانفعال النفسي

— عد الى صوابك يا مولاي فلستَ مصيباً فيما أظن

غير ان هذه الكلمات زادت في غضب رودلف . فقدح الشرر من عينيه وأبيضت شفتاه واقترب من مورف بهيئة المتهدد وصرخ

— لقد تجاسرت جداً ...

فتقهقر مورف الى الوراء وقال بحدة غير مالك نفسه

— اذكر يا مولاي يوم ١٣ يناير

فكان لهذه الكلمات تأثير سحري على رودلف فانبسط وجهه بعد أن كان عابساً من شدة الغضب وحدق في وجه مورف ثم خفض رأسه وبعد سكوت وجيز قال

— آه يا صاحبي انك قاس .. قد كنت اظن أن ندمي ... وتوبخ ضميري .... ومع كل هذا اسمع منك هذا ...

ولم يقو رودلف على اتمام عبارته فاختنق صوته وانطرح على مقعد كان هناك واخذ رأسه بين يديه فلما رآه مورف على تلك الحال اخذ منه الاسف كل مأخذ وقال له

— عفواً ايها السيد الكريم اصفح عن مورف صديقك القديم . واعلم انني لم اجسر على تذكيرك بذلك اليوم العصيب الا حين خانني الصبر وصرت اخشى عليك لا عليّ عواقب غضبك . وقد قلت ما قلت بلا غضب ولا توبيخ . قلته على الرغم مني ومن باب الاشفاق عليك . فبحقك قل لي انك قد عفوت عن ذنبي في تذكيرك بذلك اليوم المشؤم .

فرفع رودلف رأسه وهو اصفر الوجه وقال لرفيقه بصوت خافت

— كفى كفى يا صاحبي انني اشكرك على انك خففت من وطأة غضبي بكلمة واحدة . ولا اعتذر لك عما اظهرته من الغلظة في الحديث لانك تعرف أن بين القلب والشفتين بوناً بعيداً . وقد كنت فاقد الصواب حين كلمتك بتلك اللهجة. فدعنا الان من هذا فلا فائدة من العودة اليه ولنعد الى الحديث الذي كنا في صدده من قبل . انك كنت دائماً تمدحني على انشاء هذه المزرعة وعلى اهتمامي بشؤون مدام جورج وانت تعلم أن هذه المرأة تستحق عنايتي نظراً لصفاتها النادرة المثال ولما اعتراها من المصائب . فقد رأيت من المروءة ان آخذ بيدها ولو انها ليست من الاسر التي كان لها فضل علي والدي .

— انني يا مولاي ما زلت استصوب حسن صنيعك مع مدام جورج

ولكنك متعجب لاخذي بناصر الفتاة الفقيرة التي اتيت بها اليوم الى هنا اليس كذلك ؟

— العفو . العفو يامولاي ... لقد اخطأت .. لقد اخطأت

— لقد خدعتك الظواهر ايها الصديق ... ولكن بما انك تعرف حياتي كلها وتساعدني بكل امانة وشجاعة على الاعمال التي آتيها للتكفير المفروض عليّ ارى من الواجب اقناعك بانني لا اعمل عملا الا بعد التروي وامعان الفكر وانت تعلم ان لي مذهباً خاصاً في عمل الخير اذا كان فاعله يجمع بين العلم والارادة والمقدرة ... ان الاخذ بيد البؤساء والمستغيثين الذين اختى عليهم الدهر امر حسن . والبحث عن المعوزين اللذين يناضلون بعزة نفس وثبات جاش في مكافحة الدهر والاخذ بناصرهم واراحتهم من نير الشقاء الذي يدفعهم الى ارتكاب الجرائم عمل احسن والافضل من هذا وذاك تقويم أود المعوجين الذين ضلوا سواء السبيل ولا تزال فيهم بقية من العواطف الشريفة .

— انني يا مولاي لم اقصد في ما قلت انك وضعت احسانك في غير موضعه

— اصغ الي ايها الصديق انت تعلم ان الولد الذي مات ولا ازال ابكيه كل يوم والذي زادني شغفاً به نفور امه اللئيمة ساره منه لو انه عاش لكان عمره اليوم ستة عشر سنة مثل هذه

الفتاة التعسة وانت تعلم ايضاً انني لا اتمالك عن الاشفاق على كل الفتيات اللواتي في هذا السن.

— صدقت يا مولاي ... وكان يجب عليّ ان انسب الى ميلك هذا اخذك بناصر المغنية

— ألا تستحق الشفقة والاعتبار تلك، الفتاة التعسة التي نبذت وتركت وشانها تكيفها عوامل السليقة كيف شأت. فعذبت وسلبت واستعبدت ولطخت بالعار وعلى رغم كل هذا ظلت محافظة على بعض المباديء القويمة والعواطف النبيلة فلو انك سمعت تلك الفتاة المسكينة تتكلم لاشفقت عليها مثلي . فانها اول ما رأت انني ميال الى اغاثتها وحين سمعت مني اول كلمة تنم عن المحبة الطاهرة طفحت نفسها النقية باشرف العواطف وارق الافكار واسلم الاذواق فبعد ان حدثتها ساعة من الزمن وجدت فيها كنزاً من الطيبة والوداعة والرزانة .... نعم نعم يا صديقي مورف وجدت هذه الفتاة رزينة عاقلة فأثر بي ذلك تأثيراً شديداً حتى بكيت ...

ثم بدرت من رودلف التفاتة الى جهة البيت فقال لرفيقه

— كفى الان ها هي مدام جورج وماري مقبلتين ..

نجهز كل معدات السفر وكن على استعداد اذ لا بد لنا ان نكون في باريس باكراً

ولما عادت الفتاة كانت هيئتها تدل على التفكير والكآبة ذلك لان بعض انواع السعادة تحزن النفس

ولم يعجب رودلف لانقباض الفتاة لانه كان يتوقع ذلك ولو انه رأها مشرقة الوجه متهللة فرحا لكانت هبطت منزلتها في عينيه

اما هيئة مدام جورج فكانت تدل على ان هذه المرأة قد نالها من الاحزان والام النفس نصيب عظيم فكانت تنظر الى زهرة مريم بشفقة وحنان كما تنظر الام الى ابنتها لما وجدته في تلك الفتاة من الدعة واللطف وخفة الروح ولما دنت مدام جورج من رودلف قالت له وهي تشير الى زهرة مريم

— ها هي ابنتي اتت تشكرك على حسن صنيعك معها يامسيو رودلف

فحين سمعت الفتاة هذه العبارة (هاهي ابنتي) ادارت عينيها نحو مدام جورج وظلت برهة شاخصة اليها وعلامات الامتنان بادية على وجهها فقال رودلف لمدام جورج

— اشكرك ايتها الفاضلة بالنيابة عن ماري وارجوك

ان تعتقدي انها تستحق حسن صنيعك معها

فقالت له المغنية بصوت مرتجف

— انت تعلم يا سيدى ان لساني يعجز عن شكرك .

— ان هذا الانفعال الذي اراه باديا على وجهك ينم عن حسن سريرتك

فقالت مدام جورج وهي تشير الى المغنية

— انها ياسيدي تقدر سعادتها هذه حق قدرها وتعترف بانها فضل من ربها

فقالت المغنية .

— ان أفضالك يا مسيو رودلف أحيت آمالي بعد موتها

وكان مورف واقفاً على مقربة ويحاول اخفاء ما أحدثه فيه كلام المغنية من التأثير ولكنه لما سمع عبارتها الاخيرة لم يتمالك عن الالتفات اليها

وقال رودلف للمغنية

لا بد لي يا بنيتي من الانفراد بمدام جورج لاتكلم معها . فاذهبي مع صديقي مورف الى المزرعة فيدلك على الذين سيكونون تحت رعايتك . . وسنلحق بكما بعد حين

ولما ابتعد مورف والمغنية قال رودلف لمدام جورج

— خبريني الآن كيف وجدت ماري ؟

— انها يامسيو رودلف حين دخلت غرفتي ورأت الصليب المعلق على الحائط جثت على ركبتيها تحته ولا يمكنني ان أصف لك جمال تلك الحركة الطبيعيـة الدالة على طهارة النفس وقوة الايمان بمراحم الله وقد لحظت ان عبارات الشكر الـتي قالتها لك عارية عن كل مبالغة وتمليق مما يدل على الصدق

— الحمد لله الذي ضاعف سروري بميلك الى هذه الفتاة ولا شك عندي ان محبتك اياها تزداد يوماً عن يوم لما أعهده فيها من الصفات الحسنة

— والذي أثر بي جداً يامسيو رودلف هو تجردها عن الفضول اذ انها لم تسألني شيئاً عنك وحـين قلت لها : لا شك انك ترغبين في معرفة من هو هذا المحسن اليك ؟ » اجابتني بكل بساطة : « اني اعرفه وهو يدعى المحسن الي » ٠ »

— انك اذن تحبينها يامدام جورج وأؤمل انك تعتنين بها ٠ ٠ ٠

فأجابته بصوت يفتت الاكباد

— نعم سأعتني بها مثلما كنت اعتني به . . .

فأمسك رودلف بيدها وقال لها

لاتدعي القنوط واليأس يستوليان عليك ... نعم ان ابحاثنا عنه لم تجدِ نفعاً حتى الساعة . . ولكن من يعلم ربما يأتي يوم ....

فهزت مدام جورج رأسها وقالت بصوت ملوءه الحزن

— لو بقي لي ولدي لكان عمره الآن عشرين سنة . .

— بل قولي ان عمره الآن عشرون سنة

— أسأل الله ان يسمع تمنيك ويستجيب دعاك

— اما وقفت على خبر من روشفور ؟

فانتفضت مدام جورج وأجابت

— لا ياسيدي لم أقف على خبر بعد

— لعله فال حسن .... اذ لم يبق سبيل للريب بان ذاك الوحش الضاري غاص في الوحل ومات وهو يحاول الهرب من السـ . . .

وتوقف رودلف عن اتمـام نطق آخر كلمة

فصرخت مدام جورج قائلة بلهجة تنم عن الاشمئزازه

لماذا توقفت ياسيدي عن اتمام كلمة السجن ... ويلاه من والد ابني ... ! وأحر قلباه على ذلك الولد ! وياله من عار اذا كان لا يزال على قيد الحياة ولم يغير اسمه مثلي ! ! والادهى من ذلك ان يكون والده أنجز وعده المريع ... ياربا ماذا تراه صنع بولدي ولماذا انتشله مني

فاجابها رودلف بعد أن فكر قليلا

— ماوجدت حلاً لهذا السر الغامض. ولا أدري ما الفائدة التي تعود على ذلك الوحش الشرس من أخذه ولدك يوم أراد الاغتراب منذ خمس عشرة سنة على ما قلت لي ولا سيما ان وجود الولد معه يزيد هربه صعوبة

فارتعدت فرائص مدام جورج لتلك الذكرى وقالت

— أواه يا مسيو رودلف ان زوجي بعد أن القوا القبض عليه عند حدود فرنسا وعادوا به الى باريس وسجنوه وسمحوا لي بزيارته قال لي :

« لقد أخذت ولدك لانك تحبينه وبهذه الواسطة اجبرك على اسعافي بالنقود فانفق منها عليه او لا انفق كما اشاء »

وبعد شهر من ذلك حكموا على زوجي بالسجن المؤبد

ومنذ ذاك الحين ذهبت توسلاتي وتضرعاتي وكتبي اليه أدراج الرياح ولم أعلم شيئاً عما آل اليه امر ذلك الولد التعس ... اواه يا مسيو رودلف ! . . ولدي ! ولدي ! اين هو الآن ؟

— ألم يكن لولدك علامة أو اشارة يعرف بها

— لم يكن له سوى العلامة التي ذكرتها لك ياسيدي وهي حجر من اللازورد منقوش عليه حمامة الروح القدس ومعلق بعنقه بسلسلة من الفضة

— ثقي برحمة الله يا مدام جورج فهو على كل شيء قدير

— اجل انا واثقة برحمته او لم يجعلك معيناً لي اولم تغمرني بفضلك واحسانك ؟

— اين فضلي . واين احساني اني يوم اشتريت هذه المزرعة كنت انت في رغد وبحبوحة من العيش ولم ترضي بادارتها الا لشدة رغبتك في عمل الخير وقد ازدادت ارباحي من هذه المزرعة بفضل نباهتك ونشاطك وحسن ادارتك

— ارباحك !! كيف تقول ارباحك ياسيدي رودلف ولا يدخل جيبك فرنك واحد من ريع هذه المزرعة بل تنفقه جميعه أما في اصلاح حال عمالك وأما في اغاثة المرضى

والمعوزين من أهل القرى المجاورة على يد القسيس لابورث و..

فقاطعها رودلف ليتخلص من سماع مدحه وقال لها

— الشيء بالشيء يذكر. هل اخبرت هذا القسيس الفاضل بمجيء؟ اذ لا بدَّ لي من ان اوصيه بالفتاة ماري. الم يصله كتابي؟

— نعم وقد سلمه اياه مورف حين وصوله هذا الصباح

وقد دار هذا الحديث بين رودلف ومدام چورج في الحديقة وبينما هما يتكلمان جاءهما خادم من خدم المزرعة وقال لمدام جورج

— قد جاء القسيس ياسيدتي وهو في انتظارك

فقال له رودلف

— هل اتيتم بحصانيّ العربة من الحقل؟

— نعم وقد تركت الحوزي يشدهما الى العربة

وكانت مدام جورج وقسيس القرية وكل عمال المزرعة لا يلقبون رودلف بسوى!! مسيو رودلف وهكذا كان يدعوه مورف أمام الناس ولكنه حين ينفرد به ويكلمه يلقبه بالامير ويدعوه يا مولاي.

وبعد انصراف الخادم قال رودلف لمدام جورج وهو عائد معها الى البيت .

— لقد نسيت ان اخبرك يامدام جورج أن ماري ضعيفة الصدر فان عيشة البؤس والتقتير قد أضرت بصحتها وقد راعني مارأيته من اصفرار وجهها صباح اليوم فلا بدّ لنا من الاعتناء بها اعتناء شديداً

— يمكنك الاعتماد عليّ يامسيو رودلف . على انني حمداً لله لا أرى في صحة الفتاة مايدعو الى القلق . ولا ريب عندي انها ستتماثل الى الصحة بعد حين بفضل شبابها وهواء الخلاء الطلق وراحة الجسم والبال والغذاء الجيد

— صدقت ياعزيزتي . . . ولكن يجب عليّ ان استدعي لها طبيباً ينظر في أمرها ولا اعتمد على أطباء القرى ولكنني سأكلف مورف باستدعاء طبيبي الخاص وهو عبد ماهر في صناعة الطب يعيّن لنا الغذاء الموافق للفتاة . ولما اقترب رودلف ومدام جورج من البيت أقبل عليهما مورف وماري عائدين بعد زيارة حقول المزرعة وماشيتها ولما دنا مورف من رودلف أفلت ذراع المغنية وهمس في اذن رودلف وقد امتقع

وجهها خجلا

— لقد سحرتني هذه الفتاة وأخذت بجامع قلبي حتى لم أعد أعرف من أحب لديّ هي او مدام جورج .... لقد كنت وحشاً ضارياً

فصافح رودلف يد مورف وقال له

— انني كنت على يقين أيها الصديق من انك متى عرفت هذه الفتاة لا تلبث ان تستصوب اشفاقي عليها وأخذي بناصرها .

الفصل السادس

(الملتقى)

وفي ظهر اليوم التالي كان رودلف في خمارة البانيه فلوري الكائنة على مقربة من حاجز برسي وكان لابساً ثياب الفعلة مثل عادته .

اما السفاح فقد ذهب عند الساعة التاسعة من ليلة الامس الى المكان الذي عينه له رودلف . وعما قليل يقف القاريء على نتيجة عمل السفاح

قلنا ان رودلف وجد في الخمارة ساعة الظهر وكانت

الامطار تنهمر بغزارة حتى فاض نهر السين لكثرة ماانصب فيه من السيول وارتفع ماؤه وطغى على جانب من الارصفة التي على شاطئيه

وكان رودلف جالساً عند باب الخمارة يسرح بصره نحو الحاجز وقد عيل صدره واخيراً رأى عن بعد رجلا وامرأة متجهين نحوه ماشيين جنبا الى جنب تظللهما شمسية واحدة فعرف انهمامعلم المدرسة والعوراء

ولما اقتربا منه لحظ انهما قد غيرا زيهماتغييراً كلياً. بدل معلم المدرسة اطماره البالية بثياب ذات قيمة وهي ريدنجوت طويلة من جوخ اخضر وقبعة مستديرة وكان لابساً قميصاً وربطة رقبة ناصعي البياض

اما العوراء فكانت لابسة ثياب يوم الاحدالنظيفةوعلى رأسها قبعة بيضاء وعلى كتفيها شال من نسيج يشبه الكاشمير وفي يدها سلةمن القش

وفي تلك الفترة خف وقع المطر فكبح رودلف ما ألم به من الاشمئزاز عند رؤيةمعلم المدرسة والعوراء ومشى لملاقهما ولما التقيا حيته العوراء باحناء رأسها امامعلم المدرسة

تم الجزء الاول و يليه الثاني

الفكاهات العصرية

مجلة روائية أدبية تاريخية

لصاحبها

عبد الله غرابه

السنة الاولى

العدد ١٦

روايات يثوب الكهل منها بتفكهة وتخلية لفكر
ويقرأها الفتى فيطيب نفساً بما يلفيه من خبر وخبر
خليل مطران

رواية

مكنونات باريس

القصصي الشهير في عالم التحرير

اوجين سو

الكاتب البليغ والطبيب البصري البارع

الدكتور ابراهيم شدودي

مطبعة العرب

فبعد ان صافحه قال له بالفرنساوية الفصحى ان خادمك المطيع يا سيدي يتشرف بتقديم خدامته لكم ويتشرف ايضاً بتعرفكم أو بالحري بتكرار تعرفكم لانكم ليلة قبل الامس شرفتموني بلطمتين على وجهي لو وقعتا على رأس كركدن لرنحته ... ولكن ما لنا ولهذا الآن اذ لا شك انك ما قصدت بضربي سوى المزاح المجرد عن كل ضغينة... فارجوك ان لا تفكر في ذلك الامر ... ولا سيما اننا لم نجتمع هنا الا لمصلحة تعود علينا ..

واعلم انني قد رأيت بالامس السفاح في خمارة الارنب الابيض عند الساعة الحادية عشرة ليلا فوعدته بان اوافيه الى هنا هذا الصباح اذا اراد ان يشاركنا في العمل .... ولكن يظهر لي ان لا رغبة له في ذلك.

— وهل ترضى انت ؟

— الا تسمح يا مسيو ... بماذا تدعى ؟

— رودلف

— الا تسمح يا مسيو رودلف بان ندخل خمارة البابيه فلوري لانني انا ورفيقتي لم نذق طعاماً منذ الصباح ..

فيمكننا أن نأكل ونتحدث في آن واحد

— لك ما تريد

— ويمكننا أن نتحدث اثناء الطريق . ولا بد لي قبل كل شيء ان أقول لك بانك أنت والسفاح ملزومان بتعويض لي ولرفيقتي . . . فاننا بسببكما قد اضعنا اكثر من الفي فرنك وبيان ذلك أن العوراء كانت اتفقت مع رجل من علية القوم على ملاقاته عند سانتوان وهو ذلك الرجل اللابس ثياب الحداد الذي دخل خمارة الارنب الابيض ليلة قبل الامس للسؤال عنك . وقد وعدنا بالفي فرنك اذا قمنا بعمل يطلبه منا... واوضح لي السفاح عن ذلك بوجه التقريب

ثم التفت معلم المدرسة الى العوراء وقال لها

— اسبقينا يا عزيزتي الى الخمارة وانتقي لنا مائدة في قاعة الاكل ومري الخادم باعداد طعامنا

— ما هو الطعام الذي اطلب اعداده ؟

— بضع قطع من الكستليته وقطعة من لحم العجل وشيء من السلطة وزجاجتان من النبيذ الجيد ... اسرعي ونحن على اثرك

واثناء الطريق لم ترفع العوراء نظرها عن رودلف ولما طلب منها معلم المدرسة ان تسبق الى الخمارة نظرت اليه نظرة كلها معان ثم ذهبت وعاد معلم المدرسة فقال لرودلف

— قلت لك يا مسيو رودلف ان السفاح اطلعني على ما يريد عمله معك ذلك الرجل الغني ذو ملابس الحداد مقابل الفي فرنك التي وعدنا بها

— حسن. حسن ....

— انا لا ارى الامر حسناً مثلك ايها الشاب لان السفاح قابل العوراء صباح الامس بالقرب من سانتوان وظل ملازما لها وحين رأى الرجل الغني مقبلا لم يفارقها طرفة عين ولذلك لم يجسر الغني من الدنو منها وبناء على ذلك لا بد لكما بتعويض الفي فرنك التي خسرناها

— لا اسهل من ذلك يا صاحبي ... ولكن فلنعد الى ما كنا في صدده. قلت لك انني عرضت على السفاح عملا من وراءه ربح عظيم فرضي اولا بالقيام بالعمل ثم تردد ورفض

— انا اعلم منك باطوار السفاح الغريبة ...

— ولما رفض السفاح القيام بالعمل الذي عرضته عليه

قال لي ان امتناعه عن اكل الخبز المغموس بالدم لا يحول دون البحث عن رجل اخر يقوم بذلك العمل وانك انت افضل من يقوم به.

— ولكن الا قلت لي لاي سبب اجتمعت بالسفاح صباح الامس في سانتوان مما جعله يصادف العوراء هنالك؟ لانني حين سألته عن هذا الامر اجابني جواباً مبهما لم افهم منه شيئاً.

فعض رودلف على شفته وبعد أن تردد لحظة توفق الى تلفيق حكاية يدفع بها ما فاه به السفاح فقال لمعلم المدرسة

— اليك بيان الامر ... أن العمل الذي اعرضه على الراغبين حسن جداً لان صاحب البيت الذي نوهت لك عنه غائب في الضواحي ... وكنت خائفاً أن يعود الى باريس فلكي اكون على بينة من الامر ذهبت الى بييرفيت حيث يوجد البيت المذكور وبعد السؤال والاستفهام علمت أن الرجل غائب وانه لا يعود الا بعد غد.

— حسن. حسن ولذلك لم يجبني على سؤالي وهو : لماذا تواعدتما انت والسفاح بالمقابلة في سانتوان ؟

— يظهر لي انك قليل الذكاء ... كم هي المسافة من بييرفيت الى سانتوان ؟

— هي مرحلة تقريباً

— وكم هي المسافة من سانتوان الى باريس ؟

— هي مرحلة أيضاً

— فلوانني لم اجد احداً في بييرفيت اعني لو وجدت البيت هناك خالياً مقفراً لكان في الامكان ان اقوم بعمل حسن ايضاً ولو انه دون العمل في باريس ... فعدت الى سانتوان ابحث عن السفاح الذي كان ينتظرني هناك لاعود به الى بييرفيت من طريق اعرفها و...

— فهمت ولو وجدت أن العمل يجب أن يكون في باريس ..

— كنا نعود على العقب الى حاجز النجمة عن طريق الريفولت ومن هنالك نذهب الى ممشى فيف...

— فهمت الامر الآن فهو بسيط للغاية فانكما بوجودكما في سانتوان تكونان كالقابضين على الحبل من طرفيه مما يدل على دهاك ايها الشاب. وقد فهمت السبب الذي

لاجله وجد السفاح في سانتوان . . . وقلت اذن أن البيت الكائن في ممشى فيف سيبقى مهجوراً الى بعد غد

— نعم لا يكون فيه احد . . . سوى البواب

— هذا أمر معلوم . . . . وهل من وراء هذا العمل فائدة تذكر ؟

— الفائدة ستون الف فرنك ذهبا موجودة في غرفة صاحب البيت

— وهل تعرف سكان البيت ؟

— مثلما أعرف اصابعي

— كفى الآن اسكت . . . لقد وصلنا الى الخمارة فاياك أن تنبث ببنت شفة على مسمع من احد . ادخل بنا فقد صاحت عصافير بطني لشدة الجوع

وكانت العوراء واقفة عند باب الخمارة فلما رأت معلم المدرسة ورودلف نادتهما وقالت لهما وهي تشير بيدها

— الى هنا ! الى هنا ! . . . لقد اوصيت باعداد طعامنا

ولما وصلا الى باب الخمارة حاول رودلف لسبب يعلمه

هو أن يجعل معلم المدرسة يتقدمه في الدخول ..

غير أن هذا اصر على التظاهر بالتواضع وباكرام رودلف وظل واقفاً حتى رأى رودلف ان لا بد له من الدخول أولا فدخل . وحين جلس الثلاثة حول المائدة التي اختارتها العوراء قرع معلم المدرسة الحائط باصبعه ليتحقق من سماكته ومن أن الصوت لا يخترقه ثم قال لرودلف

— أرى هذا الحائط سميكا فلا موجب والحالة هذه الى التكلم بصوت خافت وساطلب من الخادم أن يأتينا بطعامنا كله مرة واحدة بحيث لا يعود الينا و يسمع حديثنا

وما كادوا يستقرون في أماكنهم حتى اتتهم بالطعام خادمة من خادمات الخمارة وقبل أن يغلق الباب الذي دخلت منه رأى رودلف الفحام مورف الذي عرفه القارىء جالسا على مائدة في غرفة مجاورة

وكانت الغرفة التي اختارتها العوراء مستطيلة الشكل قليلة العرض ولها نافذة تشرف على زقاق وهي مقابلة للباب واتفق أن جلست العوراء على المائدة بحيث أصبحت النافذة وراء ظهرها والباب أمام وجهها وكان رودلف جالسا الى

جانب من المائدة ومعلم المدرسة الى الجانب الاخر . فبعد ان خرجت الخادمة انتقل معلم المدرسة الى جانب رودلف فاصبح حائلا بينه وبين الباب وقال له قد اقتربت منك ليسهل علينا الحديث فلا نضطر الى رفع اصواتنا ...

— نعم . . . وفي انتقالك الى هنا فائدة اخرى وهي أن تحول بيني وبين الباب لتمنعني عن الخروج

فهز معلم المدرسة رأسه علامة للايجاب ثم انه اخرج من جيبه حربة صغيرة بحجم ريشة الوز ولها قبضة من خشب وأراها لرودلف وقال له

— انك لبيب تفهم بالاشارة فانظر الى هذه الحربة وافهم . .

قال ذلك وقد تقطب حاجباه وتجعد جلد جبهته العريضة المنبسطة الشبيهة بجبهة النمر وكشر عن ناب الغضب

وقالت العوراء لرودلف

— وكن متحققا ايها المحترم انني قد شحذت هذه الحربة التي رأيتها شحذاً لا يبقي ريباً في حسن مفعولها

فلم تظهر على رودلف أقل علامة تدل على الخوف ولكنه اخرج من تحت ردائه مسدساً واراه لمعلم المدرسة

ثم اعاده الى جيبه من دون أن يفوه بكلمة

فقال له معلم المدرسة

— حسن جداً . . . ان كلا منا نبيه يفهم بالاشارة فاعلم انه لو فرضنا المحال وداهمتني رجال الشرطة سواء كنت أنت دافعهم الى ذلك أولا فلا أبقي على حياتك طرفة عين وأوردك حتفك بالحربة التي رأيتها

فقالت العوراء لرفيقها

— وأنا أعاونك وانقض عليه كاللبوة

فلم يجبها روداف بكلمة بل هز كتفيه علامة لعدم الاكتراث وملأ كأساً من النبيذ وشربها . فدهش معلم المدرسة لثبات جاشه وقال له

— ماقصدت في ما قلت سوى انذارك . . .

— حسن ! حسن ! أعد حربتك الى جيبك اذ لا يوجد هنا دجاجة لتذبحها وأنا ديك عتيق كاسر فدعنا نتكلم في العمل الذي اجتمعنا لاجله

ثم وجه حديثه الى العوراء وقال لها

— أحقيق مايقال بانك تعرفين أقارب المغنية ؟

— ان في جيب رجلي كتابين مذكور فيهما شيء عن ذلك . . ولكن المغنية الفاجرة لن تراهما أبداً . . . ولسوف اقتلع عيني تلك الفتاة اللعينة باصابعي . . . فاذا رأيتها بشرها بان سأناقشها الحساب يوم أراها في خمارة الارنب الابيض .

فقال لها معلم المدرسة

— اننا نكثر من الكلام الفارغ الذي لاطائل تحته وننسى الامر الذي اجتمعنا لاجله

فسأله رودلف وهو يشير الى العوراء

— هل يمكننا ان نتكلم امامها

— نعم يمكننا ذلك بلا حذر لانني قد خبرتها وثبرت غورها فعرفت انها من النساء النادرات الكاتمات الاسرار فضلا عن انها تكون لنا معينة وقت العمل فتتنسم الاخبار وتقف بالمرصاد ولا يمكنك ان تحصي الفوائد التي نلتها على يدها

ووجه معلم المدرسة حديثه الى تلك الحيزبون الشنيعة الصورة وقال لها

— انزعي عنك هذا الشال وضعيه على كرسيك لكي

تلبسيه حين نخرج من هذه الغرفة الدافئة فلا يضر بك البرد..

فنزعت العوراء الشال عنها واذ ذاك بدرت من رودلف حركة تدل على الدهشة اذ رأى على صدر العوراء حجرا جميلا من اللازورد معلقاً في عنقها بسلسلة من فضة ومنقوش عليه حمامة الروح القدس . وكل ما في ذلك الحجر الجميل ينطبق تمام الانطباق على وصف الحجر الذي كان معلقاً في عنق ابن مدام جورج حين اختفائه

وللحال ذكر رودلف ان السفاح أخبره بان معلم المدرسة هرب من السجن منذ ستة شهور وشوه وجهه لكي لا يعرفه رجال البوليس . . . وذكر ان زوج مدام جورج هرب من السجن منذ ستة شهور ولم يعرف أحد ماذا جرى له . فقال في نفسه !

— لا يبعد ان يكون معلم المدرسة هذا هو زوج تلك المرأة التعسة بعينه واذا صدق ظني يكون هذا الرجل اعلم الناس بما آل اليه أمر ولدها فضلا عن ان لديه بعض أوراق يستدل منها على أصل المغنية مما يجعلني ازداد أصراراً على اتمام العمل الذي نويته

ثم انه قال للعوراء وهو يشير بيده الى صدرها

— ما أجمل هذه السلسلة الفضية !

فاجابته العجوز وهي تضحك

— نعم هي سلسلة جميلة . . . . ولكنها رخيصة الثمن لانها من سقط المتاع . على انني سأظل ألبسها حتى يجود عليَّ رجلي بأحسن منها . . .

فقال لها معلم المدرسة وهو يشير الى رودلف انك تحصلين على ما تمنين أو لا تحصلين عليه بحسب ما يكون من أمرنا مع حضرته . . . ولكن كوني مطمئنة البال

فقال رودلف للعوراء وهو لا يزال مشيراً الى السلسلة

— ما أدق صناعتها ! . . وما هو هذا الحجر الازرق المعلق بها ؟

— هي أيضاً هدية من زوجي وسأظل ألبسها حتى يشتري لي ساعة .

ثم نظرت الى معلم المدرسة وأردفت

— أليس كذلك أيها العزيز ؟

فرأى رودلف من كلام العوراء ما يثبت صدق ظنه

وظل ينتظر جواب معلم المدرسة فقال هذا للعوراء

— واشور عليك ان لا تنزعي هذا الحجر من عنقك ولو اشتريت لك ساعة لانه مجلب للسعد

فقال له رودلف بلهجة تدل على عدم الا كتراث بالامر

— انك تشير عليها بابقاء هذا الحجر كتميمة . فهل تصدق ما يقال عن التمائم والتعاويز؟ وهل لك ان تدلني على الدكان التي اشتريت منها هذا الحجر؟

— لقد بطلت هذه الصناعة اليوم يامسيو رودلف وقفلت الدكان التي اشتريت منها هذا الحجر ... وان أنت أمعنت النظر فيه لعلمت انه من الآثار القديمة ... ولذا تراني شديد المحافظة عليه ولا سيما انه تذكار من أهلي ... ولكن مالنا ولهذا الآن فدعنا نعود الى الحديث الذي كنا في صدده . قلت لي ان في ممشى القيف ..

— يوجد بيت نمرته ١٧ يسكنه رجل من الاغنياء يدعى ... المسيو ...

— لا يهمني ان اعرف اسمه .... ولكن يهمني ان أعرف ما عنده ألم تقل لي انه يوجد ستون ألف فرنك في

غرفته ؟

فحملقت العوراء بعينيها وهتفت قائلة وقد أخذت منها الدهشة كل مأخذ

— ستون ألف فرنك !

فاشار رودلف برأسه اشارة ايجاب فقال له معلم المدرسة

— وهل تعرف أهل البيت كلهم ؟

— نعم أعرفهم حق المعرفة

— وهل يصعب الدخول الى هذا البيت ؟

— ان للبيت صوراً من جهة ممشى الفيف يبلغ ارتفاعه سبعة اقدام ومن وراء السور حديقة تشرف عليها النوافذ التي لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة اقدام عن ارض الجنينة اذ ليس للبيت سوى طابق واحد ولا يوجد فيه احد سوى البواب لحراسة الكنز

— وما هي الخطة التي تشور باتباعها ايها الشاب ؟

— ان الخطة التي اتصورها بسيطة جداً وهي تسلق الحائط وخلع باب البيت او فتح احدى النوافذ من الجنينة فما تقول في ذلك ؟

— لا يمكنني ان اجيبك قبل ان افحص المكان بنفسي

ولكن اذا صح ما تقول ارى ان نشرع في العمل هذه الليلة قبل فوات الوقت

— هذه الليلة ؟ لا يمكن . . .

— لماذا لا يمكن ؟ ألم تقل لي ان صاحب البيت لا يعود اليه الا بعد غد ؟

— نعم ولكن لا يمكنني الشروع في العمل هذه الليلة ..

— وانا لا يمكنني العمل غداً

— لاي سبب ؟

— لنفس السبب الذي يمنعك عن العمل هذه الليلة .

فاطرق رودلف و بعد ان فكر هنيهة اجاب

— لك ما تريد . . اني اوافقك على الشروع في العمل هذه الليلة .. فاين يمكننا أن نلتقي ؟

— اننا لا نفترق منذ الساعة

— كيف ذلك ؟

— لاية علة نفترق فها قد صفا الجو وانقطع المطر فيمكننا ان نذهب تواً الى ممشى الفيف لنلقي نظرة على البيت ونرى هنالك كيف تحسن العوراء العمل وبعد أن ننتهي من فحص

المكان نذهب الى خمارة تحت الارض بالقرب من الشانزليزيه فنتعشى هنالك ونلعب (البيكيتو) وبما أن ممشى الفيف يقفر باكراً فيمكننا أن نذهب اليه عند الساعة العاشرة ليلاً

— فقال له وودلف

— وانا اعود اليكما عند الساعة التاسعة

— اتريد أن تشاركنا في العمل أم لا ؟

— اريد

— لا ينبغي لنا اذن أن نفترق هذه الليلة ... والا .. يتولاني الريب واظن انك تكيد لنا مكيدة !

— امرتاب انت مني ؟ ...

— نعم لا انكر عليك ذلك ... ولكن بما انه يجوز أن يكون في العمل الذي عرضته علي شيء من الحقيقة فلا يسعني الا المجازفة لان نصف الستين الف فرنك التي اربحها من وراء ذلك العمل هو مبلغ جسيم لا يستهان به. على انني أن لم اقدم على هذا العمل الليلة فلا اقدم عليه ابداً فان ظللت مصراً على مفارقتنا هذه الليله فايقن بانني اكافئك على ذلك بما تستحقه عاجلا او اجلا

– وانا اكيل لك بنفس الكيل الذي تكيل لي به وازيد (مرحبا بك)

فقالت العوراء لرودلف كل ما تقوله كلام فارغ فارى مثل معلم المدرسة ان نشرع في العمل الليلة او لا نقدم عليه ابداً

وكان رودلف في حالة كدر واضطراب شديدين وخشي ان تفوته هذه الفرصة فيفر معلم المدرسة من بين يديه ولا يعود يمكنه الحجر عليه في مكان أمين . أو ان يلقي رجال الشرطة القبض عليه ويعيدوه الى السجن فلا يعود يمكنه استطلاع أسراره فاعتمد على معونة الاقدار وعلى مهارته وشجاعته . وقال لمعلم المدرسة

– رضيت بشرطك فلن نفترق الليلة

– اني اذن طوع أمرك . وقد دقت الساعة الثانية بعد الظهر وأرى الجو يكفهر بعد ان صحا والمطر يقع بعد انقطاعه . والمسافة الى ممشى الفيف بعيدة فيجدر بنا ان نركب عربة ونذهب الى هناك حالاً

فنهض رودلف وقال

– لابد لي أولا من ان اذهب واشتري شيئاً من الدخان

فاوقفه معلم المدرسة وقال له وقد ادرك مراده

— لا تحمّل نفسك هذه المشقة فان العوراء تبتاع لك ما تريد

فجاس رودلف وذهبت العوراء لشراء السيكارات فقال معلم المدرسة

— ما أفضل هذه المرأة التي أنعم الله بها عليّ !.. فلو طلبت منها ان تلقي بنفسها في النار فلا تتردد طرفة عين

— على ذكر النار أقول لك بانني أشعر ببرد شديد

قال رودلف ذلك وأظهر انه يريد اخفاء يديه في جيوبه ولكنه وضعها تحت ردائه بعد ان اخرج من جيبه قلم رصاص وقطعة من الورق وكتب بضع كلمات جاعلا المسافات بين الحروف بعيدة لانه كان يكتب تحت ردائه ولا يرى ما يخط ولحسن حظ رودلف لم يلحظ معلم المدرسة شيئاً من ذلك ولم يبق عليه سوى امرٍ واحدٍ وهو ايصال الورقة الى الذي كتبت له

وفي تلك الاونة عادت العوراء ومعها السيكارات. فبعد ان أخفى رودلف الورقة في جيبه أشعل سيكاراً وقال

— أرى ان قد انقطع المطر وعما قليل تأتي الخادمة لتقبض ثمن الاكل فنطلب منها ان تأتينا بعربة

فاجابه معلم المدرسة

— هذا أحسن مانطقت بهِ منذ عرفتك أيها الشاب . نعم لا بأس من الذهاب الى ممشى القيف حالاً

ولما أتتهم الخادمة بالعربة قاموا ليخرجوا من غرفة الاكل فحاول رودلف ان يتأخر متكلفاً المجاملة لتخرج العوراء امامه . فمنعه معلم المدرسة عن ذلك واضطره الى الخروج قبلها وتبعه وهو يراقب كل حركاته وسكناته . وكان الى جانب الغرفة التي خرجوا منها قاعة كبيرة فيها زبائن عديدون يعاقرون ومن جملتهم الفحام. فلما رأى رودلف خارجاً قام ودفع ثمن ما شربه . . وعلى رغم مراقبة معلم المدرسة وشدة حذره تمكن رودلف من مبادلة الفحام اشارة خفية قبل ان يصعد الى العربة

ولما ركب الثلاثة قال لهم الحوزي

— الى أين تريدون ان اذهب بكم ؟

فاجابه رودلف

— اذهب بنا الى ممشى ال ....

فقاطعه معلم المدرسة وقال للحوزي

— الى ممشى الاكاسيا في شارع بولونيا وسنجزل لك العطاء

ثم قال لرودلف همساً

— كيف تجسر ان تذكر للسائق اسم المكان الذاهبين اليه ؟ . ألا تعلم ان ذلك ربما يعود علينا بالشر ؟ انك قليل الحذر أيها الشاب . ؟

فاجابه رودلف وقد تحركت العربة

— صدقت انني لم أفكر في ذلك . . ولكني أرى دخان سيكاري يكاد يعمي أبصاركما ويخمد أنفاسكما . فأرى ان نفتح هذه الكوة

قال ذلك وفتح نافذة العربة ورمى منها الورقة الصغيرة التي كتبها بالقلم الرصاص في الخمارة

وقد لحظ معلم المدرسة مابدا على وجه رودلف من علامات السرور بفوزه فأطل من نافذة العربة وقال للحوزي:

— «كرباج ورا ياأسطى» أظن ان رجلا معلقاً بمؤخرة عربتك.

فأوقف السائق العربة ووقف على مقعده وأطل الى الوراء وقال

— لا ياسيدي. لا أرى أحداً.

فهز معلم المدرسة كتفيه هزة المرتاب وقال

— لا بدّ لي من ان اتحقق الامر بنفسي

قال ذلك ونزل من العربة ونظر الى ماخلفها فلم يرَ أحداً ولم يرَ الورقة التي رماها رودلف لان المركبة كانت قطعت بضعة أمتار بعد رميها. فظن ان قد كذبت هواجسه فصعد الى المركبة وقال لرودلف

— انك ستهزأ بي وتضحك مما أقوله لك. فقد خيل اليّ ان أحداً يقتفي أثرنا

ثم مشت العربة وسارت في زقاق يقاطع زقاق الخمارة وكان مورف يراقبها فلما رأى الحركة التي أبداها رودلف حين فتح النافذة جرى والتقط الورقة وعاد على عقبه

وبعد ان سارت العربة ربع ساعة قال معلم المدرسة للحوزي

— لقد غيرنا وجهتنا يا بني . فاذهب بنا الى ساحة المادلين

فنظر اليه رودلف بدهشة وقال له

— هذا أفضل مكان يمكننا النزول فيه لان من ساحة المدلين يمكن الانسان الذهاب الى جهات مختلفة فاذا علم أحد بأمرنا فلا تضر بنا شهادة الحوزي

وبعد حين وقفت العربة في ساحة المدلين وكان المطر قد كف برهة غير ان السماء كانت مكفهرة بغيوم سودا متلبدة فاظلم الجو حتى كاد يصير النهار ليلا

ولما نزل الثلاثة من العربة مشوا الى جهة الكور دي رين وفي أثناء الطريق قال معلم المدرسة لرودلف .

— لقد خطر لي خاطر لا أظنه الا حسناً

— ماهو ؟

— هو ان أتأكد أن كل ماقلته لي عن البيت الموجود في ممشى الفيف هو حقيقي

— أتريد ان تذهب الى هناك في هذه الساعة ؟ ألا تخشى ان يكشف امرنا ؟

— اني احرص من ان ادع احداً يرتاب في امري ولا

تنس ان لي معينة لامثيل لها وهي العوراء

— اتريد ان ترسلها للاستطلاع ؟

— هو ماتقول

فقالت العوراء لمعلم المدرسة

— أليس البيت موجود في ممشى الفيف ونمرته ١٧ ؟ فكن مطمئناً . . . نعم ان لي عيناً واحدة ولكنها ذات نظر ثاقب . .

فقال رودلف لمعلم المدرسة

اذا كانت العوراء تدخل البيت بكياسة فلا بأس من ارسالها للاستطلاع

قالت العوراء لمعلم المدرسة

— أبقي المظلة معك أيها العزيز وبعد نصف ساعة أعود اليك فترى ما تقدر على عمله العوراء

— انتظري قليلا فاننا نازلون الآن الى خمارة القلب الدامي وهي على بضع خطوات من هنا فاذا وجدنا هناك الغلام الاعرج تستصحبينه فيقف خارج الباب ويراقب وتدخلين أنت لاستكشاف داخل البيت

— صدقت ان هذا الغلام الاعرج شديد الذكاء وأروغ من الثعلب

وحين ذكر معلم المدرسة اسم خمارة القلب الدامي قال له روداف بدهشة

— القلب الدامي !! ما هذا الاسم الغريب؟ ايمكن أن يطلق على خمارة ؟

— الاجدر بك أن تستفتي في ذلك صاحب الخمارة نفسه

— ماذا يدعى

— ادعه كيف شئت: بطرس . توما . خريستو دورس برنابا . فانه يجيبك دائما ولكن ها قد وصلنا ولو اننا تأخرنا بضع دقائق لكنا تبللنا لان المطر قد عاد الى الانهمار . . اسمع اسمع هدير الماء في النهر فكانه هدير سيل جارف وانظر كيف فاض النهر فاذا دام هذا المطر يومين اخرين يغرق الجسر .

— تقول اننا وصلنا . . فاين هي الخمارة ؟ . . أنني لا أرى بيوتاً هنا

— نعم أنك لا ترى بيوتاً اذا نظرت حواليك

— أين يجب أن أنظر اذن ؟

— انظر تحت قدميك . . . هنا . . . هنا.ها هو سقف الخمارة فكن على حذر وأياك أن تمشي عليه .

ولم يكن رودلف قبل ذلك اليوم رأى مثل تلك الخمارة المستترة تحت الارض التي لم تمح آثارها من ساحة الشانزيلزه الا منذ بضع سنين

وكان ينزل الى تلك الخمارة على سلم رطب قذر

فيرى قبو مستطيل قليل الارتفاع مبني تحت الارض وعند مدخل السلم لوح من الصاج معلق ومرسوم عليه صورة قلب دام قد اخترقته حربة. وكلما هبت الريح على ذلك اللوح يسمع له صوت صرير يؤلم الاذن

وبينما رودلف يتأمل تلك الصورة وعلامات الاشمئزاز بادية على وجهه قال له معلم المدرسة

— ما رأيك في هذه الخمارة ايها الشاب ؟

— أظن اننا اذا دخلناها لا نشكو الحر والجفاف بفضل ماء المطر الذي ينضح من كل جوانبها . . . فهيا بنا ندخل ..

— أصبر قليلا فلا بدَّ لي من أن اتحقق اولا أن صاحبها موجود فيها

ثم أن معلم المدرسة حرك طرف لسانه على سقف حلقه وصوَّت صوتاً غريباً يشبه هذا : برررررر

فسمع تحت الارض صوت اخر مثله فقال معلم المدرسة لرودلف

— أن صاحب الخمارة هنا . . . فارجوك ياسيدي أن تؤدي الاحترام الواجب للسيدات وان تسمح للعوراء بالنزول قبلك واتبعها انت وانا انزل خلفكما . . . وكن على حذر واياك ان تزلق فانني لا اكاد أرى درجات السلم لكثرة ما عليها من الماء والوحل

الفصل السابع

القلب الدامي

وبعد ان اجاب صاحب خمارة القلب الدامي على صوت معلم المدرسة كما سبق مشى نحو باب الخمارة لاستقبال زبائنه الثلاثة وكان هذا الرجل هو براروج بعينه الذي بحث عنه رودلف في الاحياء المجاورة لخمارة الارنب الابيض كما علم

القارئ ولم يعثر عليه

وهو كهل يناهز الخمسين نحيل الجسم شاحب اللون له انف مستطيل يشبه أنف الخلد وذقن غائرة ووجنتان بارزتان وعينان صغيرتان سوداوان مستديرتان براقتان تدلان على شدة المكر والدهاء. وما كاد اصحابنا الثلاثة ينتهون الى اخر درجة من السلم حتى دنا منهم غلام اعرج يبلغ العاشرة ناحل هزيل شاحب اللون وهو يشبه باروج شبهالا يبقي محلا للريب في ان هذا الجرو من ذاك الكلب. فكان لهذا الولد نظر والده الحاد وقحته وسخريته وتوقد ذهنه

وله شعر اصفر صلب كشعر الخنزير يغطي نصف جبهته وكان لابسا سراويلا قاتمة اللون وفوقها رداء اصفر مشدود على وسطه بحزام من جلد واسم هذا الولد يدل على انه مصاب بداء العرج فكان واقفاً لى جانب ابيه على ساقه السليمة كما المالك الحزين يقف على رجل واحدة

فلما رآه معلم المدرسة قال للعوراء

— ها هو الاعرج ما اسعد حظنا ! . . . فاسرعي اسرعي أيتها العزيزة لقد ازف الوقت وعما قليل يداهمنا ظلام

الليل .. فلابد لنا ان نستفيد مما بقي لنا من نور النهار

— صدقت فينبغي لي أن أطلب الاعرج من والده .

وما كادت تتم عبارتها حتي بش براروج في وجه معلم المدرسة وقال له بصوت ضئيل مثل جسمه

— مساء الخير ايها الصديق القديم بماذا تأمر؟ اني رهين اشارتك

— اريد منك أن تسمح لابنك بمرافقة أمرأتي مدة من الزمن لا تتجاوز الربع ساعة فانها قد فقدت شيئاً في القرب من هنا ... وتريد أن يساعدها ولدك في البحث .

فنظر براروج الى معلم المدرسة نظرة كلها معان ثم قال لابنه وهو يشير الى العوراء

— اذهب مع هذه السيدة يا اعرج

فركض ذاك الغلام الشنيع الصورة وامسك بيد العوراء وقد اعجبت هذه بسرعة حركته فقالت لمعلم المدرسة

— ما الطف هذا الغلام وما اخف حركاته وما ابعد البون بينه وبين بيجريوت الخولة الجبانة التي لم تكن تقترب مني الا وهي مرتجفة فتباً لها من متسولة قذرة !!

— اسرعي يا عوراء اسرعي ... قومي بالعمل حق قيام وكوني دائما على حذر ... وأنا انتظرك هنا

— اظن أن انتظارك لا يطول

ثم قالت للاعرج

— امش امامي

وصعد كلاهما السلم وغابا عن الابصار . فقال رودلف لمعلم المدرسة

— ادخل بنا

وكان مدخل تلك الخمارة منخفضاً فاضطر رودلف الى الانحناء للدخول منه فوقع بصره على قاعة مستطيلة قذرة مقسومة الى قسمين . وتأخر معلم المدرسة عن الدخول وراء رودلف دقيقة واحدة امكنته في خلالها الانفراد ببراروج فتبادلا بسرعة بضع كلمات واشارات ذات معان خفية . ثم لحق برودلف وقال له

— اتريد تشرب كأساً من الجعة أو النبيذ ريثما تعود العوراء ؟

— لا . لست عطشان

— لا جدال في العادات والاذواق ... اما انا فاشرب بسرور كاس خمر

قال معلم المدرسة ذلك وجلس في القسم الداخلي من المكان حول «طاولة» صغيرة مدهونة بصباغ اخضر

وكان في احدى زوايا تلك القاعة فوهة كفوهة البئر ينزل منها الى قبو تحت الارض. ولها باب ذو درفتين تظل احداهما مفتوحة على الدوام لسهولة النزول الى القبو والصعود منه

غير أن رودلف لم يبصر تلك الفوهة لشدة الظلام. وقد اختار معلم المدرسة للجلوس «طاولة» قريبة من حافة تلك الحفرة العميقة السوداء وجلس بحيث يحول بينها وبين رودلف لكي لا يراها هذا. وكان رودلف لا يزال واقفاً مضطرب الافكار خوفا من أن لا يفهم مورف المعنى المراد مما كتبه له في الورقة وهذا نصه

« الليلة عند الساعة العاشرة ... كن على حذر »

ولكي يخفي اضطرابه جاس الى جانب معلم المدرسة وطلب كأساً من الخمر لا ليشربها بل من باب اللياقة

اما برادوج فمنذ بادل معلم المدرسة تلك الكلمات السرية

والاشارات المعنويه صار ينظر الى رودلف بعين ملؤها الخبث والحذر

وفي تلك الاؤنة سمع باروج صوتا مثل الصوت الذي ابداه معلم المدرسة قبل نزوله الى الخمارة فاجاب بصوت مثله وقال

— ها العوراء قد عادت

وما كاد يتم عبارته حتى اقبلت تلك الحيزبون وقالت لرجلها

— لقد قمت بالعمل خير قيام والنجاح مرجح ·

وساعة دخول العوراء تنحى باروج ولم يسلها عن انه الاعرج ولعله لم يكن ينتظر عودته معها فجلست تجاه معلم المدرسة فقال لها هذا

— خبرينا ماذا فعلت ؟

فاشارت الى رودلف واجابت

— لقد صدق هذا الشاب فيما قال

فقال رودلف لمعلم المدرسة

— أرأيت ؟ انني لم اغشك

قال معلم المدرسة للعوراء بصوت اجش

— اين الاعرج ؟

— تركته كامنا في حفرة على بضع خطوات من باب الحديقة والغريب أن هذا الغلام يبصر في الظلام الحالك كالهر وبعد الفحص وجدت أن لا مدخل للبيت نمرة ١٧ غير ذلك الباب. ومتى ذهبنا الى هناك يخبرنا الاعرج ان كان رأى احداً دخله

— حسن ...

وما كاد معلم المدرسة يلفظ هذه الكلمة حتى انقضَّ بغتة على رودلف كالنمر المفترس وامسكه من عنقه ورماه في فوهة القبو المفتوحة خلف « الطاولة » ... حصل ذلك باسرع من لمح البصر بحيث لم يمكن رودلف من المقاومة والدفاع عن نفسه

ولما رأت العوراء ذلك زعرت وصرخت صراخا حاداً اما رودلف فظل مدفوعا بقوة الاستمرار وما زال يتدحرج على سلم القبو حتى اخر درجة

ونزل معلم المدرسة مهرولا خلفه وبقيت العوراء مكانها مزعورة. وبعد هنيهة سمعت صرير باب غليظ في قاع القبو ثم ساد السكون . وكان الظلام حالكا في تلك القاعة فاشعلت

السوداء عود كبريت فابصرت على ضوئه وجه معلم المدرسة فهرع خارجا من فوهة القبو وحين وقع نظره عليها قال لها بعد أن اغلق باب الفوهة ودعمه بقضيب غليظ من حديد

— فلنسرع . فلنسرع... الى ممشى الفيف ... لئلا تفوتنا الفرصة ان تأخرنا ... فان كان في الامر احبولة فانهم لم ينتهوا من نصبها بعد ... وأن كان رودلف صادقاً فيما قال فنفرد نحن في العمل ولا يشاطرنا الغنيمة احد

الفصل الثامن

الخلاص

أن الصدمة الشديدة التي اصابت رودلف حين رماه معلم المدرسة في فوهة القبو آلمته الماً لا يطاق فاغمي عليه فظل ممدداً عند آخر السلم لا حراك به . فامسكه معلم المدرسة من ساقيه وجره الى مدخل قبو آخر اعمق من الاول وظل يدفعه بيديه ورجليه حتى ادخله ذلك القبو واغلق عليه باباً غليظاً مصفحاً بالحديد واوصده

وبعد ساعة بدأ الشعور يعود الى رودلف شيئاً فشيئاً. وحين فتح عينيه لم يرَ شيئاً لشدة الظلام ولكنه أدرك بحاسة

اللمس انه ملقى على الارض. ثمّ مد ذراعيـه يتحسس بهما فلمس درج السلم. ولما ازداد شعوره أحس ببرودة في قدميه فمدّ يده الى حيث كانت رجلاه فشعر بوجود ماء بارد تحتهما. فبذل كل ماعاوده من القوة وجلس على آخر درجة من السلم. وكان ما أصابه من الدوار آخذاً في الزوال شيئاً فشيئاً . وحين عاوده بعض صوابه حرك أعضاءه فتحقق لحسن حظه من انه لم يكسر فيه عظم. ثمَّ أنصت فلم يسمع سوى صوت تموج خفيف خافت ولكنه مستمر لا ينقطع

وكلما ازدادت ذاكرته تنبها ازداد لديه ما أصابه وضوحا وفيما هو يحاول جمع أفكاره شعر مرة ثانية ببرودة في قدميه فمد يده فاحس بان الماء قد غمر رجليـه حتى الكاحل . وسمع في الظلام الدامس والسكون المخيف صوت ذاك التموج الخافت المستمر...

ما لبث ان عرف مصدر ذلك الصوت وهو ان الماء كان ينبع من أرض القبو. والسبب في ذلك زيادة فيضان نهر السين لكثرة ما صب فيه من السيول وانخفاض منسوب القبو عن سطح ماء النهر. فحين أدرك روداف هـذا الخطر

المحدق به عاوده كل صوابه فصعد الى أعلا السلم باسرع من لمح البصر فوجد باباً ضخما فحاول ان يفتحه باذلا جهد المستطاع فكان كناطح صخرة

ولما تولاه اليأس أخذ يصرخ وينادي بملء صوته على أمل ان يسمعه صاحب الخمارة. ثم أنصت فلم يسمع سوى ذلك الصوت الخافت المستمر وهو صوت تموج الماء الذي يملأ القبو شيئا فشيئاً .

ثم جلس على أعلا درجة من السلم وظل الماء يرتفع تدريجاً حتى غمر كل الدرج ماخلا الخمس الاولى

ولما حاول ان يقف على الدرجة الاولى لمس رأسه سقف القبو فأخذ منه اليأس كل مأخذ وأيقن ان قد انتهت مدته ودنا أجله نخيل اليه ان ملاك الموت سابح على الماء ومقبل عليه ليقبض روحه . وحين فكر في تلك الميتة المريعة اقشعر بدنه وارتعدت مفاصله لشدة الرعب والعياذ بالله .

وبينما هو على تلك الحالة التي يشيب لهولها أشجع الشجعان حصل مازاده رعباً وألماً وذلك ان الجرذان المستوطنة في ذلك القبو حين اغرقت المياه اوكارها فرت هاربة من

وجه الموت فلم تجد لها ملجأ تعتصم به سوى السلم فصعد عليه منها مئات وما زال الماء يطاردها حتى انتهت الى الدرجة الاولى الواقف عليها رودلف ولما ادركها الماء ولم يكن في امكانها تسلق الجدران لاستقامتها هجمت كلها على رودلف وتعلقت بثيابه وما زالت تصعد على جسمه حتى بلغت وجهه . ولما احس بأرجلها الباردة ولمس شعر ابدانها اصابته قشعريرة يعجز القلم عن وصفها

فحاول أن يطرد عنه تلك الحيوانات القذرة فعضته بانيابها الحادة وادمت يديه ووجهه فصرخ مستغيثاً فلم يجب نداه احد .

أجل صرخ واستغاث فكان كالصارخ في واد أو النافخ في رماد. ولكنه بعد حين لا يعود يمكنه الصراخ لأن الماء بلغ عنقه وثقل على صدره. وعما قليل يبلغ فمه . فشعر ذلك الشهيد بضيق في نفسه وبدأت تظهر فيه علامات الاختناق فاشتد نبض عروق صدغيه وشعر بدوار وأشرف على الهلاك

وبلغت المياه اذنيه ولما ملأتها شعر بطنين وغاب عن

الصواب واذ ذاك فتح باب القبو لجهة الخارج بغتة فاندفع منه الماء المخزون اندفاع النهر الطامي

وكان السفاح واقفا خلف الباب فلما داهمه ذلك السيل الجارف تراجع الى الوراء ريثما تخف قوة الضغط ثمَّ دنا من رودلف فوجده أقرب الى الموت منه الى الحياة . . . .

وبعد ان انقذ السفاح حياة رودلف ذهب به الى البيت الكائن في ممشى الغيف الذي ذهبت العوراء لفحص مدخله كما تقدم .

وليتصور القارىء الآن رودلف مضطجعاً في غرفته وهي قاعة فسيحة فاخرة الرياش تدفئها نار بهجة المنظر تتأجج في موقدة جميلة. ويضيئها مصباح ساطع النور

وكان سرير رودلف محاطاً بستائر من ديباج اخضر تحجب اشعة المصباح والى جانب السرير عبد ربعة ابيض شعر الرأس والحاجبين واقف وفي يده اليسرى ساعة يحدق فيها ويجس باليد اليمنى نبض رودلف .

وكانت هيئة ذلك العبد تدل على الكآبة واضطراب الافكار

وكان السفاح واقفاً عند طرف السرير مرتديا اطماراً

بالية ملوثة بالوحل لا يبدي حركة وذراعاه ممدودتان ويداه مشتبكتان ولحيته البرشاء مستطيلة . وشعر رأسه الكثيف مبلل بالماء . وهيئته تنم عن الاشفاق على رودلف

ولشدة حذره من تكدير السكون السائد في تلك الغرفة كان السفاح يكتم صوت انفاسه . وقد راعه ما رآه من هيئة الطبيب الاسود الدالة على القلق فبات يرقب كل حركاته وسكناته ويخشى الانذار بسوء العاقبة . وفيما هو على تلك الحال قال له الطبيب

— آتني بزجاجة الدواء وملعقة صغيرة

فلبي طلبه باسرع من لمح البصر . وبعد ان سقى الطبيب رودلف جرعتين من ذلك الدواء تنفس هذا! تنفساً عميقاً وتحركت يداه حركة خفيفة فابرقت اسرة الطبيب وقال مخاطباً نفسه

— حسن . حسن . هاهو يخرج من ذلك الثبات العميق ... لقد افادته الحجامة وزال عنه الخطر والحمد لله

فلما سمع السفاح مقال الطبيب لمعت عيناه فرحاً وهتف قائلا

— زال الخطر ؟ الحمد لله !! برافو يا دكتور !!

فاجابه العبد

— ارجوك ان تلزم الصمت والسكون

— وذاك المسكين صديق المسيو رودلف ! ! ... متى علم انه . . . انه لحسن الحظ . . .

— اسكت واجلس فقد أزعجتني بحومك حولي وشتت أفكاري . . . اجلس . اجلس

— ألا ترى ياحضرة الطبيب ماعلى ثيابي من الوحل ؟ انني اقذر من الخنزير الغائص في المزبلة فاذا جلست يتسخ المقعد .

— اجلس اذن على الارض

— يتسخ البساط

— اجلس اذن في جهنم . . . حيث تشاء ولكن ناشدتك المروءة ان تلزم الصمت والسكون .

قال الطبيب ذلك وانطرح على كرسي وأسند رأسه الى كفيه وغاص في لجة الافكار .

وظلّ السفاح واقفاً هنيهة ثمّ انه أخذ كرسياً وألقاه على البساط بكل تأنٍ بحيث يمكنه الجلوس على رجلي الكرسي

فلا تتسخ كسوته . ولكنه لسوء حظه عند ما أراد الجلوس على ذينك الخازوقين الافقيين فقد الموازنة فالتوى الكرسي من تحته فمدّ ذراعيه الى الامام لحفظ الموازنة فأصابت ذراعه اليمنى منضدة صغيرة كانت الى جانب السرير وعليها عدة الشاي فوقعت وتكسر كل ما كان عليها من . الفناجين وكان لذلك صوت عظيم مكرب

فزع الطبيب واستوى واقفاً . وأفاق رودلف من ثباته وجلس على سريره ونظر الى ماحوله نظرة المضطرب الخائف وحالما تنبهت ذاكرته هتف قائلا

— مورف ! ! أين مورف ؟ ؟

فأجابه الطبيب الاسود بلهجة تدل على الخضوع

— ان الامل بنجاته قوي . . . فليطمئن بال سموكم

— هل جرح ؟

— نعم يامولاي ... واأسفاه !

— أين هو ؟ . . . أريد ان أراه

— انه نائم الآن يامولاي فلا ينبغي لنا ان نوقظه أو ان تسمح له برؤيتك لان شدة الانفعال تضرّ به ضرراً بليغاً

فصرخ رودلف صرخة دوت لها أركان القاعة وقال بصوت حزين

— لقد مات . . . وأنت تغشني ! . . . نعم لقد قتل !. . . وكنت أنا السبب في هلاكه . . . .

— أنت تعلم يامولاي انني لا اكذب . . . فاقسم لك بشرفي ان مورف لايزال على قيد الحياة . . . نعم انه جرح جرحاً بليغاً ولكن لا يزال لي أمل عظيم بشفائه

— ان ماتقول مقدمة جعلتها تمهيداً لخبر مؤلم . . . فان نفسي تحدثني ان حالة رودلف خطرة وان لم يبق أمل في نجاته

— اقسم لسموكم بشرفي مرة ثانية يامولاي مؤكداً ان حالة مورف الحاضرة لاتدعو الى اليأس وانه سيتماثل الى الصحة بعد زمن وجيز مالم تطرأ عليه مضاعفات نادرة غير منتظرة .

— أصادق أنت فيما تقول ياعزيزي داوود ؟

— نعم يامولاي

— أرجوك ان تخبرني بما جرى . . . من انقذني من الغرق في ذلك القبو ؟ اذكر كأني سمعت صوت السفاح . .

أخطئة ذاكرتي أم مصيبة ؟

— لا . لا ما أخطأت ذاكرتك يامولاي . والسفاح نفسه يخبرك بكل ماجرى لانه قام بالعمل وحده

— أين هو ؟ أين هو ؟

— هاهو

وكان السفاح واقفاً خلف السرير والخجل آخذ منه كل مأخذ لما حصل بسببه من وقوع (الطاولة) وانكسار الفناجين فناداه رودلف ومدّ له يده وقال له

— اقترب مني أيها الصديق المخلص الشجاع

فازداد السفاح خجلا حين سمع الطبيب يقول لرودلف: يامولاي ويلقبه بألقاب الامراء وظل واقفاً في مكانه لايجسر على الدنوّ فقال له رودلف

اقترب مني ومدّ لي يدك لاصافحها

— العفو ياسيدي . . . لالا . . . يامولاي . . . . ياحضرة سموكم . . . يا . . . . يا . . . لكن . . .

— أرجوك ان تدعوني مسيو رودلف مثلما تعودت فاني أفضل ذلك

— وأنا أفضله أيضاً لان لساني لا يتلعثم . اما يدي فلا أجسر ان أمدها لك لما عليها من الوسخ ... لانني عملت بها كثيراً من حين . .

— قلت لك أمدد يدك ! !

فلم يجسر السفاح على الامتناع بعد الذي رآه من أصرار رودلف فمد له يده السوداء اليابسة فصافحها مصافحة الاخاء وقال له

— اجلس الى جانبي وقص عليَّ كل شيء ... كيف اكتشفت القبو ؟ . . . . ولكن . . . تذكرت الآن . . . . معلم المدرسة ؟ . . . .

فاجاب الطبيب الاسود

— ان معلم المدرسة تحت قبضة يدنا في مكان حصين

قال السفاح

— وهو وامرأته العوراء مشدودان كأنهما طردا بضاعة ولو رأيت كيف ينظر أحدهما الى الآخر لضحكت منهما

— ومورف المسكين ماذا جرى له . . . لقد نسيته ... فقل لي ياطبيبي داوود أين مكان جرحه ؟

— انه يامولاي لحسن الحظ جرح في جنبه الايمن عند مقط الاضلاع

— لا بدّ لي ياداوود من يوم انتقام هائل واني عليك اعتمد

فاجابه الاسود بسكون

— أنت تعلم يامولاي اني لك تفعل بي ماتشاء

فقال رودلف للسفاح

— لكن كيف وصلت الى هنا قبل فوات الوقت أيها الشجاع ؟

— اذا أردت يامولاي .... لا بل ياسيدي .... لا بل ياصاحب السمو رودلف اقص عليك الخبر من أوله

— ها أنا مصغ اليك ولكن اريد منك ان تناديني (يامسيو)

— حسن . انت تعلم يامسيو انك قلت لي مساء الامس اثناء عودتك من الضواحي حين كانت معك المغنية « اجتهد ان تلقى معلم المدرسة في الحي القديم وتقول له أن لديك صفقة رابحة وانك لا تريد أن تكون من العاملين في الحصول عليها وانه اذا أراد أن يحل محلك فما عليه الاّ ان ينتظر غداً » اعني صباح يومنا هذا عند حاجز برسي

بالقرب من بانيه فلوري فيجد هنالك الذي دبر تلك الصفقة

— وبعد ذلك ؟

— وحين فارقتك اسرعت الى الحي القديم فوجدت معلم المدرسة والعوراء عند ساحة كنيسة نوتر دام وكانا في حانوت رجل يتعاطى حرفة الخياطة والمتاجرة بالثياب العتيقة وارتهان المسروقات وهو فضلا عن ذلك لص سارق فاطلعت معلم المدرسة على الامر فاجابني أنه موافق عليه وانه سينتظر في المكان المعين

وفي هذا الصباح أسرعت الى هنا حسب امرك لارد عليك الجواب فقالت لي :

«ارجع ياولدي غداً قبل بزوغ الفجر فتقضي سحابة اليوم في البيت وعند المساء ترى ما يدهشك »

وقد فهمت المراد ولو انك لم تزدني ايضاحا وقلت في نفسي : « لا شك انها احبولة ينصبها المسيو رودلف لمعلم المدرسة ليوقعه فيها ويلقي القبض عليه لانه لص قاتل يستحق المشنقة فقد قتل تاجر الابقار . . ويقال أيضاً انه قتل شخصاً آخر على طريق رول . . .

— أجل ياصاحبي وقد ارتكبت خطأ في اني لم اطلعك على كل شيء ولولا ذلك لما كان حصل هذا الكارث المؤلم .

— كان ذلك منوطاً بك يامسيو رودلف . اما ما كان منوطا بي فهو أن أخدمك . لانني لا ادري لماذا صرت اتمنى أن ابذل حياتي في سبيل رضاك كما قلت لك . ولكن . . . مالنا ولهذا الآن . . . ثم قلت في نفسي : (أن معلم المدرسة رجل داهية خبيث لا يسهل وقوعه في الشرك ولا تنطلي عليه الحيل فاذا وعده المسيو رودلف بالشروع في العمل غداً ربما لا يصبر الى الغد ويأتي اليوم الى هنا للاستطلاع وتنسم الاخبار وفحص البيت وما يجاوره ولا يبعد انه يسيء الظن في المسيو رودلف فيستعين بلص آخر من رفاقه ليستأثر بالغنيمة فلكي احول دون ذلك قلت لنفسي : — لا بدَّ لي من أن اكمن في مكان من حيث يمكنني مراقبة جدران البيت وباب الجنينة . وبما أن ليس للبيت سوى هذا المدخل ساظل ارقبه طول نهاري اذا وجدت بالقرب منه مكمناً استتر فيه ثم أرقبه طول الليل وفي الصباح أذهب الى المسيو رودلف

فعدت الى ممشى القيف لاجد لي مكمناً فوجدت لحسن الحظ خمارة صغيرة على بضعة أقدام من هنا فدخلتها وكمنت وراء نافذة من نوافذها تشرف على باب بيتك وطلبت شيئاً من الخمر وادعيت اني انتظر مجيء بعض الاصدقاء

وجلست اراقب ولكن الجو كان ممطراً والطريق مقفرة لا يمر فيها احد وقد خيم الظلام . . .

فقاطعه رودلف وقال له

— ولكن لماذا لم تأت لعندي ؟

— لانك قلت لي أن أعود اليك في الغد . . . . فلم اجسر أن اعود قبل الميعاد الذي حددته لي خوفاً من ان تنسب لي الفضول والتمليق .

— وبعد ؟

— وبينما انا أراقب أبصرت العوراء وابن براروج الاعرج مقبلين فقلت في نفسي . ها هما منذرا السوء فلا بد من معركة ثم رأيت الغلام الاعرج كمن في حفرة امام باب بيتك كانما يريد اتقاء المطر وانكمش يراقب من مكمنه كالفار أما العوراء فنزعت قبعتها عن رأسها واخفتها في جيبها

ودقت جرس الباب فجاء مورف رجلك المسكين وفتح لها .
ثم رأيته مدّ زراعه وركض في الحديقة كالمأخوذ . . . فلم
ادرك ما فعلت العوراء . . . ولكنني بعد حين رأيتها خرجت
وبعد أن همست في اذن الاعرج عادت من حيث أتت وبقي
الاعرج كالخلد كامناً في وكره فقلت في نفسي . أن مجيء
العوراء مع هذا الغلام يدلني على أن المسيو رودلف ومعلم
المدرسة جالسان في خمارة براروج . وقد اتت العوراء
لتتجسس وتتنسم الاخبار فلا شك أن معلم المدرسة قد نوى
على مهاجمة البيت هذه الليلة وان هو فعل ذلك تدور الدائرة
على المسيو رودلف لانه على غير استعداد للمقاومة

وبعد اعمال الفكرة عدت فقلت في نفسي لا بدّ لي اذن
من الذهاب الى خمارة براروج لا كون على بينةٍ من الامر ..
ولكن . . . أخاف أن يأتي معلم المدرسة اثناء غيابي . . .
اذن أدخل حالا بيت المسيو رودلف واوصي مورف أن يكون
على تمام الحذر . . . .

نعم ولكن اخشى أن يراني ذلك الاعرج اللعين الكامن
في الحفرة امام الباب أو يسمعني ادق الجرس فيخبر العوراء

بذلك ويفسد كل التدبير ...

وبعد تردد لم يطل خرجت من الخمارة ونزعت عني ردائي وربطة الرقبة وذهبت الى الحفرة الكامن فيها الاعرج وامسكته بجلد ظهره واخرجته من مكمنه فاخذ يتململ بين يديَّ ويصرخ مستغيثاً ويجرحني باظافره فلم ابال بشيء من ذلك وادخلته في ردائي وربطت احد طرفيه بالكمين والطرف الآخر بربطة الرقبة .

ثم انني تأبطت ذلك الطرد ومشيت به بضع خطوات فابصرت حديقة لها حائط قليل الارتفاع فدنوت منه والقيت الاعرج في الجنينة فوقع في حوض من الكرنب وتركته يجمجم كصغار الخنازير ولكن صوته كان مكتوما تحت ردائي فلم يسمع على بعد خمسة اقدام .

ولما انتهيت من هذا العمل عدت على عقبي وتسلقت احدى الاشجار التي امام بيتك وكانت الغيوم لا تزال تصب على الرؤوس وما كدت استقر على غصن لاخذ نفسي حتى سمعت وقع اقدام .

وكان الظلام حالكا فتنصت فسمعت العوراء تنادي همساً

— يا اعرج !! يا اعرج !!

ولما لم يجب احد نداها سمعت معلم المدرسة يقول لها وهو يسخط ويلعن

— لقد ضجر الاعرج تحت هذا المطر المنهمر وذهب لسبيله ... لعنة الله عليه .. لا بد من سلخ جلده .

فقالت له العوراء

— كن على حذر ايها العزيز فلعل الاعرج ذهب لينبهنا الى امر ما أو ليطلعنا على خبر ولم نره ولا رأنا على الطريق لشدة الظلام ... واخشى ان يكون في الامر مكيدة لنا ... فان رودلف كان يأبى الشروع في العمل قبل الساعة العاشرة

فاجابها معلم المدرسة

— ولهذا السبب اتيت قبل ذلك الميعاد بثلاث ساعات لكي لا يكون احد في البيت على استعداد لمقاومتنا اذا كان في الامر مكيدة ... لقد رأيت المال بعينك ... ولا يفوز سوى المخاطر ... اعطني المخل الحديدي والازميل ..

فقال رودلف للسفاح

— من اين اتي معلم المدرسة بهذه الآلات

— من خمارة براروج فهي مغارة لصوص مشحونة بمثل تلك الآلآت والعدد ..

وظل معلم المدرسة يعالج الباب بضع دقائق حتى فتحه ثم قال للعوراء : « ابقي انت هنا للمراقبة وافتحي عينك السليمة وكوني على حذر واذا سمعت وقع اقدام ناديني لاتحوط للامر والتمس لي مهربا

فاجابته العوراء : « كن مطمئن البال سأقوم بوظيفتي خير قيام ... ولكنني اشور عليك أن تضع سكينك في عروة من عرى صدريتك ليسهل عليك اخذها وقت استعمالها .

ثم دخل معلم المدرسة الجنينة . وعند ذلك هبطتُ من الشجرة على رأس العوراء هبوط الصاعقة وناولتها على امة رأسها ضربتين بقبضة يدي لذيذتين فترنحت ووقعت على الارض بلا صوت و لا حراك ...

ثم دخلتُ الجنينة مهرولا وراء معلم المدرسة ..ولكنني لسوء الحظ وصلت بعد فوات الوقت ...

قال رودلف

— مسكين مورف !!

— وجدت مورف ومعلم المدرسة ملتحمين ملتف احدهما على الآخر ويتقلبان عند اسفل السلم كأنهما ثعبانان.

وكان معلم المدرسة ضرب مورف بسكينة قبل أن يشتبكا وجرحه جرحا بليغاً غير أن مورف على رغم جرحه وما سال من دمه ظل يناضل جهد المستطاع من دون أن ينادي ويستغيث. وحين رأيته على تلك الحال قلت في نفسي والله انه شجاع باسل يشبه الكلاب الاصيلة التي تمزق جلود الاعداء بانيابها ولا يسمع لها نباح.

أما أنا فالقيت بنفسي على الاثنين وأمسكت معلم المدرسة من احدى فخذيه اذ لم أجد لي ممسكا سواها وقلت لمورف: أنا السفاح فتشجع لقد أصبحنا أثنين لمقاومة هذا الكركدن الهائل وحين سمع معلم المدرسة صوتي وأحس باصابعي تنغرس في لحمه قال لي

— من أي جحيم أتيت أيها الشيطان؟

فاجبته: هذا أمر لا يعنيك فانظر فيما أنت فيه الآن ثم انني أطبقت بركبتيّ على احدى ساقيه فأوقفت حركتها وأفلتُ فخذه وقبضت على يده التي رأيت فيها سكينه

اما مورف فحين عرفني قال لي : — و . . . المسيو رودلف أين هو ؟

وكان على رغم جرحه البليغ يساعدني جهد المستطاع على ذلك الوحش الضاري

فهمس رودلف قائلا بصوت ملؤه الحزن

— ما أشجع هذا الرجل وما أخلص مودته ! ! وبعد ؟

فأجبت مورف : — لا أعرف اين المسيو رودلف ولا يبعد ان يكون هذا اللص قتله . والذي يلزمنا الاهتمام به الآن هو استدعا من يعيننا على هذا الوحش . فاسرع أنت واستدعي رجال الشرطة وأنا أستعين بالله على هذا القاتل وأكافحه بضع دقائق حتى تعود

وضاعفت الجهد في مقاومة معلم المدرسة . ولا سيما حين رأيته يحاول ان يطعنني بسكينه . غير اني كنت ضاغطا بكل قوة صدري على ذراعه اليمين حتى أوقفت حركة السكين .

ولما تركني مورف اجاهد وحدي تجددت قواي فأصبحت كالنمر الجائع ولا اقول ذلك مفتخراً وانما هي الحقيقة

فكنت أنا ومعلم المدرسة متشابكين متلاحمين كانما

نحن عاشق ومعشوق وكان نصف جسمينا على آخر درجة من السلم والنصف الاخر على الارض وكان ذراعيَّ ملتفين حول عنق معلم المدرسة كانهما ثعبانان من حيات البوا . وخدّي ملتصق بخده . . . وكان يلهث كالثور ويصر باسنانه صريراً تقشعر لصوته الابدان . . . . وكنت كما تقدم ممسكا احدى ساقيه بين ركبتيّ . . . . ولكنه معْ ذلك كان يرفعني قدمين عن الارض بقوة عضلات منكبيه . . . . ثم توترت عضلاته بغتة وتشنجت ساقاه وغافلني بحركة بظهره قوية حتى كاد يتملكني . . . . ولو لم أوقف بكلتى يديّ ذراعه الممسك بها خنجره لكنت الآن في عالم الاموات . . .

وفي تلك الاونة التوى معصمي الايسر فانفردت اصابع يدي على الرغم مني فاغتنم معلم المدرسة هذه الفرصة وعاجلني بحركة صراع قانونية جعلتني تحته فاصبح راكباً واصبحت « يكرم من سمع » (مركوب) فاستولى عليّ اليأس وايقنت من الهلاك .

وبينما انا في تلك الحال الحرجة ابصرت العوراء واقفة على درج السلم وشرر الغيظ يتطاير من عينها المستديرة فقلت

لاحولا ولاقوة الا بالله . جاءت هذه ضغثا على ابالة

وحين أبصرها معلم المدرسة قال لها وقد ايقن من الفوز

— قد افلت الخنجر من يدي . هنا . . . هنا . . . خذيه واضربي به هذا اللعين في ظهره بين الكتفين ضربة قاضية

فاجابته العوراء . — مهلاً . مهلاً ريثما اجد الخنجر

واخذت تلك الحيزبون تدور حولنا . . . تدور . تدور كانها بومة منذورة بالسوء ثم انها ابصرت الخنجر فانحنت ومدت يدها لتأخذه وكنت اذ ذاك ملقيا على بطني فتملصت قليلا وناولت العوراء ضربة بكعب حذاءي اصابت معدتها فالقتها على الارض فوقعت ورفعت ساقيها وذراعيها كانها رمة كلب منفوخة أو كانها (طاولة) . اعلاها اسفلها .

ولكنها عادت فقامت وزبد الغيظ معقود على شفتيها وعادت تبحث عن الخبر . وكان التعب قد أخذ مني كل مأخذ ولكنني مازلت متمسكا بمعلم المدرسة بذراعي لابقيه ملتصقاً بي على قدر الامكان وكان ذلك القاتل يوسعني ضرباً بقبضة يده الغليظة على رأسي وفكي حتى شعرت بدوار وكدت

أفقد الصواب ...

واذ ذاك أبصرت أربعة رجال مسلحين نازلين على السلم ... وكان معهم المسيو مورف ولكن هيئة الضعف بادية عليه ووجهه أصفر كوجوه الاموات وكان يتوكا على ذراع طبيبك هذا ...

ثم تعاونا كلنا وشددنا وثاق معلم المدرسة والعوراء . ولكن بقي عليّ أمر آخر شديد الاهمية وهو البحث عنك ياسيدي روداف نخطر لي خاطر وللحال دنوت من العوراء وقد تذكرت كيف كانت تعذب المغنية . وركبت على صدرها وناولتها أول ضربة على أنفها الاعقف وقلت لها : أين المسيو رودلف ؟

فلم تجب فناولتها ضربة ثانية ألذ من الاولى فانفكت عقدة لسانها وقالت لي

— تجده في القبو تحت خمارة باروج ... خمارة القلب الدامي .

فهرولت مسرعاً لا ألوي على شيء

وفي طريقي عرجت على المكان الذي ألقيت فيه الغلام

الاعرج ابن براروج لاخلصه من الضيق الذي وضعته فيه ولكني لم أرَ هنالك سوى ردأي وقد مزقه ذلك الغلام بأنيابه وهرب

ولما وصلت الى خمارة القلب الدامي وثبتُ على براروج وأطبقت بيديَّ على عنقه وقلت له .. « أين الشاب الذي جاء هنا هذا المساء مع معلم المدرسة ؟ » فأجابني : ـ لا تخنقني باصابعك فاقول لك ماتريد : ان معلم المدرسة سجنه في القبو ويمكننا ان نطلق سراحه

فنزلنا الى القبو فلم نجد أحداً فقال لي براروج :

— لا يبعد أن يكون هرب فلا احد هنا كما ترى .

فتولاني اليأس وكدت اعود حزيناً واذا ذاك ابصرت على ضوء المصباح باباً اخر عند منتهى القبو فاسرعت وفتحته فتدفقت المياه عليّ حتى كادت تخنقني ورأيت زراعين مرفوعتين ... هما ذراعاك يامسيو رودلف فامسكتك بهما واخرجتك من الماء وانت على آخر رمق واذ لم اجد عربة تنقلنا الى هنا حملتك على ظهري واتيت بك.

هذه هي الحكاية يا مسيو رودلف . واني وايم الحق

ه سرور بما فعلت ...

فقال له رودلف — انني اصبحت مديناً لك بحياتي... ولا بد لي من وفاء هذا الدين .

ثم وجه رودلف الحديث الى الطبيب الاسود وقال له

— اذهب يا داوود وانظر في آية حالة اصبح مورف . ثم عد الينا وبعد أن خرج العبد قال رودلف للسفاح

— اتعرف اين وضعوا معلم المدرسة ايها الصديق ؟

— سجنوه مع العوراء في القبو تحت هذا البيت ... اتريد استدعاء رجال الشرطة يا سيدي ؟

— لا ...

— لعلك تريد اطلاق سراحه اذن !! .. اياك يا مسيو رودلف ان تدع كرم اخلاقك يتغلب عليك فان حلم الفتى في غير موضعه جهل ... وعندي أن معلم المدرسة كالكلب يجب منع شره .

— أنه لن يعض احداً بعد اليوم فكن مطمئن البال

واذ ذاك دخل العبد فقال له رودلف

— كيف وجدت مورف يا داوود ؟

فاجابه الطبيب بصوت حزين

— وجدته نائماً يا سيدي . وارى أن حالته تدعو الى القلق ... ولكن لا ينبغي لنا أن نيأس من رحمة الله .

فهتف رودلف قائلا بصوت متهدج لشدة الغضب

— سوف انتقم لك يا مورف ... ثم قال للعبد

— اقترب مني يا داوود

فدنا منه العبد فهمس في اذنه بضع كلمات ارتعدت لها فرائصه فقال له رودلف

— اتتردد في انجاز الامر ؟ . . . ألم اطلعك على هذا الفكر مراراً ؟ . . . فها قد دنت ساعة اخراجه الى حيز العمل

— لست متردداً يامولاي . . . وانما أرى فكرك هذا جديراً ببحث رجال القضاء والخبيرون باسباب الجنايات وطرق علاجها . . . فان هذا العقاب الذي خطر على بالك فظيع جداً ولكنه يبقي للمجرم مجالا واسعاً للتوبة . . . وارى أن استعمالها في هذا الحادث مفيد . . . فان ما خلا الجرائم التي ارتكبها هذا القاتل واستحق لاجلها السجن المؤبد قد فتك بارواح ثلاثة وهم تاجر الابقار ومورف وانت يامولاي ..

فالقصاص الذي تصورته عدل . . .

— وبهذه الطريقة نمكنه من التوبة والتكفير عن ذنوبه وبعد سكوت وجيز وجه رودلف حديثه للسفاح وقال له

— اريد ان اسر الى طبيبي كلمتين على انفراد فاذهب الى الغرفة المجاورة لهذه تجد فيها حقيبة من جلد احمر على مكتبتي نخذ منها خمس اوراق مالية قيمة كل واحدة منها الف فرنك واتني بها

فلم يتمالك السفاح عن الاعتراض وقال — ولمن كل هذا المال ؟

— هو لمعلم المدرسة . . . وقل للمكلفين بحراسة هذا الرجل أن يأتوا به الى هنا . . .

الفصل التاسع

العقاب

ان ما سنقصه على القارىء حصل في قاعة مدهون جدرانها بلون احمر ومضأت بمصابيح ساطعة النور

وفي وسط تلك القاعة (طاولة) عليها جوخ اخضر وقد

جلس الى جانبها رودلف وكان مرتديا لباس البيت وهو رداء طويل من (قطيفة) سوداء مما زاد وجهه اصفرار .

وكان على تلك (الطاولة) محفظة اوراق معلم المدرسة والسلسلة الفضية التي كانت في عنق العوراء ومعلق بها الحجر الفيروز . والخنجر الذي طعن به مورف وكان لا يزال ملوثاً بالدم . والالات التي استعان بها معلم المدرسة على فتح باب الجنينه . والخمسة الاف فرنك التي اتى بها السفاح من الغرفة المجاورة كما تقدم

وكان الطبيب الاسود جالسا عن يمين رودلف والسفاح عن شماله .

ثم اتوا بمعلم المدرسة وهو مشدود الوثاق لا يستطيع أقل حركة واجلسوه في وسط القاعة على كرسي كبير له عجل .

ثم اغلق باب القاعة على رودلف والطبيب والسفاح ومعلم المدرسة

*
* *

ولم يبق على وجه رودلف اثر من الغضب الذي كان مستوليا عليه وكانت هيئته تدل على الحزن وسكون الجاش

شأن القادم على عمل مهول وكان الطبيب منكس الرأس وغارقا في لجة الافكار . أما السفاح فكان لا يرفع نظره عن رودلف وعلامات الاضطراب بادية على وجهه

وكان معلم المدرسة اصفر الوجه ويكاد يذوب قلبه لشدة الخوف . فقال له رودلف بصوت جهوري

— ايها الهارب من سجن روشفور المحكوم عليك بالاشغال المؤبدة لارتكابك التزوير والسرقة والقتل . انت انسلم دوريفل .

فاجابه معلم المدرسة بصوت مختنق وهو ينظر الى ما حوله نظرة جزع

— كذبت !

— انت هو قد قتلت تاجر الابقار وسلبته على طريق بواشي

— كذبت !

— سترى فيما بعد انني لست كاذباً .. انك دخلت الليلة هنا لتسرق وطعنت بخنجرك صاحب البيت

فاجاب معلم المدرسة وقد خف روعه

— انت اغريتني على هذه السرقة . وقد هاجمني أهل

البيت فدافعت عن نفسي

— أن الرجل الذي طعنته لم يهاجمك وكان اعزل . نعم انني اغريتك على ارتكاب الجريمة . ولكن ساوضح لك فيما بعد الغاية من ذلك. ثم انك ليلة الامس هاجمت رجلا وامرأة وبعد ان سلبتهما عرضت عليهما أن تقتلني مقابل الف فرنك

قال السفاح

— وانا أشهد بذلك

فنظر اليه معلم المدرسة نظرة ملؤها الحقد والغضب وعاد رودلف فقال له

— أن فعالك كلها تدل على انك تفعل الشر ولو لم ادفعك اليه

— انك لست قاضياً مكافا بمحاكمتي . فلا اجيبك

— اليك الآن الغاية التي لاجلها اغريتك على دخول هذا البيت وارتكاب جريمة السرقة : — انني كنت عالم بفرارك من السجن وبانك تعرف اقارب فتاة تعسة ذاقت الامرّين في خدمة رفيقتك العوراء اللعينة وشريكتك في ارتكاب الجنايات . فاغريتك على دخول هذا البيت

واستغويتك بالسرقة لالقي القبض عليك ومتى اصبحت تحت سلطتي اخبرك بين امرين . اما أن اسلمك الى الحكومة فتعاقبك بالشنق على قتلك تاجر الابقار

— كذبت انني لم ارتكب هذه الجريمة

— وأما اخراجك من فرنسا والحجر عليك حجراً مؤبداً في مكان لا تجد فيه سبيلا الى اذى العباد وحيث يكون شقاك أقل منه في سجن الحكومة

ولكنني ما كنت افعل ذلك الا على شرط أن تطلعني على الاخبار التي اطلبها منك لقد كنت سجينا فتمكنت من الفرار فاذا قبضت عليك وجعلتك في حالة لا يمكنك معها ارتكاب الجنايات اخدم الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة . ومتى وقفت على الاخبار التي اريدها منك اجد سبيلاً الى اسعاد فتاة تعسة بريئة وذلك بارجاعها الى اهلها

تلك كانت خطتي اولا : نعم انها لم تكن عادلة غير ان فرارك من السجن والجنايات الجديدة التي ارتكبتها تجعلك خارجا عن حكم الشريعة ... وقد علمت يوم امس بطريق العرض انك انسيلم دوريفل

- كلا . لست ادعى دوريفل

فاخذ رودلف السلسلة الفضية التي كانت على الطاولة وارى معلم المدرسة حجر الفيروز المعلق بها والمنقوش عليه حمامة الروح القدس وقال له

- تبا لك من كاذب !! انك اعطيت هذا الاثر المقدس لامرأة دنسة شريرة ... نعم هذا اثر مقدس مثنى وثلاث ... فان ولدك ورثه عن امه وهذه ورثته عن ابيها ؛ ..

فدهش معلم المدرسة لوقوف رودلف على ذلك السر فنكس رأسه ولم يجب بكلمة فاردف رودلف

- لقد اخذت ابنك من امه منذ خمس عشرة سنة . ولا يعلم احد سواك ما آل اليه امره . فكان لي اذن دافع جديد الى القبض عليك حين علمت من انت .

على انني لا اريد الانتقام لنفسي عما نالني من الاذى على يدك ، ولكني اريد عقابك على الدم البريء الذي سفكته بالامس . فان الرجل الذي طعنته بخنجرك جاءك مؤمنا غير عالم بطبيعتك الوحشية الدافعة بك الى سفك الدماء ويسألك عما تريد فاجبته

— اريد مالك وروحك وطعنته تلك الطعنة التي كادت تذهب بحياته

فقال الطبيب — نعم انا اشهد ان هذا هو الاقرار الذي فاه به المسيو مورف حين ادركته لا سعفه بالعلاج

— لقد فاه بالكذب

فقال رودلف بكل سكينة

— أن مورف لا يكذب قط ولا بد لك من عقاب شديد مؤدب ... فاستعد للموت هنا واننا اكراما لولدك وامه لم نسلمك للحكومة لكي لا تموت مشنوقا ميتة الكلاب فينالهما بذلك العار وسنشيع انك مت مدافعاً عن نفسك في معركة فاستعد للموت ايها القاتل

وكان معلم المدرسة رأى حين دخل الى القاعة رجلين مسلحين بالبنادق وكان مثل كبار المجرمين شديد الحب للحياة فحين سمع ما قال رودلف تولاه اليأس وظن أن قد انتهت مدته ودنا اجله فارتجف بشدة الرعب وهتف قائلا

— العفو يامولاي

فاجابه رودلف

— لا ترجو العفو أيها القاتل فانك ان لم تمت هنا تشنق في ساحة السجن

— انني أفضل ان أشنق في السجن ... فيبقى لي من الحياة ثلاثة أو أربعة شهور وما يهمكم ان مت هنا أو هناك مادمت مائتا على الحالين ؟ العفو يامولاي العفو

فبدت على وجه رودلف علامات الاشمئزاز وقال

— تبا لك من جبان . كنتُ انتظر ان أرى فيك على الاقل الازدراء بالحياة الذي يتصف به بعض كبار المجرمين

— ارحمني يامولاي ودعني أعيش

— أتقول لي أين ابنك؟

— نعم.نعم اقول لك كل ماأعرف عن ذلك

— أتقول لي من هم أقارب تلك الفتاة الصغيرة التي كانت العوراء تعذبها ؟

— انك تجد في محفظتي أوراقا تدلك على الذين أسلموا الفتاة الى العوراء

— اين ابنك؟

— لقد اسلمته الى شريك لي في الجنايات ولا شك ان

هذا الرجل تمكن من الهرب حين ألقي القبض عليّ .

– وماذا فعل بولدك هذا الرجل ؟

– قد رباه وعلمه العلوم الكافية لتوظيفه في أحد المصارف في مدينة نانت ليكون لنا معينا على سرقة ذلك المصرف وكنت وأنا سجين في روشفور مشتغلاً في تدبير هذا المشروع ومخاطبة صديقي بالارقام

فغطى رودلف وجهه بيديه وهتف بصوت المشمئز

– يالله ! انك شرير مخيف. كيف تجسر على مثل هذا التغرير بولدك

فاجابه معلم المدرسة — اننا لم نكن نقصد من ذلك العمل سوى الحصول على بعض المال بطرق التزوير من دون سفك دم . وفضلاً عن ذلك لما أطلعنا ولدي على الغرض الذي لاجله أدخلناه في خدمة المصرف في نانت ثارت نفسه الابية وأخبر رئيس المصرف بسوء مقاصدنا ثم اختفى من نانت . .

وانك تجد في محفظة أوراقي بيان الطرق التي اتخذتها

للوقوف على اثر ابني . . وآخر منزل سكنه كان في شارع الهيكل. وكان يعرف هنالك باسم فرنسو جرمان وتجد ايضاً عنوانه مدوناً بين اوراقي . . فها قد بحت لك بكل شيء كما ترى ياسيدي . . . فانجز وعدك ان وعد الحر دين . واذا اسلمتني لرجال الشرطة فلا تذكر لهم سوى جنايتي هذه الاخيرة وهي محاولة سرقة بيتك

- وتاجر الابقار الذي قتلته في بواسي ؟

- لا يمكن اكتشاف تلك الجناية ولا توجد ادلة تثبت التهمة عليّ. اني اقر بهذه الجناية امامك لحسن مقاصدي ولكنني انكرها كل الانكار امام رجال القضا

- اتقر اذن بتلك الجناية ؟

- انني كنت اذ ذاك في فقر مدقع ولم اكن أجد سبيلا الى كسب القوت . والذي دفعني الى ارتكاب تلك الجناية هي العوراء . .

اما الآن فانني نادم كل الندم والدليل على ذلك اقراري بجنايتي . .

وانني اقسم لك بما تريد ياسيدي ان انت عفوت عني

ولم تسلمني للحكومة اعدك بالتوبة عن كل الجرائم وسلوك سبيل الهدى

— ستعيش ... ولا اسلمك الى رجال القضاء

فلم يصدق معلم المدرسة ما سمعه لشدة فرحه وابرقت عيناه وهتف قائلا — اتصفح عني ؟ اتصفح عني ؟

— ساحاكمك واعاقبك ولا اسلمك الى رجال القضاء لاني ان فعلت ذلك تذهب اما الى السجن المؤبد ام الى المشنقة ولا اريد الحالتين. ان في وسع الانسان التكفير عن كل ذنب يرتكبه في هذه الحياة الدنيا غير أن المسافة بين المحكمة والمشنقة قصيرة جداً فلا بد للمجرم من زمن فسيح يجد فيه مجالا للتكفير عن جناياته. وسوف تنال ذلك الوقت الطويل وغاية ما اتمناه لك هي التوبة عن ذنوبك والندم على مافرط منك

فلما سمع معلم المدرسة مقال رودلف تملكه خوف شديد كان اشد وقعاً على قلبه من خوف الموت فظل صامتاً منكس الرأس

فنهض رودلف وقال له بصوت يدل على مطلق السلطة

— لقد اسأت استعمال القوة التي وهبك الله اياها فاستعنت بها على ارتكاب الجرائم . . فلا بد لي من اخماد

تلك القوة فيك . . كان أشد الناس بأساً يرتجفون أمامك خوفاً . . . ولسوف ترتجف امام أضعف الناس - كنت قاتلا واوديت بارواح كثيرين الى ظلمات الابدية ولسوف تدخل تلك الظلمات وانت على قيد الحياة .. اليوم . . في هذه الساعة .. سيكون عقابك معادلا لجرائمك .

وبعد سكوت وجيز استطرد رودلف بصوت حزين ينم عن الاشفاق

— غير أن هذا العقاب المريع يبقي لك زمناً طويلا لتكفر عن ذنوبك واعلم انني لا أبغي من قصاصك الانتقام. ولو فعلت ذلك لكنت في عيني نفسي اكبر منك جريمة . . . وانما ابغي من عقابك فوائد جمة . اولها الابقاء على حياتك . وثانيها ارجاعك الى الهداية . . وثالثها كف اذاك عن العباد . . ورابعها تسهيل التوبة عليك لانك متى اصبحت في معزل عن كل ما يحيط بك في هذا العالم تضطر الى الاختلاء الى ضميرك .. ومتى تمثلت امامك الفظائع التي ارتكبتها تخجل وتندم وتتولد فيك عاطفة الشفقة .. لقد جعلتك قوتك جسوراً ضاريا ولسوف

يصيرك ضعفك جباناً ذليلا . . ولسوف تبكي ندماً حتى نسح دموعك لان ما اتيته من المنكر تاباه نفوس البهائم . ذلك انك جلبت الضيم لاقرب الناس اليك وهما زوجتك وابنك . . اجل سوف تبكيك الندامة دماً واخر ما تتمناه ولا تجده هو أن تموت بين زوجتك وابنك .

ولما فاه رودلف بعبارته الاخيرة ارتجف صوته لشدة الانفعال .

أما معلم المدرسة فاطمأن قلبه وزال ما كان تولاه من الرعب حين آنس من رودلف تلك اللهجة الدالة على الاشفاق فعاودته القحة وهي غريزية فيه وقال وهو يقهقه ضاحكا

— اترانا في كنيسة نسمع الوعظ أم في مدرسة تعلمنا حل الألغاز ؟

فلم يجبه رودلف بل قال للطبيب — أفعل يا داوود وليعاقبني الله وحدي اذا كنت مخطئاً .

وللحال دق الطبيب جرساً فدخل رجلان فاراهما باشارة باب غرفة مجاورة فاقتربا من كرسي معلم المدرسة وحملاه وهو مشدود الوثاق لا يمكنه ابداء أقل حركة فعاوده الزعر

وصاح مرتاعاً

— العفو يا مولاي العفو ! ! انك امرتهم بذبحي .

فلم يغنه الاسترحام . ولما دخل به الرجلان الغرفة قال لهما الطبيب الاسود

— ضعا كمامة على فمه لكي يكف عن الصراخ

وبقي السفاح ورودلف وحدهما فقال السفاح بصوت مرتجف وقد علت وجهه صفرة كصفرة الاموات

— كلمني ياسيدي رودلف . كلمني اني خائف .. ناشدتك الله .. أفي يقظة انا ام في منام ؟ ما تراهم يفعلون بمعلم المدرسة ؟ . لقد كف عن الصراخ . لم اعد اسمع شيئا وهذا السكوت قد بعث الرعب في قلبي .

واذ ذاك خرج داوود من القاعة وقد اصفر وجهه . كما تصفر وجوه العبيد اي ان شفتيه أصبحتا ذات لون ابيض . ثم تبعه الرجلان يحملان معلم المدرسة على كرسيه مثلما اخذاه وكان لا يزال مشدود الوثاق . ولما اعاداه الى حيث كان قال لهما داوود

— انزعوا الكمامة عن فيه وحلوا قيوده

وعقب كلام الطبيب سكوت مهيب

وما كاد الرجلان ينتهيان من حل قيود معلم المدرسة ونزع الكمامة عن فيه حتى وثب هذا قائماً وقد انقلبت سحنته لشدة الغيظ والغضب حتى أصبح منظره مخيفاً . وحاول أن يمشي الى الامام وذراعاه ممدودتان ولكنه ما تقدم خطوة واحدة حتى ثبت مكانه وانطرح على الكرسي وصرخ صرخة يأس تقشعر لهولها الابدان وهتف قائلاً ويداه مرفوعتان الى السماء

— اصبحت اعمى !!!!

فقال رودلف لداوود وهو يشير الى محفظة اوراق كانت على (الطاولة)

— اعطيه هذه المحفظة ياداوود

فاخذ الطبيب المحفظة ووضعها بين يدي معلم المدرسة المرتجفتين ثم قال رودلف للضرير

— انك تجد في هذه المحفظة من الاوراق المالية مايضمن لك الخبز والمأوى في مكان منعزل . . . وقد أصبحت الآن حراً . . فاذهب الى حيث تشاء . . وأسأل ربك المغفرة ان ربك غفور رحيم

فأخذ معلم المدرسة المحفظة وهو لا يدري ماذا يفعل لشدة اضطرابه وعاد فقال

— اعمى . أعمى ! ! أصبحت أعمى ! !

فقال رودلف لمن حوله

— افتحوا له الابواب ودعوه يخرج

فردد معلم المدرسة عبارته وقد امتلأ فؤاده يأساً

— أعمى . أعمى ! !

قال له رودلف

— انك حر . . ولديك الكفاف من المال . . فاذهب لسبيلك .

فاجابه معلم المدرسة وزبد الغيظ معقود على شفتيه

— اذهبُ ! ! . . . وكيف يمكنني ان اذهب ولم أعد أبصر شيئاً . ؟ أليس من أفظع الجنايات ان يستعمل الانسان قوته ا ...

فقاطعه رودلف وقال له

— أجل ان سوء استعمال القوة جناية وأنت أحوج الناس الى معرفة هذه الحقيقة

فهتف معلم المدرسة قائلا

— الموت . الموت . ما أحلا الموت ازاء هذا المصاب !! أأبقى طول حياتي تحت رحمة الناس؟... يهلع قلبي خوفاً لاقل شيء؟... ويؤذيني أضعف بني الانسان ... ان في امكان أصغر الاولاد ان يضربني متى شاء .. . رباه . رباه ماذا يكون من أمري !!

— لديك المال

— انهم يسرقونه مني

— يسرقونه منك ! . . . أراك تقول هذه العبارة بخوف . . مع انك قضيت حياتك في سرقة الناس . . . اذهب . .

فقال معلم المدرسة متوسلاً بصوت متهدج يفتت الاكباد

— ارحموني يرحمكم الله . وليأخذ أحدكم بيدي ويقودني ياربّاه ماذا يحل بي متى أصبحت في الازقة ؟؟ . اشفقوا عليّ ياقوم واقتلوني . اقتلوني . اقتلوني !!

— لا . . فانك تتوب يوماً وتأوب الى ربك

فصاح معلم المدرسة وقد أخذ منه الغيظ كل مأخذ

- كلا . كلا . لن أتوب ابداً . . ولسوف انتقم ممن ظلمني شر انتقام

قال ذلك ووثب عن كرسيه وهو ماداً قبضته اشارة الى التهديد ولكنه ما كاد يخطو خطوة واحدة حتى هوى على الارض فقال بصوت حزين يفتت الاكباد

— لا لا . . لا قدرة لي على الانتقام: . . مع ما انا عليه من القوة . . ويلاه ! ! لقد اصبحت استحق الشفقة والرحمة . . . ولكنني لا اجد من يرحمني

وقد يعجز القلم عن وصف الذعر الذي الم بالسفاح حين ابصر ذلك المشهد الفظيع فانقلبت سحنته وبدت على وجهه علامات التألم والاشفاق فدنا من رودلف وقال له همساً

— قد نال هذا القاتل ما يستحق . . . ولكنه اصبح الآن ضريراً لا يدري كيف يتجه . . . ولا يبعد أن تدهسه العربات في الطريق . . . أفلا تسمح لي أن اقوده الى مكان يأمن فيه الاخطار على حياته ؟ . .

فاثر في نفس رودلف ما ابداه السفاح من كرم الاخلاق فصافحه وقال له

— حسن .. اذهب معه

فدنا السفاح من معلم المدرسة ووضع يده على كتفه فانتفض هذا مذعوراً وقال بصوت حزين مؤثر

— من لمسني ؟

— انا السفاح

— انت أيضاً تريد الانتقام مني . اليس كذلك ؟

— انك لا تستطيع الخروج ... فامسك ذراعي ... ودعني اقودك

— تريد أن تغدر بي

— لست جباناً ... فلا استعين بعجزك على الاضرار بك . هلمَّ نذهب علي ضو النهار

— على ضوء النهار !!! انني لن ارى الضوء قط

فلم يستطع روداف صبراً على رؤية ذلك المشهد المحزن فخرج من القاعة مع الطبيب واشار الى الرجلين اللذين كانا هناك أن يخرجا . فلم يبق في القاعة سوى السفاح ومعلم المدرسة . وبعد سكوت طويل قال . هذا

— قالوا لي أن في هذه المحفظة التي اعطوني اياها اوراقاً مالية

فهل صدقوا فيما قالوا ؟

— نعم فقد وضعت فيها انا بنفسي خمسة الاف فرنك وبهذا المال يمكنك الحصول على القوت والمأوى مدة حياتك في احدى القرى .. وأن كنت تفضل أن اقودك الى مدام بونيس صاحبة خمارة الارنب الابيض فقل لي

— انها امرأة شريرة واخاف أن تسرقني

— اتريد أن اذهب بك الى برازوج ؟

— أنه يسمني ليسرق نقودي

— الى اين تريد أن اذهب بك اذن ؟

— لا ادري ... ومن حسن حظي انك لست لصاً انت ياسفاح .. ارجوك أن تعينني على اخفاء المحفظة تحت ردائي لكي لا تراها العوراء فانها أن رأتها تسرقها لا محالة

— العوراء ؟ ... لقد نقلوها الى مستشفى بوجون لانني ساعة المعركة التي دارت بيني وبينكما ضربتها ضربة بنعلي كسرت ساقها

— ياربّاه ! ! ماحيلتي في هذا الحجاب الاسود المسدول امام عينيَّ على الدوام ؟

— اصغ اليّ : أتريد ان تقيم عندي يوماً أو يومين . . . وفي هـذه الفتره افتش لك عن قوم كرام لا يعرفون أصلك وفصلك فتقيم عندهم مقابل أجرة طفيفة تعادل نفقاتك ؟ . . وقد تذكرت الآن رجلاً أعرفه في مرفاء سانت لا بيتولا وامه ساكنة في سان مندي وهي امرأة صالحة . . . ولكنّ حالتها تقرب من البؤس . . . فمن الممكن انها تتكفل بالاعتناء بك . . . أتريد ان أذهب بك الى مسكني ام لا ؟

— انك ياسفاح ممن يركن الى اما نتهم . . . فلا أخاف ان اذهب لعندك ومعي نقودي . . . لانك ماسرقت قط . . . فانت أفضل مني

— أعندك ريب في ذلك ؟ والدليل على انني أفضل منك شهادة المسيو رودلف فقـد قال انني ذو قلب وشرف

فارتعدت فرائص معلم المدرسة لذكر رودلف وصرخ قائلا بصوت مرتجف ينم عن الحقد والبغضاء

— الا قلت لي من هو هذا الرجل ؟ انني لا أعده رجلا وانما هو وحش ضار . . .

فهز السفاح كتفيه وأجاب — لا تدع الحدة والغضب

يستوليان عليك .. وقل لي أتذهب معي ؟

— أنذهب الى مسكنك ياسفاح ؟

— نعم

فامسك معلم المدرسة ذراع السفاح وخرجا كلاهما من بيت ممشي الفيف

﴿ الفصل العاشر ﴾

(الجزاء)

مضى شهر على الحوادث التي أتينا على ذكرها . والآن نرجو القاريء ان ينتقل معنا بالفكر الى بلدة تدعى جزيرة آدم واقعة في بقعة جميلة على شاطيء نهر الواز عند غابة غضة هناك ..

معلوم ان أهل القرى يهتمون لاقل حادث يحصل عندهم كأنه من الامور الخطيرة . في صباح ذات يوم كان بعض الكسالى من بلدة جزيرة آدم يروحون ويغدون في ساحة الكنيسة ويتساءلون متى يأتي الرجل الذي ابتاع أحسن حانوت للجزارة في البلدة ..

وقد دفع الفضول بعضهم الى ان ذهب واستعلم عن الحقيقة من أحد مستخدمي ذلك الحانوت ولكنه لم يقف منهُ على الخبر اليقين .

وفي تلك الاثناء دخل البلدة رجلان قادمان من باريس ونزلا من العربة التي أتت بهما عند باب الحانوت . .

اما الرجلان فاحدهما مورف « وقد شفي من جراحهِ » والآخر السفاح . وقد تغيرت حالته حتى لم تعد تعرفه فارتدى ملابس نظيفة عوضاً عن تلك الاطمار البالية وكأنما تغيير ملابسه غير سحنته فزايلته تلك الخشونة الوحشية وتدمثت هيئته فصار يحكي أهل الصلاح

و بعد ان دخل الرجلان الحانوت قال مورف

— لقد كان سفرنا طويلا فاثر بي البرد . وأنت كيف حالك ؟

— انني ماشعرت ببرد ولا تعب يامسيو مورف . . . والسبب في ذلك انني مسرور . والسرور يكسبني حرارة . . . ومع هذا . . . حين اقول انني مسرور . . . ربما . . .

— ماذا تعني ؟

— لقد اتيتَ بالامس تبحث عني في مرفاء سانت نيقولا وكنت اذا ذاك مشغولا بتفريغ الاخشاب وهـذا العمل يكسبني نقوداً وحرارة... وما كنت رأيتك بعد تلك الليلة الهائلة ... حينما ازال ذلك الطبيب الاسود بصر معلم المدرسة وتركه اعمى . وحين وقع بصرك عليّ قلت لي : السلام عليك يا سفاح .فرددت لك التحية باحسن منها وبعد أن هنأتك بشفاء جراحك سألتك. عن المسيو رودلف فاجبتني : ـ أن بعض الاشغال اضطرته الى السفر فترك بيت ممشى القيف ورحل ولكنه نسيك ايها الصديق ... فاجبتك على الفور بانه اذا كان ما تقوله صحيحاً أي اذا كان المسيو رودلف نسيني فينالني من ذلك حزن شديد

— لقد اسأتَ التعبير عن افكاري يا سـفاح . وكان المراد أن اقول لك انه نسي أن يكافئك على حسن صنيعك معه ... ولكنه سيحفظ لك ذكراً حسناً ما زال حياً...

— بورك فيك ... أن قولك هـذا انعش فؤادي ... وأنا ايضاً ورب العزة لا انسى المسيو رودلف طول حياتي .. فقد قال لي انني ذو قلب وشرف

— ولكن لماذا لم تتردد على بيت ممشى الفيف بعد تلك الليلة المشؤمة ؟ فلو فعلت لما كان مولاي سافر من دون ان يكافئك.

— لم اعد الى ذلك البيت لان المسيو روداف لم يستدعني فظننت انه لم يعد في حاجة اليّ

— الم تفكر في أن لا بد له من ابداء شكره على الاقل ؟

— يكفاني قولك لي أن المسيو روداف لم ينسني

— حسن دعنا الآن من هذا الجدال ... اني بحثت عنك كثيراً قبل أن اجدك في باريس ... اما عدت تذهب الى خمارة الارنب الابيض ؟ ... وما السبب في ذلك ؟

— أن لامتناعي عن تلك الخمارة اسباباً لا ابوح بها لاحد ولو كانت صبيانية

— حسن فلنعد الى ما قلتــه لي وهو : « اني مسرور بلقياك ... ومسرور ايضاً ... وبما ... »

— اصغ اليّ يا مسيو مورف . لقد قلت لي بالامس وانا ذاهب الى قطار الاخشاب : « اني لست غنياً يا اخي

وغاية ما اقدر عليه هو أن أجدلك عملا يكسبك اربعة فرنكات كل يوم باقل عناء مما تحمله في تفريغ مراكب الاخشاب»

ولا اخفي عليك أن كلامك هذا ادهشني ... اربعة فرنكات !! هذا راتب ضابط صغير من ضباط الجيش .. فاجبتك: « انني اتمنى هذا العمل» فاجبتني «اتبعني الى التاميل» فتبعتك وانتقيت أحسن الملابس عند مدام هوبار ودفعتَ عني الثمن. ولما ارتديت هذه الثياب الجديدة أصبحت مشدوداً محزوماً كانني طبيب اسنان أو من أصحاب الاملاك. ثم أنك شددت على الوصية أن أوافيك هذا الصباح عند باب سان ديني فاتيت في الموعد المضروب فوجدتك تنتظرني في عربتك فاتيتَ بي الى هنا.

— انادم انت على أمر ما مما حصل؟

— لا . . . . . وانما . .

وقبل أن يتم السفاح عبارته بدرت منه التفاتة الى داخل الحانوت فرأى من خلال زجاج الباب قطعاً من لحم البقر معلقة فقال

— ماذا ارى؟ هذا حانوت جزار

— نعم وهو حانوت صديق لي .. فادخل بنا نتفرج عليه.

— والله لا بأس من ذلك فانه يذكرني ايام الصبا

ثم دخل الرجلان الحانوت وبعد أن تعهداه ذهبا الى الزريبة حيث وجدا ثلاثة ثيران وقطيعا من الغنم ثم تعهدا بقية الحظائر ومخازن العلف التابعة للحانوت . فوجدا كل شيء على غاية من الاتقان والنظافة مما يدل على اعتنا المستخدمين في اعمالهم جميعها وبعد أن تفرجا على كل شيء ما خلا الطابق العلوي قال مورف للسفاح

— الا ترى مثلي أن صديقي صاحب هـذا الحانوت رجل سعيد ؟ فانه ما خلا هذا المحل وكل محتوياته يملك اربعة الاف فرنك لادارة حركة تجارته وفضلا عن ذلك فهو لا يزال في مقتبل العمر اذ لم يتجاوز الثامنة والثلاثين وذو صحة جيدة وقوة عضلية نادرة المثال اذا لطم الثور صرعه. وزد على ذلك انه مغرم بحرفته

— لاشك انه سعيد . . . ولكن سعادته لا تمنع شقاء غيره . وهكذا الدنيا نعيم وشقاء . . . أولا اعد نفسي سعيداً حين أفكر في انني سارب اربعة فرنكات كل يوم مع علمي

أن كثيرين غيري لا يربحون نصف هذه القيمة أو ربعها؟؟

— اتريد أن تصعد الى الطابق العلوي لتتفرج على بقية الاماكن التابعة للحانوت؟. . . فانك تجد فوق الرجل الذي سادخلك في خدمته

— الرجل الذي ستدخلني في خدمته ؟

— نعم

فامسك السفاح مورف من ذراعه وقال له بصوت مضطرب حزين

— اصغ اليّ ودعني اطلعك على امر ربما ابقاه المسيو رودلف مكتوماً عنك ولا بدّ لي من أن أطلع عليه ايضاً الرجل الذي يريد استخدامي . . ليكون على بينة من الامر قبل دخولي في خدمته

ما هو ذلك الأمر ؟

فاجابه السفاح بصوت خافت

— هو انني كنت من المجرمين وقضيت زمناً في السجن

— اتبعني مهما يكن من امرك

ثم صعد مورف الدرج وتبعه السفاح وولجا بابا فدخلا

قاعة فسيحة فوجدا هنالك رودلف . فقال هذا لمورف

— دعني انفرد بالسفاح

فخرج مورف من القاعة ممتثلا أما السفاح فحين أبصر رودلف اخذته الدهشة فصاح قائلا

— اني مسرور جداً بمشاهدتك هنا يامسيو رودلف . أو بالحرى يا مولاي رودلف

— أهلا وسهلا بك أيها الصديق لقد سرني قدومك كثيراً

— اين مورف هذا الخبيث المازح . فقد قال لي انك سافرت . . . ولكن مالنا ولهذا يامولاي وارجوك ...

— قل (يامسيو رودلف) فاني افضل هذا النداء

— وارجوك يامسيو رودلف المعذرة على عدم زيارتك بعد ليلة معلم المدرسة . . . وقد ادركت الآن انني في امتناعي عن زيارتك خرجت عن حد الادب واللياقة . . على انني أرجو ان تصفح عني .

فابتسم رودلف واجابه .

— صفحت عنك ياسفاح . . ولكن هل أراك مورف هذا البيت ؟

— نعم ياسيدي .. هو بيت جميل وحانوت جميل وكل مافيهما يدل على ان صاحبهما ذو ثروة ... وعلى ذكر الثروة أخبرك يامسيو رودلف بأنني عما قليل سأصبح من أصحاب الثروة .. فان مورف وجد لي خدمة اربح منها أربعة فرنكات كل يوم ... اربعة فرنكات !!

— وانا اعرض عليك خدمة أفضل من التي وجدها لك مورف

— العفو !!.. . لاتؤاخذني اذا قلت لك انه يصعب عليك ان تجد لي خدمة افضل من التي وجدها مورف .. «اربعة فرنكات يا افندم يومي»

— قلت لك ان الذي اعرض عليك افضل بكثير والدليل على ذلك ان هذا البيت والحانوت الذي رأيته اسفل وكل مافيهما ملك حلال لك. وفضلا عن ذلك انقدك الآن اربعة آلاف فرنك

فاحتقن وجه السفاح وتندى جبينه بالعرق فمسحه بيده الخشنة وقال بصوت متلجلج متقطع

— ماذا ! الك . . . لك . . كل هذا لي ؟؟

— نعم كل هذا لك فقد وهبتك اياه . . افهمت ما اقول

— فتململ السفاح على كرسيه فحك رأسه فسعل . فأطرق . ولم يجب بكلمة .

— هل يخال لك انني أعطيتك أكثر مما تستحق ؟ اما انا فارى انك تستحق كل هذا واكثر

فازدادت دهشة السفاح واجاب وهو يحملق بعينيه

— انا استحق اكثر من كل هذا !! كيف ذلك ؟

— اليك بيان الاسباب التي لاجلها تستحق اكثر من هذا الا تعلم : انك ، نبذت وطردت منذ نعومة اظفارك وتركت وشأنك تتصرف بك عوامل الطبيعة كيف شاءت ثم سجنت خمسة عشر عاماً وتحملت آلام البؤس والجوع . واضطرك سوء حالك ونفور الاخيار منك الى عشرة الاشرار من بني البشر . وعلى رغم كل هذا بقيت محافظاً على المبادي الشريفة الفطرية وما زلت حتى الساعة قادماً على آثامك القديمة ولو انك كفرت عنها باحتمال عذاب السجن

فحين سمع السفاح هذا المقال البسيط الدال على النبل

أخذ منه العجب فنظر الى رودلف نظرة تنم عن الاحترام والشكر معاً واجاب وهو لا يصدق ما يسمع

— لكن يامسيو رودلف هذا لا يمكن . . . لانه يوجد عمال فقراء . . . ظلوا طول حياتهم متبعين المبادىء الشريفة وهم مع ذلك . . . فقاطعه رودلف وقال له

— اعلمُ ذلك . وربما اني جازيت الكثيرين من اولئك العمال باحسن مما جازيتك . فان كان المحافظ على المبادي الشريفة وهو عائش بين الاخيار يستحق المكافأة فما قولك في من يعمل عمله وهو عائش بين اللصوص والقتلة ؟ ثم ان هنالك سبباً آخر يدفعني الى مكافأتك وهو انك انقذت حياتي من الموت وانقذت حياة مورف وهو أعز صديق لي . . . فانني مما افعله اريد امرين الاول ان أعرب لك عن امتناني وشكري على حسن صنيعك بي وبمورف . والثاني أن انشل من هوة الفساد نفساً طيبة ضلت ولكنها ما ضاعت ثم انك اتيت اموراً اخرى تدل على الشهامة

— ما الذي فعلته غير ما ذكرت ؟

فامسك رودلف بيد السفاح وقال له بصوت ينم عن

المحبة .

— انك اشفقت على ذلك القاتل معلم المدرسة ورثيت لمصابه ونسيت انه قبل حين حاول قتلك ومددت له يد المعونة وقدته وانزلته بيتك في زقاق نوتر دام نمرة ٩

— كيف!! هل تعلم اين أسكن ؟

— نعم وبما انني لا انسى المعروف الذي صنعته معي مثلما نسيته أنت اتبعتك حين تركت بيتي في تلك الليلة برجل من رجالي يقتفي خطاك فظل يتبعك حتى رآك. دخلت بيتك مع معلم المدرسة

— كيف قال لي اذن مورف أنك لا تعرف اين اسكن ؟

— اخطاء مورف فيما قاله لك . وقد اردت ان اخبرك لاعلم اذا كنت تعمل المعروف غير مبتغ اجراً ... فتحققت من انك بعد حسن صنيعك معي الدال على الشجاعة وكرم النفس عدت الى اشغالك الشاقة التي ترتزق منها من دون ان تسألني مكافأة او ان تؤمل في احسان حتى أنك لم تفه بكلمة شكوى من نكران الجميل الذي تكلفت اظهاره بعد حسن صنيعك معي . وحينما اخبرك مورف أنه وجد لك عملاً تربح منه

اكثر بقليل مما تربح من اشغالك الحالية ابديت فرحا وشكوراً

— ارجوك أن تصغي الي يا مسيو رودلف ٠ واذكر انني استكثرت الاربعة فرنكات التي سوف اربحها من العمل المنتظر . أما ماصنعته معك ... فانا أشكرك عليه ..

— كيف ذلك ؟

فاجابه السفاح بصوت حزين

— نعم نعم يا مسيو رودلف انني أشكرك على حسن صنيعي معك لانك أنت اوجدت بي هذا الميل الى عمل الخير . فانني حين عرفتك وقلت لي هاتين الكلمتين : (انك ذو قلب وشرف) تغيرت كل افكاري وانقلبت اطواري .. أو ليس من العجيب أن كلمتين تفعلان في النفس مثل هذا الفعل ؟ . . . ولكن ما هو وجه العجب ؟؟ السنا نرى مثال ذلك كل يوم فانك تزرع في الارض حبتين من القمح فتنتجان وتتكاثران ويتكون منهما سنابل كثير الحب

فاعجب رودلف لهذا التشبيه الصحيح فناجى نفسه قائلا

— اجل ان الكلام الحسن يثمر في النفوس الطاهرة ويولد فيها الخصال الحميدة كما ينمو حب القمح اذا زرع في

الارض الجيدة

وبعد اطراق لم يطل عاد فقال للسفاح

— أأنت الذي وجدت لمعلم المدرسة مكاناً في سان مندي ؟

— نعم يا مسيو رودلف . . . وحين وجدت له المكان كلفني أن أبدل له الاوراق المالية بنقود ذهبية ففعلت واشتريت له حزاماً من جلد وضع فيه النقود وشده على وسطه ثم ذهبت به الى ذلك الملجاء حيث لا ينفق على معيشته سوى فرنك ونصف كل يوم . وأصحاب البيت الذي لجاء اليه قوم كرام يحسنون معاملته . وساذهب لاراه متى انتهيت من تفريغ قطار الاخشاب

— قطار الاخشاب ؟ انسيت حانوتك هذا ؟

— ارجوك يا مسيو رودلف أن لا تهزاء بي . اما كفاك ما وجدته من المسرة في استنطاقي واختباري كما تقول ؟ . . بيتي . . وحانوتي !! . اظننتني ابله حتى اصدق هذا الكلام ؟ لا شك انك قلت في نفسك : اريد ان ارى ما اذا كان هذا

الحيوان الملقب بالسفاح يصدق كلامي ويعتقد انني أهدي اليه بيتاً وحانوت جزارة.. كفاك مزاحاً يامسيو رودلف كفاك

فحار رودلف في أمره ولم يعد يعرف بأي لسان يكلم السفاح لاقناعه بان مايقوله له هي الحقيقة. وبعد سكوت لم يطل قال له بلهجة الجد

— انني لا أمزح قط فيما له علاقة بالافعال النبيلة والاعتراف بها . . . فاعيد عليك ما قلته وهو ان هذا البيت وهذا الحانوت ملك حلال لك اذا كنت ترضى بهما ... اذ ان شراهما من صاحبهما موقوف على هذا الشرط . واقسم لك بشرفي على ان ماأقوله لاريب فيه. وانني اقدم لك هذه الهدية للاسباب التي ذكرتها لك آنفاً

فحين سمع السفاح ذلك الكلام الدالة لهجته على الجد زال ماكان غامره من الريب وتأكد صدق المقال. فظل شاخصاً الى رودلف بضع ثوانٍ ثم قال له بصوت مضطرب

— صدَّقت كلامك ياسيدي فاشكرك شكراً جزيلا.. والذين على شاكلتي لايحسنون الفصاحة في الكلام فلا تؤاخذني على بساطة مقالي اشكرك ياسيدي مثنى وثلاث . . وغاية

ما أقوله لك هو انني لا أرد رجاء مستغيث ولا أحجم عن اعانة التعساء على قدر الامكان ... ذلك لان الجوع والبؤس بليتان تفعلان ببني الانسان التعساء ما فعلتاه بالمغنية تلك الفتاة المسكينة .. وقلّ بين الذين يقعون في هوة الفقر من يقوى على الخروج منها اذا لم يكن له عون من الله

— ان ماقلته هو عندي أقوى دليل على اعترافك بالجميل أيها الصديق. انك اذن تقبل الهدية؟

— لا ياسيدي لا يمكنني قبولها .. فارجوك العفو

— لماذا؟

— لانني كلما رأيت حيواناً يذبح وأبصرت الدم والسكين الملوثة به اذكر الجاويش الذي قتلته والجنديين اللذين جرحتهما فصارت تشمئز نفسي من كل ماله علاقة بالذبح والجزارة .. فماذا يكون من أمري اذا قبلت هديتك وصرت أغوص في الدم نهاراً وليلا ... وانحر تلك الحيوانات البريئة التي لا تبدي حركة للدفاع عن أرواحها ..... اف! اف! لا لا .. لا يمكنني وافضل ان أصبح أعمى مثل معلم المدرسة على ان أعود الى هذه المهنة ... عفوك يامولاي انني أقابل حسن صنيعك

معي بغير مايستحق ... ولكنني ...

— لا تحمّل نفسك لوماً اذ لا بأس من رفضك فقد قلت لك ان شراء هذا البيت وهذا الحانوت موقوف على رضاك . وأنا مااخترت لك هذه الهدية الا لاعتقادي انك ميال بالطبع الى مهنة الجزارة

— نعم انني كنت أجد في هذه المهنة لذة عظيمة لولا تلك الذكرى . وهذا ماقلته لمورف منذ برهة

— ان لديّ مكافأة أخرى أعرضها عليك : ذلك ان صديقاً لي يملك في بلاد الجزائر مزارع عديدة فيمكنني ان ابتاع لك من أملاكه مزرعة خصبة التربة ... ولكن لا أخفي عليك ان تلك المزارع واقعة عند آخر جبل الاطلس أي عند حدود أملاك فرنسا في الجزائر وانها معرضة لهجمات العرب ... فلا بدّ للذي يرغب في الاقامة هنالك ان يكون ميله الى الجندية لا يقل عن ميله الى الزراعة وان وكيل صديقي المشرف على تلك المزارع يوقفك على كل ما تجهل ويدلك على الخطة التي يلزمك اتباعها. فقد قيل لي انه ذو مبادئ شريفة ويمكنك ان تبقيه في خدمتك مازلت في حاجة اليه .

ومتى أقمت هنالك لا تلبث ان تزداد ثروتك لما أعهده فيك من النشاط والاجتهاد ثم انك تفيد الحكومة بصد هجمات العدو على الحدود.

فاذا كان هذا المشروع لا يحسن في عينيك فقل ولا تستحي ففي الامكان ان أجد لك غيره . . . واذا وجدته موافقاً فوقع غداً على شروط المبيع ثم تسافر الى الجزائر بصحبة رجل من قبل المالك يسلمك المزرعة ومذكور في الشروط انه يستحق لك ايجار الارض مدة سنتين فتقبض المبلغ حين وصولك.

اما ريع الارض السنوي فهو ثلاثة آلاف فرنك ولكنك بجدك واجتهادك والمثابرة على الاصلاح يزداد الريع فتسعد حالك وحال المزارعين الذين يحرثون أرضك . اذ لا شك عندي في انك لا تدخر سعياً لاصلاح حال الذين يخدمونك ويسقون الارض بعرق جباههم . . . واذكر دائماً ان موت الغني الشحيح أفضل من حياته.

أما أنا فلا أنساك قط وأظل اذكرك على بعد المزار واذكر انك انقذت حياتي وحياة أعز صديق لي على الارض وغاية ما أرجوه منك برهانا على شكرك هو ان تسرع في تعلم

القراءة والكتابة ليمكنك ان تكتب لي في القريب العاجل كل أسبوع مرة على الاقل وتخبرني بكل ماتفعل لاكون على بينة من أمرك وأمدك بالاسعاف المادي والادبي اذا وجدتك في حاجة اليهما.

ولا يمكن القاري‌ء ان يتصور مابدا على وجه السفاح من علامات الابتهاج والفرح . فان هذا المشروع الذي عرضه عليه رودلف ينطبق تمام الانطباق على امياله الغريزية.

وفي صباح الغدسافر الى الجزائر

الفصل الحادي عشر

(البحث)

لم يكن رودلف يقيم في بيت ممشى الفيف الذي عرفه القاريء وانما كان يسكن قصراً فخيما من أجمل قصور حي سان جرمان كائن عند نهاية شارع بلوميه وأول شارع الانفاليد

ولكي يتخلص من احتفالات الحكومة الفرنساوية الرسمية بسموه دخل باريس متخفياً . وأبلغ دوائر الحكومة بواسطة السفارة الالمانية انه يؤدي زياراته الرسمية التي لابد منها تحت اسم الكونت دورين

ولكن على رغم تخفي هذا الرجل كانت مظاهر قصره تدل على رفعة مقامه. فليدخل معنا القارئ ذلك القصر الفخيم في اليوم التالي لسفر السفاح الى الجزائر

عند الساعة العاشرة صباحا كان مورف جالساً وراء مكتب جميل في قاعة فسيحة من طابق القصر السفلي كائنة الى جانب القاعة التي يقيم فيها رودلف. وبينما هو يشتغل في كتابة رسائل عديدة دخل عليه حاجب لابس ثياباً سوداء وفي عنقه سلسلة من الفضة وقال له

— أن حضرة البارون كرون يريد مقابلتكم

وما كاد الحاجب يتم عبارته حتى دخل البارون فظل مورف جالساً واشار اليه اشارة تدل على المودة وعدم الكلفة وقال له وهو يبتسم

— أهلا بك يا حضرة السفير!!! ارجوك أن تجلس الى جنب الموقد وتتدفأ بضع دقائق ريثما انتهي من العمل الذي بين يدي واتفرغ لك.

فرد البارون كرون التحية باحسن منها واجاب وهو يبتسم

— انني انتظر اوامرك ياحضرة كاتم الاسرار المحترم

ثم احنى رأسه لمورف مازحاً وعاد فقال

— لا شك أن مولاي البرنس اطال السهر ليلة امس فاني أري الرسائل أمامك كثيرة . . . وهل يلزمني الانتظار حتى يستيقظ سمو البرنس فاطلعه على ما اتيته بهِ من الاخبار؟

— لا يا جناب البارون . . . . امرنا مولاي ان لا نيقظه من النوم قبل الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر . وأن اضطلع انا على الاخبار الجديدة ثم أوقفه عليها متى استيقظ .

— حسن !! ولا شك أن مولاي سيسر باخباري الجديدة

— اليس لديك اخبار محلية أيها الصديق ؟ أما شاعت في باريس بعض الاخبار عن اعمالنا الخفية . . . .

— مازالت أعمالكم كلها تحت طي الخفاء . . . والسبب في ذلك أن مولاي البرنس منذ جاء باريس لم يره الاخصاء الا نادراً عند بعض الذين تشرفوا بالتعرف به . . . وهم يعتقدون أن سموه يرتاح الى العزلة وانه يقضي أغلب ساعات النزهة متجولا في ضواحي باريس . وماخلا الكونتس ساره ماك جريجور واخيها لا يعلم أحد بتخفي سموه . . . وليس من مصلحتهما افشاء هذا السر

فتنهد مورف وقال — آه ياصديقي البارون . من سوء الطالع أن هذه الكونتس الملعونة أصبحت الان أرملة .

— ألم تتزوج عام ١٨٢٧ أو ١٨٢٨ ؟ ؟

— عام ١٨٢٧ بعد موت تلك الفتاة التعسة بزمن وجيز . ولا يزال مولاي يذرف الدمع السخين كلما فكر في تلك الفتاة . . . ولو أنها بقيت لكان عمرها الآن ست عشرة أو سبع عشرة سنة . .

— والذي يزيد مولانا ألماً هو أنه لم يرزق ولداً بعد زواجه

— صدقت . . واعلم أيها الصديق أن من أهم الاسباب التي حملت مولاي على الاخذ بيد المغنية هو أنها من عمر ابنته الفقيدة تماماً

— ومن غريب الاتفاق الدال على طالع النحس أن هذه الكونتس التي كنا ظننا اننا تخلصنا منها فقدت زوجها وأصبحت ارملة بعد أن فقد سموه زوجته الصالحة بثمانية عشر شهراً . . . مما جعل الكونتس تعتقد أن الاقدار ساعدتها بهذا الاتفاق العجيب .

— اجل وقد تجددت آمالها في نيل ما تتمنى . . . على

أنها تعلم حق العلم أن مولاي ينفر منها نفور الملدوغ من الافعى . . . وهل يلام على ذلك ؟ . . . ألم تكن سببا في موت ابنتها لشدة اهمالها ؟ . . ألم تكن سبباً في . . .

وتوقف مورف عن اتمام عبارته وعاد فقال

— اه يا بارون أن هذه المرأة مشومة . . فاسأل الله أن لا ينالنا مصائب جديدة على يدها

— ولكن الست ترى مثلي ياعزيزي مورف أن آمال الكونتس أوهن من خيط العنكبوت وتدعو الى سوء الظن بقوة ادراكها . فان موت تلك الفتاة التي ذكرتها الان قطع ما كان باقيا من الصلة بين هذه المرأة وبين مولاي . فان هي ظلت تعلل نفسها بتلك الاماني الباطلة تثبت للملا انها مجنونة

— نعم ولكنها مجنونة خطرة يخشى منها . .والذي يزيد الطينة بلة هو أن أخاها يرى رأيها و يستسهل ادراك امانيها . . وقدفات هذا الغبي كما فات اخته أن أمالهما قد اصبحت اليوم واهنة ضعيفة بقدر ما كانت قوية منذ ثماني عشرة سنة

— اه ياحضرة الكونت !! كم من مصاب نالنا في ذيالك

العهد على يد بوليدوري ذلك الرجل الجهنمي ؟

— قد قيل لي والشيء بالشيء يذكر أن هذا الرجل الشرير مقيم في باريس منذ سنتين .. فلا شك انه في فقر مدقع او انه يتعاطى اشغالا سافلة تليق بامثاله

— أليس من دواعي الاسف ان يسقط هذا الرجل مع ما هو عليه من العلم والادراك وتوقد الذهن ؟

— ولا تنس ما هو عليه من سوء الخلق والميل الى عمل الشر .... وغاية ما اطلبه من الله عزّ وعلا ان لا يسمح باجتماع هذا الرجل بالكونتس منعاً لما ينتج عن تبادل افكارهما من المصائب لا قبل لنا بها . فصدق فيهما قول الشاعر

قد اتفقا ولكن في ضلال * كعقرب راكب للشر افعى

والآن ما هي اخبارك الجديدة التي اتيتنا بها ؟

فاخرج البارون ورقة من جيبه واجاب

— ها هي اخباري الجديدة وكلها تتعلق بالبحث عن ولادة الفتاة الملقبة بالمغنية وعن مقر فرنسوا جرمان ابن معلم المدرسة .

— الا زلت مسروراً من اعمال رجلك باديتو ؟

— انه رجل نادر المثيل توفرت فيه النباهة والمهارة والمحافظة على السر . . . حتى انني اضطر احيانا الى تلطيف شدة اندفاعه على الاعمال . . . اذ لا يخفى عليك أن مولاي يؤثر احيانا الانفراد في استكشاف بعض الامور الغامضة

— الا يزال يجهل تداخل مولاي في كل هذه الامور ؟

— نعم لا يزال يجهل ذلك لان وظيفتي السياسية توجد لي مسوغاً لما اكلفه به من الابحاث والاستعلامات ولا يخفى عليك ان لرجلنا المسيو باديغو علاقات ظاهرة وخفية مع كل طبقات أهل باريس ولا سيما الاغنيا منهم فانه واقف على كل أسرارهم وقدر ثروة كل منهم ومركزه بين الناس وطالما استفاد من معرفة اسرار اولئك القوم فابتز ماشاء من اموالهم فاثرى ثلاثاً ثم افتقر بالمضاربات .

ولكن أخيراً عرفه الكل فلم تعد تجوز عليهم حيله فسدت في وجهه أبواب الرزق واضطر لكسب العيش الى اتخاذ الطرق المحرمة مهما كانت . واذا استخدمه أحد لتنفيذ مآرب فلا تنفر نفسه من الوسائط السافلة التي تدفعه الحال الى استعمالها ما زال يجد منفعة لنفسه من وراء تلك الاعمال الدنيئة

فلا أرى والحالة هذه دافعاً يدفعه الى غشنا . هذا فضلا عن ان لي رجالا يراقبون كل حركاته وسكناته وهو لا يدري

— لاشك ان الاخبار التي أتانا بها لاغش فيها

— نعم انه يتحدى التدقيق في أعماله . واعلم ياعزيزي مورف انك قلما تجد في غير باريس رجلا مثل المسيو بادينو في أطواره الغريبة وحياته المحفوفة بالاسرار والامور الغامضة.. ولولا تلك المرأة لكان هذا الرجل موضوع تسلية لسموه

واليك الآن الاخبار التي بعث بها الي . فاسمع اقرأ عليك مذكرة بشأن الفتاة الملقبة بالمغنية

« في أوائل عام ١٨٢٧ حكم بالاشغال الشاقة على رجل يدعى تورنيمين لارتكابه جناية التزوير وقبل دخوله سجن روشفور عهد الى امرأة تدعى جرفي ملقبة بالعوراء تربية فتاة تبلغ من العمر خمس أوست سنين مقابل الف فرنك تدفع اليها مقدماً .

« فرضيت المرأة بذلك وأخذت الفتاة الى بيتها ولكنها صارت تعاملها بقساوة بربرية وظلت تلك البنية المسكينة تسام العذاب الاليم سنتين حتى لم تعد تجد الى الصبر سبيلا فهربت

من بيت العوراء واختفت .

« ومرت أعوام عديدة لم تقف العوراء في خلالها على أثر الفتاة ولكنها منذ ستة أسابيع رأتها لاول مرة بعد هربها في خمارة تدعى خمارة الارنب الابيض. وقبل ان تصادف العوراء تلك الفتاة ببضعة أيام سلم تورنيمين الذي عرفه معلم المدرسة في سجن روشفور كتاباً الى باروج يذكر له فيه اموراً كثيرة تتعلق بالفتاة التي كلف العوراء بتربيتها والاحتفاظ بها»

فمن ابحاثنا ومن هذا الخطاب ومن اقرار العوراء يستنتج ان امرأة تدعى سيرافين كانت خادمة في بيت رجل وكيل أشغال يدعى جاك فيران كلفت تورنيمين عام ١٨٢٧ بان يجد لها امرأة تتعهد بتربية فتاة بنت خمس أو ست سنين واخفاء خبرها للتخلص منها مقابل الف فرنك .

فرضيت العوراء بالقيام بهذا العمل .

وكان غرض تورنيمين من ارسال كتابه الى باروج بشأن المغنية هو أن يكلفه بتهديد المرأة سيرافين بافشاء سر المغنية أن هي لم تنقدهما ما يطلبانه من المال .

وقد اكد تورنيمين لباروج في كتابه أن سيرافين هذه

ليست سوى نائبة عن اناس أخرين يريدون أن يبقوا مستترين

وقد سلم براروج الكتاب للعوراء التي اصبحت شريكة لمعلم المدرسة في جرائمه وفي ذلك تعليل لوقوف معلم المدرسة على هذا السر ولقول العوراء للمغنية ليلة رأتها في الخمارة بانها عرفت ابويها ولكنها لن تهديها اليهما وقد فحصنا عن امر سيرافين ووكيل الاشغال فعلمنا أن كليهما موجودان في باريس

وجاك فيران مقيم في شارع سنتيه نمرة ٤١ والمشهور عنه انه رجل ذو تقوى وصلاح ومدقق في اشغاله الى حد الشدة والقسوة ومكتبه يعد من افضل المكاتب في باريس . ولا تزال سيرافين في خدمته .

والمشهور أيضاً عنه انه كان فقيراً ولكن على رغم فقره ابتاع وظيفته بثلثماية وخمسين الف فرنك . ويقال انه اخذ هذا المال من ضابط صغير السن جميل الصورة من ضباط الحرس في باريس يدعى شارل روبير .

ويقول بعضهم ان فيران شارك شارل روبير في بعض المضاربات فربح ارباحاً عظيمة حتى أمكنه ان يفي الثلثمائة وخمسين ألف فرنك غير ان الناس لحسن ظنهم بفيران يقولون

ان كل تلك الاشاعات باطلة ولا نصيب لها من الصحة

والذي لا ريب فيه هو ان سيرافين خادمة هذا النوتير عالمة بأمر المغنية ويمكنها ان تخبرنا بتاريخ ولادتها الحقيقي

فاجاب مورف

— حسن . حسن ياعزيزي البارون ! ! ان ماذكره نورتيمين لا يخلو من بعض الحقائق . ولعلنا نجد عند النوتير الوسائط المؤدية الى معرفة والدي تلك الفتاة التعسة . . . . وهل أخبارك عن ابن معلم المدرسة مفيدة أيضاً ؟

— ولو انها لا تعادل في دقتها ماذكرته لك عن المغنية فهي لا تخلو من الاهمية واعلم ان باروج هو مصدر كل الاخبار ومحور كل الاعمال

وقد أخبرنا الخواجه بادينو بعد مخابرة البوليس بشأن باروج ان هذا الرجل كان الوسيط بين كثيرين من مسجوني روشفور وبين مريديهم المقيمين في باريس ولا سيما اثناء مساعي مولاي في ايجاد ابن مدام جورج دوريفل التعسة امرأة معلم المدرسة ذلك اللص القاتل

واليك بعض الايضاحات عن فرانسو جرمان ابن مدام

چورج ومعلم المدرسة الذي يدعى أيضاً دوريفل :

« جاء باريس منذ ثمانية عشر شهراً شاب يدعى فرنسوا جرمان قادماً من مدينة نانت حيث كان موظفاً في مصرف نويل وشركاه

« ويستنتج من اقرار معلم المدرسة ومن عدة خطابات وجدت في جيوبه انه عهد الى صديق له من امهر اللصوص واشر القتلة بتدريب ولده على الجرائم يستعين به فيما بعد على ارتكاب المنكرات وان هذا اللص الاستاذ هو الذي اوعز الى الفتى فرنسوا جرمان يعاونه على سرقة المصرف الذى كان موظفاً به غير أن نفس الفتى الابية لم تطاوعه على ارتكاب هذا المنكر فرفض الطلب . ولكي يتلافى الضرر بدون أن يوقع استاذه اللص في قبضة الحكومة كتب للمدير كتاباً غير موقع عليه ذكر له فيه ما يدبر من المكايد لسرقة المصرف واوصاه بان يكون على حذر دائم ثم أنه فر من نانت خلسة لينجو من انتقام الذين ارادوا اتخاذه آلة لتنفيذ مآربهم. فجاء هؤلاء الى باريس وانضموا الى براروج وطفقوا يبحثون عن ابن معلم المدرسة ليقتلونه تخلصاً مما ربما يجلبه لهم من الاذى

لانه كان واقفاً على كل اسرارهم وبعد أن بحثوا عنه طويلا عرفوا عنوانه ولكن بعد أن سبق السيف العذل. ذلك لان الفتى جرمان صادف في باريس بطريق العرض احد اولئك اللصوص وهو الذي حاول ان يغريه على سرقة المصرف في نانت. فادرك أن هذا اللص جاء باريس لاغتياله فانتقل للحال الى مسكن جديد خفي ونجا من البلاء الذي كان يتهدده

ولكنه على رغم تكتمه عرف الباحثون عنه أن مسكنه الجديد في شارع التامبل نمرة ١٧

وفي ذات ليلة بينما كان عائداً الى بيته اوشك أن يُفتك به (ولم يذكر معلم المدرسة هذه الحادثة لمولاي)

وادرك جرمان مصدر البلاء الذي كاد يصيبه فهجر شارع التامبل ولم يعد يعرف احد اين سكن. وظل مضطهدوه يفتشون عليه بلا جدوى حتى نال والده معلم المدرسة ما يستحقه من الجزاء على جرائمه الفظيعة

وبعد ذلك استأنف مولاي البحث عن جرمان واليك مذكرة عن الابحاث الجديدة

« ظل جرمان ساكناً ثلاثة شهور تقريباً في شارع التامبل

نمرة ١٧ وكان كل جيرانه يحبونه لما وجدوه عليه من بشاشة الوجه وحرية الضمير والاخذ بناصر الضعيف . وكان على ضيق ذات يده الظاهر ينفق من اليسير الذي يربحه على عائلة فقيرة ساكنة في جواره .

« وعلى رغم الاستعلام الدقيق من شارع التامبل ما امكن الاهتداء الى مسكن فرنسوا جرمان الجديد ولا معرفة ما يحترف . ويظن بعضهم انه كان موظفاً في احد البيوت التجارية ودليلهم على ذلك أنه كان يخرج من بيته صباحا ولا يعود الا عند الساعة العاشرة ليلاً

« والشخص الوحيد الذي يعرف مسكنه الجديد هي فتاة جميلة الصورة تدعى الانسة ريجوليت كانت جارته في بيت شارع التامبل وكانت بينهما مودة

« والغرفة التي كان يسكنها جرمان كانت ملاصقة لغرفة هذه الفتاة وما زالت خالية حتى الآن . وقد وقف سمو الامير على اخبار جديدة حين ذهب الى شارع التامبل لاستأجار تلك الغرفة ... »

وكان مورف مطرقا الى الارض يفكر فلما سمع اسم

ريجوليت تنبه وقال

— ريجوليت ؟ .... ريجوليت.. انني اعرف هذا الاسم

فضحك البارون واجابه

— كيف ! ! ايمكن هذا ياسير ولتر مورف ! ! ايمكن أن تعرف الغانيات الفاتنات وانت رب عائلة محترم ؟ بخّ بخّ !

— ان السبب في ذلك هو مولاي لانه أوجدني في احوال اضطررت معها الى تعرف بنات الهوى مرغماً فلا موجب والحالة هذه الى ما ابديته من العجب يا حضرة البارون . . . ولكن دعني انبه ذاكرتي لعلي اتذكر من هي هذه الفتاة . . . .

نعم . نعم. تذكرت الآن.ان مولاي حين قص عليّ حكاية المغنية قال لي أن ريجوليت هذه كانت رفيقتها في السجن ولم يكن يتمالك عن الضحك كلما ذكرأنها ..

— مهما يكن من الامر فان في امكان الانسة ريجوليت أن تفيدنا فائدة عظيمة . . . . واسمع الأن بقية مذكراتي :

«لعلّ من استئجار الغرفة الخالية في شارع التامبل فائدة تساعد على البحث عن جرمان . فما قاله بواب البيت يستنتج

أن مولاي يجد هنالك دلائل توقفه على ما آل اليه امر الفتى من جهة . ومن جهة اخرى يرى اموراً غريبة ويشاهد انواعاً جديدة من الشقاء والتعاسة . !

ولما انتهى البارون من قرأة تقريره اعطاه لمروف وقال

— فترى مما تقدم ياعزيزي مورف اننا نجد عند جاك فير" ان تاريخ ولادة الفتاة الملقبة بالمغنية والاخبار الحقيقية عن ابويها . وان لا أحد سوى الانسة ريجوليت يدلنا على المسكن الجديد الذي يأوي اليه جرمان بعد خروجه من بيت شارع التامبل . .. ولاغرو اننا بمعرفتنا هذين الامرين تخطينا في البحث عقبة كؤود .

— لا شك في ذلك ايها البارون ولكن بقي علينا امور كثيرة يلزمنا الوقوف عليها فهل عرفت شيئاً عن المركيز درفيل؟

— نعم . واعلم بان تخوف سموه من افلاس الرجل لا موجب له لان المسيو بادينو يؤكد أن ثروة المركيز لم تتزعزع وانه يحسن ادارتها . والمسيو بادينو ثقة يعول على شهادته

— لقد بحث مولاي الامير طويلا عن سبب الحزن الشديد الذي استولى على المركيز درفيل ولما لم يهتد الى الحقيقة

ظن أن كآبة المركيز ناتجة عن عسر مالي . ولكن بما انه قد اتضح أن هذا الظن فاسد فلا يسع مولاي الآن الاسف لعجزه عن الوقوف على هذا السر الغامض لانه يحب المركيز حباً جماً لا ريب فيه

— لاغرابة في ذلك لان سموه لم ينس قط ما صنعه والد المركيز من المعروف مع والده . أتعلم ياعزيزي مورف انه في عام ١٨١٥ ايام تحوير الممالك الجرمانية المتحدة كان والد سموه في خطر مبين ؟ وانه لو لا معونة والد المركيز درفيل لكان نزع منه الملك لشدة تعلقه بنابوليون الاول ؟ . أما المروءة التي ابداها والد المركيز فهي أنه التمس من جلالة الاسكندر امبراطور روسيا أن يؤيد والد سموه في ملكه . فاجاب جلالته ملتمسه لانه منذ عرفه في بلاطه احبه وصار يعطف عليه ولا يخيب له رجاء . ولما استتب لوالد سموه الامر في مملكة اجداده بفضل مساعدة القيصر أقام في قصره منقذه وصديقه الحميم والد المركيز . وفي تلك الغضون تعرف سموه بولده المركيز درفيل وكانا كلاهما صغيري السن اذ ذاك

— نعم وانهما حفظا ذكراً جميلا لعهد الصبي . ولم يقتصر

مولاي على اكرام المركيز درفيـل وتمجيد ذكر والده بل انه يحب كل أفراد أسرته ويوسعهم عطفاً وحنانا كأنهـم من أقاربه . ولم يشمل سموه بالتفاته مدام چورج لانها فقيرة وتعسة فقط بل لانها أيضاً من أسرة درفيل

فهتف البارون قائلاوقد بدت على وجهه علامات العجب

— مدام چورج !! زوجة دوريسـتل !! ذلك اللص القاتل الملقب بمعلم المدرسة !!

— نعم ... هي بعينها والدة فرنسوا جرمان الذي نبحث عنه وسوف نجده ان شاء ربك ...

— تقول انها من أقارب المركيز درفيل ؟

— نعم هي ابنة عم أمه وصديقته الحميمة . وكان والد المركيز يحب هذه المرأة حباً جماً

— وكيف سمحت أسرة درفيل بان تتزوج هذه المرأة دوريستل القاتل ؟ هذا أمر يصعب علي تعليله ياعزيزي مورف

— كان المسيو لاني والد هذه التعسـة مدير مقاطعـة لانجيدوك قبل الثورة وكانت له أملاك واسعة وقد ساعـده الحظ فنجا من مصادرة الحكومة لاملاكه ومحاكمته . وبعـد

عود السلام والسكينة الى فرنسا بأيام قليلة اهتم بزواج ابنته . فتقدم دوريستل مع جملة الذين تقدموا اطلب يدها وكان ابن أسرة شهيرة ذات حسب ونسب وذا ثروة عظيمة . غير انه كان يخفي أمياله السافلة الشريرة تحت نقاب من الرياء. ولسوء الحظ اغتر المسيو لاني بظواهره وزوجه ابنته .

ولم يمضِ على ذلك الزواج المشؤم بضعة أشهر حتى أطلق دوريستل العنان لنفسه السافلة فعكف على الفحش والادمان والمقامرة فخسر كل ثروته وثروة زوجته

ولما رأت هذه المرأة المنكودة الحظ ما أتاه زوجها من المنكرات لم تعد تستطيع صبراً على عشرته ففارقته وأقامت في مزرعة صغيرة بقيت من أملاكها . ولكن دوريستل ظل يسعى حتى باع تلك المزرعة وخسر ثمنها في المقامرة ومداعبة ربات الدلال

فاخذت مدام جورج ولدها وذهبت به الى بيت قريبتها المركيزة درفيل التي كانت تحبها كانها أختها

اما دوريستل فلما عضه ناب الفقر لجأ الى طرق الحرام لكسب المال فعكف على التزوير والسرقة والقتل فالقت الحكومة

القبض عليه وزجته في السجن المؤبد . ولكنه تمكن بدهائه من انتشال ابنه من أمه وأسلمه الى لص من زمرته . وأنت تعرف الباقي .

وبعد ان حكم بالسجن على هـذا الشقي رحلت زوجته عن صديقتها المركيزة درفيل وأتت باريس لتخفي فيها مالحقها من العار وما لبثت ان عضها ناب الفقر . ويطول الشرح اذا بينت لك كيف عرف مولاي هذه المرأة في باريس وكيف علم بما أصابها من الشقاء على يد زوجها اللص وانها من أسرة درفيل . فاقول لك بوجـيز العبارة انه رق لبلواها وأخـذ بيدها فانتشلها من هوة الشقاء في باريس وذهب بها الى مزرعة بوكيڤال حيث تقيم الآن مع الغنية .

نعم انها لم تجد السعادة في تلك المزرعة ولكنها على الاقل وجدت بعض الراحة .

اما مولاي الامير فلم يخبر المركيز درفيل بما صنعه من المعروف مع مدام جورج لسببين أولهما مراعاة احساسات هذه المرأة وثانيهما ان مولاي يفضل ان يبقي ما يأتيه من المعروف والاحسان تحت طي الخفاء .

مما ذكرته لك ياحضرة البارون . تعلم قدر محبة مولاي لافراد هذه الاسرة ولا تعود تعجب لرغبته في الوقوف على سبب حزن المركيز درفيل ولا سيما انه لا يجد موجباً لهذا الحزن الدائم

— نعم ان حزن المركيز درفيل أمرٌ غريب لان هذا الرجل قد جمع كل ما من شأنه ان يجعل الانسان سعيداً : الحسب . والجاه . والثروة . والشباب . والجمال . والذكا . وله زوجة يضرب المثل بجمالها وآدابها . . ويقال انه يحبها حباً يقرب من العبادة وانها لا تأتي أقل أمرٍ يحمله على الغيرة

— نعم ان المركيز يطنب دائماً في مدح زوجته . ولم يعنفها الا مرة واحدة بشأن الكونتس ساره ماك جريجور .

— انها تراها اذن ؟

— من أنحس الاتفاق ان والد المركيز درفيل عرف منذ سبع عشرة أو ثماني عشرة سنة ساره سيتون وأخاها توم أيام كانا مقيمين في باريس تحت رعاية زوجة سفير انكلترا . ولما علم بانهما راحلان الى المانيا أعطاهما كتابة وصاية لوالد مولاي يجيز لهما دخول بلاطه . ويا ليت ذلك الكتاب لم يخط

ياعزيزي جرون... لانه لو لم تدخل ساره سيتون بلاط والد الامير لماعرفها هذا ولا كان ما نتج عن ذلك من الشرور

ولما عادت الكونتس ساره الى هنا وعلمت ما بين سموه وبين المركيز من المودة جاءت بيت هذا على أمل ان تجد فيه مولاي الامير. والذي حملها على ذلك هو استمرارها على اللحاق به. فرغبتها في الاجتماع به تعادل رغبته في الا بتعادعنها

وكان مولاي قد اخبر المركيز درفيل عن ساره فاوصى هذا زوجته بالامتناع عنها على قدر الامكان فلم تمتثل لنصيحته لان الكونتس جذبت فؤادها بتذلفها وريائها وسحرتها بعذوبة حديثها فنتج عن ذلك بعض الخلاف ما بين المركيز وزوجته

— النساء! النساء! ما اعظم كيدهن يا عزيزي مورف!! انني وايم الحق آسف كل الاسف على علاقة المركيزة درفيل بالكونتس لان هـذه المرأة الشريرة لا تلبث أن تقودها الى الشرور.

فاجابه مورف — على ذكر النساء الشريرات ها هو كتاب بشأن المرآة سيسيلي الرديئة زوجة داوود الصالح

— لا شك يا عزيزي مورف أن تلك المرأة الخلاسية

كانت تستحق القصاص المريع الذي نال معلم المدرسة من يد زوجها العبد بناء على امر مولاي الامير لانها هي أيضاً اراقت كثيراً من الدماء وضلت ضلالا فظيعاً

— ولكنها ما زالت على رغم كل هذا بديعة الصورة ياخذ جمالها بمجامع القلوب ولست اكره شيئاً في العالم مثل كرهي للنفوس السافلة الشريرة المستترة تحت مظاهر الجمال

— وهل لا يزال يسعى مولاي في أن تُساعد على الفرار من الحصن الذي سجنت فيه سجناً مؤبداً؟ وأن ياتي بها منقذوها الى باريس؟

— نعم. ومولاي يريد اكثر من ذلك... فانه يطلب في هذا الكتاب الاسراع في انقاذها من سجنها على قدر الامكان وتسفيرها باقرب ما يمكن لكي تصل الى هنا قبل مضي خمسة عشر يوم

— ما اعجب هذه الامور ايها العزيز!!.... كيف يسعى مولاي في انقاذها من سجنها وعهدي به انه يكرهها كرهاً عظيماً؟

— ولا يزال يكرهها حتى الساعة

— كيف ياتي بها الى هنا اذن؟ ما اغرب هذه الفعال!!..

ويظن سموه انه يسهل عليه ارجاع سيسيلي الى السجن أن هي لم تفعل ما يأمرها به . أما طريقة اخراجها من الحصن فهي أن مولاي جعل رجاله يغرون ابن السجان باختطافها والتظاهر بانه مغرم بها وقد سهل عليه كل الطرق لانجاز هذا العمل . اما تلك الخلاسية اللعينة فكادت تجن من الفرح وتبعت منقذها فجاء بها الى باريس . ولكنها لم تنج من يد الحكومة وما زالت تُعتبر كسجينة فارة وانني متى شاء مولاي لا اتأخر طرفة عين عن تسليمي اياها للحكومة لتردها الى سجنها

— صدقت يا عزيزي البارون واعلم أن داوود كاد يموت غيظاً عند ما اخبره مولاي بقدوم سيسيلي وقال له :

« أؤمل منك يا مولاي انك لا تضطرني الى مقابلتها .

— فاجابه سموه : كن مطمئناً فانك لن تراها ولكنني في حاجة اليها لتنفيذ بعض المآرب

فلما سمع داوود هذا الجواب شعر كأن حجراً ثقيلا رفع عن صدره . . . على أنه ما زال ذكر الماضي يدمي فؤاده .

— يا له من عبد مسكين ! . . . ولا يبعد أنه يحبها حتى

اليوم . . . ويقال أنها مازالت جميلة . . . وانني لا أزال أجهل اين عرف هذا العبد سيسيلى وكيف تزوجها . وكيف عرفه مولانا وادخله في خدمته . . . أما سيسيلي هذه فقد رأيتها لاول مرة بعد زواجها بسنة واحدة ولم يكن اذ ذاك للناس حديث غير فضائحها

— يمكنني ياعزيزي البارون اطلاعك على ما انت راغب في الوقوف عليه لانني كنت في صحبة مولاي اثناء سفره لاميركا حيث انقذ داوود وزوجته الخلاسية من الضيق الشديد الذي كانا فيه

— لك مني جزيل الشكر ياعزيزي مورف . . . تكلم فها انا مصغ اليك

— كان في مقاطعة فلوريد من اعمال اميركا الشمالية مزارع واسع الثروة يدعى المستر ويليس له عبيد كثيرون . وكان بينهم عبد صغير السن متوقد الذهن على خلاف بني جلدته فبعث به ويليس الى فرنسا ليتعلم الطب والجراحة لانه كان في حاجة الى طبيب ملازم في مزارعه فذهب داوود الى باريس وقلبه طافح بالفرح وظل ثماني سنين مكبا على الدرس

حتى نال الشهادة الطبية وفاز في الامتحان على كل اقرانه . ثم عاد الى اميركا للقيام بخدمة سيده

— ولا شك أن داوود هذا عدَّ نفسه حراً معتوقاً منذ وطأة قدمه أرض فرنسا

— الله اعلم بما خامر داوود من الافكار في ذلك الحين . . . وغاية ما اعلمه انه صادق اذ انه وعد سيده بالعودة اليه بعد نيل الشهادة الطبية فانجز وعده وعاد . وهذا العمل وحده يدلك على حسن طوية هذا الرجل . . . ولما عاد الى فلوريد اقامه ويليس طبيباً عاماً لكل مزارعه مقابل اجرة سنوية قدرها سمائة فرنك . وبعد عودة داوود الطبيب ببضعة شهور فشا داء التيفوس في تلك الانحاء واصيب به ويليس وثلاثون من عبيده فاحسن داوود تطبيبهم حتى نجوا جميعهم ما خلا عبدين فسر ويليس بنجاح داوود الباهر وزاد راتبه الى الف ومئتين فرنك في السنة وبعد مرور سنة على ذلك العهد رأى ويليس بين عيال عبيده فتاة خلاسية جميلة تدعى سيسيلي فاحبها ورغب في الوصول اليها فلم تجب سؤاله ولعلها اول مرة صادف مثل هذا النفور ممن تصبو

اليهنَّ نفسه من جواريه . . . .

أجل رفضت سيسيلي ملتمسه وخيبت امله لانها كانت عاشقة . . كانت تحب الطبيب داوود الذي عالجها وشفاها من داء التيفوس ايام تفشى هذا الداء في المزارع . . قدمت قلبها الطاهر الى الطبيب مكافأة له على ما صنعه معها من الجميل . . فبادلها داوود هذا الغرام ولكنه ابى أن يتزوجها قبل أن تبلغ السادسة عشرة من عمرها خلافاً لعادات البرابرة في تلك المجاهل الذين يزوجون الفتاة قبل أن تدرك سن البلوغ .

أما ويليس فاغضبه تمنع سيسيلي وكان يجهل ما بينها وبين الطبيب من صلة الغرام فتهددها بالعذاب أن هي اصرت على الامتناع .

فشكت الفتاة امرها الى حبيبها داوود فطيب هذا خاطرها وهدا روعها وفي المساء طلب يدها من المستر ويليس فرفض هذا طلبه وقال له بانه هو نفسه يشعر بميل الى الفتاة . فافهمه داوود أن بينه وبين الفتاة حباً متبادلا قديماً فقابله ويليس بالهزء والسخرية . فأخذ يتوسل اليه ويستعطف خاطره ولكن على غير جدوى .

ولما عيل صبر داوود ذكرّ سيده بسابق خدماته وبين له فظاعة عمله فأخذ الغضب من ويليس فارغى وازبد وتهدد الطبيب بمعاملته معاملة العبد العاصي وتكبيله بالسلاسل الحديدية وزجه في اعماق السجن.

فاجابه داوود بلهجة قاسية شأن الذين ذاقوا طعم الحرية ونفضوا غبار الذل والعبودية فبلغ غضب ويليس منتهاه فامر بجلد داوود حتى مزقوا جلده وادخل حبيبته الى بيته أمام عينيه ثم سجنه وبعد أن قضى لبانته من الفتاة سجنها مع حبيبها فظهرت علامات الاشمئزاز على وجه البارون وقال.

— ان قلة ادراك ذلك المزارع الوحشي تعادل فظاعة اعماله. تبًا له ما اغباه !!

وعاد مورف الى حديثه فقال

— واتفق اننا وصلنا الى اميركا بعد سجن داوود بزمن وجيز وكنا نسير في الشواطئ الاميريكية على ظهر سفينة داتيمركية استأجرها مولاي من مدينة القديس توما. وكنا نزور متنكرين كل المزارع التي نمر بها على الشواطي.

ولما وصلنا الى مزارع ويليس بالغ هذا الرجل في

اكرامنا ودعانا للعشاء في بيته فاجبنا دعوته ولما جلسنا للطعام افرط الرجل من شرب الخمور ولما لعبت نشوتها بدماغه قص علينا حكاية الطبيب داوود وسيسيلي وكيف انه اغتصب الفتاة وجلد عاشقها ثم زجهما في السجن تأديباً لهما

ولما لحظ ويليس على وجهينا علامات الشك فيما يقول ذهب بنا الى السجن وارانا فيه داوود والخلاسية ولا اذكر ياعزيزي البارون انني رأيت في حياتي منظراً فظيعاً مثل الذي رأيته في ذلك السجن . رأيت العبد وحبيبته سيسيلي مقيد كل منهما من وسطه بسلسلة من حديد . هو في طرف السجن وهي في الطرف الآخر . وقد شحب لونهما وتقرح بدنهما واصيبا بهزال حتى صار يمكن عد عظامهما

— لا شك أن ويليس كان مختل الشعور

— فأثر ذلك المنظر في نفسنا تأثيراً سيئاً . فأسرعنا بالخروج من السجن ولم ينبث مولاي بكلمة . ثم عدنا الى سفينتنا وكانت راسية قريباً من الشاطئ على بعد كيلو متر واحد من مزرعة ويليس .

وعند الساعة الثانية بعد منتصف تلك الليلة نزل مولاي

لى البر مع ثمانية من رجاله مسلحين فذهب بهم الى السجن فاخرجوا منه داوود وسيسيلي عنوة واتوا بهما الى السفينة من دون ان يشعر بهم احد من اهل المزرعة. ثم حملني مولاي كيس نقود وذهب بي الى غرفة ويليس فايقظه من نومه والقى امامه كيس النقود وقال له

— «خذ هذا المال وقدره خمسة وعشرون الف فرنك عوضاً عن داوود وسيسيلي فقد انقذتهما من بين مخالبك فقاومت قوتك القاتلة بقوتي المنقذة» ثم عدنا على اعقابنا تاركين ويليس في دهشة وذهول كانه في منام. وبعد حين اقلعت بنا السفينة

ومن ذلك العهد اصبح داوود طبيب مولاي الخاص وصار يحبه حباً يقرب من العبادة ويتفانى في خدمته

— ولا شك أن داود تزوج سيسيلي بعد وصولكم الى اوروبا.

— نعم. وقد تم عقد الزواج في كنيسة قصر مولاي وكان المنتظر ان يجد العروسان السعادة بعد هذا القران فجاءت الايام بعكس ما كنا نتوقع فان سيسيلي لما لم ترَ في باريس عبداً غير زوجها وصارت تجده ما بين الرجال البيض كالبرغوث في اللبن نفرت منه وصارت تستحي به ونسيت

ما تكبده من العناء في تطبيبها ايام كانت مصابة بالتيفوس وما قاساه وقاسته هي ايضاً من تباريح الحب القديم . والذي زادها نفوراً منه ان رجلا شريراً عديم الشرف اغراها فزلت قدمها لاول مرة .

وكانت هذه المرأة كالخميرة القيت في عجينة مجبولة بحب المعاصي الغريزي فلما لبث ان عم الاختمار .. ولا يخفى عليك ياعزيزي البارون ما اتته تلك المرأة الشريرة من المنكرات بعد هفوتها الاولى

وكان حسن ظن داوود بامرأته يعادل حبه لها فظل سنتين لا يعلم شيئاً مما تأتيه من الفحش ولكنه ولما وقف على حقيقة الامر كاد يجن لشدة ما أصابه من الالم . .

— ويقال انه حاول قتل زوجته

— نعم ولكنه كفَّ عن ذلك العزم عملا باشارة مولاي واكتفى بان تسجن زوجته في حصن منيع طول حياتها . . وهذا هو السجن الذي يريد مولاي فتح أبوابه ولا أخفي عليك ان هذا العمل يدهشني أكثر مما يدهشك . .. ولكن قد أزف الوقت ياعزيزي البارون وسموه يريد ايصال البريد

الى جيرد لستين باسرع ما يمكن

— قبل الساعة الثانية يكون على الطريق . ونحن ياعزيزي مورف نلتقي هذه الليلة

— هذه الليلة ؟؟

— أنسيت ان سفارة . . . ستحيي ليلة راقصة وان مولاي صمم على حضورها ؟؟

— نعم تذكرت ذلك الآن . . . ولكننا سنذهب الى الحفلة الراقصة متأخرين لان مولاي صمم على زيارة البيت الكائن في شارع التامبل ليقف على ما فيه من الاسرار والخفايا

الفصل الثاني عشر

(بيت شارع التامبل)

لكي يستفيد رودلف من الاخبار التي أتاه بها البارون جرون بشأن المغنية وجرمان ابن معلم المدرسة كان لابدَّ له من الذهاب الى بيت شارع التامبل الذي كان جرمان مقيما فيه من زمن وجيز

وكانت غاية البرنس رودلف من الذهاب الى ذلك البيت ان يقابل الفتاة ريجوليت التي لاتزال تسكنه ويستعلم منها عن

مقر ابن معلم المدرسة. وقد استأجر الغرفة التي كان جرمان مقيما فيها كما يعلم القاريء وذلك ليسهل عليه البحث عن الفتى ويراقب أحوال سكان ذلك البيت المختلفي الطبقات

وعند الساعة الثانية مساء من نفس اليوم الذي دارت فيه المحادثة بين مورف والبارون جرون ارتدى رودلف ثيابا بسيطة وذهب الى شارع التامبل

وكان حين ذاك فصل الشتاء والجو ملبداً بالغيوم .

اما البيت الذي يقصده البرنس فكان واقعاً في وسط حي تجاري ولم تمكن في ظواهره أقل علامة تميزه عن بقية البيوت المحاطة به أو تدعو الى الاشتباه والمظنة . . وكان مؤلفاً من خمس طوابق يسكن الطابق الاول منه تاجر خمور وفي الطوابق الاخرى سكان مختلفو الدرجات والمهن سوف نأتي على وصفهم .

وبهذا البيت باب ضيق يدخل منه الى دهليز مظلم يؤدي الى فناء صغير لا تصله اشعة الشمس . وهنالك سلم قذر يصعد منه الى الطوابق العليا وتحته حجرة مظلمة مضاءة ليلاً ونهاراً بسراج ضئيل هي مسكن البواب. وحين دخل رودلف

ذلك البيت القذر كان المسيو بيبليه البواب غائباً وقد أناب عنه زوجته مدام بيبليه . وكانت هذه المرأة جالسة في وسط القاعة امام قدر من حديد على النار وهي حيزبون تناهز السبعين. على رأسها طاقية من شعر مستعار كان لونه أشقر فظل يخنى عليه الدهر حتى أصبح أغبر ضارباً الى الصفرة الى الحمرة. الى الزرقة كلون أوراق الشجر الذابلة التي تتساقط في أول فصل الشتاء . وكانت مدام بيبليه حريصة على هذه الطاقية وترى ابدال رأسها بأكمله اهون من ابدالها بطاقية أنظف منها.

ولما ابصرت رودلف داخلاً قالت لهُ — الى أين انت ذاهب ؟

فأجابها رودلف

— ألا يوجد هنا ياسيدتي غرفة للتأجير كما قيل لي

وبالغ رودلف في تفخيم كلمة «سيدتي» مما جعل مدام بيبليه تتيه كبراً وعجباً فأجابته بصوت له رنة لطيفة

— نعم يامسيو يوجد في الطابق الرابع غرفة للتأجير ولكن، لايمكنك رؤيتها الآن لأن الفريد غائب . . .

— لعله ولدك ياسيدتي ؟ وعساه لايطيل الغياب

— ليس ولدي يا مسيو ولكنه زوجي . وهل حرام عليه ان يدعى الفريد!

— حاشا لله ياسيدتي لا ينازعه أحد في هذا الحق . . . ولكن ألا تسمحين لي بالانتظار هنا حتى يعود ؟ انني راغب في استئجار الغرفة الخالية لان اشغالي تقضي عليّ ان أسكن هذا الحي ولا سيما هذا الشارع والذي زادني رغبة هو ما رأيته من نظافة هذا البيت مما يدل على شدة اعتنائكم بخدمته . على انه لابدّ لي قبل رؤية الغرفة ان اسألك هل في امكانك القيام بخدمتي . . . اذ ان من عادتي ان لا أستخدم غير البواب أو البوابة اذا رأيت منها ميلاً الى خدمتي .

فابرقت أسارير الحيزبون حين سمعت مقال رودلف وأجابته

— نعم ياسيدي انني اتعهد بالقيام بخدمتك واذا نقدتني ستة فرنكات كل شهر أخدمك كما يخدم الامراء

— لك ذلك ياسيدتي . . . ماذا تدعين ؟

— اسمي . بومون فورتونيه انستاسي بيبليه .

ولطول هذا الاسم لم تنته العجوز من لفظه حتى كاد

ينقطع نفسها فقال لها رودلف

— حسن يامدام بيبليه . رضيت ان انقدك ستة فرنكات كل شهر مقابل خدمتك لي . واذا أعجبتني الغرفة فما تطلبون مني أجرتها ؟

— لهذه الغرفة حجرة ملاصقة بها ولا يمكننا الا تأجير الاثنتين معاً وأجرتهما لا تنقص بارة واحدة عن مائة وخمسين فرنكاً سنوياً ذلك لأن الذي استأجر البيت بأكمله من صاحبه ويؤجر للسكان الآخرين رجل سافل بخيل وله قلب أصلب من حجر الصوان ونفس أدنى من نفوس الكلاب .

— وماذا يدعى ؟

— براروج

— اين يسكن ؟

— في شارع الفول نمرة ١٣ وله ايضاً خمارة في المغاور التي بالقرب من الشانزيليزه

فدهش رودلف من هذا الاتفاق الغريب اذ علم ان براروج هذا هو نفس الرجل الذى عرفه القاريء فقال لامرأة البواب

-- اذا كان براروج هو المستأجر فمن هو صاحب البيت اذن ؟

-- هو المسيو بوردون . ولكن لا علاقة لي معه فلا اخابر الا براروج في كل مايتعلق بأمر البيت

فاراد رودلف ان يقوي ثقة المرأة به فقال لها

-- ان البرد آلمني ياسيدتي بيبليه وأشعر بفتور في الغريزة فاصنعي معي جميلا وآتني بزجاجة نبيذ بوردو من صاحب الخمارة المقيم في هذا البيت وآتني ايضاً بكاسين او بالحري بثلاث كؤوس لان زوجك يعود عما قريب . وخذي هذه خمسة فرنكات تدفعين منها ثمن الخمر

فاحمر انف العجوز طرباً حين ذكر اسم الخمر فضحكت وقالت

-- اتريد ان تصبو اليك نفوسنا ونعشقك من اول يوم؟ هاانا مسرعة الى الخمارة . ولكنني لا آتي الا بكاسين فقط فاشرب انا وزوجي بكاس واحدة . فان الفريد يجد لذة عظيمة في شرب الكأس بعد ان ارشفها انا بشفتي « ادوب انا »

قالت العجوز ذلك وخرجت وماكادت تتوارى حتى دخل موزع البريد ودق على نافذة غرفة البواب ثم مد يده تحمل

خطابين وقال — نصف فرنك !

فاعطاه رودلف نصف فرنك واستلم الخطابين فوجد ان احدهما مرسل الى مدام بيبليه وهو مختوم بشمع أحمر منقوش عليه الحرفين (س . ر)وفوقهما صورة خوذة وتحتهما علامة صليب (اللجيون دونور) . اما العنوان فيدل على انه خط يد ثابتة

والخطاب الآخر بسيط الظواهر ومرسل للمسيو قيصر برادامنتي « طيب الاسنان وجراح » . والذي يتأمل كتابة عنوان هذا الخطاب يجزم بانها مقلدة لانها مركبة من أحرف غليظة يظهر من شكلها ان كاتبها تحدى التقليد . . والغريب ان رودلف حين وقعت عينه على ذلك الكتاب حدثته نفسه بان داخله أخباراً محزنة والذي حدا به الى هذا الظن انه رأى بعض حروف العنوان مطموسة والورق تحتها متجعداً صلباً كان نقطة دمع بللته ثم جف وبقي عليه اثر من ماء العين

وفي تلك الاونة عادت مدام بيبليه تحمل زجاجة الخمر وكأسين فقال لها رودلف

— خذي هذين الخطابين فقد اتى بهما موزع البريد

— ارجوك المعذرة يا سيدي واشكرك ... هل دفعت الى موزع البريد ما طلبه من الرسم ؟

— نعم

— ما اطيب قلبك ياسيدي ! فاخصم الآن ما دفعته الى موزع البريد مما بقي لك من الخمس فرنكات

فابتسم رودلف لتلك الطريقة الغريبة في سداد الدين وقال

— لقد وقع نظري على هذين الخطابين بطريق العرض فرأيت أن احدهما مرسل اليك وأن مرسله من المتألفين في اعمالهم لانه تفوح من داخله رائحة زكية تسكر

فابتسمت العجوز واخذت الخطاب وقالت — دعني اذن ارى ما هو هذا الخطاب ... ثم انها ادنته من انفها وشمت رائحته واردفت

— صدقت يا سيدي أن رائحته زكية ... ولا ادرى من هو ذاك الخبيث الذي اجترأ أن يرسل اليَّ كتب غرام ...

— ما كان حصل اذاً لو ان زوجك استلم هذا الكتاب عوضاً ان استلمه ؟

فهزت العجوز عطفها وبدت على وجهها علامات التيه واجابت

— لا تقل لي ذلك لئلا يغشى عليّ فاقع فاقدت الصواب بين زراعيك وظلت شاخصة الى عنوان الخطاب وهي تفكر ثم عادت فقالت لرودلف

— ها . . . ها ! ما اشد بلهي ! لقد عرفت الآن كاتب الخط فهو ولا شك القومندان . . . بالله ما هذه المصيبة أن زوجي شديد الغيره عليّ

فقال لها رودلف — وها هو الخطاب الاخر فانه مرسل الى المسيو قيصر برادامنتي

— أي نعم . هو طبيب الاسنان الساكن في الطابق الثالث وفيما البوابة تتكلم فضت غلاف الكتاب المرسل اليها وبعد أن قلبته قالت لرودلف

— ان الفريد يقرأ دائما الخطابات المرسلة اليّ لانني لسوء الحظ أجهل القراءة . . . فهل لك ياسيدي أن تصنع جميلاً وتقرأ لك هذه الخطاب ؟ — نعم بكل سرور

وكان رودلف يتمنا من صميم فؤاده أن يعرف من هو مرسل ذلك الكتاب فأخذه وقرأ ما يلي . (غداً يوم الجمعة عند الساعة الحادية عشرة توقد نار في الغرفتين وتنفضي

اغطيـة المفروشات كلها . وان تأخرت عن المجيء وقدمت اليك سيدة راكبة عربة عند الساعة الواحدة وسألتك عني تحت اسم الموسيو شارل فاصعـدي بها الى الغرفتين واقفلي الباب عليها واوصديه وابقي مفتاحه معك حتى أعود فتعطيني اياه)

وعلى رغم ابهام تلك الجملة المقتضبـة أدرك رودلف المعنى المراد منها فقال للبوابة

— من يسكن الطابق الاول من هذا البيت ؟ وارجوك أن لا تعجبي لهذا السؤال اذ لا بد لكل انسان ان يعرف من هم سكان البيت الذى يريد أن يتخذ له مسكناً فيه

— اسمع اقص عليك كل ما اعرف عن هذا الامر البسيط الذي لا يدعو الى اطالة الشرح . فاعلم انه منذ ستة اسابيع جاء رجل منجد لمشاهدة الطابق الاول وكان اذ ذاك خالياً فسألني عن اجرته ومضى ثم عاد في الغـد ومعه شاب جميل الصورة ذهبي الشعر صغير الشاربين على صدره شارة نيشان اللجيون دونور وقد سمعت المنجد يدعوه قومندان

— هل هو من رجال العسكرية

— نعم هو قومنداڹ في فرقة الحرس الوطني وكان المنجد يدعوه قومندان ليبالغ في تعظيمه كما يبالغون في تعظيم زوجي الفريد حينما يدعونه البواب . . . . . .

وبعد ان رأى القومندان الطابق الخالي قال للمنجد:
(— حسنٌ قد أعجبني هذا المسكن فاتفق مع صاحب الملك على استئجاره . فاجابه المنجد حسن ياسيدي القومندان)

وفي الغد جاء المنجد واستئجر المسكن من باروج وأمضى هو على عقد الايجار ودفع أجرة ستة شهور مقدما فادركنا من ذلك ان الشاب الجميل الملقب بالقومندان يريد ان يبقى مستتراً تحت طي الخفاء . . وبعد ان استتب الامر لهذا الشاب قال لزوجي الفريد : « — أيمكنك ان تتعهد بتنظيف بيتي والاعتناء بمفروشاته ؟ واعلم انني لا أتردد على هذا البيت الا نادراً وغاية ماأرجوه منك هو ان تشعل النار وتستعد لملاقاتي حين اكتب لك وأنبئك بقدومي . . فكم تطلب مني أجرة على هذا العمل ان كنت ترغب فيه؟فاجابه زوجي :—اطلب عشرين فرنكا في الشهر ياحضرة القومندان . . قال له الشاب :—ماذا تقول؟ عشرين فرنكا؟انك تمزح ولاشك

وأخذ ذلك الشاب يساومنا كانما هو بائس من بؤساء الازقة. وبعد أخذ ورد اتفق الفريد معه على مبلغ اثنى عشر فرنكا. هذا كل ما أمكننا الحصول عليه من ذلك القومندان الذي لا يساوي بجلة . . . فما أبعد الفرق بينك وبينه ! ! أنت لا تدعو نفسك قومندان وكل ظواهرك تدل على انك من عامـة الناس . وعزمك على استئجار مسكن في الطابق الرابع دليل على انك أفلس من طنبوره ومع هذا كله رضيت ان تنقذني ستة فرنكات كل شهر بلا جدال ولا مساومة

— ألم يعد القومندان منذ ذلك العهد ؟

— سوف تعرف ذلك فترى ما أغرب أطوار هـذا الرجل . . ويظهرلي انهم يعدونه وعوداً كاذبة . فقد كتب ثلاث مرات مثلما كتب لي اليوم وأوصاني ان أشعل النار وأنظف غرفته استعداداً لقدوم سيدة . . . ولا تزال هـذه السيدة في عالم الخيال حتى الساعة

— ألم يأت أحد ؟

— كلا . . . على انني في المرة الثالثة ظننت بادئ بدئ ان التي تعده صـدقت اذ انني في الساعة المعينـة وقفت امام

الباب عربة صغيرة زرقاء اللون تستر نوافذها ستائر . فقلت في نفسي هذه هي ..واحتجبتُ أنا وزوجي لكي لا ترانا فتنفر وصرنا نراقبها خاسة

ثم رأينا الحوذي ترجل وفتح باب العربة فظهرت داخلها امرأة على وجهها نقاب أسود وكانت تمسح عينيها بمنديل كأنها تبكي وتكفكف دموعها

والغريب انها بقيت بضع ثوانٍ تفكر بعد ان فتح الحوذي باب العربة ثم همست في اذن هذا بعض كلمات فبدت على وجهه علامات العجب فاغلق عليها باب العربة

— ألم تنزل من عربتها ؟

— لا ياسيدي بل جلست فيها واسندت ظهرها وغطت عينيها بمنديلها . فلما رأيت ذلك خرجت من مكمني مسرعة وقبل أن يصعد الحوذي الى مقعده قلت له : — « هل أنت عائد على عقبك ياصاح ؟ قال نعم . قلت الى أين ؟ قال الى المكان الذي قدمت منه . قلت ومن أين قدمت ؟ قال من شارع سان دومينيك عند منعطف زقاق بيلشاس .

فاضطرب رودلف ظهراً لبطن عند سماع مقال البوابة .

والسبب في ذلك ان صديقه الحزين الكئيب المركيز درفيل الذي عرفه القارئ يسكن في شارع سان دومينيك عند منعطف زقاق بيلشاس . فأخذ يناجي نفسه قائلا

— أترى المرأة التي رأتها البوابة هي المركيزة زوجة درفيل تخون زوجها وتخرج من بيتها خلسة للاجتماع ببعض الشبان؟ . ولعل حزن المركيز درفيل ناتج عن سوء ظنه في زوجته ! ! !

وبعد ان فكَّر ملياً قال للبوابة

— هل كانت تلك المرأة صغيرة السن ؟

— لست أعلم لان وجهها كما قلت لك كان محجوباً عن نظري بنقاب أسود فلم أرَ شيئاً منه . . . وغاية ما أعلم انها عادت على عقبها مثلما أتت . ولا أخفي عليك اننا أنا وزوجي الفريد سررنا بذهابها كما لو ان كلا منا قبض عشرة فرنكات

— لماذا ؟

— لما كنا نتوقعه من انقلاب سحنة القومندان حين يعلم بإياب صديقته مما يضحك الثكلى . ومتى وقفتَ على الذي صنعته ... ترى أن العشرة فرنكات لا تعد شيئاً بالنسبة إلى الضحك اللذيذ الذي يتغلب عليك .

فاعلم انه حين جاءت المرأة كان القومندان ينتظر في غرفته فعوضاً عن أن اخبره على الفور باياب صاحبته تركته ينتظر قدومها اكثر من ساعة وهو على احر من الجمر . ثم انني صعدت السلم وكان اذ ذاك الجو مكفهر والظلام حالكا فلم يكن يرى الانسان اصابعه ولما وصلت الى باب غرفة القومندان دفعته بقوة فانفتح وسمع لحركته مصرعه رنة فجاء القومندان يعدو وكان مدخل غرفته اشد ظلاما من السلم .

ولما احس القومندان بانفاسي دنا مني بلهفة المشتاق وطوقني بذراعيه وضمني الى صدره ضمة كادت تخمد انفاسي وقال لي بصوت مملوء الرقة

— اهلا بك يا مالكة فؤادي !! لقد طال انتظاري حتى كدت اذوب وجداً !!

فلما سمع رودلف مقال البوابة وتأمل قبح وجهها وطاقية الشعر القذرة التي على رأسها وتصور كيف ضمها القومندان الى صدره لم يتمالك عن الابتسام على رغم اضطراب افكاره . وحين رأته مدام بيبليه يبتسم ضحكت حتى بانت نواجذها فازدادت قبحاً واردفت

— وطفق القومندان يقبلني بحرارة ويضمني الى صدره ثم يقبلني ويزيدني ضما وانا لا ابدي أقل حركة ولا اتنفس وقد تراخيت بين ذراعي القومندان كأني ابنة سبع عشرة سنة ثملة من خمرة الوجد والهيام وملت عليه بكل ميلي ..

ولكنه ما لبث أن صرخ كالمأخوذ ودفعني عنه بعنف ذلك التغليظ كمن وقعت يده على .. (يكرم من سمع) وقال

— من انت ؟ من انت ؟

فاجبته

— انا خادمتك المطيعة مدام بيبليه البوابة فارجوك أن تكف عن تطويق خصري بذراعيك وعن ضمي الى صدرك .. واعلم بانني لا اسمح لك أن تدعوني مالكة فؤادك وحبيبة قلبك .. فما كان يفعل زوجي الفريد لشدة الغيرة لو رآنا على هذه الحال ؟

فطفق ذلك المسكين يرتجف كالقط المبلول لشدة الغيظ وقال بصوت خنقه الغضب

— ماذا تريدين مني ؟ ولاي امر جئت الى هنا ؟

فقلت له : — قد جاءت صاحبتك في عربة يا حضرة

القومندان .

فقال لي :ـ دعيها اذن تصعد الى هنا

قلت :ـ ولكنها عادت على عقبها

فاستشاط غيظاً وقال .ـ لا شك انها سمعت منك أو رأت ما جعلها ترتاب فعادت على عقبها ... واظن أن عربتها لم تبتعد كثيراً عن البيت

قال ذلك واندفع يريد الخروج فقلت له

— لقد ذهبت منذ اكثر من ساعة

فكاد القومندان ينفلق من شدة الغيظ وقال بصوت متهدج

— منذ اكثر من ساعة !! تباً لك ما ابلدك !! ولماذا تأخرت هكذا في اخباري بقدومها ؟

قلت :ـ لانني خفت أن يزعجك قدوم هذه المرأة

فضرب الارض برجله وسمعته يحرق الارم وقال لي

— اخرجي من هنا !! اخرجي فانك تهذين كالمجانين ولا تفقهين ما تقولين . . . .

ثم بدرت من البوابة التفاتة الى القدر التي على النار وقالت لرودلف .

– اسمح لي يا سيدي أن انزل هذه القدر عن النار فانني لم اعد اسمع لها صوتا مما يدل على أن الطعام قد نضج ولا يمكنك أن تتصور كم يحب زوجي هـذا الطعام فاذا انا حرقته يغضب

وبعد أن انزلت القدر عادت الى محادثة رودلف فقال لها

– من يسكن الطابق الثاني من هذا البيت ؟

– امرأة عجوز تدعى العمة بوريت وهي منجمة تبصر البخت وتعلم ما في الغيب بمجرد النظر في كف الانسان وليست هذه الحرفة الوحيدة التي تحترفها .

– ماذا تحترف اذن غير التنجيم ؟

– انها تسلف نقوداً على رهونات

– ماذا تقولين !!

– أقول الحقيقة . . وأظن أن الفائدة التي تأخـذها أقل من التي يأخذونها في بيوت التسليف الاخرى . ولا أسهل من انجاز العمل معها . واليك مثالا : اذا جئت مدام بوريت بقميص قيمته ثلاثة فرنكات فلا تسلفك عليه سوى نصف فرنك وبعد ثمانية أيام اذا أردت استرجاع

القميص تأخذ منك فرنكاً فتكون فائدة المئة مئة في الاسبوع « يا بلاش » وان انت لم تسترجع القميص بعد مضي اسبوع تعتبره ملكاً حلالا لها .. فهو كما ترى عمل بسيط للغاية لا يدعو الى استخدام كاتب وحاسب ولا يصعب القيام به على ولد ابن عشر سنين

— اليس لمدام بوريت حرفة اخرى ؟

— لا حرفة لها غير ما ذكرت .. ولكنني أراها احيانا تلزم العزلة في غرفة صغيرة من منزلها حيث لا يدخل عليها سوى براوج وعجوز عوراء تدعى البومة .. وبعضهم يلقبها بالعوراء ..ولا ادري كما لا يدرى أحد ماذا تأتي مدام بوريت من الفعال السرية في تلك الغرفة الموصدة مع رفيقيها

وحين سمع رودلف اسم العوراء بدت على وجهه علامات الدهشة فقالت له البوابة

— لقد استغربت اسم العوراء اليس كذلك ؟

— نعم .. وهل تكثر هذه المرأة التردد ؟

— ظلت غائبة اكثر من ستة اسابيع ولم أرها سوى قبل البارح وقد لاحظت انها تعرج في مشيتها

— وما هو الغرض الذي لاجله تأتي العوراء الى بيت مدام بوريت ؟

— انني أجهل ماذا تأتي من الفعال الغامضة حين تختلي مع باروج الى مدام بوريت في الغرفة الصغيرة الموصدة . غير انني لاحظت أن باروج والعوراء كلما زارا بوريت يأتي كل منهما بصرة كبيرة يحاول اخفاءها تحت ردائه . ومتى خرجا لا يرى معهما شيء .

— الا تعلمين ما يحملان في تلك الصرر ؟

— لا علم لي بذلك وغاية ما ادركته أنهم يطبخون المواد التي يأتون بها في تلك الصرر واذ ذاك تفوح من غرفة بوريت روائح كريهة تشبه روائح الكبريت والفحم وذائب القصدير فيشم الصاعد على السلم تلك الروائح ويسمع بوريت ومن معها ينفخون . ينفخون . كأنهم حدادون والمرجح عندي أن بوريت تستعين بهذه الفعال الجهنمية على معرفة الغيب .. وهكذا يظن المسيو قيصر برادامنتي الساكن في الطابق الثالث ..

اما المسيو قيصر هذا فهو من العلماء الغريبي الاطوار

ايطلياني الجنسية ولكنه يتكلم اللغة الفرنساوية أحسن مما تتكلمها انت واتكلمها انا لولا بعض اللحن في اللفظ الدال على أنه ليس فرنساويا . . قلت انه عالم ودليلي على ذلك انه طبيب اسنان ماهر يقتلع الضرس باسرع من لمح البصر وفضلا عن ذلك فهو يبيع عقاقير متنوعة لمعالجة امراض كثيرة كالنزلات الصدرية .والربو وامراض المعدة وكل ما يصاب به الانسان من الافات البدنية .

وهو يستحضر تلك العقاقير وليس له مساعد يستعين به سوى غلام صغير أعرج هو ابن براروج

— يغلب على ظني أن هذا الغلام لا يحسد على المهنة التي يتعاطاها في خدمة الطبيب برادامنتي

— يقول والده انه يريد يمرنه على كل الاعمال المذلة التي تلهيه عن خبثه والا لا يلبث ان يسجن أو يحكم عليه بالاعدام . . . ولا ريب في ان هذا الغلام الاعرج يحاكي الجن في فعاله ورداءة طباعه . وطالما ذاق برادامنتي منه الامرين مع أن هذا الطبيب يعد من أطيب خلق الله نفساً وأرقهم قلباً فقد شفى زوجي الفريد من داء المفاصل الذي

أوشك أن يودي بحياته . ولذلك تراني انا والفريد نحب هذا الطبيب حباً خالصاً .

ومع ما ذكرته لك من حسن صفاته يشيع بعضهم كذبا انه ... لا يمكنني أن اعيد ما يقال عنه فان مجرد التفكر فيه يوقف شعر رأسي . ويقول الفريد أن الحكومة تعاقب بالسجن والاشغال الشاقة على مثل هذه الاعمال ...

ثم اقتربت البوابة من رودلف وهمست في اذنه بعض كلمات فارتعدت فرائصه وبدت على وجهه علامات الدهشة والاشمئزاز فقال

— يالها من فعال فظيعة لو صدق الخبر !!

— نعم لو صدق الخبر . ولكنها اكاذيب واراجيف لا طائل تحتها . كيف !أيأتي فعالاً مثل هذه ... رجل شفى زوجي الفريد من داء المفاصل ؟ .. فضلاً عن انه يدفع اجرة بيته بلا مطال ولا جدال ؟ ... انني افضل الموت على تصديق مثل هذه الاشاعات الفاسدة

وبينما مدام بيبليه تدافع عن قيصر برادامنتي تذكر رودلف الخطاب المرسل الى هذا الطبيب المكتوب عنوانه

بخط مقلد غليظ وفيه كلمة مطموسة بنقطة دمع وقعت عليها .
فحدثته نفسه ان ذلك الكتاب ينم عن حادث من افظع الحوادث وبثبت ان ما ينسب الى الطبيب الطلياني من الفظائع لا يخلو من الحقيقة .

وبينما هو يفكر قالت له مدام بيبليه وهي تشير الى جهة الباب

— ها هو الفريد فسله يجبك مثلي أن الطبيب برامنتي شفاه من مرضه وان كل ما يقال عنه زور وبهتان

وما كادت تتم عبارتها حتى اقبل زوجها بيبليه يتيه في مشيته ودخل الغرفة شامخ الانف دخول الملك على حاشيته

وكان شيخاً يناهز الستين ذا أنفٍ هائل كانف ابن حرب وكرش كروي مستوفي الشروط ووجه عريض لامع كوجوه أهل نور مبرج . وعلى رأسه قبعة عريضة الجوانب قديمة العهد قد آلى بيبليه ان لا يستبدلها بسواها الاّ متى استبدلت زوجته طاقية الشعر التي تلبسها على رأسها من عهد نوح .

وحين دخل هذا الشيخ قالت له زوجته وهي تشير

الى روداف.

- اقدم لك ياعزيزي الفريد هذا المسيو الذي جاء يستأجر الغرفة الخالية. وقد انتظرناك لتشرب معنا زجاجة الخمر هذه التي اشتراها حضرته

فحين سمع بيبليه ذكر الخمر بش في وجه رودلف وسلّم عليه سلاما عسكريا بوضع يده على حافة قبعته وقال له بصوت قلد فيه صوت المرتلين

— اعلم ايها المحترم باننا نبالغ في خدمتك واكرامك بقدر ما تبالغ في حسن معاملتنا. واظن اننا نكون على اتم وفاق اذ أن الطيور على اشكالها تقع

ثم قطع بيبليه حديثه بغتة وشخص الى رودلف وقال له

— اللهم الا اذا كنت مصوراً

— لا انني موظف في محل تجاري

— انني اذن اقوم بخدمتك خير قيام واهنيك على انه الطبيعة لم تجعلك واحداً من اولئك المصورين الاجلاف

فاظهر روداف العجب وقال له

— المصورون اجلاف!! ماذا تقول!

فلم يجب البواب على سؤال رودلف بل رفع كتفيه الى العلا وتأوه تأوها مستطيلا وتمتم بعض الفاظ لم يفهم منها شيء . فقالت زوجته لرودلف بصوت منخفض

— اعلم يا سيدي أن المصورين نغصوا حياة زوجي واضروا به

-- هل كان احد المصورين ساكنا في هذا البيت ؟

فاجاب الفريد بصوت ينم عن المرارة والحقد

— نعم كان احد سكان هذا المنزل مصوراً يدعى كبريون وقد اوشك أن يفقدني الصواب ويصيرني مجنونا ....

فقال له رودلف متهكما

-- وعلى مَ اراك آسفاً على فراقه ؟

— أنا ؟ ؟ أنا آسف على فراق كبريون المصور ؟ ؟ لو كنت تعرف ياسيدي من هو كبريون لما ظننت انني آسف على فراقه قبحه الله . فاعلم ان المسيو براروج رضي ان يدفع عنه أجرة غرفته عن ستة شهور حتى أمكنه اخراجه من هذا البيت لانه كان علينا ضربة من ضربات بني اسرائيل . . يالله ! ! انني كلما اذكر ما كان يصنعه هذا المصور معنا ومع كل سكان البيت يقف شعر رأسي . كان عند هذا الرجل كل

آلات الموسيقي تقريباً وكان يقضي نهاره وليله في الضرب عليها بطريقة تذهب بصبر أيوب ذلك انه كان يقضي ساعتين ينفخ في بوق نحاسي غليظ صوتاً واحداً من أصوات (النوته) (الدو) مثلا دو . . دو . . دو . . . حتى تتمزق آذاننا . ثم يأخذ آلة أخرى الكمنجة مثلا ويقضي ساعة في ضرب صوتا واحداً (المي) مثلا مي . . . مي . . . مي حتى ننفلق . ثم يأخذ آلة أخرى وهلمّ جراً حتى تزهق أرواحنا . والانكى انه حين يلحظ ان الجيران ساخطون يشتد في نفخ الاصوات لكي يكون فعلها أشد وطأة على الاذن وأسهل تمزيقاً ولما ضج منه السكان وعيل صبرهم ظلوا يلحون على براروج باخراجه حتى أجاب طلبهم . وكان يوم خروج ذلك المصور يوماً سعيداً

فقال رودلف

— ما أغرب أطوار هذا الرجل ! !

قال البواب

— أظننت اننا بعد خروجه انتهينا من أمره ؟ لا . لا . ففي ثاني يوم خروجه عند الساعة الحادية عشرة بينما كنت نائماً سمعت الباب يقرع . طق . طق . فشددت الحبل

وفتحت « السقاطة » وبعد لحظة دنا القادم من غرفتنا وقال .

— مساء الخير يا بواب !!

قلت : — مساء الخير ماذا تريد ؟

قال : — هل لك ان تعطيني خصلة من شعرك ؟

فقالت لي زوجتي : لعله يقصد مكاناً آخر وقد أخطأ فجاء هنا

فقلت لطالب الشعر . — ليس هذا المكان الذي تقصد فاذهب عنا

فاجابني . — كيف ذلك !! أليست نمرة هذا البيت ١٧ ؟ اوليس البواب يدعى المسيو بيبليه ؟

قلت — نعم انني ادعى بيبليه

قال — اني اذن ما اخطأت فان المصور كبريون ارسلني اليك لاخذ له خصلة من شعرك يريد ان يبقيها عنده تذكاراً

ثم أن بيبليه تكتّف وشخص الى رودلف وقال له وهو يهز رأسه

— تصور يا مسيو قحة ذلك البليد ارسل يطلب مني خصلة من شعري وهي هبة تضن بها النساء احياناً على اعز حبيب لهن مع علمه باني عدوه واني اكرهه كره البلايا

للبروتستانت . . تصور يا خواجه . تصور :

فقال له رودلف

— ولو أن هذا المصور حسن الصفات مثل جرمان لكان هان عليك الامر

قالت مدام بيبليه — ولم يكتف ذلك الخبيث بما فعل بل انه اغرى بنا ذمرة من صبيان الازقة فصاروا يترددون علينا الواحد تلو الاخر صباحاً ومساء بكرة واصيلا وكلهم يطلبون خصلة من شعر الفريد المصور كبريون

قال رودلف

— قد ادركت الآن السبب الذي لاجله تكرهون المصورين . ولكن أما كان حسن سلوك جرمان الذي حدثتني عنه ينسيكم بعض ما كنتم تحملونه من المصور؟

— بلا شك . كان جرمان من خيرة السكان كان حراً لا غش فيه كالذهب الخالص . محباً خدوماً بشوش الوجه على عكس ذلك اللعين كبريون

قال رودلف

— هدّ اخلاقك ياعزيزي بيبليه ولا تلعن وقل لي الى

اين انتقل جرمان فان مبالغتك في مدحه حببت اليَّ ان أعرف من هو الرجل السعيد الذي اسكنه بيته

-- انني لم اره بعد خروجه من هنا ولا سمعت شيئاً عما جرى له ولا يعلم احد اين يسكن ما خلا الانسة الضحوكة

-- ومن هي الانسة ريجوليت الضحوكة ؟

اجابت مدام بيبليه

-- هي خياطة صغيرة تسكن غرفة في الطابق الرابع مجاورة للغرفة الخالية التي كان يسكنها جرمان وتريد انت تستأجرها . والانسة الضحوكة هذه ليست دون جرمان في صدق طويتها ودماثة اخلاقها ومحبتها للحق

﴿ تم الجزء الثاني ويليه الثالث ﴾

عيد الفطر المبارك

يصدر هذا العدد من مجلتنا والمسلمون في فسحة عيد الفطر المبارك فنتقدم لحضراتهم بواجبات التهاني والتبريك ونسأل لهم العيش الرغيد مع مجالي الافراح والسرور ان شاء الله تعالى

الفكاهات العصرية

مجلة روائية أدبية تاريخية

لصاحبها

عبد الله غزاله

السنة الاولى | العدد ١٧

روايات يثوب الكهل منها بتفكهة وتخلية فكر
ويقرأها الفتى فيطيب نفساً بما يلفيه من خَبَر وخُبْر

خليل مطران

رواية

مكنونات باريس

تأليف

القصصي الشهير في عالم التحرير

اوجين سو

تعريب

الكاتب البليغ والطبيب البصري البارع

الدكتور ابراهيم شدودي

مطبعة العرفان

تمهيد

تركنا البواب بيبليه وزوجته يتحدثان مع رودلف عن الضحوكة

فانها تدفع اجرة غرفتها مقدما . وهي فوق ذلك انيسة محبة نظيفة بشوشة الوجه. تحب الكل والكل يحبونها كأنها عصفور من عصافير الجنة . . وزد على ماتقدم يا سيدي انها اشغل من النحلة لا تفتر عن العمل طرفة عين وقد يبلغ ربحها فرنكين في اليوم ولكن بعد الجهد وشق النفس

— كيف لا يعرف احد اين يسكن جرمان ما خلا الانسة الضحوكة ؟

اجابته مدام بيبليه

— انه حين ترك هذا البيت قال لنا : « — انني لا انتظر خطابات ولكن لو بالفرض جاءكم خطاب بأسمي فسلموه للضحوكة »

ولا شك انه احسن في اتخاذها نائبة عنه فاننا لا نتردد في اعطائها اي خطاب يردنا باسمه ولو كان مؤمناً عليه. اليس كذلك يا عزيزي الفريد؟

فاجاب زوجها

— انني ما ارتبت قط بامانتها وما كنت لاشك في سلامة اخلاقها لولم تسمح لذلك اللعين كبريون بتمليقها

قالت مدام بيبليه

— لا ينبغي لك يا الفريد أن تسيء الظن بالانسة الضحوكة لان ميلها للمزاح والضحك فطري غير انها على رغم لطفها الطبيعي لم تكن دوني رزانة وعفة والدليل على ذلك انها متى جن الليل تدخل غرفتها وتوصد بابها وتدعمه (بترباس) غليظ من حديد . وليس من العدل ان نلومها اذا كان بعض الشبان من جيرانها يغازلونها . فقد غازلها قبل كبريون ذلك الشاب الموظف في أحد البيوت التجارية . ثم غازلها جرمان بعد كبريون. ولكن هذه امور صبيانية لا يخشى من عواقبها. ولا تزال الانسة الضحوكة طاهرة الذيل

فقال رودلف

— من المحتم اذن على كل من يسكن الغرفة التى اريد استأجرها المجاورة لغرفة الضحوكة ان يغازل هذه الفتاة ؟

— نعم لا بد من ذلك يامسيو واليك بيان السبب : ن هذه الغرفة ملتصقة بالغرفة الثانية فلا غنى لمن يسكن هذه

عن استعارة بعض الاشيأ من جارته مثل شعلة من نار أو عود كبريت . او ابريق ماء وما شاكل ذلك . أما الماء فلا تخلو منه غرفة الفتاة ابداً لانها مغرمة به كالبط و كلما سنحت لها الفرصة تشتغل في غسل غرفتها وثيابها ومسح مفروشاتها ولذلك تجدها على الدوام أنظف من طير الحمام وسوف ترى ذلك . . .

— يستنتج من كلامك اذن أنه كان ما بين جرمان والضحوكة بعض المودة

— نعم ياسيدي كانت بينهما مودة ولا غرابة في ذلك لانهما متشابهان في الخلقة والخلق كأن كل منهما خلق للآخر وكم كنت أسر حين أراهما ذاهبين معاً الى النزهة أيام الاحد وعلامات الحبور بادية على وجهيهما

— أولم يعد جرمان يرى الضحوكة بعد خروجه من هذا البيت؟

— لم يعد جرمان قط الى هنا بعد خروجه أما الضحوكة فلا تخرج من البيت سوى يوم الاحد فلا أظن أنهما يتقابلان في غير هذا اليوم. والذي يعيق الضحوكة عن الخروج للنزهة ما خلا يوم الاحد أنها تشتغل نهاراً وليلا لتكسب ما يقوم بأودها . وان توفر لديها قليل من المال بعد الانفاق على ضروريات

لحياة تبذله في مساعدة المعوذين مثل الذين يسكنون سطح هذا البيت ويريد براروج طردهم لعجزهم عن سداد الاجرة فان الضحوكة وجرمان كانا يتعاونان على اعالتهم بما يقتصدان من النقود بعد نفقاتهما

— يوجد اذن في هذا البيت سكان بؤساء ؟

— نعم يا سيدي يوجد هنا بؤساء من اتعس خلق الله وهم الذين ذكرتهم لك الساكنو سطح البيت وهذه العائلة مؤلفة من خمسة اطفال وام سقيمة طريحة الفراش وجدة عجوز معتوهة واب يكد نهاراً وليلا ولا يجد الكفاف من الخبز له ولعياله . نعم انني لا ابالغ في قولي أنه يكد نهاراً وليلا لان هذا التعس لا ينام سوى ثلاث ساعات . . . . ويا له من نوم مضطرب فان الام لا تكف عن انينها لشدة الألم والاولاد يتضورون جوعاً ولا يفتأون يقولون . خبز . خبز . . . أما الجدة المعتوهة فتظل تصرخ ليلا ونهاراً لشدة الجوع . . . فتصور حالتهم

فهتف رودلف قائلا

— يا لله ما اشد شقائهم !! اولا يعولهم احد ؟

— أن البؤساء يتعاونون على قدر امكانهم يا سيدي . فمذ بدأت آخذ اثني عشر فرنكا من القومندان اجرة خدمتي له صرت اسعف اولئك التعساء بشيء من المرق ومسلوق اللحم مرة في الاسبوع ... وتبذل الضحوكة غاية الجهد لتصنع من قصاصات الاقمشة أثوابا لاطفال تلك العائلة المنكودة الحظ .... وكان جرمان الرقيق العواطف يقتصد في نفقاته ويشتري بما يتوفر لديه بضع زجاجات من جيد الخمر ويدعي أن بعض اقاربه يهديها اليه لكي لا يتمنع موريل أب العائلة عن قبول زجاجة منها فيستعين بها على مقاومة البرد

وحين سمع رودلف مقال مدام بيليه وعرف انها تشفق على اولئك البؤساء وتسعفهم بقدر ما تسمح به حالتها شعر بميل اليها ولم يعد يستقبح وجهها فقال لها

— وما هي مهنة هذا التعيس موريل ؟

— مهنته صقل حجارة الماس الحقيقية والكاذبة فيأخذ اجرة معلومة على كل قطعة وما يربحه في نهاره وليله من هذا العمل الشاق لا يفي ثمن الخبز . وقد اضناه الجهد حتى اصبح جلداً على عظم كما تحقق ذلك متى رأيته ... ولا لوم عليه اذا

عجز عن كسب ما يقوم بنفقات عائلته الكبيرة فانه بشر من التراب له قوة محدودة فلن يشق الارض ولن يبلغ الجبال طولا .. ولولا مساعدة ابنته الكبرى لكان مات اولاده جوعا

— وما اسم ابنته هذه وكم عمرها ؟

— اسمها لويز وعمرها ثماني عشرة سنة ولها وجه صبوح غاية في الجمال وهي خادمة عند رجل يدعى جاك فيران كثير المال يضرب بغناه المثل ولكنه ابخل من كلب ووظيفته وكيل اشغال .

فبدت الدهشة على وجه رودلف حين سمع اسم جاك فيران وعجب لهذا الاتفاق الغريب اذ قد قيل له ان خادمة هذا الرجل لها علم بأمر المغنية ولذلك عزم على مقابلتها للوقوف على ما تعرفه عن تلك الفتاة وبعد سكوت وجيز قال لمدام بيبليه

— لعله جاك فيران الساكن في شارع سانتيه ؟

— هو بعينه .. هل تعرفه ؟

— نعم لانه وكيل اشغال المحل التجاري الذي اعمل فيه

— لا يخفى عليك اذن انه بخيل جداً .. ولكنه والحق يقال رجل صالح تقي لا يحيد شعرة عن طريق العدل والشرف

ويذهب الى الكنيسة لسماع القداس كل احد ... ويكثر من الاعتراف. وقد دخلت الفتاة لويز في خدمته منذ ثمانية عشر شهراً وهي القائمة وحدها بكل اشغال بيته مقابل اجرة زهيدة لا تتجاوز الثمانية عشر فرنكا في الشهر فتبقي من هذا المبلغ ستة فرنكات لنفقاتها الخاصة وتعطي الباقي لوالدها فيستعين به على سد رمق عياله الجياع

— يستنتج من ذلك اذن ان ما يربحه هذا الوالد طفيف جداً ؟

— نعم أن ربحه قليل والذي زاد طينته بلة هو أن مرض وظل ثلاثة شهور طريح الفراش فتراكمت عليه الديون . وقد انهكت زوجته قواها في خدمته اثناء مرضه حتى اعتلت واصبحت الآن على حافة قبرها ... تصور أن هذه العائلة التعسة المؤلفة من ثمانية اشخاص كانت في الثلاثة شهور التي قضاها الوالد مريضاً لا تنفق سوى الاثنى عشر فرنكا التي تقتصدها لويز من راتبها الشهري

— وكم يبلغ ربح هذا الرجل في اليوم ؟

— اذا كان غير مضطر الى خدمة امه وزوجته واولادها يمكنه ان يربح من ثلاثة الى اربعة فرنكات في اليوم لانه

مجتهد نشيط . ولكن لسؤ حظه يقضى ثلاثة ارباع وقته في خدمة عيلة ولذلك لا يربح سوى فرنكين

— لا شك انه ربح قليل جداً .. كان الله في عون هولاء التعساء

— صدقت يا سيدي . نعم انهم تعساء غيران امثالهم كثيرون في العالم وبما اننا عاجزون عن انقاذهم من مخالب الفقر فلا لوم علينا ولا بدَّ لنا ان نلهي انفسنا لكي لا نموت حزناعلى شقاء العالم

ثم التفتت الى زوجها وقالت

— أليس كذلك يا الفريد ؟ ... وعلى ذكر اللهو أري أن الحديث الهانا عن زجاجة الخمر

فقال لها رودلف

— ان ما ذكرته لي عن شقاء اولئك البؤساء احدث في في صدري غصة وصد نفسي عن الشرب فاشربي انت وزوجك في صحتي

فاجابه البواب

— لاشك انك شريف النفس رقيق القلب ياسيدي ٠

اولا زلت ترغب في رؤية الغرفة التي تريد استئجارها ?

— نعم واذا اعجبتني انقدكما ما تجود به النفس مقابل حسن ضيافتكما

— هلمّ بنا اذن

—﴿ الفصل الثالث عشر ﴾—

(الطوابق الاربعة)

وكان للبيت سلم رطب الجوانب مظلم وقد زاده ظلاماً ذلك النهار الممطر المكفهر الجو

وكان لكل مسكن من المساكن مدخل ممتاز عن سواه. فكان باب مسكن القومندان مدهونا بدهان قاتم يقرب لونه من لون خشب (الباليسندور) وعند قفله زر من نحاس أصفر لامع . وله حبل يدق به الجرس

اما باب الطابق الثاني الذي تسكنه الساحرة التي تشتغل بالربا فكان على غاية من القذارة وفوقه بومة مصبرة مسمرة في الحائط . وله فتحة صغيرة تغشاها اسلاك حديدية محبوكة ترى صاحبة البيت زوارها من خلالها قبل أن تفتح

لهم. واغرب من هذا وذاك مدخل بيت الطبيب الطلياني الذي يقال انه يتعاطى مهنة تقشعر لذكرها الابدان. فانك ترى على بابه لوحاً من خشب اسود منقوش عليه اسم الطبيب باسنان خيل منزلة في الخشب

وحين مرَّ رودلف امام ذلك الباب سمع صوت نحيب ثم عقب ذلك صوت ألم تشنجي يوقف شعر الرأس وصوت عميق كانه خارج من قرارة الحشا فوثب على الباب وقرعه بعنف شديد.

فدهش البواب وقال له

— ماذا اعتراك يا سيدي ؟

— اما سمعت ذلك الصوت المرعب ؟

— نعم سمعته ولا شك انه صوت مريض اقتلع الطبيب ضرسه . . . .

فلم يقنع رودلف هذا التعليل فظل واقفاً ينتظر امام الباب فلم يجبه احد باديء بديء وسمع صوت ابواب تغلق بعنف. وكان الى جانب الباب طاقة يرى منها داخل بيت الطبيب فابصر رودلف من خلال زجاجها رجلاً ذا وجه

شاحب كوجوه الاموات وشعر كثيف مبعثر ذي لون اشقر ضارب الى الحمرة وذقن طويلة بلون شعر الرأس

مرّ ذلك الشخص مرّ الطيف وحين أبصره رودلف كاد يجمد الدم في عروقه لانه رأى في وجهه ملامح رجل يعرفه . فان عينيه الزرقاوين وحاجبيه الكثيفين ولونه الشاحب وأنفه الاعقف الشبيه بمنقار النسر وعلى الجملة كل ملامحه هي نفس ملامح رجل يدعى بوليدوري ذكره مورف ولعنه اثناء حديثه مع البارون كرون .. ولم يكن رودلف رأى بوليدوري منذ ست عشرة سنة على أن صورته ظلت مطبوعة في مخيلته. ولكن أمراً واحداً حير أفكاره وهو ان ذلك الرجل كان أسمر البشرة أسود الشعر .

ثم ان رودلف ناجى نفسه قائلا .

— اذا صدق ظني وكان الذي أبصرته هو بوليدوري بعينه فلا عجب في ذلك فان نفس ذاك الرجل السافلة تدفعه الى احتراف أدنى الحرف وارتكاب أفظع الجرائم على رغم علو منزلته بين رجال الطب والعلم والفلسفة

ثم سأل البواب قائلا

— هل برادامنتي يسكن هذا البيت منذ زمن بعيد ؟

— منذ سنة تقريباً . . . وهو أفضل الساكنين وقد شفاني من داء المفاصل

— قد أخبرتني زوجتك ان بعضهم يشيع عنه اشاعات فظيعة .

— هل أخبرتك بذلك ؟

— كن مطمئناً فاني لا أبوح بالسر

فاحمر وجه بيبليه وأجاب

— لا اصدق هذه الاشاعات ولن أصدقها أبداً اذ ان طهارة نفسي لا تسمح لي بتصديقها

فارجأ رودلف الفحص عن حقيقة أمر برادامنتي الى وقت آخر وتبع البواب الى الطابق العلوي حيث توجد الغرفة التي يريد استئجارها

ولم يكن يصعب على القادم ان يعرف لاول وهلة غرفة الضحوكة الملاصقة للغرفة الخالية ذلك لان المصور كبريون عدو بيبليه اللدود صور على بابها أطاراً من الزهور الجميلة وكتب في وسطها العبارة الآتية بحروف جميله

« الانسة الضحوكة الخياطة »

فحين وقعت عين رودلف على تلك الكتابة قال للبواب

— لاشك ان هذا من صنع المصور كبريون

— نعم ياسيدي قد تجاسر ذلك الحمار على اتلاف دهان الباب بهـذه الصورة الصبيانية ولولا الحاح الضحوكة لكنت محوت كل ماعلى هذا الباب من صور وكتابة ومحوت ماصوره أيضاً على باب غرفته ذلك الحمار

وأشار بيبليه الى باب الغرفة التي يريد رودلف استئجارها فالتفت هـذا فرأى على ذلك الباب صورة اللوح الذي يضع عليه المصور الالوان وحول اللوح صور وجوه مختلفة الاشكال مما يدل على ان مصورها من أصحاب الاطوار الغريبـة ثم ان البواب دخل تلك الغرفة فتبعه رودلف فالقاها غرفة واسعة مقسومة الى اثنتين ولها نافذتان تشرفان على شارع التامبل ·

وبعـد ان وقف رودلف من أخبار سكان ذلك البيت على ماوقف رأى ان لابدّ له للوصول الى غايته من استئجار تلك الغرفة فاعطى البواب فرنكين وقال له

— قد اعجبتني هـذه الغرفة فخذ هذا ما وعـدت به

من « البخشيش » وغداً ان شاء الله أبعث ما يلزمني من الفرش . . . ولكني أرجوك ان لاتمحو الصور التي على الباب لانها غريبة في حد ذاتها ... أليس كذلك ؟

— صدقني يا سيدي انني في اغلب الليالي أرى في المنام كل هذه الصور متجسمة تطاردني وفي مقدمتها المصور كبريون فكيف تريد مني أن استظرفها ؟

— ما أشد كرهك لذاك المصور ! اولكن مالنا ولهذا . قل لي هل يلزمني حتماً ان اقابل باروج مستأجر البيت من صاحبه ؟

— لا ياسيدي لانه لا يأتي الى هنا الا نادراً وذلك حين يحضر اعمال مدام بوريت السحرية . . . وكل المستأجرين يخابرونني رأساً . وغاية ما أرجوه منك هو ان تذكر لي اسمك

— اسمي رودلف

— رودلف ماذا ؟

— رودلف فقط

— العفو يا سيدي انك حر في ابقاء اسمك مكتوماً فلا حاجة لي في الالحاح . . وارجوك الآن ياسيدي أن تسمح لي بالذهاب الى مخزني

— ماذا تعني ؟

— ان عند رأس هذا السلم توجد غرف السقف الصغيرة التي تسكنها عائلة موريل ويوجد من خلفها حجرة صغيرة مظلمة اخزن فيها الجلود .. واعلم ان الحائط انفاصل بين هذا المخزن وبين غرف موريل كثير الشقوق والثقوب بحيث يمكنني وانا في المخزن ان أرى واسمع كل شيء كأنني في وسط العائلة ولست أفعل ذلك لا تجسس احوالهم حاشا لله ولكن لغاية اخرى ... فارجوك أن تسبقني وبعد ان آخذ من المخزن ما يلزمني من الجلود الحق بك

قال البواب ذلك وصعد الى ما يدعوه المخزن وحين هم رودلف بالنزول سمع وقع اقدام شخص خارج من بيت الطبيب فادرك ان ذلك الشخص امرأة من خفة الحركة وخشخشة الثياب الحريرية . فظل واقفاً في مكانه حتى انقطع ذلك الصوت فنزل .

ولما بلغ الطابق الثاني وجد على السلم منديلا فالتقطه ولا شك انه وقع من المرأة التي خرجت من بيت بوليدوري . فدنا من نافذة هناك تضيء الدرج ونظر في المنديل عن

ثوب فوجده مزركشا بالحرير ومنقوش على احد زواياه هذين الحرفين «ل.ن» وفوقهما رسم تاج دلالة على رتبة الدوقية.

ووجد أن ذلك المنديل مبلل بالدموع · واول ما خطر له هو أن يسرع ويلحق بصاحبته ويعطيها اياه . ولكنه عاد ففكر أن ذلك العمل تشم منه رائحة الفضول فابقى المنديل معه وحين دنا من البوابة قال لها

— أما رأيت الان سيدة نازلة من فوق؟

—نعم ياسيدي وهي جميلة الصورة ممشوقة القامة نحيلة الخصر وعلى وجهها نقاب اسود. قد خرجت من بيت برادامنتي وركبت عربة اتاها بها غلام الطبيب الاعرج . . . والذي ادهشني هو أن هذا الغلام ركب مؤخر العربة حين سارت ولعله يريد ان يعرف اين تسكن تلك السيدة

فناجى روداف نفسه قائلا .

— المرجح عندي ان برادامنتي الدجال هو الذي أمر الغلام باللحاق بالسيدة ليعرف اسمها والمكان الذي تقيم فيه

وبعد سكوت وجيز قالت له مدام بيبليه

— هل اعجبتك الغرفة ياسيدي؟

— نعم اعجبتني كثيراً فاستأجرتها وغداً أبعث بما يلزمني من الفرش.

— أهلا وسهلا بك . ستكون من خيرة سكان هذا البيت

— هذا ما أؤمل يامدام بيبليه . وأرجوك حسب اتفاقنا أن تقومي بخدمتي وان تسرعي منذ الآن بتنظيف الغرفة وغداً ان شاء الله أرسل الفرش وآتي لاهتم بوضعه في اماكنه

ثم خرج روداف من ذلك البيت بعد أن نال من زيارته فائدتين الاولى انه عثر على مفتاح السر الذي يبحث عنه والثانية انه وجد فيها سبيلا الى فعل الخير . وفي مساء ذلك اليوم نفسه كان لا بدَّ له من حضور الحفلة الراقصة في بيت الفارة كما علم القاري‌ء

وقبل أن نتبعه الى هذه الحفلة لابدَّ لنا من العود الى الماضي والنظر في تاريخ توم وساره فان لهذين الشخصين أهمية كبرى في هذه الرواية

الفصل الرابع عشر

توم وساره

ساره سيتون ارملة الكونت ماك كريجور امرأة

تبلغ السابعة والثلاثين من عائلة سكوتلايدنه عريقة النسب وكان والدها البارونيه من ذوي الوجاهة بين معاصريه من أهل القرى

كانت هذه المرأة ذات جمال باهر ولما بلغت السادسة عشرة مات ابوها وامها فاصبحت يتيمة فهجرت بلادها مع اخ لها يدعى توم ستيون

وكان لساره مربية ذات اخلاق فاسدة أوجدت فيها رذيلتين من أقبح الرزائل وهما الطمع والكبر . وكانت تلك المربية تدعي التنجم وقراءة ما في الغيب وطالما كانت تأخذ يد ساره وبعد ان تنظر فيها ملياً تقول لها

— سيكون مستقبلك باهر جداً ولسوف تصبحين زوجة لواحد من اصحاب تيجان اوروبا

وما زالت تسمعها تلك التخرصات حتى اعتقدت صحتها وصارت تنتظر وقوعها .

والغريب أن اخا ساره كان مثلها قاصر الادراك تنطلي عليه خزعبلات المنجمين فصدق ماقيل لاخته وصار يستنهض همتها ويحي آمالها ويعدها بتكريس حياته كلها حتى تنال امانيها

وقبل أن يرحل توم عن سكوتلاندا مع اخته دوّن في محفظته اسماء كل ملوك اوروبا واولياء العهد الذين كانوا اذ ذاك في سن الزواج . واستدل من رزنامة جوتا انه يوجد في الممالك الجرمانية كثيرون من اولاد الملوك الذين ادركوا سن الزواج. ولم يكن يجهل سهولة الزواج الغير الرسمي في تلك الممالك فوطد النفس على الاستفادة من تلك السهولة في تزويج اخته اذا ضاقت بهما الحيل .

وكانت ساره فضلا عن جمالها الباهر ذات ذكاء نادر المثال بين ربات الجمال وميل الى التحلي بكل انواع الادب والفنون الجميلة ،وقوة جاذبة تستعبد قلوب الذين ترميهم بسهام لحظها

ولكنها كانت لسوء حظ الذين كتب لهم الوقوع في حبائل هواها صلبة الرأي وذات خبث ودهاء وقوة على اظهار غير ما تضمر . ومطامع لا تقف عند حد ونفس شهوانية لا تستقر على حال

فلما وصلت الى فرنسا اشار عليها اخوها بان لا تسرع في البحث عن الطريق الموصلة الى امانيها الا بعد الاقامة في

باريس زمناً تقضيه في مخالطة البار يزيات الغانيات من نساء الاسر العريقـة الحسب والنسب فتأخـذ عنهن ما يدمّس اخلاقها البريطانية الخشنة

وحين دخلت باريس زارت امرأة سفير انـكلترا وقدمت لها كتاب توصية اتت به من بلادها فقابلتها مقابلة حسنة ثم زارت المركيز درفيل وكان هذا الشيخ تعرّف بوالدها ايام زار انـكلترا .

ولم يمض عليها ستة اشهر في باريس حتى فاقت البار يزيات في خفة الروح واللطف والتيه والدلال ورشاقة الحركة وعذوبة الحديث وحرية الافكار وتسديد سهام اللحظ والفتك بقلوب العباد .

ولما رأى سيتون ان اخته (اخذت الدبلوما) في السحر الحلال واقتناص قلوب الرجال ذهب بها الى جرمانيا مذوداً بكثير من كتب التوصية ولا سيما الى الاسرة الحاكمة على مملكة جيرولستين

واليك بيان بعض افرادها الذين تهمنا معرفتهم

اولاً الدوق الاكبر مكسيميليان روداف . تربع في دست

الملك بعد ابيه شارل فريدريك رودلف في ٢١ افريل عام الف وسبعمائة و. . . . ثم ماتت زوجته في شهر ينايرعام الف وثمانمائة و . . . وهي لويز اميلي ابنة جان اوغست امير برجلين

ثانياً ابن الدوق الاكبر وهو ولي العهد جوستاف رودلف ولد في ١٧ افريل عام الف وثمانمائة و . . . .

ثالثاً والدة الدوق وهي الدوقة الكبرى جوديت ارملة الدوق الاكبر السابق شارل فريدريك رودلف.

وأول من دوّن توم سيتون في مذكرته هم أصغر الامراء وأولياء العهد سناً الذين يطمع بمصاهرتهم لعلمه ان الاحداث أسهل مراساً وأهون استهواءً من الذين تخطوا سني الشبيبة

وقد ذكرنا فيما سبق ان توم وأخته ذودا بكتب توصية الى الدوق الاكبر أمير مملكة جيرولستين من المركيز درفيل الذي فتنه جمال ساره ولطفها

وكان جوستاف رودلف ولي عهد تلك الامارة يبلغ اذ ذاك الثامنة عشرة حين دخل توم وأخته بلاط والده . وكان لظهور ساره في ذلك البلاط الالماني الساكن رهجة قلبت كيانه

وقد ذكرنا أيضا ان الدوق الاكبر كان مديناً للمركيز

درفيل بالمحافظة على مركزه بين الامراء لانه شد اذره وأخذ بناصره عام ١٨١٥ كما تقدم . فبناء على وصاية هذا المركيز قوبلت ساره وأخوها في بلاط جيرولستين بكل حفاوة واكرام

ولم يمض على ساره خمسة عشر يوماً في ذلك البلاط حتى عرفت طباع الدوق الاكبر وما كان عليه من ثبات الرأي والعدل وحرية الضمير . وأدركت انه على رغم حبه الزائد لولده لا يجيز له الخروج عن السبيل الذي يرسمه له مركزه بين أمراء جرمانيا ولا يسمح له بالزواج بفتاة من غير بنات الاسر المالكة .

وكادت ساره تقلع عن عزمها لما وجدته من العقبات الحائلة بينها وبين امانيها ولكنها بعد أعمال الفكرة رأت ان تثابر على السعي بانية كل آمالها على صغر سن رودلف وما قيل لها عن عذوبة اخلاقه ولين جانبه وشدة خجله وضعف ارادته . فحدثتها نفسها بالتسلط على أفكاره واجتذاب فؤاده .

فابدت هي وأخوها من الدهاء في سلوكها مايعجز القلم عن وصفه وما لبثت ان أصبح كل أهل البلاط يحبونها وعلى الخصوص اللواتي كانت تخشى من غيرتهن ووشايتهن .

فصار ينظر الامير اليها نظره الى ولده وفتنت بجمالها والدته الدوقة الكبرى جوديت وأوسعتها عطفاً وحناناً .

ولكي يعرب الامير عن محبته لتوم وأخته ويحملهما على الاقامة في بلاطه أقام توم ميرياخوراً على اسطبلاته وعين اخته سميرة لوالدته التي لم تعد تستطيع الابتعاد عنها طرفة عين

فرضي كل من الاخ وأخته وظيفته بسرور وثبتت قدمهما في بلاط جيرولستين من دون ان يكون لرودلف مساس في ذلك

ولحسن حظ ساره اتفق انه بعد قدومها الى جيرولستين ببضعة أيام سافر رودلف لاستعراض فرقة من الجيش مع ضابط من أركان الحرب وكان بصحبته مورف الامين . فاغتنمت ساره هذه الفرصة لتحبيك الحبائل لهذا الشاب أثناء غيابه دفعاً للظنون والشبهات . . . .

ولا بدّ لنا الآن من ايقاف القاريء على أول نشأة رودلف .

كان هذا الشاب في حداثته ضعيف البنية . فرأى والده الدوق الاكبر ان يقوي جسمه بالرياضة البدنية على اختلاف

أنواعها متبعاً في ذلك الطريقة الانكليزية . فاستدعى من بلاد الانكليز رجلاً مشهود لهُ بالتضلع من كل انواع الرياضة وهو السير ولتر مورف من يوركشير وكلفه بترويض ولي عهده .

فذهب هذا الاستاذ بتلميذه الى الخلاء بعيداً عن المدن ذات الهواء الفاسد وأقاما بضع سنين في مزرعة من مزارع الدوق محاطة بالاحراش والغياض . وهناك عكف رودلف على الاشتغال بالزراعة بقدر ما يسمح به عمره واتبع في معيشته خطة الاعتدال والتقشف التي رسمها له أستاذه . وبعد الفراغ من الاشغال الزراعية كان يعلمه فن الصراع والملاكمة وركوب الخيل . والصيد . والقنص وما شاكل ذلك من ضروب الفروسية التي تقوي العضلات وتصلح البدن ولا يسأمها الاحداث فتحسنت صحة الفتى في ذلك الهواء الطلق وقويت بنيته وتضخمت عضلاته واحمرت وجنتاه وازداد نموه كما تنمو السنديانة الصغيرة في الارض الخصبة . وازدادت قواه العضلية زيادة غريبة على انه ظل رشيق القد نحيل الخصر بحيث لا يدرك من يراه ماهو عليه من القوة العضلية

غير ان اهتمام رودلف باصلاح قواه البدنية اضطره الى

اهمال تثقيف عقله بالعلوم فاهمل الدرس والمطالعة في كل السنين التي أقامها في المزرعة مع أستاذه مورف. على ان هذا الاستاذ قام بالوظيفة التي انتدب لها خير قيام فاكسب تلميذه صحة الجسم والنفس فصيره قوياً نشيطاً شجاعاً محباً لكل ماهو حسن نفوراً من كل ماهو قبيح. وبعد الفراغ من مهمته دعي الاستاذ مورف الى انكلترا للنظر في أمور تتعلق بعائلته فاضطر الى الغياب عن جرمانيا الى حين. فأسف رودلف على فراقه لانه كان يحبه حباً جماً.

ولما اطمأن بال الدوق الاكبر على صحة ولده اهتم بتثقيف عقله. فانتدب لذلك راهباً يدعى قيصر بوليدوري أجمعت الاراء على انه أعلم علماء بلاده في اللغات والطب والتاريخ والعلوم الطبيعية من فلسفة وحيوان ونبات الى غير ذلك من العلوم العالية. وعهد الى هذا الاستاذ العظيم بتهذيب ولده

ولكن حسن الحظ لم يخدم الدوق في انتقاء هذا الاستاذ مثل ماخدمه في انتقاء مورف

نعم ان الراهب بوليدوري كان على جانب عظيم من العلم والفلسفة ولكنه كان مع ذلك رجلاً شريراً منافقاً كثير الدهاء

والحيل يخفي تحت ستار علومه نفساً سافلة وذمة خربة فكان كثير الشهوات يترقب الفرص لنيل ماتدفعه اليه نفسه من الموبقات .

ذلك كان الاستاذ الذي عهد اليه تهذيب رودلف

اما هذا فصعب عليه بعد تلك المعيشة الخلوية وقضاء الوقت في ترويض جسمه مع استاذه مورف ان يعود الى عيشة المدن والانكباب على الكتب وقضاء الساعات الطويلة في المطالعة فكرهت نفسه أستاذه الجديد وأفهمه بصريح العبارة ان لا رغبة له في العلم والفلسفة .

فلم يعجب الراهب بوليدوري لما قاله له الفتى بل انه سر باطناً لانه كان مثال ساره يبني أماله على استهواء رودلف .

وكانت أمال هذا الراهب عظيمة وهي ان يصبح يوماً ما في بلاط جيرولستين مثل ما كان ريشيليه في بلاط لويس الثالث عشر فيربي رودلف تربية تساعده على نيل امانيه والبلوغ الى المرتبة السامية التي تصورها له مطامعه .

ولكي يصل بوليدوري الى غايته كان لا بد له من التحبب لتلميذه ليستميل فؤاده وينسيهُ مورف . واول مافعله

هو انه اخفى على الدوق كره ولده للعلوم وقال له كذبا بان الفتى شديد الميل اليها .

وما زال ذلك الراهب الخبيث يتودد الى تلميذه حتى استماله اليه فصار يحبه على عكس ما كان في باديء الامر ولكنها كانت محبة مجردة عن الاعتبار الذي كان يظهره رودلف لاستاذه الاول مورف

ورأى بوليدوري أن تلميذه ادرك ما هو عليه من الخبث والدهاء وانه سوف يحتقره عاجلا او آجلاً لما قاله من الكذب للدوق لكي يعمي بصيرته عن كسل ولده في تحصيل العلوم - غير انه كان يعلم حق العلم بأن النفس الطاهرة اذا لم تبعد عن النفس الخبيثة باسرع ما يمكن لا تلبث أن تصبح اخبث منها

فبعد أن بين لتلميذه خشونة الالعاب الرياضية التي قضى زهرة شبابه في الانكباب عليها صار ينبه افكاره الى عيشة الملذات والترف التي قضاها لويس الرابع عشر ويقنعه بكل ما لديه من البراهين بان تلك المعيشة هي افضل ما يمكن بنو الملوك الحصول عليها

وكان كل ما سنحت له الفرصة يقرأ عليه تاريخ لويس

الخامس عشر وما كان يأتيه من ضروب البذخ والترف وكيف كان يقضي ايامه ثملا من الخمرة بين الحسان الكواعب ومتى سئمت نفسه معانقة الحسان وارتشاف كؤوس بنت الحان يروحها بمشاهدة الفنون الجميلة من موسيقة ونقش وتصوير

وطالما كان يقول له: « - نخليق بك ايها الامير أن تحذو حذو لويس الخامس عشر وتنسج على منواله وتتنعم بانواع الملذات ما زلت شاباً فان الشباب حال تحول ودع عنك الاهتمام بشؤون الملك وكلف بتدبيرها رجلا قادراً على مثل هذه الاعمال العظيمة. »

ولا شك أن بوليدوري كان يؤمل أن يكون هو نفسه مدبر ذلك الملك.

وبعد ثمانية عشر شهراً عاد مورف من انكلترا وحين قبل تلميذه بكى لشدة الفرح ولكنه بعد ايام معدودة لحظ أن رودلف لم يعد مشغوفا بمحبته مثلما كان قبل أن افترقا وصار يظهر له السخرية كلما ذكره بالايام التي قضياها معاً مشتغلين بترويض الجسم والاعمال الزراعية. ولكن لحسن ظنه بطهارة نفس تلميذه ايقن من أن ماراه فيه من الانقلاب

نتج عن عشرة معلمه الجديد الراهب بوليدوري .

والغريب أن مورف كره هـذا الراهب لاول وهلة ومن دون سبب موجب وحدثته نفسه بانه رجل فاسد الاخلاق ختال مرائي وعزم على مراقبته ليقف على حقيقة امره

وفي تلك الغضون جاء سيتون واخته الى جيرولستين وقوبلا في بلاط الدوق بكل حفاوة واكرام كما تقدم . وقد ذكرنا أيضاً أن في تلك الاثناء سافر لاستعراض فرقة من الجيش مستصحبا معه مورف .

وقد سر بوليدوري بقدوم ساره سرورا عظيما حين رأى ما كانت عليـه من الجمال وتوقـد الذهن لعلمه أن رودلف لا يلبث أن يهم بها لما أوجده في نفسه من الميل الى الملذات ومغازلة الفاتنات

وايقن ذاك الداهية ان سارة ستجسم لرودلف ما يراه من الجمال في عالم الخيال فتسلبه لبه وتأخذ بمجامع قلبه فيسهل عليها قياده كما تشاء وأول نتيجة تكون من وراء ذاك العشق هو وقوع النفور بين رودلف ومورف ثم رجوع هـذا الى بلاده فيخلو الجو لبوليدوري وذلك غاية مناه .

ولم يخف على ذاك الراهب الخبيث ما كان يخامر فؤاد ساره من المطامع والرغبة في التسلط على فؤاد رودلف على رغم تكتمها وتحفظ اخيها على هذا السر .

ففي ذات يوم اجتمع بالفتاة واخيها وأفهمهما بعبارة مبهمة انه عالم بحقيقة أمرهما وانهما لا يصلان الى الغاية المقصودة الا اذا اعتمدا عليه لانه وحده صاحب السلطة على عقل تلميذه رودلف والمسأول عنه لدى والده الدوق

فادرك توم سيتون واخته أن مصلحتهما تقضي عليهما بالاتحاد قلباً وقالباً مع بوليدوري فتعاهد الثلاثة على التكاتف ولما عاد عدوهم اللدود مورف مع تلميذه تألبوا عليه .

وما قدّر كان ولا مرد لحكم القضاء والقدر

فبعد عودة رودلف من الاستعراض حملت عليه ساره برمح قامتها وسهام عينيها وعذوبة حديثها فما لبث ان وقع في شراك الهوى . ولما احست بوقوعه اظهرت له أنها تشاطره الحب ولكنها توسلت اليه أن لا يبوح بغرامه منعاً للظنون فيبقى ما بينهما من صلة الحب امرا مكتوماً ولا يصل الى مسامع الدوق فينالهما منه ما لا طاقة لهما به

فوعدها رودلف بذلك وبرّ بوعده وطوت هي السر عن الكل ما خلا أخيها فبقي مكتوماً زمناً. ولكنها لما رأت بعد حين ان شغف حبيبها بلغ منتهاه وصار الشاب يتمنى الوصول الى الغاية مهما كان دون ذلك من العقبات خافت أن يدفعه التهور الى عمل مالا تحمد مغبته وتكون نتيجته اضمحلال كل مالها . ولذلك عزمت بعد استشارة اخيها على الشروع في العمل الذي يضمن لها المستقبل .

ولم يكن يخفى على توم سيتون ان مصلحة بوليدوري تقضي ببقاء ساره في بلاط جيرولستين واستمرار الغرام بينها وبين رودلف فرأى ان يهاجم الراهب من هذه الجهة الضعيفة . وفي ذات اليوم أفهمه بصريح العبارة بانه ان لم يسع في زواج رودلف باخته تضطر هذه الى الخروج من بلاط الدوق والعودة الى انكلترا . وأفهمه ان ساره تشاطر رودلف الحب والهيام ولكنها لا تسمح له بمسها الا اذا تزوجها ذلك لانها تفضل الموت على فقد شرفها

فحين سمع بوليدوري ذلك المقال أخذته الدهشة لانه لم يكن يحسب ان مطامع سارة تدفعها الى هذا الحد. ثم انه

بعد اعمال الفكرة والنظر في الامور من كل وجوهها وجد ان دون زواج سارة عقبات وصعوبات أصعب من خرط القتاد. فبين لتوم سيتون الموانع التي تحول دون ذلك الزواج والاسباب التي تحمل الدوق على رفضه رفضاً باتاً فاقتنع توم وايقن ان لا سبيل الى زواج رسمي علني ولكنه على لبوليدوري وخامة العاقبة اذا قطعت آمال رودلف ومنع عن الحصول الى ضالته المنشودة وهي الوصول الى حبيبة قلبه سارة. واقنعه ان في الامكان حل هذا الاشكال بطريقة سهلة ترضي الطرفين. وهي ان يكون الزواج سرياً لا يدري به احد. اللهمّ ان يكون مستوفياً كل الشروط القانونية وان لا يباح بهذا السر الا بعد وفاة الدوق الاكبر.

فبعد أعمال الفكرة صمم بوليدوري على اجابة ملتمس سارة ولكن الى حد محدود لاسباب سنجيء على ذكرها فيما بعد. ولما اختلى الى رودلف بين له صعوبة المركز الذي أصبح فيه وأفهمه ان لا سبيل الى حلّ المشكل الا بطريقة من اثنتين: اما الامتناع عن مخالطة ساره بتاتاً ونبذ حبها وقطع الامل من الوصول اليها. واما تزوجها زواجاً سرياً.

فاختار رودلف الطريقة الثانية لشدة ما كان عليه من الهيام غير مبال بالعواقب .

وما زال سيتون وأخته وبوليدوري ورودلف يترقبون الفرص حتى غاب الامير الاكبر عن عاصمة بلاده فتعاونوا كلهم على اتمام المشروع وتم عقد الزواج بطريقة سرية لم يدر بها أحد سواهم

فتمت اذ ذاك نبوة مربية ساره وأصبحت هذه زوجة أمير سوف يكون ملكا من ملوك أوروبا

وظل امر العروسين مكتوماً حتى حدث ما كانت تتوقعه ساره بذاهب الصبر وذلك انها اصبحت يوماً حاملا فقلبت لرودلف ظهر المجن وافهمته انها لم تعد تستطيع التكتم بعد حبلها وصارت تبكي وتذرف الدموع السخينة والحت عليه بان يطلع والده على حقيقة امرهما فلم يجسر رودلف على اجابة ملتمسها لعلمه بما سينال والده من الغضب عليهِ على رغم حبه الزائد له فلما أنست منه ذلك الضعف قالت له

— لقد اصبحت زوجتك امام الله والناس وبعد حين لا يعد في استطاعتي اخفاء حبلي ولا ارى من العدل أن اخجل من زواجي بك وهو امر يلزمني المفاخرة به

وفي تلك الغضون امر الدوق توم سيتون بالسفر الى بلاد النمسا لشراء بعض الخيول الاصيله فلم يرَ بداً من الامتثال الى الامر فذهب مرغماً وترك اختـه في مركز حرج واقام في النمسا خمسة عشر يوماً كان في غضونها يكاتب اخته ليستطلعها ماجدّ من امرها مع رودلف وكان يكاتبها باحرف سرية كانا اتفقا عليها قبل سفره ولم يكن يحل رموزها سـواهما غير بوليدوري .

ولم تقف مطامع ساره بعد زواجها برودلف بل صارت تطمع بالتسلط على افكاره لتقوده كيف شاءت فتصبح بعد موت والده صاحبة الامر والنهي في مملكته وكانت تذكر كل امانيها في كتبها لاخيهـا وتبين له ضعف ارادة زوجها رودلف وفتور عزيمته وهبوط منزلته بالنسبة الى بقية امرآء جرمانيا .

وكان بوليدوري مطلعاً على كل ما يدور من المراسلات بين ساره واخيها فرأى ان من مصلحته الحجز على رسالة من رسائلهما والاحتفاظ بها واتخاذها سلاحا يشهره في المستقبل ليبلغ به غاية سنجيء على ذكرها فيما بعد

ولم يمضي على حبل ساره بضعة شهور حتى علم به كل اهل البلاط ولم تكن تسعى في كتمان هذا السر لعلمها أن حبلها يشفع لها لدى الدوق فيرضى بها حليلة لولده .

فاخطأ سهم ظنها المرمى لسوء حظها وسنوقف القاريء فيما يلي على العواقب الوخيمة التي نجت عن اطلاع الدوق على ذلك الزواج الخفي وقبل الانتقال الى موضوع اخر من هذه الرواية لا يسعنا الا اظهار ماخطر على بال القاريء وهو أن زهرة مريم الملقبة بالمغنية هي ثمرة ذلك الزواج وأن كلا من والديها رودلف وساره يعتقدان انها في عالم الاموات.

الفصل الخامس عشر

حفلة الرقص

قلنا فيما مضى أن رودلف عاد الى بيته بعد ان استأجر الغرفة في شارع التامبل وانه كان مدعواً في تلك الليلة الى حفلة راقصة احيتها زوجة احد السفراء

فلنتبع الآن الى تلك الليلة الراقصة سمو الدوق الاكبر امير جيرولستين جوستاف رودلف المتجول في فرنسا متنكراً تحت اسم الكونت دورين .

عند الساعة الحادية عشرة ليلا ركب رودلف عربة فاخرة يجرها حصانان من جياد الخيل فسارت به من قصره في شارع بلوميه تنهب الارض نهبا وكان البارون جرون جالساً عن شماله ومورف الامين جالساً امامه.

وفي اثناء الطريق قال رودلف .

— لقد سررت كثيراً بالاخبار التي اتتنا من مدام جورج عن الفتاة المغنية المقيمة في مزرعة بوكيفال فان اعتناء الطبيب داود في معالجة هذه الفتاة قد اتى بفائدة عظمى .

ثمَّ نظر رودلف الى مورف ووجه اليه حديثه وقال له وهو يتبسم .

— وعلى ذكر المغنية الا تقر معي يا حضرة السر ولتر مورف بانه لو راك الآن واحد من الذين ابصروك في حي اللصوص في ذي لخام لاخذته الدهشة ؟

فاجابه مورف قائلا

— وهل يمكنك يا مولاي ان تتصور الدهشة التي تستولى على البواب بيبليه وزوجته اذا زرتهما الآن وانت في هذه الملابس وحاولت ان تسليهما بنكتك المعهودة لتنسيهما

ما نالهما من الكدر على يد كبريون المصور ؟

وبعد سكوت وجيز قال البارون لرودلف .

— لعلك يا مولاي مسرور من اعمال الموظف السري الذي خصصته بخدمة سموكم ولعلك وجدت في بيت شارع التامبل ما كنت تؤمله من الدلائل التي تهديك الى الغاية المقصودة ؟

فاجابه رودلف وعلامة البشر بادية على وجهه

— نعم لقد وجدت في ذاك البيت اكثر مما كنت انتظره ...

فقال له مورف

— لم يبق اذن شك عند سموكم في انكم وجدتم بوليدوري في شارع التامبل ؟

— نعم لم اعد اشك في ذلك واكبر دليل عليه انك خُبرت بوجود هذا الرجل في باريس منذ زمن

فاجابه مورف بصوت حزين

— لقد نسيت يا مولاي أو بالحري ابيت أن احدثك عن بوليدوري لعلمي ان ذكره يؤلمك

فاكفهرّ وجه رودلف وعاودته الكآبة فاطرق الى الارض وغاص في لجج الافكار المحزنة وساد السكوت حتى وصلت العربة الى دار السفارة التي كانت تبعث الاضواء من نوافذها فتخترق الظلام الدامس .

وكان رودلف اذ ذاك في السادسة والثلاثين من عمره . قليل الاختلاط بالعالم حتى ان وجوده في تلك الحفلة الراقصة عد أمراً غريباً وأوجد لغطاً بين المدعويين . ولما دخل قاعة الاستقبال وتبعه البارون وورف كان أحد رجال السفارة مكلفاً بانتظاره فاعلن بقدومه الكونتس وزوجها

وبعد تبادل التحية قدم رودلف ذراعه للكونتس فامسكته فدخل بها القاعات الاخرى وظل الكونت يحدث مع البارون وورف لانه كان يعرفهما من عهد بعيد . ثمّ دخلوا جميعهم حديقة غناء في وسط الدار يندر ان يوجد مثلها في قصور الملوك

فبعد ان سرح رودلف طرفه في كل جهات تلك الحديقة قال للكونتس

— حقاً ياسيدتي ان هذه الحديقة آية في الحسن لم أكن

أتصور أن وجودها ممكن فان ماأراه فيها من الغرائب لايدل فقط على كرم أصحابها وسلامة ذوقهم بل يدل على انهم قادرون على جعل الخيال حقيقة وتجسيم التصورات الشعرية فقدفقتم الشعراء والمصورين بمراحل ياسيدتي لانكم تخلقون أشياء يعجز الشاعر عن وصفها والمصور عن تصويرها

فابتسمت الكونتس وأجابت

— أشكرك يامولاي على هذا الثناء الذي لانستحقه

ثم بدرت من الكونتس التفاتة الى اليمين وقالت لرودلف وهي تشير الى سيدتين مقبلتين

— انظر يامولاي ماأجمل المركيزة درفيل ألست ترى مثلي ان حسنها الباهر يأخذ بمجامع القلوب ؟ ويخال اليّ ان جمالها يمتاز عن جمال السيدة التى معها

ولم يكن مع المركيزة درفيل سوى الكونتس ساره ماك جريجور وكانتا حين أشارت زوجة السفير اليهما قادمتين من الدار الى الحديقة . والذي يتأمل المركيزة درفيل يرى ان زوجة السفير لم تبالغ في وصف جمالها. فانّ أشهر المصورين وأشعر الشعراء لايقدران على تصوير حسن يقرب من حسن تلك

المرأة . والذي يزيد الناس شغفاً بها هو ما كانت عليه من دماثة الاخلاق وبشاشة الوجه وسلامة القلب . وكان لها أديم بضاضة العجين وبياض العاج وشعر أسود مرسل على كتفين مستديرين كأنهما حقان من المرمر . وعينان دعجاوان تذبحان تظللهما اهداب سوداء كثيفة تزيدهما حوراً .

وكانت مرتدية ثوباً من حرير أبيض مرشوق عليه أغصان ورد صغيرة تضيء بين أوراقها حجارة من الماس كأنها قطر الندى

اما رفيقتها الكونتس ساره ماك جريجور فكانت تناهز الخامسة والثلاثين ولكنك اذا تأملت نضارة وجهها لا تقدر عمرها باكثر من ثلاثين سنة . ولها قامة هيفاء مثل قامة المركيزة يزينها بعض السمن . وعينان سوداوان براقتان وانف أقنى وشفتان رقيقتان بلون المرجان يدل شكلهما على الكبر وقوة الارادة . وكانت مرتدية ثوباً من حرير أصفر ما صنعت الخياطات أحسن منه

وقد لمحت المركيزة وساره البرنس رودلف حين دخلتا الحديقة اما هو فاظهر انه لم يرهما . فقالت المركيزة درفيل لسار

— لا شك ان البرنس كثير المشاغل مشتت الافكار فانه لم يرنا.

وكانت بين المرأتين مودة وكل واحدة منهما واقفة على أسرار رفيقتها فاجابت ساره

— اصدق ظنك يا عزيزتي كليمنس. اذ لا ريب عندي ان البرنس ابصرنا غير ان رؤيتي راعته لانه لا يزال ناقمًا عليَّ

— هذا وهم باطل تسلط على افكارك. والمرجح عندي ان البرنس يظهر لك غير ما يضمر. وقد سألته عن السبب في نفوره منك فاجابني مازحًا.

« ان بيني وبين الكونتس ساره عداوة شديدة » (١)

— كوني على يقين من ان هذه العداوة التي يذكرها البرنس آونة بلهجة المزاح واونة بلهجة الجد لا أهمية لها لانها ليست مبنية على أسباب جوهرية. ولولا وجود شخص

(١) لم يكن أحد يعلم ماكان من صلة الغرام بين رودلف وساره منذ ثماني عشرة سنة وما تبع ذلك من الحوادث لان مصلحة الاثنين كانت تقضي عليهما باخفاء حقيقة أمرهما.

ثالث في سر هذه العداوة لكنت أطلعتك عليه . . . ولكن مابك ؟ . . . اني أرى على وجهك علامات انشغال البال .

— مابي شيء . . . انني حين كنت في قاعة الرقص شعرت بدوار لشدة الحر ولكني الان أحسن حالا من ذي قبل فلنجلس هنا برهة فيزول كل ماألم بي

— صدقت ياعزيزتي . هلم نجلس في تلك الجهة المظلمة حيث لاتراك عيون الذين كدرهم غيابك

وضحكت سارة بعد أن فاهت بهذه العبارة فاحمر وجه المركيزة حياء واطرقت الى الارض ولم تجب بكلمة . فقالت لها ساره بلهجة الحبيب المؤنب

— ما أبعدك عن الصواب ؟؟ الاتثقين بي !!

فاجابتها المركيزة بصوت ملؤه الكآبة

— كيف لا اثق بك !! ألم اطلعك على أسرار كنت أكتمها عن نفسي ؟

— حدثيني اذن عنه . . . اتراك اقسمت أن تثابري على قطع آماله حتى يموت؟

فبدت على وجه المركيزة علامات الزعر وهتفت قائلة

— ماذا تقولين ؟؟

— انك ما زلت تجهلين هذا الشاب . . فهو من ذوي العزة الذين لا يهابون الموت . وقد زهقت روحه مما صادفه من الهوان في هيامه بك أما كفاه ذلك حتى تعملين على تعذيبه؟

— يا رباه ! ! هل تتصورين ذلك ؟

— لعلك اذن تعذبينه وانت لا تدرين. ولو انك تعلمين كم ترق احساسات العشاق الذين يعاملون بالصدود لكنت تشفقين عليه . . وقد تفطر قلبي حزنا عليه حين أبصرته الآن اذ رأيت الدمع يترقرق في عينيه

— أرجوك أن تكفي عن هذا الحديث فانه يدمي فؤادي . . . فانني أعلم الناس بسوء حال الصابرين على حر نار الغرام . . . اواه ! ان اشفاقي عليه هو الذي اضاعني . .

— أنك تبالغين وتجعلين من الحبة قبة . . أتقولين أن اشفاقك قد اضاعك لانك أظهرت بعض المودة لرجل بلغت منه درجة التكتم حتى أنه ابى التعرف بزوجك منعاً للظنون والشبهات ! ألست تعتقدين مثلي أن المسيو شارل روبين رجل ذو شرف وشهامة ؟ . وانا الا ادافع عنه بهذه الحدة الا لانك

رأيته وعرفته عندي ولان اجلاله لقدرك لا يقل عن هيامه بك

— انني ما ارتبت قط بشهامة هذا الشاب وكرم اخلاقه ولا سيما بعد الذي ذكرته لي عنهُ . ولكنك تعلمين أن مصائبه هي التي دفعتني الى العطف عليه . ولكن دعينا من هذا الحديث ناشدتك الله

— لماذا ؟

— لان ما ذكرته لي عن كآبته وقنوطه ملأ فؤادي حزنا

— نعم أن الحزن والقنوط قد اخذا منه حتى صرت اخشى عليه أن ينتحر ..

فقاطعت المركيزة حديث ساره وقالت لها بصوت مرتجف

— ويلاه ! أرجوك أن لا تفوهي بمثل هذا الحديث .. فقد خامرني ايضاً هذا الفكر ..

وبعد سكوت وجيز عادت المركيزه فقالت

— أعيد عليك الرجاء بتغيير هذا الموضوع فلنتحدث عن البرنس عدوك اللدود . انني لم أره منذ عهد بعيد . أرأيت كيف انه ما زال جميلا على رغم تقدمه في السن حتى كاد يصير ملكا ؟ أما انا فمع شغفي بالجمهورية أرى أن البرنس كالدرة

فنظرت ساره الى المركيزه نظرة تشف عن حقد خفي وحاولت أن تخترق صدرها بنظرها لترى ما فيه من الاسرار وقالت لها وهي تتكلف الابتسام

-- انك ولا شك ياعزيزتي كلينس متقلبة الاطوار والاهواء فأراك تنظرين الى البرنس طوراً بعين الاعجاب وطوراً بعين الازدراء والسخرية . وقد شغفت به منذ بضعة شهور حين جاء باريس شغفا خفت منه على سلامة قلبك

فابتسمت المركيزة واجابت

— نعم ولكن شغفي به لم يطل لانك مالبثت ان اظهرت لي بأنك عدوته اللدودة واسمعتني من مذمته ما جعلني انفر منهُ واقلع عن ذلك الشغف الذي خفت منه على سلامة قلبي أن عدوك هذا ما فكر قط في مس قلبي والدليل على ذلك أنه قبل أن تسمعيني من مذمته ما اسمعتني ظلَّ يتردد على زوجي ولكنه انقطع عن زيارتي بتاتاً

— هل زوجك هنا الليلة؟

فبدأ الارتباك على المركيزة واجابت

-- لا . . . قد فضلّ البقاء في البيت

ولم يخف على سارة ارتباك محدثتها فقالت لها

-- اني حين رأيت المركيز درفيل آخر مرة وجدت ان لون وجهه قد ازداد شحوباً

-- قد اصابه بعض الانحراف في صحته . .

- اتريدين ياعزيزتي كليمنس أنّ أذكر لك حقيقة ما اضمر ؟

- بلا شك .

- أعلمي اذن انه كلما ذكر زوجك تظهر على وجهك علامات القلق والاضطراب

- انا ؟؟ انك تهزين يا ساره

فنظرت اليها ساره نظرة احد من السهم واجابت

- لا . . لست اهزي كما تتوهمين بل اقول الحقيقة فقد لاحظت مراراً انه حينما يذكر اسم زوجك على مسمع منك تبدو عليك علامات الاشمئزاز والرعب . .

فحاولت المركيزة ان تبقى ثابتة الجأش تحت نظر ساره الحاد غير ان هذه لحظت ان شفتي محدثتها ترتعشان ارتعاشاً عصبياً خفيفاً . فخافت ان تسيء بها الظن فقالت لها اتطب

خاطرها

— نعم انك تشمئزين منه لشدة غيرته عليك . . . ولحدة طباعه

فحين سمعت المركيزة ذلك كفّ ارتجاف شفتيها وشعرت كأن حجراً ثقيلاً رفع عن صدرها فأجابت

— كلاّ ياعزيزتي . ماكان زوجي حد الطبع ولا غيوراً . . .

وكان ذلك الحديث شديد الوطأة على سمع المركيزة فصارت تبحث عن سبب لتغيير الموضوع واذذاك بدرت منها التفاتة وهتفت قائلة

— ياربَاه ! ! انظري ياساره هاهو الدوق لوسيني الثقيل أحد أصدقاء زوجي . . . ياليته لا يرانا . . . كيف وجد هنا هذه الليلة ؟ . . . كنت أحسب انه غائب عن فرنسا . . .

— نعم قيل لي انه سافر الى الشرق ليقضي فيه سنتين سائحاً ولكن لم يطل غيابه سوى خمسة شهور . ولا شك ان هذا العود السريع غير أحمد في عيني الدوقة زوجته ولو انه ليس شديد المراقبة على سلوكها

قالت ساره ذلك وابتسمت ابتساماً خبيثاً وأردفت

— وأظن ان المسيو سان ريمي يشاطرها الكدر من تسرع زوجها في الرجوع . . . .

— دعي عنك النميمة ياعزيزتي ساره وقولي ان عود الدوق كدر الجميع ... لان الجميع ينفرون من هذا الرجل ..

— لست نمامة ولكنني كالصدى أعيد مايقال : ويقال أيضاً ان المسيو سان ريمي الذي يضرب المثل بظرفه وكياسته والذي بهر أهل باريس ببذخه وترفه قد أصبح على وشك الافلاس والغريب انه لايزال ينفق عن سعة . ويعللون ذلك بقولهم ان الدوقة لوسيني غنية جداً وانها ....

— يالله ! ! ماأفظع هذه الاشاعة ! !

— أعيد عليك ياعزيزتي كليمنس بانى ماأقوله ليس سوى صدى مايقال . . . ياويلاه ! لقد رآنا الدوق . . . وهاهو مقبل نحونا . . . لابدّ لنا من مقابلته والصبر على هذا البلاء .. ما أتعس حظنا ! !

كان الدوق لوسيني من اسرة فرنساوية ذات حسب ونسب ومجد أصيل . وهو شاب صغير السن ضئيل الجسم

يكاد يكون جميل الصوره لولا طول أنفه الهائل وعلى رغم انتساب هذا الرجل الي بيت مجد أصيل كان ذا أطوار فظة قلما توجد في غير الاجلاف . فكان كثير الحركة كثير المزاح والضحك يقهقه كالقرد لاقل سبب . ويتخلل حديثه الفاظ بذيئة خارجة عن حد الادب. واذا تكلم يشير بيديه اشارات سمجة . فكل من رآه يعجب لوجوده بين علية القوم في باريس اذا كان لا يعلم من هو

اما زوجته الدوقة لوسيني فكانت تعد بين نخبة نساء باريس من حيث الجمال واللطف وتوقد الذهن وكانت لاتزال في الثلاثين من عمرها .

ولم يكن لتلك المرأة عيب سوى خروجها عن دائرة العفاف في سلوكها غير ان العارفين بأطوار زوجها كانوا يلتمسون لها عذراً .

وحين أبصر الدوق لوسيني المركيزة درفيل وساره في الحديقة أخذ يضحك مقهقهاً و يقول بأعلى صوته

— ماشاء الله ! ! ماشاء الله !! ماذا أرى هناك؟ كيف!! هل هذا ممكن ؟ أيجوز ان تكون اجمل امرأة في حفلة الرقص

مختبئة في هذا المكان المظلم؟ كيف يسمح ذوو الشأن بذلك؟ هل كانوا ينتظرون عودتي من الشرق لاصلاح خطائهم واظهار عيوبهم؟ . . . فاذا كنتِ ياحضرة المار كيزة لا تعودين الى قاعة الرقص ليتمتع بجمال وجهك المدعوون أنادي باعلى صوتي وأقول ان قد فقدت الليلة بهجتها واظل أصيح وا تأوه كالمحروق حتى تدخلين الى قاعة الرقص .

قال الدوق ذلك واستلقى على المقعد الى جانب المار كيزة وساره والتصق بهما ولفّ احدى ساقيه على أختها وأمسك حذائه بيده وشخص الى المار كيزة يتأمل حسن وجهها فقالت له هذه وهي تتأخر الى الوراء مبتعدة عنه .

— لماذا أسرعت بالعودة من القسطنطينية ياحضرة الدوق ؟

— ان أفكارك ياحضرة المركيزة تنطبق تمام الانطباق على أفكار زوجتي لانها هي أيضاً قالت انني تسرعت في الرجوع وقد تولاها الغضب حتى انها امتنعت عن المجيء الى هذه الحفلة فكان لغيابها وقع انسى المدعوين حضوري من الشرق نعم يا سيدتي قد عدت من القسطنطينية فاستقبلتني مثل

زوجتي كما يستقبل الكلب اذا دخل على لاعبي الكيل.
فياعجبي لهذا !! ألست لطيفاً مثل بقية الشبان ؟

فاجابته المركيزة وهي تبتسم

— كان الاجدر بك أن تبقى لطيفاً في الشرق

فنظر اليها الدوق شذرا وقال لها

— تريدين أن تقولي انك تفضلين غيابي في الشرق على وجودي هنا. فيالله ما افظع هذه الاقوال واعقم هذه الافكار

قال الدوق ذلك ثم فرد ساقيه ورفع قبعته بيده وضرب بها على ركبته فسمع لها صوت كصوت الطبل وصار يزمجر كخنزير الغاب المجروح فبدت علامات الغضب على وجه المار كيزة وقالت له بلهجة الآمر.

— أرجوك يا مسيو أن لا تصيح كذا وان تلزم السكوت والا تضطرنا الى الذهاب عنك.

وبعد حين همت الماركيزة بالقيام لتبتعد هي وساره عن ذلك الدوق الثقيل ولكنها قبل ان تقف رأت الموسيو شارل روبير « الذي تدعوه مدام بيبليه بالقومندان » عند اخر الحديقة فخافت ان يظن اذا تركت مكانها انها ذاهبة للقائه

فبقيت حيث كانت بالقرب من الدوق ولما ابصر هذا شارل روبير بدت عليه الدهشة وقال .

— ماذا ارى ! ... هذا شارل روبير .... انني صادفته في حمامات جبال البيرينه... لا شك انه من اظرف الشبان... وله صوت كصوت البلابل وها هو مقبل علينا . فسوف ترين يا مركيزة كيف اقلب افكاره ظهراً لبطن

وظل شارل روبير يتقدم . وكان ذا قامة هيفاء متناسب الاعضاء حسن الملامح كثير التأنق في لباسه على أن جماله وتأنقه كانا خاليين عن مسحة اللياقة التي يمتاز بها شبان الطبقة الراقية فكانت مشيته ثقيلة وقدماه غليظتين .

وحين ابصر المركيزة درفيل انقلبت سحنته وبدت عليها كآبة تصنعية شبيهة بالحقيقة فلما ابصرت المركيزة وجهه على تلك الحالة ذكرت ماقالته لها ساره عن لواعج شارل وقنوطه

وما كاد شارل يصل الى حيث كان الثلاثة جالسين حتى تلقاه الدوق لوسيني وقال له .

— اهلا وسهلا بك يا عزيزي شارل انني ما حظيت برؤيتك قبل الآن منذ التقينا في حمامات جبال البيرينه ..

ولكن ماذا دهاك ؟ يظهر لي من هيئتك أن آلاماً تشوي فؤادك .

فنظر شارل روبير الى المركيزة درفيل نظرة تنم عن الحزن وزوال الصبر واجاب الدوق بصوت حزين

— نعم يا سيدي أن الألام تشوي فؤادي

فقال له الدوق بلهجة الجد .

— كيف !! الا يمكنك مداواة القيء الذي يعتريك كل صباح بسبب الادمان والتخلص من البلاغم التي تملاء صدرك ؟

فلما سمع شارل ذلك السؤال الجارح اخذته الدهشة لحظة ثم احمر وجهه خجلا وقال للدوق بلهجة قاسية

— بما أن صحتي تشغل بالك الى هذا الحد فارجوك أن تشرفني غداً صباحا للاستعلام عنها

فاجابه الدوق بعظمة

— بلا تردد ايها العزيز ... وسارسل لك شهودي ...

فانحنى شارل مسلما وانصرف

وطفق الدوق يضحك ثم عاد فاستلقى على المقعد الى جانب ساره وقال

— اليس من الغريب أن اقول له أن في صدرك بلاغم وأنا لا اعرف شيئاً عن صحته ؟ وقد يجوز أن تكون به هذه العلة حقيقةً وهذا اغرب ...

ثم وجه حديثه الى الكونتس ساره واردف

— فما رأيك يا مدام ماك جريجور ؟ هل تظنين أن هذا الشاب مصاب بعلة البلغم ؟ فابتعدت ساره عن الدوق ولم تجبه . وكانت لا تزال تضحك من سؤاله لشارل اما المركيزة درفيل فتأثرت تأثراً شديداً مما اصاب شارل من الخجل لعلمها ما يلم بالشاب اذا استهزاء به احد في مجلس السيدات ولا سيما اذا كانت بينهن واحدة يهواها . وخافت أن عاشقها يدعو الدوق للبراز (فيقع الاثنان فيه) ... فاخذتها الشفقة على شارل فقامت من فورها ولحقت به فوجدته في حالة اضطراب شديد فمرت بجانبه وقالت له همساً

— غداً عند الساعة واحدة ... اذهب

ثم دخلت قاعة الرقص مع ساره وما لبثت ان انصرفت عائدة الى بيتها اما رودلف ففي ذهابه الى تلك الحفلة الراقصة كان يرمي الى غرضين اولهما حسن القيام بالواجبات الرسمية

وثانيهما الاستعلام عما اذا كانت مخاوفه على المركيزه درفيل في موضعها اعني اذا كانت هذه المرأة هي نفس التي اشارت اليها زوجة البواب بيبليه .

فبعد أن ترك الحديقة جال بين المدعوين في كل القاعات على امل أن يرى المركيزة منفردة فلم يجدها . ثم انه عاد الى الحديقة فرأها حين مرت بجانب شارل روبير بعد الذي سمعه من مزاح الدوق الثقيل وشهد الاشارات والنظرات التي تبادلاها .

فزال منه الشك وحدثته نفسه بان ذلك الشاب الجميل الطويل القامة هو نفس الذي تدعوه مدام بيبليه القومندان المتخذ له غرفة في بيت شارع التامبل .

ولكي يحتق رودلف صحة هذا الظن عاد الى قاعة الرقص وكان اهل المخاصرة يتاهبون لرقصة «فالس» فرأى المسيو شارل روبير واقفاً عند باب القاعة وكانت هيئته تدل على الارتياح اذ انه كان مسروراً من حسين جوابه للدوق من جهة ومن وعد المركيزة له من جهة اخرى وكأن نفسه حدثته بان حبيبة قلبه تبر بوعدها هذه المرة .

فاسرع رودلف نحو مورف وقال له

— انظر الى ذاك الشاب الاشقر الواقف عند الباب.. هل ابصرته ؟

— ذاك الشاب المشرئة اساريره ؟.. نعم ابصرته

— اذهب اذن نحوه واقترب منه بحيث يسمعك اذا تكلمت همساً من دون أن يراك وقل له هذه العبارة : « اهلا بك يامالكة فؤادي !! لقد طال انتظاري حتى كدت اذوب وجداً »

فدهش مورف وشخص الى البرنس وقال له

— أمزاح ما تقول يا مولاي أم جد ؟

— هو عين الجد . واذا التفت الشاب عند سماع العبارة فاظهر انك متشاغل عنه لكي لا يعرف من الذي تكلم

— انني لا ادرك مرادك من هذا العمل يا مولاي ولكن لا بد لي من طاعتك طاعة عمياء

قال مورف ذلك ومشى الى حيث كان شارل واقفاً وظل يدنو منه حتى اصبح خلف ظهره . ورودلف يرقب الشاب من بعيد ليرى كيف يكون وقع العبارة على اذنه .

ولما لفظ مورف العبارة التي تلقنها من مولاه التفت

شارل روبير الى الوراء بغتـــةً واضطربت هيئته اضطراباً ظاهراً ... فلم يبـد مورف اقل حركة وظل واقفاً في مكانه متشاغلا عن شارل متجاهلا ... وحين ابصره هذا ورأى رأسه الاصلع وثبات جاشه وهيئته الدالة على السكينة لم يخطر قط على باله أنه هو الذي اسمعه تلك العبارة التي ذكرته بما حصل له مع مدام بيبليه حين ضمها الى صدره في الظلام الحالك وهو يظنها حبيبة قلبه المنتظرة .

وبعد حين عاد مورف الى حيث كان رودلف وقال له

— عجباً يا مولاي !! انني حين قلت العبارة التي علمتني اياها . التفت الشاب اليَّ بغتة كأني عضيت نخذه . فهل لتلك العبارة مفعول ساحر ؟

— نعم يامورف ان لها مفعولا سحرياً لانها أبانت حقيقة كنت أبحث عنها

وأسف رودلف بعد ان تحققت ظنونه وزاده أسفاً ان ساره كانت واسطة الصلة بين شارل والمركيزة . وتفطر قلبه حزناً على صديقه الحميم المركيز درفيل اذ أدرك الآن ان الغيرة هي السبب في أشجانه الدائمة . فطرق الى الارض مفكراً

وناجى نفسه قائلا

— كيف لايذوب درفيل ألماً وغيرةً حين يرى زوجته الجميلة التى يتفانى في حبها تهوى شاباً يعد من أجلاف الناس؟. لقد وقفت على هذا السر بطريق العرض فلا يمكنني اتخاذه وسيلة لمنع الضرر . . . ولا يمكنني ان انبه أفكار المركيزة الى عملها الفظيع لترعوي عن غيها . . . ولو أمكنني ذلك أتراها تصغ اليّ وتعمل بنصحي بعد تهورها في هاوية الضلال ؟ .. فلا بدّ لي اذن من ان أرى تلف هـذه المرأة التي أحببتها . وما زلت أحبها وأنا صاغر اذ لاحيلة لي في الذي أصابها . . .

وفي تلك الاونة أقبل عليه البارون جرون وقال له

— اذا أراد مولاي ان نختلي في قاعة لايرانا فيها أحد أطلعته على ماأمرني بالاستعلام عنه

قال البارون ذلك ومشى فتبعـه رودلف من دون ان يفوه بكلمة ولما أصبحا في معزل قال البارون

— ان الدوقة الوحيدة التي يبدأ اسمها بالحرفين ن . ل هي الدوقة لوسيني من أسرة نوارمون . وهي لم تأتِ الى هنا الليلة . ولكنني رأيت زوجها الدوق لوسيني . ويقال انه

ذهب الى الشرق وكان في عزمه ان يطيل الاقامة هنالك الى سنتين ولكنه لم يقم في تلك البلاد سوى خمسة شهور وعاد منذ ثلاثة أيام

يذكر القاريء ان رودلف وجد على سلم البيت في شارع التامبل عند مدخل بيت الطبيب برادامنتي منديلا مبللا بالدموع ومرسوم على احدى زواياه الحرفين ن . ل وفوقهما تاج الدوقية .

وبناء على أمر رودلف استعلم البارون جرون عن أسماء كل الدوقات اللواتي كنّ في باريس في ذلك العهد فوقف على النتيجة التي تقدم ذكرها . فأدرك رودلف حقيقة الامر . وارتعدت فرائصه حين علم ان تلك الدوقة المسكينة وقعت في حبائل برادامنتي وهو ذلك الشيطان بوليدوري بعينه . وأيقن ان هذا الداهية لم يبعث ابن براوج الاعرج خلف الدوقة لوسيني الا ليقف على حقيقة أمرها ويتحقق من اسمها ومسكنها ويتهددها بعد ذلك بافشاء سرها ان هي لم تصبح طوع أمره وتحت سلطته .

وبعد سكوت وجيز عاد البارون جرون فقال

— ان أحكام القدر غريبة أحياناً يامولاي

— كيف ذلك ؟

— حينما أطلعني المسيو كرانجونوف على الاخبار التي ذكرتها لسموكم بشأن الدوق لوسيني وزوجته وقال لي ان عود الدوق كدَّر زوجته وشاباً آخر من نخبة شبان باريس يدعى الفيكونت دي سان ريمي . دعاني السفير . وسألني هل أظن ان سموكم تسمحون له بان يقدم لكم الفيكونت الموجود هنا الآن : ولا سيما انه أصبح من موظفي السفارة في جيرولستين وانه يتمنى ان يعرب عن عبوديته لسموكم .

فظهر الكدر على وجه رودلف وأجاب

— انني اكره مثل هذه الامور ولكني لا أرى من اللياقة رفض هذا الطلب فاذهب وقل للكونت ان يقدمه لي

ولم ينسَ رودلف على رغم كدره وانشغال باله بما يدعو اليه مقامه من التعطف في مثل هذا المقام . فضلا عن انه كان يرغب في رؤية دي سان ريمي بعد ان علم انه عاشق الدوقة لوسيني

وبعد لحظة أقبل الفيكونت وكان شاباً جميل الطلعة لم يجاوز الخمسة وعشرين ربيعاً ممشوق القد متناسب الاعضاء حسن الملامح .

وكانت تزين ربطة رقبته لؤلؤة واحدة تبهر الناظر اليها يندر ان يوجد مثلها في كبر الحجم وصفاء اللون كانها الدرة اليتيمة .

وكانت كل ملابسه على غلاء أثمانها بسيطة مثل اللؤلؤة التي تتألق في أعلا صدره

وعلى الجملة كان هذا الشاب ممتازاً بجماله وتأنقه في اللباس عن رفاقه من نخبة شبان باريس حتى ان الذي يراه مرة واحدة لاينساه قط

وكان يقتني العربات الفاخرة والجياد المطهمة . ويكثر من المضاربات ولعب القمار حتى ان ماينفقه سنوياً على الرهان في سباق الخيل كان يربو على الثلاثة آلاف جنيه . اما بيته في شارع شايو فحدث عن حسنه وزخارفه ولا حرج . وقلما كان ينفق في مطابخ اغنياء باريس ما كان ينفق في مطبخه. وكثيراً ماكان يدعو أصدقاءه الى بيته فيقضون الليل بطوله

بين معاقرة ومخاصرة ومقامرة وكانت تبلغ خسارته أحياناً مبلغاً عظيما. على ان ذلك لم يكن يؤثر عليه فيظل بشوش الوجه طلق المحيا كانه من الرابحين. وهو أغرب شيء في ذلك الشاب لان الجميع كانوا يعلمون انه خسر كل ثروته من أمد بعيد. وقد ورث الفيكونت هذه الثروة التي بددها عن والدته. اما والده فكان فقيراً ومنعزلا في قرية من مقاطعة الجو

فاستمرار الفيكونت على التبذير مع علم الناس بانه بدد ثروته من زمن مضى جعل حساده وطوال الالسنة من معارفه مثل الكونتس ساره يشيعون أن الدوقة لوسيني تمده بالمال. ولكنهم جهلوا أن الدوق كان مراقباً على ثروة زوجته وان نفقات الفيكونت دي سان ريمي تربو على المئتي الف فرنك في السنة. وكان بعض المرجفين يشيعون همساً ان هذا الشاب كان يتواطئ مع جماعة من (الجوكي) على ان يؤخروا في السباق الخيول التي يراهن ضدها ثم يشاطرهم الارباح.

بيد أن السواد الاعظم من الناس قلما كانوا يهتمون بمثل هذه الاراجيف. ولم يكونوا ينظرون سوى الى الرجل بحد ذاته فيعتبرونه لانه من بيت مجد اصيل ولانه شجاع ذكي

الفؤاد حلو الحديث ظريف المعشر سخي يبالغ في اكرام اصدقائه فماذا كانوا يبتغون منه فوق ذلك ؟ ؟

وحين قدم السفير الفيكونت الى البرنس رودلف قال له

— اتشرف بان اقدم لسموكم حضرة الفيكونت دي سان ريمي احد رجال السفارة في جير ولستين

واذ ذاك انحنى الفيكونت وقال لرودلف :

— أرجو سموكم أن لا تؤاخذوني على شدة تشوقي الى التعرف بشخصكم الكريم وتقديم واجبات الخضوع . واغفروا لي تسرعي في الحصول على هذا الشرف الذي طالما تاقت نفسي اليه.

فاجابه رودلف

— انني يا حضرة الفيكونت أسر كثيراً حين اراك بعد اليوم في جيرولستين . . .وهل عزمت على الاسراع في الذهاب الى مقر وظيفتك الجديدة ؟ لاشك عندي في انك ستجد بونا بعيداً بين نوادي باريس التي تقيمها الحركة وتقعدها وبين نوادي المانيا المخيم عليها السكون

— أن مكارم اخلاق مولاي التي شملني بها وسوف يشملني لا تبقي لي سبيلا للاسف على فراق باريس

— اذا بقيت على مثل هذه الافكار اثناء اقامتك في جيرولستين اخال انني اكون السبب الوحيد في ذلك

ثم احنى رودلف رأسه قليلا وهي اشارة أراد بها أن قدتم التعارف ويجب على الفيكونت الانصراف فانحنى هذا وانصرف

وكان رودلف من البارعين في معرفة اخلاق الذين يخالطونه بمجرد النظر الى وجوههم والحديث معهم. فبعد محادثة الفيكونت شعر بان قلبه نفر منه اذ أنه لحظ في عينيه ومجمل هيئته أنه على جانب عظيم من الخبث

وخرج رودلف بعد ذلك الى الحديقة وهو يفكر فيما رآه في تلك الحفلة الراقصة من غرائب الصدف. ومازال يمشي الهوينا وهو مطرق حتي انتهى الى آخر الحديقة فوجد هنالك بعض شجيرات من الموز ملتف بعضها على بعض ومن تحتها مقعد تظللها اوراقه وتخفيه عن الانظار . فجلس هنالك وبينما هو غارق في لجة الافكار سمع صوتاً يلفظ اسمه على مقربة منهُ فعرف ذلك الصوت فانصت وقطع انفاسه

فسمع ساره تكلم اخاها بالانكليزية وكانا مختبئين خلف المكان الذي جلس فيه واليك ما سمعه من حديثهما . قالت ساره

— اعلم يا اخي أن المركيزة ذهبت الى الحفلة الراقصة التي احياها البارون دي ترفال ولكنها لحسن الحظ انصرفت من دون أن تتمكن من محادثة رودلف الذي كان يبحث عنها . قلت لحسن الحظ لأني لا ازال اخشى من تسلط رودلف على افكار تلك المرأة . وانت تعلم كم عانيت من المشقة في ابادة تلك السلطة . وصرت اخاف أن تفوز عليّ هذه المزاحمة وتصبح حجر عثرة في سبيلي ولذلك عزمت على التنكيل بها غداً . . . فاصغ اليّ يا اخي فان الامر ذو بال

— ها انا مصغ

— لا ريب عندي في أن كليمنس درفيل لم تعشق قبل ان رأت رودلف . ولا أدري لماذا تكره زوجها وتنفر منه على رغم حبه اياها . وطالما بحثت عن هذا السر فلم اجده وحين رأت كليمنس رودلف مالت اليه ولم يخف عليّ ذلك فبذلت قصارى الجهد في تحويلها عن محبته بما كنت اسمعها من مذمته وتقبيح خصاله ونسبة كل الرذائل اليه . وما زلت

أقبح رودلف في عينيها حتى حولت افكارها عنه بعض التحويل ولـكنها صارت تشعر بحاجة الى العشق ولم تعد تقوى على كبح جماحها . وفي ذات يوم رأت عندي الشاب شارل روبير فاعجبها جماله . ولو أن ذكاء شارل يعادل حسن وجهه لكانت عشقته لا محالة ولكنه لسوء الحظ ابلد من دابة والمزية الوحيدة التي وجدتها فيـه هو ان أن له نظرة تدعو الى الاشفاق ولعلمي بطيب قلب المركيزة درفيل أخذت انعت هذا الشاب بصفات حسنة اختلقها واعدد حسناته واطنب في مدح شهامته وعلو نفسه . ولـكي ازيدها اشفاقاً عليه قلت لها انه اصيب بكوارث عديدة صيرته حزيناً كئيباً. ثم انني من جهة اخرى شددت الوصية على شارل ان يتظاهر بالحزن والـكآبة كلما اجتمع بالمركيزة وأن يكثر من التنهد والتأوه ويقلل من الحديث ما أمكنه .

فاتبع الخطة التي رسمتها له فازدادت المركيزة عطفاً عليه ووجدت فيه ما يفي بحاجتها الى المحبة . وبهذه الطريقة حولت افكارها عن رودلف . فهل فهمت الآن ؟

— نعم فهمت اتمي حديثك

— ولم يكن شارل والمركيزة يجتمعان الا في منزلي مرتين كل اسبوع . وكنا نقضي الوقت في الغناء والضرب على البيانو وكان شارل عملا باشارتي يكثر من التأوه ويتظاهر بالحزن جهد المستطاع . ويتنهد حيناً بعد حين ثم يهمس في اذن المركيزة بعض الفاظ تنم عن شدة هيامه . وناولها مرة خلسة ورقة صغيرة شرح فيها عن حبه لها وما يقاسيه من تباريح الغرام وطلب منها أن تسمح له بالاجتماع في غير بيتي

غير أن ميل المركيزة الى هذا الشاب لم ينسها رودانت وظل حبه يشغل جانباً كبيراً من فوءادها وينفرها من حب شارل على رغم ارادتها وما زال هذا يتذلل اليها حتى اخذتها الشفقة عليه ووعدته باللقاء . ولكنها ما برت بوعدها

فنصحت شارل ان يثابر على الاستعطاف والتذلل ففعل فوعدته المركيزة وعداً ثانياً كان اكذب من الوعد الاول . ثم وعدته مرة ثالثة وبعد أن وصلت الى باب بيته تولاها الخجل فعادت على عقبها من دون أن تراه . ولكنها كانت خطوة عظيمة الى الامام .

فترى يا اخي مما ذكرته لك كم تجاهد هذه المرأة في

مكافحة نفسها وكبح جماحها. وما هو السبب في ذلك؟ لاشك عندي أن السبب هو أنها لا تزال تخفي حب رودلف في اعماق قلبها ولذلك زاد كرهي لها وتحاملي عليها وهذا الحب الخفي هو الذي يردعها عن اجابة ملتمس شارل روبير.

واعلم أنها وعدت الليلة هذا الشاب بزيارته غداً. والمرجح عندي انها ستبر بوعدها هذه المرة. والسبب في ذلك ان الدوق لوسيني هزاء بشارل واسمعه من قوارص الكلام ما ادمى فؤاده. فاشفقت المركيزة عليه ولكي تنسيه ما لحقه من الاهانة في حضرتها وعدته بزيارته. واعيد عليك انها ستبر بوعدها هذه المرة.

— ما الذي تريدين عمله اذن؟

— أن شارل روبير نظراً لقلة ادراكه لم يلحظ ان وعد المركيزة بزيارته كان من قبيل الشفقة لا الغرام. فلا ريب عندي انه سيغتنم فرصة وجود المركيزة عنده. ولكن هذه لا تجيب ملتمسه لانها افهمتني بصريح العبارة ان الاشفاق هو دافعها الوحيد الى زيارة شارل وان هذه الزيارة ستكون عارية عن كل صبغة غرام فاذا الحّ شارل في الاستعطاف لاشك

انها تنفر منه ويحدو بها هذا النفور الى العودة لحب رودلف وذلك ما اخشاه .

— ما الحيلة اذن ؟

— الحيلة عندي ان لا ابقي لها سبيلا للاجتماع برودلف لان هذا لا يحجم يوما ما عن خيانة صديقه المركيز درفيل والتعلق بهوى زوجته ولكنه اذا علم انها اباحت عرضها لرجل غيره يكرهها كرها شديدا لان الرجال يعدون ذلك جريمة لاتغتفر

— فهمت الآن . تريدين ان تطلعي المركيز على خيانة زوجته لكي يهجرها واذا ذاك يعلم رودلف انها تلطخت بالعار فيكرهها . اليس كذلك؟

— نعم . والذي يسهل علينا العمل هو ان المركيزة نفسها قالت لي ان زوجها قد اساء بها الظن ولكنه لا يعلم على من يلقي الشبهة . . لقد انتصف الليل فلا بد لنا من الانصراف. وبعد خروجنا من هنا ادخل اول قهوة تجدها واكتب للمركيز درفيل ان زوجته ستذهب غداً للاجتماع بخليل لها في البيت نمرة ١٧ بشارع التامبل بعد الظهر بساعة . فمتى وقف على هذا

الكتاب تشتعل في صدره نار الغيرة فيلحق بزوجته ويفاجئها مع خليلها . وبعد ذلك تجري الامور من طبيعتها كما اريد

فقال لها سيتون بكل سكينة

— ان عملك هذا فظيع

— لا تدع ضميرك يتسلط عليك يا أخي ... نعم انا لا انكر ان الواسطة التي اتخذها لا تخلو من العيب ولكن الغاية تبررها ... وان كنت اليوم ادوس كل ما يعترضني من العقبات حتى اصل الى الغاية التي ارمي اليها فلا تنس ان الاخرين لم تأخذهم الشفقة حين داسوا عنقي

— اجل سافعل بعد حين ما أمرتني به ولكني اعيد عليك ان عملك هذا فظيع

ثم قطع سيتون حديثه وبعد سكوت وجيز قال لاخته همساً

— انصتي !! انصتي . لقد خيل اليّ اني رأيت شبحاً خلف هذه الاشجار وسمعت حركة .

فاضطربت ساره وقالت له

— انظر لعل احداً يسترق حدثنا

فدار سيتون حول الاشجار وسرح طرفه في ما حوله فلم يرَ احداً فعاد وقال لاخته

— انني لم اجد احداً فقد خانني السمع

— هذا ما تصورته

— اصغي اليَّ ياساره انا لا اظن أن المركيزة تكون حجر عثرة في سبيلك . ولا تحول دون وصولك الى الغاية التي ترمين اليها. ذلك لان للبرنس رودلف مبادىء لا يتحول عنها. فضلا عن انه الآن مشغول بتلك الفتاة التي انزلها في مزرعته منذ ستة اسابيع . وقد قيل لي انه مهتم اشد الاهتمام في تربيتها وتعليمها وانه زارها مراراً عديدة ... ولا اخفي عليك أن امر هذه الفتاة يشغل بالي ... فاننا نجهل من هي ... ولو أن الظواهر تدل على انها بنت اجلاف من رعاع القوم .... غير أن جمالها النادر في بنات الطبقة السافلة ... وتكتم البرنس في اخذها الى المزرعة وشدة اهتمامه بها كل هذه دلائل على أن لها شأناً نجهله ولا يبعد ان يكون جمالها قد استهوى البرنس ... ولذلك ما لمتك على تخوفك من هذا القبيل وعملا باشارتك بذلت جهد المستطاع لازالة هذه الصعوبة ...

وبالغت في الحذر حين استعلمت عما يلزمنا الوقوف عليه من امر اهل المزرعة وامر الفتاة بنوع خاص ... ولديّ الآن كل ما تلزمنا معرفته وقد دنت ساعة العمل. وقد ساعدتني الاقدار بأن ارسلت اليَّ تلك العجوز العوراء القبيحة الصورة . ولا ريب عندي أن هذه العجوز ستكون لنا معينة لان لها بين لصوص باريس اصدقاء عديدين على شاكلة ذلك اللص القاتل الذي قطع علينا الطريق ساعة خروجنا من خمارة الارنب الابيض ..

واعلمي بانني اتخذت كل التحوطات لكي لا تقع علينا المسأولية اذا علم رجال الشرطة بعملنا ... واذا كانت الفتاة من طبقة الفعلة كما قيل لي فالمرجح عندي انها تفضل ما نقدمه لها من المال على الاقامة في مزرعة البرنس مهما بالغ هذا في اكرامها . ولا تمتنع عن التخفي كما نريد ولا سيما انها تجهل ان رودلف برنس . . والمرجح عندي ان هذا الامر يقضى غداً . والا ننظر فيه من وجهة أخرى . .

— ومتى تعدينا هاتين العقبتين ياعزيزي توم نشرع في العمل العظيم

— نعم . وهو عمل صعب ولكنه ليس من المستحيلات

— وكم اكون سعيدة اذا تم عملنا ورودلف في أبان كدره أولا مما يلحق صديقه درفيل من العار بسبب سلوك زوجته ثانياً من اختفاء تلك الفتاة من مزرعته . . . . أو لست تظن انه يحسن بنا حين ذاك اقناعه بان ابنته التي لا يزال يبكيها حتى اليوم لاتزال على قيد الحياة . . . وحينئذ . . .

فقاطع سيتون حديث أخته بغتة وقال لها

— اسكتي اني اسمع وقع اقدام ...وبما انك تريدين ان اكتب الليلة للمركيز درفيل وأخبره باجتماع زوجته بخليلها غداً فلا بدَّ لنا من الخروج حالا اذ قد ازف الوقت

الفصل السادس عشر

الموعد

عند ماسمع رودلف من حديث ساره وأخيها ماسيلحق المركيزة درفيل من الاهانة أسرع بالخروج من الحديقة على امل ان يرى المركيزة ويحذرها من الخطر المحدق بها . فلم يسمع مادار بين الاخ وأخته بشأن المغنية في آخر حديثهما . . وعلى رغم تسرعه في الخروج من الحديقة والبحث في كل

مكان لم يتمكن من مقابلة المركيزة كما كان يؤمل

وفي صباح الغد كان المركيز درفيل يروح ويغدو في غرفة النوم مشية النمر في قفصه . وكان فرش تلك الغرفة على غاية البساطة ولم يكن يزين جدرانها سوى مجموعة من الاسلحة القديمة والحديثة . وخزانة كتب جميلة. وكانت حالة السرير تدل على ان المركيز لم ينم طول ليله. ولكنك اذا نظرت حواليك في الغرفة وجدت غطاء الفراش الحريري ممزقاً أرباً أرباً . وعند أسفل السرير كرسياً مطروحاً ومنضدة مكسرة . وعلى الطنافس قطع اقداح مكسرة وشموع مداسة تحت الاقدام وسراجاً ملقى هناك عند الموقدة الى غير ذلك مما يدل على ان عراكا شديداً حصل في تلك الغرفة

أما المركيز درفيل فكان في الثلاثين من عمره ذا وجه صبوح تدل ملامحه على دماثة الاخلاق ولكنه كان في تلك الساعة مكفهراً اصفر .

وكان لا يزال مرتديا ثياب الامس وعنقه عار وصدريته مفتوحة وقميصه مخزق وملطخ بالدم وشعره مرسل على جبينه الشاحب اللون .

ظل هذا الرجل زمناً طويلا يروح ويغدو متكس الرأس مكتوف الزراعين احمر العينين شاخص النظر ثم أنه وقف بغتة عند الموقدة التي لم يكن فيها نار على رغم زمهرير البرد في ذلك الصباح . واخذ رسالة قرأها بامعان وسم الغيظ يكاد يقطر من انفهِ واليك ما في تلك الرسالة

« غداً عند الساعة واحدة تذهب زوجتك الى بيت في الماميل نمرته ١٧ لتجتمع هنالك بخليل لها فاقتف أثرها تقف على الحقيقة »

وفي تلك الآونة دخل على المركيز خادمه يوسف وهو كهل تدل هيئته على سلامة القلب فالتفت اليه المركيز وبيده الرساله وقال له

— ماذا تريد

فلم يجب الخادم على هذا السؤال بل طفق يجيل نظره في الغرفة ويتأمل مافي أرضها من الاواني المكسرة المبعثرة فاخذته الدهشة ثم نظر الى سيده وصرخ قائلا

— يارباه !! ماذا أرى ؟ ان ثيابك ياسيدي ملطخة بالدم. هل جرحت ؟ .أكنت وحدك هنا؟ .لماذا لم تناديني مثل العادة ؟

— اسكت ! ! . ودعني وشأني .

فاجابه الخادم وهو يرتجف

— عفوك يامولاي المركيز . انك أمرت المسيو دوبليه بالمجيء عند الساعة العاشرة ونصف . فهاهو هنا الآن ومعه وكيل الاشغال

فعاود المركيز بعض السكون وقال بصوت حزين

— صدقت . . . يجب على الغني الاهتمام بأمر ثروته.. وللثروة مقام عظيم في هـذا العالم ! . . أدخل المسيو دوبليه مكتبي وآتني بثيابي . . وبعد حين أخرج . . هل دخل أحد الخدم غرفة زوجتي ؟

— لا أظن ان سيدتي المركيزة دقت جرسها حتى الساعة

— أخبرني حين تدق جرسها لتنادي أحد الخدم

— سمعاً وطاعة يامولاي

— وقل لفليب ان يأتي ويعاونك لانك لا تستطيع القيام بالعمل وحدك

فاجابه يوسف والحزن باد على وجهه

— امهلني ياسيدي حتى ارتب هـذه الغرفة والتقط

الاواني المبعثرة على الارض فانها تجلب نظر الداخل لاول وهلة فلا يسعه الا التساؤل عما أصابك ياسيدي في الليلة الغابرة

فاجابه المركيز بصوت ملؤه السخرية والتهكم

— واذا علم الناس بالذي أصابني فانهم يجدونه فظيعاً

— ولكن حمداً لله لاعلم لاحدٍ بما جرى . . .

فاكفهر وجه درفيل وقال بصوت خافت

— لاعلم لاحد . . نعم لاعلم لاحد . . .

ولما انتهى يوسف من ترتيب الغرفة أقبل خادم آخر ليعاونه . وبعد ان انتهى المركيز درفيل من ارتداء ثيابه دخل مكتبه حيث كان ينتظره المسيو دوبليه وكيل الاشغال . فقال له دوبليه

— أتينا نقرأ عليك العقد فقد تم ولم يبقَ سوى تزييله بامضائك ياسيدي

— اما قرأته أنت يامسيو دوبليه ؟

— نعم ياسيدي المركيز

— لم أعد اذن في حاجة الى قرأته واكتفي بالتوقيع عليه

وبعد ان وقَّع المركيز على العقد انصرف وكيل الاشغال

فقال دوبليه بلهجة الفائز المنتصر

— اعلم ياسيدي بان ريع أملاكك سوف يبلغ بعد شراء هذا العقار الجديد ماية وستة وعشرين ألف فرنك سنوياً .. ولا شك ان الذين يربحون مثل هذا المال من أراضيهم الزراعية قليلون

— اني اذن من السعداء يامسيو دوبليه ؟ . . مائة وستة وعشرين ألف فرنك من الاراضي الزراعية التي أملكها !!.. هل بعد هذه السعادة سعادة ؟ ؟

— وليذكر سيدي أيضاً ان قيمة أوراقه المالية تربو على مليوني فرنك . . . هذا فضلاً عن . .

— أي نعم فضلا عما لديّ من مجلبات السعادة . .

— نعم ياسيدي فانك من فضل الله متنعم بكل ما يجعل الانسان سعيداً : الصحة والشباب والمال وما يليها من دواعي الرفاهية ولاسيما انك زوج المركيزة وهي من أجمل نساء فرنسا ووالد فتاة أجمل من الملاك

فنظر المركيز الى دوبليه نظرة حزن ويأس يعجز القلم عن وصفها ووضع يده على كتفه وقال له بصوت يكاد الغيظ يخنقه

— اتظن اذن انني نلت السعادة باكملها لان ريع املاكي يبلغ مئتي وخمسين الف فرنك ولان لي امرأة جميلة وابنة تحاكي في جمالها الملاك ؟ وهل لم تبق لي أمنية على الارض ؟

فاجابه دوبليه ببساطة

— لم تبق لك سوى أمنية واحدة وهي ان تعيش عمراً طويلا ... وهل يأمرني مولاي بشيء قبل ان انصرف ؟

— لستُ في حاجة الى شيء ... ولكن ... نعم أنا في حاجة الى نقود . فكم لديك في الصندوق ؟

— تسعة وعشرون ألفاً وثلثمائة فرنك بوجه التقريب

— آتني بعشرين ألف فرنك هذا الصباح وأعطها ليوسف ان أنت لم تجدني هنا

— بعد ساعة من الزمن اعود بالمال المطلوب

— اشكرك . ولم أعد في حاجة اليك

وما كاد دوبليه يخرج من باب الغرفة حتى انطرح المركيز على كرسي وأسند مرفقيه الى مكتبته وغطى وجهه بيديه وبكى لاول مرة بعد اطلاعه على الرسالة المنبئة بخيانة زوجته وطفق يناجي نفسه قائلا

— لقد أخطأت الاقدار في جعلي غنياً .. ويلاه ما أعظم خجلي ! ! يارباه ما أشد هول هذا العار !! .. والذي يزيدني ألمًا هو ان عواقب خيانة كليمنس ستقع على رأس ابنتي .. أيمكنني الصبر على هذه الذلة ؟ . . أيمكنني الصفح ؟ . .

ثم قام وطفق يروح ويغدو في الغرفة وهو يحرق الارم وعيناه تقدحان شرراً وقال بصوت مختنق لشدة الغيظ

— لا . لا ! !

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم

اني اعلم الناس بكرهها اياي .. فويل لتلك الشقية ؟ .

ثم انه وقف بغتةً كأن فكراً طراء عليه وأردف

— نعم هي تكرهني وتنفر مني لأن رؤيتي تريعها .. ولكن اين ذنبي في ذلك ؟ وهل يجوز لها ان تخونني لانها تكرهني ؟ الا ينبغي لها ان تنظر اليَّ بعين الشفقة عوضاً عن ان تحمل عليَّ بالحقد والضغينة ؟ .. لا . لا . لا بدّ من سفك الدم لا بد من قتلهما معاً لانها ولا شك اطلعته على كل شيء .

وزادت تلك التصورات هياج المركيز فرفع قبضتيه الى السماء وهو يرغي ويزبد ثم عاد الى غرفتـه وأخـذ من

مجموعة الاسلحـة مسدساً وحشاه بالرصاص وخبأه في جيب رداثه . واذ ذاك دخل عليه يوسف وقال له :

— لقد أذنت سيدتي المركيزة بالدخول عليها

— وهل أمرت باعداد عربتها ؟

— لا يا سيدي وقد سمعت الآنسة جوليت تقول لرئيس الاصطبل ان مولاتي المركيزة تريد الخروج للنزهة ماشية نظراً لشدة البرد

— حسن الا يوجد موقف للعربات قريباً من هنا ؟

— نعم يوجد موقف قريب عند شارع ليل .

وبعد حين خرج درفيل من بيته واتجه نحو ذلك الموقف ودنا من حوذي وقال له

— هل لك ان تؤجر عربتك بالساعة ؟

فنظر الحوذي في ساعته وأجاب

— نعم والساعة الآن احدى عشر . فأين تريدان تذهب ؟

— سر بي الى شارع بيلشاس عنـد زاوية زقاق سان دومينيك وقف عند حائط جنينة مستطيل تجده هنالك

— حسن يا سيدي . تفضل

فركب المركيز العربة وكانت من طرز « اللندو » واغلق نافذتيها ثم انطلقت به وبعد قليل وصلت الى المكان المعين فوقفت تجاه بيته بحيث لا يخرج احد منه الا ويراه المركيز وهو مستتر داخل العربة .

ويعلم القاري أن المركيزة عينت الساعة الوحدة للذهاب الى شارع التامبل . فبقي المركيز داخل العربة ينتظر خروجها من البيت وعينه شاخصة الى الباب لا تحيد عنه لحظة .

وكان الغضب آخذ منه والافكار السوداء تتناوبه تباعا سراعا حتى خيل اليه أن الساعات تمر مر الثواني .

وعند الساعة الثانية عشرة خرجت المركيزة من البيت وحين ابصرها المركيز قال للحوذي همساً

— اترى هذه السيدة اللابسة الشال الازرق وعلى رأسها قبعة سودا الماشية الى جنب الحائط ؟ فسر الهوينا واتبع خطاها . واذا اتجهت نحو موقف العربات الذي كنت فيه فقف وانتظر حتى تركب عربة فانطلق خلفها

وقد كان كذلك فان المركيزة استأجرت عربة وركبتها فسارت بها وتبعها المركيز وبعد مسيرة عشرين دقيقة وصل

العربتان الى شارع التامبل فالتفت السائق للمركيز وقال

— لقد نزلت السيدة من العربة ودخلت البيت نمرة ١٧

— قف اذن

وبعد بضع ثوان دخل نفس البيت على أثر زوجته .

اما المركيزة فحين دخلت رأها البواب بيبليه وزوجته وقوفا عند عتبة غرفتهما ينظران اليها . وكان مدخل السلم مظلما فلم تهتد المركيزة ولم تر اين تضع قدمها فدنت من مدام بيبليه وقالت لها بصوت متلجلج والدم يكاد يقطر من خديها لشدة الخجل

— ارجوك أن تدليني على السلم

— وأنا ارجوك أن تخبريني الى اين انت ذاهبة .

— اريد مسكن المسيو شارل ·

فارادت مدام بيبليه أن تطيل وقوف المركيزة ليتمكن زوجها من رؤية وجهها تحت النقاب فتظاهرت بانها لم تسمع جوابها وقالت لها — المسيو من ؟

فاحنت المركيزة رأسها خجلا لكي لا يرى البواب وجهها واجابت بصوت خافت

— اريد مقابلة المسيو شارل .

ولم تعد تستطع الثبات في ذلك الموقف فاتجهت نحو السلم ولما حاولت أن تصعد ظهر لها رودلف في ذلك الظلام ووضع في يدها كيس نقود وقال لها بلهجة سريعة

— زوجك عالم بمجيئك الى هنا وقد تبعك ....

وفي تلك الاونة سمع صوت مدام بيبليه تصرخ قائلة

— الى اين انت ذاهب يا مسيو ؟

فقال رودلف للمركيزة — هذا هو!!

ثم انه دفع المركيزة وعاونها على صعود السلم بسرعة وقال لها

— اصعدي حالا الى الطابق الخامس تجدي هنالك عائلة فقيرة تدعى عائلة موريل فادعي انك اتيت للاحسان اليها

وفي تلك الغضون حمي وطيس الجدال بين المركيز وزوجة البواب فوقفت هذه في وجهه وقالت له

— اذا كنت لا تقول لي يا سيدي الى أي مسكن تريد الصعود فايقن بانك لا تتخطى هذا المكان الا اذا مت ودست على جثتي .

فاجابها المركيز — اني في صحبة السيدة التي دخلت الان .

فدهشت مدام بيبليه عند سماع هذا الجواب وقالت

— اذا كان الامر كذلك فلا مانع من دخولك .

وكان شارل روبير يروح ويغدو في غرفته وهو على أحر من الجمر فلما سمع وقع اقدام على السلم فتح الباب ليرى من القادم واذ ذاك دخل عليه رودلف مدفوعا اندفاعاً شديداً وأغلق وراءه الباب. وفي تلك اللحظة بداء المركيز درفيل بالصعود على السلم وخاف رودلف أن يراه المركيز في السلم ويعرفه فدخل غرفة شارل وحين ابصره هذا اخذته الدهشة وقال له بعظمة

— ما الذي يخولك الحق بالدخول عليّ بهذه الصفة ؟

فاجابه رودلف بصوت خافت — اسكت !!

فلزم شارل الصمت وأصبح كانه قطعة من خشب .

واذ ذاك سمع صوت جسم ثقيل وقع على السلم وتدحرج .

فهتف رودلف قائلا — لقد قتلها !! تباً له .لقد قتلها !!

فاصفر وجه شارل حين سمع مقال رودلف وقال له

— قتلها ! من هي ؟ ماذا يجري في هذا المكان ؟

فلم يجبه رودلف على سوأله بل فتح باب الغرفة وأطل منه فرأى الغلام الاعرج نازلا سراعا وفي يده كيس من

حرير أحمر وهو نفس الكيس الذي كان اعطاه لمدام درفيل وبعد أن اختفى الغلام سمع وقع أقدام المركيزة وزوجها على السلم.

فلم يدرك رودلف كيف أن الغلام تمكن من أخذ كيس النقود من المركيزة ولكنه اطمئن قليلا وقال لشارل روبير بلهجة الآمر

— اياك أن تخرج من هنا قبل مضي ساعة

فخان الصبر روبير وأخذ منه الغضب واجاب

— كيف لا أخرج من هنا ؟ ما معنى هذه الاوامر وكيف..

فقطع رودلف حديثه وقال له .

— قد علم المركيز درفيل بالامر . وتبع زوجته حتى باب غرفتك وها هو يتبعها الآن الي أعلا السلم .

فامسك شارل رأسه بيديه وقال بصوت متلجلج ينم عن الذعر والدهشة .

ويلاه يا رباه !! ما يمكنها أن تعمل في أعلا السلم ؟ وكيف يمكنها الخروج من هذا المازق ؟

فقال له رودلف

أبقَ في غرفتك ولا تبرحها حتى تأتيك زوجة البواب

وتأذنك بالخروج

قال البرنس ذلك ونزل مسرعا الى غرفة البواب وترك شارل روبير في قلق شديد . وحين أبصرته مدام بيبليه مقبلا عليها قالت وقد ابرقت اساريرها .

— لقد حمي الوطيس ياسيدي على ما أرى اذان رجلا تبع السيدة الصغيرة ولا شك عندي انه زوجها . وقد أدركت ذلك لاول وهلة فتركته يصعد خلفها ولسوف ينشب القتال بينه وبين القومندان ولا يلبث الخبران ينتشر في كل الحي فيتقاطر الناس افواجاً الى هذا الباب كما تقاطروا الى البيت نمرة ٣٦ حيث قتل احد السكان . . . . ولكن . عجباً !! انني حتى الساعة لم اسمع صوت العراك ... فاخرج البرنس خمسة دنانير من جيبه ووضعها في كف زوجة البواب وقال لها

— أرجوك يا مدام بيبليه أن تصنعي معي معروفاً عظيما وذلك أن توقفي السيدة ساعة نزولها وتسأليها عن حال عائلة موريل وقولي لها أنها حسن تفعل في اغاثة اولائك البوساء مثل ما وعدت حين اتت الى هنا قبل هذه المرة للاستعلام عن حالتهم

فنظرت مدام بيبليه بدهشة الى القطع الذهبية التي وضعها رودلف في كفها وقالت

كيف ... يا سيدي ... هذا الذهب لي كله ؟...

اوليست هذه السيدة عند القومندان الان ؟

— اعلمي ان الرجل الذي تبعها هو زوجها ولكنها لحسن حظها وجدت من ينبهها قبل فوات الوقت فامكنها ان تصعد الى الطابق الخامس مدعية انها تريد الاحسان على عائلة موريل

— نعم فهمت وسأبذل غاية جهدي لاعينك على تضليل زوجها وانني وايم الحق امهر النساء في مثل هذه الاعمال كاني لم اتعاط غير هذه المهنة طول حياتي ... ولسوف ترى كيف اني احسن العمل فاكمن انت خلف هذا الستار وانسط... اسرع اسرع انني أسمع وقع اقدامهما

وما كاد يستتر رودلف في مكمنه حتى بلغت المركيزة اخر السلم وكانت ممسكة بذراع زوجها وغير بادٍ على وجهها اقل اضطراب. وحين وصلا الى غرفة البواب لحظت مدام بيبليه ان هيئة المركيز تنمّ عن السرور والارتباك فاطلت من باب غرفتها وقالت للمركيزة.

— كيف وجدت اولاد موريل التعساء ياسيدتي لاشك ان قلبك تقطر حزناً عليهم وان هـذا العمل الذى تصنعين هو افضل عمل على الارض ... وقد قلت لك حين - ألتني في المرة السالفة عن هذه العائلة انها في حالة ضنك شديد. وايقني ان الله لا يضيع لك اجراً.

وكان المركيز درفيل ينظر الى زوجته بعين الاعجاب ويقول انها ملاك ! ملاك طاهر ... وهم مع ذلك يسيؤن بها الظن

فقالت له مدام بيبليه •

— صدقت ياسيدي نعم هي ملاك من ملائكة السماء الاطهار ارسله ألله لاغاثة التعساء

اما المركيزة درفيل فكانت في تلك المعمعة كالمشخصة على المرسح تبذل كل جهدها لتكييف هيئة وجهها حسب ماتقتضيه الحال. واشدة مابذلته من الجهد في التصنع خانتها قواها واصطكت ركبتاها حتى كادت تقع على الارض فقالت لزوجها

— فلنذهب اذا اردت

— فلنذهب يا عزيزتي ... واني استحق منك العفو

— ومن من الناس لا يستحق العفو والمغفرة ؟

ولما خرج رودلف من مخبأه قالت له مدام بيبليه

— ارأيت كيف قمت بما كلفتني به ؟ وكيف سدلت غشاوة على عيني الرجل حتى صار يعتقد ان زوجته من الملائكة الاطهار؟. . ياله من رجل مسكين لقد أخذتني الشفقة عليه.. وأين فرش غرفتك الذي قلت انك سترسله؟

— سارسله بعد حين . والآن ارجوك ان تصعدي وتقولي للقومندان انه يمكنه الخروج من غرفته .

— حسن. سأصعد حالا . وما رأيك في هذا القومندان التعس ؟ لقد خابت آماله وضاعت عليه أجرة الغرفة . ولكن من كان بخيلا مثله لا يأسف أحد لما يناله من الاذى . لقد هزأوا به أربع مرات وحسناً فعلوا

ثم انها صعدت الى غرفة شارل ودقت الباب وحين فتح سلمت عليه سلاماً عسكرياً وقالت لهُ

— أتيت أخرجك من سجنك ياحضرة القومندان... واعلم بانك نجوت من خطر عظيم فاشكر الله على ذلك . . . واشكر المسيو رودلف لان نجاتك كانت على يده

— من هو هذا الرجل ؟

فاستشاطت مدام بيبليه غضباً وأجابته

— !! هو رجـل بتمام ألف . هو موظف في أحد بيوت التجارة ولكنه سيد الساكنين في هذا البيت بلا جدال لانه لا يفاتحني في المساومة على أجرتي. وقد نقدني ستة فرنكات مقابل الاعتناء بغرفته بلا جدال

— حسن . حسن ... خذي هاهو المفتاح

وخرج شارل روبير وهو يتسأل كيف ان ذاك الموظف روداف علم بوعد المركيزة بالمجيء الى غرفته . وما كاد يبتعد عن البيت بضع خطوات حتى اقبل الغلام وقال لمدام بيبليه

— اما اتت العوراء الى هنا تبحث عني ؟

— البومه ؟ لا انها لم تأت ولماذا تراها تبحث عنك ؟

— لكي تأخذني معها الى الخلاء ... ها عربة وقفت امام الباب .. وهذه هي العوراء ... ما اسعد حظي بركوب العربة !!

وبدت من مدام بيبليه التفاتة فرأت من خلال زجاج نافذة العربة وجه العوراء القبيح . واشارت هذه بيدها الى الغلام

ثم ركض نحوها ففتح له السائق باب العربة فصعد اليها ولم تكن العوراء وحدها بل كان معلم المدرسه جالساً في احدى زواياها وعلى رأسه قبعة من الحرير الاسود منكسة على حاجبيه بحيث لا يعرفه الناظر اليه وكانت اجفانه حمراء ويرى تحتها عينان بيضاوان لا تتحركان ولا اثر فيهما للحياة كأنهما قطعتان من حجر مما زاد وجه ذلك الرجل قبحاً .

فقالت العوراء للغلام نم على قدمي زوجي لتدفئهما .

فامتثل الغلام وتمدد في ارض العربة بين قدمي معلم المدرسة وقدمي العوراء واذ ذاك قال سائق المركبة .

اننا نذهب الان الى مزرعة بوكيفاليس كذلك يابومة ؟ وسوف ترين كيف احسن سوق الخيل

فقال له معلم المدرسة .

— لا بد لك يا صاحبي أن تعمل السوط بجوادك لكي يلهب بنا الارض نهبا اذ لا بد لنا من اختطاف الفتاة قبل أن يخيم الظلام

— كن مطمئنا ساظل أعمل به السوط حتى يسيل منه العرق

— واني انصحك أن تكون على حذر حين تمر

بحارس باب السور

— لست في حاجة الى مثل هذا التنبيه فان لي عينين كعيني الصقر وكانت كل تلك المحادثة بلغة أوباش باريس (الارجو) مما يدل على أن سائق العربة كان لصاً من رفاق معلم المدرسة جاء ليعاونه على العمل الذي انتدب اليه . ثم سارت العربة وظلت تطوي الشوارع والازقة ساعتين فوصلت الى مكان منصوب فيه صليب من خشب وهو علامة تدل على ابتداء الطريق المؤدية الى مزرعة بوكيفال حيث توجد المغنية تحت رعاية مدام جورج

الفصل السابع عشر

الفخ

كان بيت المزرعة المقيمة فيه المغنيـة عاريا عن ظلال الاشجار التي تكتنفه من ناحية وتظلله باغصانها الكثيفة في فصل الصيف . وكان الجدول الصغير الذي يسقي ارض المزرعة متجلداً لشدة البرد ويشبه شريطاً من الفضة ممتداً بين الحقول المكسوة بالعشب الاخضر حيث كانت تسير الابقار على مهل عائدة الى حظائرها .

وفي تلك الساعة كانت المغنيـة في بيت الطيور الداجنة تنثر عليها الحب وهي تحوم من حولها وتلتقطه وكان تلك الطيور تأنس من الفتاة ولا تنفر منها و بينما هي كذلك رفرفت حولها حمامة بيضاء لها ساقان ومنقار بلون المرجان ثم وقعت على كتفها فلم تكترث الفتاة لذلك لانها تعودته وظلّت تنثر الحب على الطيور ثم انها أدارت وجهها الصبوح الى جهة الحمامة الواقفة على كتفها وابتسمت ومدت شفتيها الصغيرتين الى منقار الحمامة تريد مبادلتها قبلة الحب .

وفي تلك الاثناء كانت مدام جورج جالسةً مع القسيس لابورن كاهن المزرعة بالقرب من الموقدة وكانا يتكلمان عن زهرة مريم .

وكان القسيس الطاعن في السن يغوص من حين لآخر في لجة الافكار ورأسه بين يديه ومرفقاه مسندتان الى ركبتيه اما مدام جورج فكانت مشتغلة في الخياطة وتنظر الى القسيس حيناً بعد حين كانها تنتظر منه جواباً وبعد سكوت وجيز قال لها القسيس :

— صدقت يامدام جورج لا بد لنا من تنبيه المسيو

رودلف الى الامر . . . فان هو سألها لاشك عنـدي انها تطلعه على ما تطويه عنا لانها تحبه حباً جماً بما صنعه معها من الجميل .

— وأنا أيضاً لا ريب عندي بذلك وسأكتب الليلة الى المسيو رودلف وابعث بالكتاب الى ممشى القيف مثل ماأوصاني

— لهفي على هـذه الفتاة ! . . وكان المنتظر ان تكون هنا سعيدة ولكني أراها على عكس ذلك . . . فما هو سبب أشجانها يا ترى ؟

— لاشيء يقشع عنها أحزانها ياحضرة القسيس حتى ولا انهماكها في الدرس

— لقد نجحت نجاحاً نادراً في الزمن الوجيز الذي قضيناه في تعليمها .

— لاريب في ذلك فانها صارت تحسن القراءة والكتابة بسهولة وتعرف من قواعد الحساب ما يكفي لاعانتي على ضبط دفاتر المزرعة . ثم ان هـذه الفتاة النشيطة تعاونني على كل عمل حتى صارت تأخذني عليها الشفقة . أولم تجتهد نفسها على الرغم مني حتى خانتها قواها وكادت تمرض ؟

— ولكن لحسن الحظ قد طمن بالنا عليها ذاك الطبيب الاسود وأقنعنا بان السعال الذي اعتراها لاخوف منه

— ماأطيب قلب هـذا الطبيب داود ! فـكم اعتنا بها وأظهر لها من العطف والحنان؟ ولكن لاغرابة في ذلك فان كل الذين يعرفون هذه الفتاة يعشقونها وقد أصبح كل اهل هذه المزرعة يحبونها ويعتبرونها لانها هي تحب ولان أهل المزرعة من نخبـة سكان القرى ذوي المبادئ القويمة الذين اختارهم المسيو رودلف للاقامة في هذا المكان .

وبعد سكوت وجيز قال القسيس

— ألم تقولي لي يامدام جورج بان حزن ماري بدأيظهر منذ أتت الى هنا مدام دربيل وكيلة مزرعة الدوق دي لوسيني في عيد جميع القديسين ؟

— نعم ياحضرة القسيس قد لاحظت ذلك ولكنني عجبت لهـذا الامر لان مدام دربيل وابنتها اكلارا هما مثال الطيبة والعفة وقد احبا ماري مثل ماأحبها غيرهما وأظهرا لها الانعطاف والتودد وأنت تعـلم انه في كل يوم أحـد يزورنا أصدقائنا من ارنوفيل أو نزورهم نحن وقد لاحظت ان أشجان

ماري تزداد في كل زيارة مع ان كلارا صارت تحبها كانها أختها وقد ذهبن بالامس لمساعـدة مدام دربيل لانه أتاها أمر من مدام لوسيني باعداد بيت المزرعة لاستقبال شخص من عليةّ القوم سينزل فيه بعد غد ويقيم بضعة أيام وأوصتها ان يعتنو بخدمته كما يعتنون بخدمتها

وفي تلك الاونة دخلت المغنية على القسيس ومدام جورج فقالت لها هذه

— من أين أنت قادمة يابنيتي

— لقد أطعمت الطيور ثم تفقدت الاثمار المجففة فوجدتها في حالة جيدة ماخلا القليل منها فانتزعته

فقالت مدام چورج للقسيس

— لو انك تزور المخزن الذي تجفف فيه ماري الاثمار تسرّ كثيراً اذ لا يمكنك ان تتصور ماتبذله عزيزتي ماري من الاعتناء بهذا العمل

فنظر القسيس الى مدام چورج وهو يبتسم ثم قال لمريم

— لقد زرت معمل الجبن الذي تديرين حركته فاعجبني مارأيت فيه من الاتقان والترتيب مما تعجز عنه أحسن النساء

ادارةً ولا بدّ لي ان أزور يوماً ما المكان الذي تجففين فيه الاثمار. ولكن ها قد قاربت الشمس المغيب فلا بدّ لنا من الذهاب لكي تتمكنين من مرافقتي الى دار الكنيسة والعودة الى هنا قبل ان يخيم الظلام نخذي شالك ولنذهب يابنيتي.. ولكني أرى البرد شديداً فالاوفق ان يرافقني أحد رجال المزرعة وأبقي أنت هنا

فقالت له مدام جورج ان أنت لم تسمح لها بالذهاب معك تسيء اليها اساءة عظمى لانها تسر كثيراً برفقتك كل ليلة

وقالت المغنية وقد رفعت نحوه عينيها النجلاوين الذرقاوين الممتلئتين حباً.

— ان انت لم تسمح لي بالذهاب معك مثل العادة ياحضرة القسيس أتصوّر انك غير راضٍ عني

— انا ؟لهفي عليك يابنيتي... خدي شالك حالاً حالا ولفي به رأسك جيداً.

فالتحفت المغنيه شالها وأمسك القسيس بذراعها وقال

— ان المسافة قريبة لحسن الحظ والطريق مأمونة

فقالت مدام جورج للمغنية بما انك ذاهبة اليوم في ساعة

متأخره عن العادة أري ان تستصحبي معك واحداً من رجال المزرعة فأجابتها ذهرة مريم وهي تبتسم .

— اذا فعلت ذلك يظن أهل المزرعة انني جبانة فلا تزعجي أحداً لاجلي اذ لا يقتضي لقطع المسافة من هنا الى دار الكنيسة أكثر من ربع ساعة فأعود قبل ان يخيم الظلام

— فليكن ما تريدين ولا ألومك على عدم خوفك لاننا ما سمعنا قط بوجود لصوص يقطعون الطرق في هذه البلاد

فأجابها القسيس — صدقت يا مدام جورج ولولا ذلك لما كنت أسمح لماري بالذهاب معي ولو انها تعينني كثيرا في الطريق ثم خرج القسيس متثاقلا في مشيته متوكأً على ذراع المغنية وهذه تقصر خطاها على عمدٍ لكي توافق مشيتها مشية القسيس وبعد ان سارا بضع دقائق مرَّا بمنخفض من الطريق كان معلم المدرسة والبومة والغلام الاعرج كامنين فيه .

ولما سمعت العوراء وقع الخطى قالت لمعلم المدرسة بلغة (الارجو)

— الزم الصمت فها القسيس والفتاة مرَّا بنا وتجاوزا المنخفض . . لاشك انها هي بعينها لان هيئتها تنطبق تمام

الانطباق على ماوصفه لنا الرجل الضخم لابس الحداد فهي متوسطة القامة ذات لباس قروي مؤلفاً من ثوب قصير مخطط بخطوط سوداء وشال من صوف مطرز بحرير اسود. وكل ماترافق القسيس الى داره تعود الى المزرعة وحدها . فحينما تمر بنا ثانية وهي عائدة ننقض عليها وننشد وثاقها ونحملها للعربة

فأجابها معلم المدرسة — ولكنها اذا صرخت مستغيثة يسمعها أهل المزرعة اذ قلت لي ان البيوت ترى من هنا...

ثم اردف بصوت خافت حزين — لانك تبصرين انت .

فقال الغلام الاعرج

— بلا شك ان البيوت ترى من هنا لانها قريبة منا جداً . وانني منذ برهة صعدت الى أعلا الطريق زاحفاً على بطني فسمعت صوت حوزي يكلم حصانه في دار قريبة جداً

وبعد سكوت وجيز قال معلم المدرسة للعوراء

— لابدّ لنا اذن من اتباع الخطة الآتية وهي ان يقف هذا الغلام على بضعة أقدام منا ويراقب ومتى رأى الفتاة مقبلة من بعيد يتقدم نحوها ويكثر من الصراخ والعويل مدعياً انه ابن عجوز فقيرة وقعت في منخفض الطريق وجرحت .

ويرجو الفتاة ان ترافقه وتعاونه على اغاثة أمه

فقالت له العوراء — فهمت الآن . . . انني أنا العجوز الجريحة التي تعني . ماأصوب هذا الرأي ! انك مازلت أيها العزيز سيد أصحاب العقول . وبعد ذلك ماذا أصنع ؟

— تكمنين عند آخر هذا المنخفض قريباً من المكان الذي ينتظرنا فيه بريليون بعربته . . . وأنا أكمن بالقرب منك . ومتى جاءك الاعرج بالفتاة واصبحا على قيد باع منك كفي عن الانين وانقضي على المغنية واقبضي باحدى يديك على عنقها وسدي فاها بالثانية لتمنعيها عن الصراخ .

— اني أعرف هذه الطريقة وهي نفس التي استعملتها لاسكات تلك المرأة التي أغرقتها في ترعة سان مارتان بعد ان سرقت منها الحقيبة السوداء أتريد مني ان اتخذ نفس الطريقة حين أقبض على المغنية ؟

— نعم فهي أحسن الطرق . وبينما أنت قابضة على الفتاة يسرع الاعرج ويأخذ بيدي ليوصلني اليك فنتعاون نحن الثلاثة على حزم الفتاة في ردائي وحملها الى العربة فتسير بنا الى ساحة سان ديني حيث ينتظرنا الرجل ذو ملابس الحداد

— والله ليس لك مثيل بين لصوص العالم كلها أيها العزيز ولا بدّ لي ان أشعل لك شمعة في كنيسة القديس شارلو

ثم نظرت الى الغلام وقالت له وهي تشير الى زوجها

— اصغ الى تعاليم هذا الرجل العظيم واقتبس منه واحذو حذوه وانسج على منواله اذا أردت ان تكون يوماً ما من أمهر اللصوص وابرع القتلة

وعادت فقالت لمعلم المدرسة بلغة (الارجو)

— الست تعلم أيها العزيز ان بربيليون خائف من ان يقبض عليه رجال الشرطة

— لماذا؟

— لانه منذ بضعة أيام بينما كان عائداً من خمارة العمة مارسيال مع الاعرج الكبير والهيكل صادفوا زوج بائعة اللبن التي كانت تأتي كل يوم من القرية ومعها عربة صغيرة يجرها حمار وتبيع لبنها عند منعطف زقاق درابيري بالقرب من خمارة الارنب الابيض فطعنوا الرجل بخناجرهم حتى أماتوه

وكان الغلام ينظر اليها كالاطرش في الزفة لانه لم يكن يفهم لغة (الارجو) وقد بدت على وجهه علامات التشوق

الى معرفة ما قيل ولم يخفَ ذلك على العوراء فقالت له

— يظهر لي أنك تريد معرفة ما نقول . اليس كذلك؟

فاجابها الغلام — انكما تتكلمان عن العمة مارسيال التي لها خمارة في جزيرة الرافاجور بالقرب من اسنير . انني اعرفها واعرف ابنتها شالىياش أيضاً . وولديها فرنسوا وامادين فهما من عمري .. ثم انكما تكلمتما بلغة الارجو عن قتل رجل

— نعم هي الحقيقة . واذا وجدتك مجتهداً في اعمالك ومخلصاً لنا اعلمك لغة (الارجو) . فتستفيد من معرفتها فائدة عظيمة .. فهل يسرك ذلك يا غلام ؟

— اعندك ريب في ذلك ؟ واني افضل البقاء معك على الرجوع الى ذلك الطبيب المشعوذ فقد انهكتُ قواي في سحق عقاقيره . ولو انني اعلم اين يخبىء السم الذي يقتل به الناس لكنت اضع منه شيئاً في طعامه ليموت وارتاح من عشرته

فضحكت البومة حتى بانت نواجزها وامسكت بيد الاعرج وجذبته اليها وضمته الى صدرها وقالت له

— قبل خدي ايها الخبيث . لله درك ما اذكاك !!

وكيف عرفت ان لدى سيدك سم زعاف يقتل به الناس ؟

— كنت يوما مختبئاً في الغرفة التي يخبىء فيها زجاجاته وعدده الحديدية فسمعته يقول أن لديه سموماً قتالة

— اعد عليّ ما سمعت حرفاً حرفاً

— سمعته يقول لرجل بعد أن اعطاه مسحوقا في ورقة: « - اذا كنت كارهاً حياتك فذوّب هذا المسحوق في الماء واشربه على ثلاث دفعات فتنام بلا انزعاج ولا ألم وتظل نائماً حتى يوم الحشر . »

فقال له معلم المدرسة — ومن هو ذلك الرجل ؟

— هو شاب جميل الصورة له وجه صبوح كوجوه النساء . وشاربان اسودان وقد زارنا هذا الشاب مرتين وفي المرة الثانية امرني المسيو برادامنتي باقتفاء اثره لاعرف اين يسكن . ولما خرج تبعته ومازات متبعاً خطاه حتى دخل بيتاً جميلا في شارع شايو . وكان برادامنتي قال لي : - اتبع هذا الرجل حيثما يذهب واذا دخل بيتاً أو حانوتا قف عند الباب وانتظره حتى يخرج ويمشي فاقتف اثره حتى يدخل مكانا ولا يخرج منه فتعلم أن ذلك المكان هو بيته فابذل اذ ذاك كل ذكاءك ونباهتك لتعرف اسمه وان انت لم تفلح امزق

اذنيك . واهري جلدك بالعصا . »

— وبعد ؟

— وبعد خفت من تمزيق اذنيّ فما زلت ابحث حتى عرفت اسم الرجل ..... وهو اسم فخيم جداً فانه يدعى الفيكونت دي سان ريمي

فابرقت اسارير العوراء فطفقت تقبله وتقول له

... تحدثني نفسي بان آكل وجهك لشدة اعجابي بك... لله درك يا اعرج !! ما كنت احسب انك زكي الفؤاد الى هذا الحد ... انك والله تستحق أن اكون امك .

وعادت البومة الى تقبيله بملء شفتيها فاثر بالاعرج ذلك الحب والحنان واراد أن يعرب لها عن امتنانه فقال

— مريني بما تشائين تري كيف اطيعك ...

— سوف انظر في امرك واذا وجدتك نشيطاً مطيعاً اسمح لك بالاقامة معنا الى ما شاء الله

فقال له معلم المدرسة

— اي نعم تقيم معنا وتقودني كما يقاد الضرير المسكين وتدعي انك ابني فندخل البيوت . واذا عاونتنا العوراء نأتي

من الفعال ما تشيب لها الولدان. واثبت لذلك الشيطان رودلف الذي اعماني انني ما زلت قادراً على العمل .. نعم انه افقدني البصر ولكنه لم يفقدني الميل الى الشر وسفك الدماء ... سأكون انا الرأس وانت يا اعرج تكون عيناي وانت يا عوراء تكونين يداي وتعاونينني اليس كذلك ايتها العزيزة ؟

— الست صديقتك الحميمة في السراء والضراء؟ الم اكرس لك دمي ؟ ألم اهبك حياتي ايها العزيز؟ اما رأيت حين خرجت من المستشفى وبعثت تدعوني كيف انني اسرعت في تلبية دعوتك واتيتك مع ذلك الرجل الضئيل سان ماندي وقلت لاهل القرية التي كنت مقيما فيها انني زوجتك؟

وكأن ما قالته العوراء ذكّر معلم المدرسة بحادث موئلم فتغيرت لهجته وصرخ قائلا بصوت ينم عن الحقد والغضب

— نعم كنت في ضجر شديد بين اولئك القوم الاخيار ولذلك فكرت في استدعائك وثاني يوم وصولك سرق مني ما كان باقيا معي من النقود التي اعطاني اياها ذلك الشيطان في ممشى الفيف ... نعم سرقوا مني كيس النقود بينما كنت نائما وكان مملوءاً ذهباً .. واظنك انت السارقة ولذلك اصبحت

الان تحت رحمتك اذ لم تبقي لي ثمن رغيف . . . ولا ادري لماذا حين اذكر ذلك الفعل لا اقتلك على الاثر ايتها اللئيمة

قال ذلك ومد يديه ومشى خطوة لجهة العوراء فقال له الغلام الاعرج — اياك ان توءذي البومة

فانعقد زبد الغضب على شفتي معلم المدرسة واجاب — انني أسحق رأسيكما فانكما عقربان تستحقان القتل

واذ علم هذا الضرير من الصوت ان الغلام الاعرج قريب منه أراد أن يضربه فلطم بكفه لطمة لم تصب غير الهواء ولو انها أصابت الغلام لكانت قتلته لا محالة

فلكي ينتقم الاعرج لنفسه وللعوراء التقط حجراً وضرب به معلم المدرسة فأصاب جبهته فتألم هذا ألماً شديداً وهاج كالثور المجروح وأراد الهجوم على خصمه ولكنه ما كاد يمشي خطوتين حتى وقع على الارض .

فضحكت العوراء مقهقهة ضحك الشماتة . ذلك لان اللئيمة على رغم ما كان بينها وبين معلم المدرسة من الروابط الدموية كانت مسرورة باطناً بانكسار شوكته بعدما أصيب بالعمى وعجزه عن الاضرار بالناس بعد ان كان يسحق

كل من يقاومه بقوة بدنه الوحشية . وقد كانت شماتة العوراء بمعلم المدرسة مصداقاً لمذهب روشيفوكول القائل « ان الانسان يجد دائماً بعض المسرة في مصاب ابن جنسه ولو كان من أعز اصدقائه » (١)

ثم استوى الضرير واقفاً ولما لم يتمكن من القبض على الغلام رفس الهواء برجله الضخمة ووضع يديه الغليظتين على عينيه وزعق زعقة مختنقة تشبه زئير الاسد المكمم

فقال له ابن باروج

— أراك مصاباً بعلة السعال فاسمح لي اذن أن أداويك بمسحوق عرق السوس فلا تشمئز من طعمه . وقد علمني هذا الطب أحد رجال الشرطة قال الاعرج اللعين ذلك وأخذ قبضة من التراب ورمى بها وجه الاعمى

فكان لهذه الاهانة في نفس معلم المدرسة تأثير اشد من تأثير ضربة الحجر فاحتقن وجهه لشدة الغيظ ثم اصفرّ حتى صار شبيهاً بوجه الاموات ومد ذراعيه كالمصلوب وشخص الى السماء قائلا

(١) وهو مذهب فاسد يدل على سوء خلق صاحبه (المعرّب)

— يارباه ! يارباه ! يارباه!

فأغربت البومة في الضحك وهتفت قائلة

— انك تقلد الاتقياء وتنادي ربك . وكان الاحرى بك ان تنادي بائع الخبز لينقذك من شر الجوع

فطفق ذلك التعس يعضّ قبضتيه وهو يقول

— الا أجد سكيناً انتحر بها لاتخلص من هذا العذاب!

— انك تجد في جيبك سكيناً أمضى من الموسى ... واظن انك تذكر كيف ذبحت بها ذلك الشيخ المسكين على طريق رول في تلك الليلة القمراء وذبحت بها تاجر الابقار على طريق بواسي . فلماذا لا تمد يدك اليّ وتأخذ هذه السكينة وتنتحر بها

وحين رأي معلم المدرسة نفسه في ذلك المركز الحرج ولم يكن يريد الانتحار حقيقة غير موضوع الحديث وقال

— لقد كان السفاح نعمَ الرجل .. فانه لم يسرقني بل أخذته الشفقة عليّ

فقالت له العوراء.

— ماذنبي اذا كنت سُرقت ؟ هل تتصور انني كنت

أبقى معك لو انني سرقتُ كيس نقودك كما تتوهم ؟ ما أقل عقلك ! نعم انني كنتُ أأخذ كل ما كان لديك من النقود لو أمكنني ذلك على انني ما أتيتُ هـذا الامر لاني اهواك على رغم بياض عينيك. فعد الى صوابك ايها العزيز واخفض من غضبك انك ما كنت عادلا في حكمك عليّ والدليل على ذلك انه حينما قال لي الرجل لابس الحداد بانه ينقدني الف فرنك اذا اختطفت له فتاة مقيمة في مزرعة بوكيفال واخذتها الى مكان معين من ساحة سان ديني. اسرعت في عرض المسئلة عليك وطلبت منك ان تكون شريكي في العمل. وكان في امكاني ان اتخذ لي معيناً بصيراً سواك فينبغي لك والحالة هذه ان تعد صنيعي هذا معك من قبيل الاحسان والصدقة.

فاعلم انني من الالف فرنك ساعطي ميئتين لبريليون مقابل اتعابه في سوق العربة ومجيئهُ الى هنا قبل الليل مع خادم الرجل لابس الحداد للبحث عن المكان الذي يلزمنا الاختباء فيه وانتظار الفتاة فيبقى لنا ثمانماية فرنك نقتسمها ونعيد بها ليالي الحظوظ . . . فماذا تقول في هـذا أيها العزيز ؟ وهلاَّ ذلت ناقماً على بومتك العوراء.

فاجابها الاعمى بصوت حزين ينم عن الشك والريبة

— ومن يضمن لي انك تعطيني شيئاً مما تقبضين بعد انجاز العمل ؟

— نعم انني لأأعطيك بارة واحدة اذا أردت لانك بعد عماك أصبحت كالالعوبة بين يدي أفعل بك ماأريد مثل ما كانت المغنية من قبل فاصبر على ماانت فيه من الذل والهوان حتى يقبض روحك الشيطان آه . ! آه . ! آه . ! قل لي أيها القاتل هل لازلت حاقداً وهل لازلت تسيء الظن بالبومة ؟

قالت العوراء ذلك ووضعت يدها على كتف معلم المدرسة تريد تطيب خاطره فقال لها بعد سكوت وجيز وهو يتنهد ويحرق الارم

— صدقت . صدقت . هكذا قدر لي فكان . وأصبحت الآن تحت رحمة ولد صغير وامرأة كان أسهل شيء عندي قتلهما بلطمة واحدة

ثم انه انطرح على الارض وهتف قائلا — آه لولا خوفي من الموت لكنت . .

فاجابته العوراء باحتقار

تباً لك من جبان ! . . فوالله لو أسمعتني فيما بعد مثل هذا الكلام الدال على ضعف القلب اخلي سبيلك وامضي

فازداد معلم المدرسة غضباً وأمسك رأسه بين يديه وقال بصوت خنقه الحقد

— ألا يمكنني الانتقام من ذلك الرجل الظالم الذي عذبني عذاباً أليما حينما أمر رجاله بأن يفقأوا عيني وتركني في هذه الحالة التعسة التي لا مخرج لي منها حتى الممات

— هدئ روعك أيها الرجل . . . وثق باننا سنجد ذلك العاتي رودلف . . وسنجد السفاح أيضاً . . فتشجع واعتصم بالصبر ولا تدع القنوط يستولي عليك ولسوف يأتي يوم ننهش فيه كلانا لحم رودلف والسفاح

— أصادقة أنت فيما تقولينه ياعوراء ؟ هل تحافظين على مودتي ولا تتخلين عني ؟

ثم أردف بلهجة المستعطف الذليل

— وماذا يحل بي من الويل والشقاء اذا تخليتي عني ؟ .

— لو تخليت عنك تجرك كلاب الازقة وتنهش لحمك وماذا يحل بك اذا تركناك أنا والغلام الاعرج وعدنا بالعربة

الى باريس وبقيت أنت وحدك هنا بين الحقول والاشجار في هذه الليلة الحالكة الظلام الشديدة البرد

فارتعدت فرائص معلم المدرسة عند سماع ذلك التهديد وحاول ان يقترب من تلك الحيزبون اللعينة ولكنها نفرت منه خوفا من ان يقبض عليها وابتعدت عنه مع الغلام الاعرج وصارا يهزأن به ويضحكان بملء شدقيهما

فظن معلم المدرسة حين ابتعدا عنه انهما يريدان تركه هناك والعودة الى باريس وحدهما كما قالت العوراء في تهديدها فاصفر وجهه لشدة الرعب ولم يجسر على المشي خوفا من الوقوع فجلس في مكانه وأخذ منه اليأس

وفي تلك اللحظة مرَّ به فلاح متثاقلا في مشيته وحيَّاه قائلا

— أسعد الله مساك

فاجابه معلم المدرسة

— أسعد الله مساك . . . الا قلت لي لمن هذه المزرعة القريبة من هنا .

— ان مديرة المزرعة تدعى مدام جورج . . وصاحبها يدعى المسيو رودلف .

قال الفلاح ذلك وانصرف

اما معلم المدرسة فأخذ منه العجب كل مأخذ وقال بصوت مرتجف

— زوجتي ؟ .. ومعذبي ؟ .. رودلف ؟ ؟ مدام جورج !

وحدثته نفسه ان مدام جورج هي زوجته بعينها لان رودلف قال له قبل ان يفقاء عينيه انه مهتم بأمر مدام جورج وقد ولدّ ذكر رودلف في قلبه خوفاً شديداً فنهض قائماً وفي تلك الاونة أقبل عليه الاعرج يجري والعوراء من خلفه ولما دنا منه قال له همساً

— ها هي مقبلة .. فلنختبيء !

وكانت الشمس اذ ذاك على وشك المغيب والحقول مقفرة والسكوت سائداً وكانت زهرة مريم تقترب شيئاً فشيئاً من منخفض الطريق الذي لا بد لها من المرور فيه لتعود الى المزرعة ولما دنت من ذلك المكان رأت غلاماً خرج من وراء رابية هناك وأقبل عليها يعرج في مشيته وعلامات الحزن واليأس بادية على وجهه وقال لها مسترحماً

— أواه يا سيدتي اشفقي علي !!

فاجابته المغنية وقد اخذتها الشفقة

— ماذا تريد يا غلام ؟ ماذا اصابك ؟

— اواه يا سيدتي لقد عثرت قدم جدتي العجوز المسكينة بينما كنا سائرين في هذا المنخفض فوقعت واصابها ألم شديد.. واخشى ان تكون كسرت ساقها ... وانا ضعيف ولا قدرة لي على معونتها ... وماذا يحل بي وبها اذا كنتِ لا تمدين لنا يد المعونة؟ مسكينة جدتي ! انها تموت اذا اهملت ولا شك

فاثر كلام ذلك الاعرج الكاذب في نفس المغنيه فقالت له بتلهف

— وانا لست اقوى منك ايها الصبي ولكن لعلي اقدر على معونتك في اغاثه جدتك... فهلم بنا اليها... واني مقيمة في هذه المزرعة القريبة فاذا تعذر علينا نقل جدتك اليها ابعث رجالا ينقلونها

— شكراً لك يا سيدتي الفاضلة وليباركك الله... اتبعيني. وانا ادلك على الطريق ... لقد وقعت جدتي قريباً من هنا وراء هذه الاكمة عند اخر منخفض الطريق مثل ماقلت لك.

ثم طفق الغلام ينادي ويقول لينبه معلم المدرسة والبومة

— صبراً يا جدتي صبراً ها انا قادم اليك وقد اتيتك بمين

فقالت له المغنية — لعل جدتك لم تقع بعيداً من هنا ؟

— لا يا سيدتي انها وقعت خلف هذه الاكمة عند منعطف الطريق على بعد عشرين خطوة

وما كاد الاعرج يتم عبارته حتى توقف عن السير اذ سمع وقع حوافر حصان يجري في ذلك السهل وقال في نفسه

— لقد تهدم كل ما بنيناه !

وكان ابن براروج والمغنية حينئذ في منعطف من الطريق حاد الزاوية وبعد حين ظهر فارس من وراء ذلك المنعطف ولما دنا من الفتاة والاعرج وقف وقد عرفه هذا لانه رآه من ذي قبل وهو شاب جميل الصورة يعرفه القاري ويدعى الفيكونت دي سان ريمي المقال عنه انه خليل الدوقة لوسيني .. وبعد أن تأمل الفارس المغنية واعجب لجمالها قال لها

— هل لك ايتها الفتاة الجميلة أن تدليني على طريق قرية ارنوفيل ؟

فنكست زهرة مريم رأسها الى الارض حين وقع عليها نظر الشاب الحاد واجابت

— حينما تخرج من هذا المنخفض يا سيدي خذ اول طريق تجدها عن يمينك وسر عليها تصل الى ممشى طويل على جانبيه اشجار الكرز يوصلك الى القرية .

— اشكرك شكراً جزيلا يا شبه الغزال . لقد استفدت من جوابك على ايجازه اكثر مما استفدت من انين وعويل عجوز قبيحة وجدتها مضطجعة على الارض خلف جزع شجرة على بعد بضع خطوات من هنا

فقال الاعرج بصوت حزين

— هي جدتي المسكينة

فقال الفيكونت للمغنية

— ارجوك الجواب على سؤال ثاني وهو الاخير . اتظنين اني متى وصلت الى قرية ارنوفيل يسهل علي الاهتداء الى مزرعة المسيو دوبريل ؟

— أن بيوت هذه المزرعة قائمة على جانبي الممشى الموصل الى القرية يا سيدي

— اشكرك مرة ثانية

قال الفيكونت ذلك وانطلق بجواده مسرعاً وبعد أن

انبسط وجهه بعض الانبساط وهو يكلم المغنية عاد فاكفهر بعد ابتعاده عنها وظهرت عليه علامات قلق شديد اما المغنية ففكرت فيما تعلمه عن استعداد اهل مزرعة ارنوفيل للقاء ضيف كريم بناء على اوامر مدام لوسيني وقالت في نفسها . « لا شك ان الضيف المنتظر هو هذا الفارس الجميل . »

وظل وقع حوافر حصان الفيكونت يضعف شيئاً فشيئاً حتى انقطع وعادت تلك الاماكن المقفرة الى ما كانت عليه من السكون . واذ ذاك تنفس الاعرج ملء رئتيه كانما ازيح عن صدره حجر ثقيل . ولكي ينبيء رفيقيه بزوال الخطر صرخ قائلا

— صبراً يا جدتي صبراً !! ... ها قد اتيتك ومعي سيدة محسنة تريد اغاثتك

فقالت له المغنية وهي تسرع الخطى متجهة نحو المنخفض الذي اشار اليه

— اسرع يا غلام اسرع ... لقد اضعنا دقائق ثمينة في محادثة هذا الفارس

ولما انتهت الى منعطف الطريق انقضت عليها البومة

انقضاض الصقر على العصفور وصرخت قائلة

— اليّ يا فورلين « هكذا كانت تدعو معلم المدرسة»

ثم انها قبضت باحدى يديها على عنق الفتاة وسدت فمها بالثانية . وامسك الاعرج بساقيها ليمنعهما عن الحركة وقد حصل كل ذلك بسرعة شديدة حتى أن العوراء لم تتمكن من امعان النظر في وجه الفتاة ولكنها بينما معلم المدرسة يتقدم نحوها متثاقلا بعد خروجه من مخبئه امعنت النظر في المغنية فعرفت انها هي نفس الفتاة التي كانت تسومها العذاب الاليم فيما مضى فاخذتها الدهشة وكشرت عن نابيها لشدة السرور وهتفت قائلة

— بيجريوت ؛ ... انت انت ! ... أن الشيطان الرجيم اعادك اليّ وسوء حظك اوقعك ثانية تحت مخالبي !...وها هي زجاجة ماء النار في العربة فساغسل به وجهك هذا لكي لا امتعض كلما نظرت الى جماله

ثم وجهت حديثها لمعلم المدرسة وقالت

— اقبض عليها بكل قواك واحذر ان تعضك ..

واياك ان تخفف عنها الضغط حتى ننتهي من حزمها

فقبض معلم المدرسه على الفتاة بيديه الحديديتين وما كادت هذه تصرخ لشدة الالم حتى لفت العوراء رأسها برداء من جوخ سميك. وبعدذلك شدّوا وثاقها وسدوا فمها فلم تعد تقوى على حركة او استغاثة وحين ذاك قالت العوراء لمعلم المدرسة

— شمر الآن عن ذراعيك يافورلين وانهض بهذا الحمل . انه أخف من جثة المرأة التي قتلتها وألقيتها في ترعة سان مرتان أليس كذلك ؟ هلمّ فلنسرع .

فرفع معلم المدرسة الفتاة على كتفيه كانه يرفع طفلا في قماطه فقالت له العوراء

— بورك في زنديك ! . سر بها مسرعاً الى العربة

فقال لها الضرير بصوت خافت

— كيف أسير مسرعاً ومن يقودني ؟

فنزعت العوراء من حول عنقها منديلا كبيراً من حرير أحمر ولفته على بعضه حتى صار مستطيلا كالحبل ودنت من معلم المدرسة وقالت له

— افتح فاك وعض باسنانك طرف هذا المنديل ويأخذ الاعرج بيده الطرف الآخر ويقودك

فأطاع الضرير وأمسك ابن براروج بطرف المنديل
لقاده وتقدمهما البومة مسرعة لتنبيء بريبليون بقدومهم
وبعد دقائق معدودات ركب الثلاثة العربة ووضعوا
الفتاة عند اقدامهم وهي في ضيق شديد واعمل بريبليون
السوط في جواده فسار ينهب الارض نحو ساحة سان ديني
حيث كان توماس سيتون ينتظر قدومهم على احر من الجمر

الفصل الثامن عشر

كايمنس درفيل

يذكر القاريء أن روداف انقذ المركيزة درفيل قبل
وقوعها في الحفرة التي حفرتها لها ساره . وعاد رودلف الى
بيته بعد ذلك الحادث والانفعال آخذ منه كل ماخذ وارجاء
الى الغد زيارته للانسة الضحوكة ولعائلة موريل لظنه أن
المركيزة درفيل اوصلت لتلك العائلة التعسة كيس النقود الذي
اعطاها اياه حين قابلها على السلم لكي يمكنها الادعاء بانها اتت
الى ذلك البيت للاحسان على البؤساء . ولم يخطر قط على باله
أن الغلام الاعرج ابن براروج اختطف كيس النقود من يد
المركيزة . ولا بد لنا ان نشرح ماحصل

بينما كانت المركيزة تصعد السلم مسرعة والكيس في يدها تصادف ان الغلام الاعرج كان نازلا من بيت الطبيب برادامنتي ولما أبصر كيس النقود في يد الكونتس تظاهر بان قدمه زلت فاندفع على المركيزة كالواقع على الرغم منه ولما صدمها اختطف من يدها الكيس باسرع من لمح البصر . فلم تهتم المركيزة باسترجاع الكيس لانها نظراً للمركز الحرج الذي كانت فيه ولا سيما انها سمعت وقع اقدام زوجها على السلم وظلت تصعد مسرعة حتى انتهت الى الطابق الخاص حيث توجد عائلة موريل مثلما اشار عليها رودلف .

وعند الساعة الرابعة من ذلك اليوم اتت عجوز من قبل المركيزة تحمل الكتاب الآتي لرودلف وذهبت من دون ان تطلب الجواب

«مولاي

« اني مدينة لك بحياتي وشرفي . فارى من الواجب علي ان اعرب لك اليوم عن امتناني خوفا من ان يتولاني الخجل غداً ويحجم لساني فاذا اردت يا مولاي ان تتنازل وتشرفني بزيارة هذه الليلة يتم جميلك معي . وارجوك ان تتلطف بقبول

مزيد احترامي »   كليمنس درفيل

« (حاشية) لا تكلف خاطرك بالجواب يا سيدي فانني مقيمة في بيتي ولن ابارحه هذه الليلة . »

وعلى رغم سرور رودلف بحسن صنيعه مع المركيزة كان خائفاً مما سيحدثه هذا المعروف من الالفة بينه وبينها . والسبب في خوفه انه كان شديد الميل الى هذه المرأة ولكن مراعاة للوداد الذي يكنه لزوجها كان يبذل جهده للابتعاد عنها واجتناب مقابلتها خوفاً من ان تدفعه النفس الى خيانة صديقه والنفس امارة بالسوء . ولذلك انقطع عن زيارتها كما قالت المركيزة لساره فيما سبق

ثم انه تذكر ما استرقه من حديث توم وساره في حديقة السفارة وادرك ان نار الغيرة تشوي فؤاد ساره لاعتقادها انه لا يزال يهوى المركيزة ويكتم هيامه . وما اخطاء ظن ساره المرمى . وادركت ان اخفاء رودلف حبه للمركيزة جعل هذه تتصور انه معرض عنها غير مكترث بها . فارادت ان تستفيد من هذا الوهم الباطل فسلطت شارل روبير على قلب المركيزة فكادت هذه تميل اليه بعد ان يئست من عودة رودلف اليها

غير ان حبه ما زال يشغل جانباً من فؤادها

وكانت كليمنس درفيل تنتظر مقابلة رودلف بذاهب الصبر . وكلما ذكرت هذا الرجل تشعر باضطراب مؤلم. وتشعر بنفور واشمئزاز كلما ذكرت شارل روبير ولا سيما حين تفكر في انها ابصرته وهي صاعدة على السلم حين فتح باب غرفته ووجدته بثياب النوم استعداداً لملاقاتها ولا يخفى ما في ذلك من المعنى الخفي . فكان لذلك المنظر تأثير سيء في فؤادها لان بين غايتها في زيارته وبين افكاره بوناً بعيداً: هي تريد زيارته زيارة بسيطة مدفوعة بعامل الشفقة وهو يتصور انها تذوب شوقاً اليه وانها لا تبغي من زيارته سوى التمتع بجماله فاسكرته خمرة ذلك الانتصار الوهمي ولبس ثياب النوم استعداداً لاستقبالها . . .

وعند الساعة التاسعة ليلاً كانت المركيزة جالسة في قاعة الاستقبال وعليها ثوب من القطيفة السوداء زادها جمالاً . وكانت علامات الاضطراب بادية على وجهها وكلما قربت ساعة مجيء رودلف ازدادت اضطراباً غير انها بعد أعمال الفكرة رأت ان تدع الخجل جانباً . وان تفتح قلبها لرودلف وتطلعه

على سرّ خفي هائل لم تطلع أحداً عليه لعلمها باظهار تلك الثقة لرودلف تكتسب اعتباره وذلك كان غاية آمالها

وعاطفة الامتنان التي ملأت قلبها بعد الذي صنعه معها رودلف من المعروف أحيت في صدرها محبتها القديمة لهذا الرجل . وحدثتها نفسها بان البرنس لم يوجد في بيت شارع التامبل بطريق الصدفة يوم انقذ حياتها وشرفها بل وجد هنالك على عمد . وانه لم يعمد الى النفور منها بعد سابق عطفه عليها الا لعلة قاهرة وخامرها سوء الظن في مودة ساره

وبينما هي تفكر في هذه الامور دخل عليها الخادم وقال لها

— هل تأذن مولاتي بدخول مدام استون والآنسة؟

فأومت المركيزة برأسها اشارة ايجاب وللحال دخلت ابنتها على مهل . وهي طفلة بنت اربع سنين تدعى كليرمتناسبة التكوين غيران شحوب لونها وهزالها ذهبا ببهجة جمالها.

وكانت مربيتها مدام استون ماسكة بيدها فلما أبصرت أمها ركضت نحوها على رغم ضعفها ومدت لها ذراعيها وكان يخيل للناظر اليها ان عينيها كبيرتان جداً بالنسبة الى سنها والسبب في ذلك هزال وجهها الشديد وتجويف خديها .

وحين أجلستها أمها على ركبتها ابرقت اسرتها وبدت ابتسامة لطيفة على وجهها الناحل فقبلتها أمها قبلة المحبة والحنان ثم قالت لمربيتها

— كيف كانت حالها اليوم يامدام استون ؟

— أحسن من ذي قبل ياسيدتي بوجه الاجمال ولكنني خشيت مرة أنا .. فضمت المركيزة ابنتها الى صدرها كانها تحميها من شر يتهددها وقالت

— مازالت في خطر؟

— لا يامولاتي ان خوفي كان في غير موضعه لانها لم تصب بالغيبوبة بل شعرت بضعف وما لبثت ان عاودتها قواها. وهي في حاجة الى الراحة لانها لم تنم بعد الظهر ولكنها أبت الذهاب الى فراشها قبل ان تقبل سيدتي المركيزة.

فأوسعت المركيزة ابنتها تقبيلاً وقالت

— انها ملاك طاهر

وفي تلك الاونة فتح الخادم باب القاعة وقال معلناً

— سمو الامير مولاي الدوق دي جيرولستين

ولما دخل رودلف ووقع نظر المركيزة عليه علت وجهها

حمرة الخجل فأنزلت ابنتها عن ركبتها وأومت الى مربيتها بأن تأخذها وتنصرف

فانحنى البرنس مسلماً على المركيزة وقال لها وهو يبتسم ويشير الى ابنتها

— اسمحي لي ياسيدتي بأن أجدد تعرفي بصديقتي القديمة اذ لاشك انها نسيتني .

ثم انحنى ومد يده الى كلير فشخصت اليه برهة ولما تذكرته أحنت له رأسها وقبلت أطراف أصابع يدها النحيفة فضحك رودلف لهذه الاشارة وقال للمركيزة

— يلوح لي ان صحتها تحسنت كثيراً عما كانت يوم رأيتها اخر مرة

— نعم يامولاي قد تحسنت حالها قليلا ولكنها مازالت مريضة

ولما انتهت الماركيزة من عبارتها أمسكت المربية بيد الفتاة وخرجت بها وبقي رودلف وكليمنس وحدهما فبدء البرنس بالحديث وقال :

— لقد خانتك ساره ماك كريجور خيانة فظيعة كادت

تذهب بشرفك

— هذا ما كنت أظنه اذ قد خامرني الشك في صدق وداد هذه المرأة ..

ولكن كيف وقفت انت يامولاى على حقيقة هذا الامر؟

— انني عرفت ذلك امس بطريق الصدفة في الحفلة الراقصة التي أحيتها الكونتس... وذلك انني بينما كنت جالساً في حديقة السفارة وراء شجيرات كثيفة الاغصان سمعت الكونتس ساره وأخاها يتحدثان في الجهة المقابلة بحيث لا يريانني ولا أراهما وعلمت من سياق حديثهما انهما سينصبان لك تلك الاحبولة التي كدت تقعين فيها فلكي انبهك الى الخطر الذى كان يتهددك ذهبت الى شارع التامبل وانتظرتك ...وارجو ان لا تؤاخذيني على اطالة الحديث في هذا الموضوع الذى يؤلمك ذكره وانني وايم الحق لولا كتابك الذى بعثت به الي لما كنت كلمتك في الامر .

وبعد سكوت وجيز قالت المركيزة :

— لا اجد يامولاي سوى طريقة واحدة للاعراب عن امتناني وهي ان افتح لك صدري وأطلعك على سر لم أبح به

لاحد وهذا السر لايبري ساحتي ولكنه يجعلك تستصغر الهفوة التي ارتكبتها

— انني أعد نفسي سعيداً ياسيدتي اذجعلتني موضوع ثقتك واطلعتني على مكنون اسرارك الامر الذى يمكنني المفاخرة به ولكن اسمحي لي بأن اطلعك على ماأعلم وهو انك فعلت مافعلت مدفوعة بعامل الشفقة اذ لم تنطلي عليك خزعبلات الكونتس ساره ماك كريجور التي تقضى مصلحتها بهلاكك. واعلمي ايضاً ياسيدتي بانك ترددت كثيراً قبل ان تقدمي على ذلك العمل الذى اراك نادمة عليه الآن

فشخصت كليمنس الى البرنس مدهوشة ولم تجب بكلمة فقال لها وهو يتبسم

— أعجبت مما أقول ؟ سأذكر لك في يوم آخر كيف وقفت على كل هذه الاخبار لكي لاتتصورين انني من السحرة المنجمين ولكن هل اطمئن بال زوجك ؟

فاحمر وجه كليمنس خجلاً ونكست رأسها الى الارض وأجابت بصوت مضطرب .

— نعم يامولاى ولا أخفي عليك انني أتألم حينما أسمع

زوجي يستغفرني على انه أساء بي الظن ويبالغ في اعجابه بما أصنعه من الاحسان للبؤساء سراً ...

— لا تندمي على سلوكك هذا فان المركيز سعيد في أوهامه وضلاله وابذلي قصارى الجهد في ابقائه على هذا الضلال واني لولا حرمتك وقلة رغبتي في الكلام في هذا الموضوع لكنت أقول لك ان المرأة تزداد لطفاً كلما ازدادت هفواتها التي تقضي مصلحتها بكتمانها عن زوجها

فازداد عجب المركيزة درفيل عند ما سمعت رودلف يتكلم ضاحكا من ذلك الحادث الذي أوشك ان يعقبه مالا يحمد ولكنها أدركت ان البرنس لم يعمد الى المزاح في كلامه عن ذلك الحادث الا ليخفف من أهمية معونته فاثرت بها عواطفه الرقيقة وقالت له

— لم يخف عليَّ كرم أخلاقك يامولاي فامزح ماشئت وتناسى الخطر العظيم الذي أنقذتني منه . غيران السر الذي أريد اطلاعك عليه هو سر محزن وله علاقة بحادث هذا الصباح ولا ريب عندي في انني أجد في نصائحك معيناً لي ومرشداً

— انني مصغ اليك كل الاصغاء ياسيدتي فتكلمي لعلي

أجد نصيحة تعود عليك ببعض الفائدة

فترقرق الدمع في عيني المركيزة وقالت

— قبل ان التمس منك النصيحة يامولاي أرى ان أطلعك على ماضي حياتي الذي تجهله وذلك قبل زواجي بالمركيز درفيل

فاعلم انني فقدت والدتي وأنا في السادسة عشرة من عمري وكنت أحبها حباً يقرب من العبادة لانها كانت مثال الطيبة والحنان على الارض وكانت قليلة الميل الى الملاهي والملذات وتؤثر العزلة وتجد منتهى اللذة في الاهتمام بتثقيف عقلي ولما بلغت السادسة عشرة وأوشكت أتم دروسي ارتاء والدي رأياً أدهشنا أنا وأمي فادعى ان صحة والدتي لا تسمح لها بالاستمرار على تهذيبي ورأى ان يستدعي للقيام بهذا العمل أرملة صغيرة السن أخنى عليها الدهر . فامتنعت والدتي بادئ بدء عن الموافقة على رأي والدي ورجوته انا ان لا يوجد في البيت امرأة غريبة تحول بيني وبين أمي على انه لم يصغ الى رجائنا وأصرَّ على اتباع رأيه على رغم الدموع التي ذرفناها واستدعى تلك المرأة وهي أرملة ضابط مات في الهند على ما

تقول وتدعى رولاند فاحتلت بيتنا بصفة معلمة وتكفلت باتمام تهذيبي

— كيف ؛ لعلها مدام رولان التي تزوجها والدك عقيب زواجك .

— نعم يامولاي

هل كانت ذات جمال أو ذات ذكاء .

— كان عمرها خمساً وعشرين سنة تقريباً وكانت ذات شعر اشقر ضارب الى الصفرة وعينين زرقاوين مستديرتين وعلى الجملة كانت تظهر على هيئتها الرقة والمسكنة ولكنها كانت تخفي تحت ذلك الستار لؤماً وخسة قلما يوجدان في غير اجلاف الناس

— وما كان مبلغها من العلم ؟

— ما كانت على شيء من ذلك يامولاي ولا ادري كيف ان والدي مع شدة خوفه من ألسنة الناس لم يفكر في ان جهل تلك المرأة وعدم كفاءتها للتعليم تفضح الامر وتظهر السبب الحقيقي الذي لاجله أدخلها بيته . وعند ما قالت له أمي ان مدام رولاند هذه ليست على شيء من العلم

أجابها بصوت خشن يقطع كل جدال بانه مصرٌ على ابقاء تلك المرأة بوظيفة معلمة سواء كانت عالمة أو جاهلة فادركت والدتي اذ ذاك ما كان خافياً عليها حتى تلك الساعة وألمَّ بها حزن شديد ولم يكن تفطر قلبها على خيانة والدي وسوء سلوكه أقل منه على ماسينال عائلتنا من انفصام العرى وكان خوفها الاكبر ان أقف أنا على الحقيقة

— وكم كان عمر والدك حين ذاك؟

— ستين سنة تقريباً

— وهل كان يظن ان تلك المرأة تهواه؟

— كان والدي على رغم سنه من أشد المتمسكين باذيال التأنق بين الرجال .. والمرجح عندي ان مدام رولان رغبت في الاقتران به مدفوعة بدسيسة لانني لااعتقد انها كانت تحبه أو تميل اليه

— دسيسة .. ومن ذا الذي دفعها الى هذا العمل ؟

— سأذكر لك ذلك فيما بعد يامولاي . ولعلم هذه المرأة ان الرجل الغني متى أدرك سن الكهولة ترتاح نفسه الى التمليق واستحسان ما بقي له من آثار جمال الصبا طفقت تتودد اليه

وتتملقه وتتغزل بجمال طلعته ورشاقة قده وكان عمره اذ ذاك ستين سنه . . . وعلى رغم الذكا الذي اشتهر به صدق أكاذيب تلك المحتالة اللئيمة ووقع في الاحبولة التي حاكتها له . ولا ريب عندي في ان ذلك كان السبب في تسلطها عليه

واني يامولاي على رغم همومي وانشغال بالي لا يمكنني التمالك عن الابتسام كلما ذكرت ما كانت تقوله مدام رولان لوالدي من ان الرجال لا يبلغ كمال الخلقة ولا تتم محاسنه الا متى أدرك الخامسة والخمسين أو الستين من عمره

— أي عمر والدك بالضبط !

— نعم يامولاي . . . والذي زادني كرهاً لها هو سوء تصرفها مع والدتي ومساعيها في الاسراع بزواجي المشؤم

فنظر رودلف الى المركيزة نظرة ملؤها الدهشة . فقالت له بجنان ثابت

— ان المركيز درفيل صديقك يامولاي . وغير خاف علي ان ما قلته لك يثقل سمعه على اذنك . ولكنك بعد حين تحكم باني لم أقل غير الحق . واسمح لي أولا ان اتم حديثي عن مدام رولان . قلت انها احتلت بيتنا بصورة معلمة لي

وهي أجهل من دابة

وفي ذات يوم رأت والدتي ان تظهر لابي خطأه في ابقاء تلك المرأة في بيته فنتج عن ذلك خصام شديد بينهما افضى الى تغير والدي ومعاملته ايانا بالجفاء ومن ذلك لزمنا انا ووالدتي العزلة فخلا الجو لمدام رولان فاستوت على كرسي الرئاسة وصارت تأمر وتنهى في البيت وتقابل الزوار

— لاشك ان امك تألمت كثيراً

— نعم يامولاي وكان ألمها علي" اشد منه على نفسها ولشدة ما اصابها من الغم مرضت مرضاً عضالا ولسوء حظها وحظي توفي طبيب عائلتنا الدكتور سوربيه وكانت والدتي تثق بطبه فزادها حزنها عليه مرضاً

وكان لمدام رولان طبيب تعده بين اصدقائها وتدعي انه من نطس الاطباء فاشارت على والدي باستدعائه لمعالجة والدتي فعمل هذا باشارتها لانه كان استشارمرة هذاالطبيب فوجدانه حاذق وان مدام رولان صادقة في شهادتها ... وكان من سوء طالع امي ان رضيت باستدعاء ذلك الطبيب فجاء وكان اخر من عالجها في آخر ايامها

ثم ترقرق الدمع في عيني المركيزة وبعد سكوت وجيز عادت فقالت

— وارجو مولاي ان لا يحتقرني اذا اطلعته على ضميري وقلت له ان نفسي نفرت من ذلك الطبيب كأنه من الداء ائتلا لغير سبب سوى ان مدام رولان اشارت باستدعائه لتطبيب امي . ومنذ استسلمت هذه له شعرت بانقباض في صدري وما ادرى ما الذى حملني على تلك الريب لان الدكتور بوليدوري ...

فهتف رودلف قائلا وقد اخذته الدهشة

— ماذا تقولين يا سيدتي؟؟

فعجبت المركيزة لانقلاب هيئة البرنس وقالت له

— ما بك يامولاي ؟

فاخذ رودلف يناجي نفسه قائلا

— لا . لا . لقد اخطاء ظنى ولا شك ان هذا الحادث الذى اسمع حكايته حصل من خمس اوست سنين في حين ان بوليدوري لم يأت باريس الا منذ سنتين فقط متخفياً تحت اسم مستعار ... وهو نفس الرجل برادامنتي الذي رأيته

يوم امس . . . ولكن هل يتفق وجود طبيبين لهما اسم واحد . .
لا شك انه امر غريب .

وبينما رودلف يفكر كانت المركيزة شاخصة اليه والعجب آخذ منها وظلت ملازمة للصمت الى ان قال لها رودلف

— الا قلت يا سيدتى المركيزة كم عمر هذا الطبيب الطليانى؟

— عمره خمسون سنة بوجه التقريب

— وما هي أوصافه

— له صورة تنقبض لرؤيتها النفس . . . واني لا أنسى قط عينيه الزرقاوين وأنفه الاعقف الذي يشبه منقار النسر . .

فهتف رودلف قائلا — هو ! هو بعينه ! ! وهل تظنين ياسيدتي ان الدكتور بوليدوري لا يزال قاطناً في باريس

— لا أعلم يامولاي وغاية ما أعرفه انه رحل عن باريس بعد زواج والدي بسنة واحدة وفي ذلك العهد كان بويدوري يطبب صديقة لي تدعى مدام لوسيني . .

فهتف رودلف قائلا — الدوقة لوسيني ! !

— نعم يامولاي . وعلى مَ هذا العجب ؟

— لا يمكنني اطلاعك على سبب عجبي فاعذرني . . .

وماذا قالت لك الدوقة لوسيني عن هذا الطبيب؟

— قالت لي انه كتب لها مراراً بعد ذهابه من باريس وكان يملأ كتبه أخباراً مفيدة عن البلاد التي يزورها لانه كان كثير الاسفار. واذكر انني منذ شهر سألت الدوقة عما اذا كان بوليدوري لا يزال يكاتبها فبدت عليها علامات الارتباك وأجابتني بانه منذ أمد بعيد لم يسمع أحد شيئاً من أخباره ولا يعرف أحد مقره ولا ماصار اليه. وان بعضهم يشيع انه توفي.. ولكن خبرني يامولاي هل تعرف هذا الرجل؟

— نعم أعرفه لسوء حظي.. ولكن ارجوك ان تتمي حكايتك.. وفيما بعد اذكر لك من هو بوليدوري.. ذلك المجرم الذي يعجز القلم عن وصف ما أتاه في حياته من المنكرات والجرائم

فقالت المركيزة وهي مزعورة

— جرائم!! هل ارتكب هذا الرجل جرائم؟.... صديق مدام رولان وطبيب والدتي التي قضت نحبها بين يديه بعد مرضها ببضعة أيام!!... آه يامولاي اني ماكنت مخطئة في سوء ظني

— سوء ظنك؟

— نعم .. فقد قلت لك منذ حين ان نفسي نفرت من ذلك الرجل لان مدام رولان اشارت باستدعائه لمعالجة والدتي على انني لم اطلعك على كل شيء ..

— كيف ذلك؟

— كنت أخشى بادي، بدء ان القي التهمة على بري ولكني أرى الآن ان لا بدُ من ايقافك على كل شيء، فاعلم انني كنت ساهرة على والدتي أثناء مرضها ولا أفتر لحظة عن مراقبتها. وفي ذات يوم وهو الخامس بعد مرضها خرجت عند المساء الى الجنينة طلباً لاستنشاق الهواء النقي وبعد ربع ساعة عدت الى البيت وبينا أنا أسير في دهليز مظلم يؤدي الى غرفة مدام رولان رأيت باب تلك الغرفة انفتح وانبعث منه نور ضئيل وأبصرت الطبيب بوليدوري خارجاً. وما لبثت مدام رولان ان لحقت به فانكمشت في زاوية مظلمة فلم يبصراني وسمعت مدام رولان تكلم الطبيب همساً ولكني لم افهم ما قالته فأجابها بصوت بلغ اذني بهاتين اللفظتين: «بعد غد» وكأن مدام رولان لم تكتف بهذا الجواب فعادت تكلم الطبيب همساً فقال لها بلهجة غريبة

«بعد غد. قالت لك بعد غد» كانت تلك المحاورة مساء يوم الاربعاء . ويوم الجمعة توفيت والدتي رحمة الله عليها.

— ياله من حادث فظيع !!...

— وبعد هذه الكارثة المفجعة . ذهبوا بي الى واحدة من أقاربي فأفهمتني بصريح العبارة انني لم أكن مخطئة في شدة حذري وتخوفي من مدام رولان وكرهي اياها وبينت لي مطامع تلك المرأة والغاية التي لاجلها أدخلها والدى بيتنا فتصورت اذ ذاك كم قاست والدتي من ألم النفس قبل موتها واول مرة قابلت فيها والدى بعد تلك الحوادث المؤلمة شعرت بغصة وانقباض في صدرى . وقد أتى بيت قريبتي ليذهب بي الى مقاطعة نورمنديا لنقضي هنالك أشهر الحداد الاولى.

وفي الطريق قال لي بعبارة صريحة ان مدام رولان رضيت بعد الرجاء ان تبقى في بيتنا التدبر شؤونه وتكون لي مرشدة ومعينة. ولما وصلنا الى اوبيه مزرعة والدى استقبلتنا هذه المرأة ولم اكن اعلم انها تقدمتنا واحتلت البيت يوم وفاة والدتي وكانت بيني وبينها مواقع خصام شديدة

— كاني أشهد ألآن تلك المواقع .. . وما أكثر أمثالها

في البيوت ... ولكن خبريني ناشدك الله بايه صفه كان والدك يقدم مدام رولان لمجاوريكم ؟

— كان يقدمها بصفه معلمة لي وصديقه فلايستزيدونه استعلاما .

— وكيف كانت تعاملك حينما انفردتما؟

— كانت مثلي تبذل قصارى الجهد في ان لا نتقابل . وفي ذات يوم تقابلنا على غير قصد فعاتبتني على بعض كلمات قاسيه كنت أسمعتها اياها فقالت بفتور « كوني على حذر انك تريدين مكافحتي ولست اهلاً لذلك فاني اسحقك سحقاً. فقلت لها : نعم تسحقينني مثل ماسحقت امي ويسوءك ياسيدتي ان لا يوجد الآن الطبيب بوليدورى ليؤكد لك انني اسحق بعد غد . »

— وبماذا اجابتك حين ذكرت لها ماقاله بوليدورى ؟

— رأيت حمرة الاضطراب علت وجهها ولكنها مالبثت ان تملكت على نفسها واخفت اضطرابها وسألتنى عما أعنيه مما ذكرته لها عن الطبيب فاجبتها : « حينما تختلين الى نفسك سليها عن المعنى المقصود مما ذكرته لك فتجيبك . »

وبعد ذلك بزمن وجيز حدث بيننا خصام جديد افضى الى ماكنت أتوقعه وهو الانفصال عن تلك المرأة : اماسبب ذلك الخصام فهو انها سبّت والدتي المرحومة على مسمع من بعض الاقارب والزوار فاخذ مني الغضب وأطلعت أولائك الشهود على حقيقة أمرها والغرض الذي لاجله آواها والدي

— ولا شك عندي ان ذلك أهاج غضب والدك عليك؟

— نعم يامولاي هذا ما كان وفي صباح الغد جاءني وقال لي : « لكي لا يتجدد مثل خصام الامس في المستقبل رأيت ان اقترن بمدام رولان متى انتهت مدة الحداد فتضطري اذ ذاك الى احترامها بصفتها (زوجتي) واعلمي ان بعض الاسباب التي لا سبيل الى ذكرها الآن تقضي بزواجك قبل زواجي وبائنتك ما تركته امك من ثروتها وتقدر قيمته باكثر من مليون فرنك واعلمي انني منذ اليوم سأهتم بالبحث عن رجل يكون اهلا لك . » ولا يمكنني ان اصف لك يامولاي ما كنت اقاسيه من مرارة العيش حتى انني صرت انتظر بذاهب الصبر اليوم الذي اتزوج فيه لا تخلص من ذلك المضض وصممت على أن ارضى بالرجل الذي ينتقيه والدي

اما مدام رولان فكفت عن مسبّة والدتي ولكنها صارت تفعل ما يؤلمني ويدمي فؤادي ذلك انها تستعمل كل ما كان لوالدتي من الاثاث والادوات مثل كرسيها ومنوالها وكتبها الخاصة حتى أنها لم تستثني وسادة من حرير كنت نسجتها لوالدتي ونقشت عليها الحرفين الاولين من اسمها وعلى الجملة كانت تلك اللئيمة تدنس كل ما مسته يد والدتي الطاهرة

— انني يا سيدتي اقدر آلام نفسك قدرها حين كنت ترين تلك الفعال البربرية

— ولا تنسَ يامولاي أن الوحدة تزيد على ألم الاشجان ألما

— الم يكن لك من يواسيك أو يتوجع ؟

— لم يكن لي احد ... وفي ذات يوم بينما كنت اتنزه في غابة قريبة من البيت اقبل عليَّ رجل يدعى المسيو دوزفال وهو شيخ جليل وظيفته وكيل اشغال كانت تعرفه امي وتحسن وفادته وقد شهد الخصام الذي دار بيني وبين مدام رولان وسمع ماقلته عن اسباب وجودها في البيت . ولما دنا مني قال لي.

« اني اخشى يا أنسة ان يفاجئنا والدك . »

ثم ناولني كتابا واردف

« خذي هذا الكتاب واقرأيه ثم احرقيه وانك تجدين فيه اموراً ذات بال لها علاقة بك »

قال الرجل ذلك ومضى لسبيله.

اما فحوى الكتاب الذي قرأته للحال هو أن والدي عزم على تزويجي بالكونت درفيل وان هذا الشاب لا يعيبه شيء في الظاهر فهو صغير السن حسن الصحة متوقد الذهن جميل الصورة غير انه على رغم ذلك كله لم يجد من آباء الآنسات قبولا و بعد أن خطب مرتين سعى اهل الفتاتين اللتين خطبهما بفسخ الخطبة ... ولم يذكر لي الموسيو دورفال في كتابه السبب الذي لاجله فسخت تينك الخطبتين ولكنه رأى من الواجب عليه أن ينبهني الى ذلك الامر على انه لم ينسب فشل الكونت درفيل الى امر يشينه .

فظل رودلف مطرقا، يفكر بضع دقائق ثم قال .

— بالحقيقة انني اذكر الا ن ان زوجك كتب لي قبل ان يقترن بك كتابين في سنة واحد يخبرني في كل منهما بانه

كان على وشك الزواج ثم حال ما اوجب فسخ الخطبة وكان السبب في ذلك على ما قاله لي امور مالية .

فابتسمت المركيزة درفيل ابتسامة مرة واجابت .

— ساطلعك على الحقيقة بعد حين يا مولاي...

وفي صباح الغد دعاني والدي اليه وكان جالساً اذ ذاك في غرفته مع مدام رولان ولما دخلت عليه قال لي.

« انني افكر في امر مستقبلك منذ عهد بعيد . وانت تعلمين أن زمن الحداد ينقضي بعد شهر وغداً يزورنا المركيز درفيل وهو شاب من علية القوم وافر الثروة ولديه كلما يأول الى اسعافك وقد رآك في احد النوادي فمالت نفسه اليك وطلب الاقتران بك وقد دبرت كل ما له مساس بالامور المادية ولم يبق لاتمام قرانك بعد ستة اسابيع سوى رضاك . »

— أو لم تذكري لوالدك شيئاً مما قاله لك الموسيو دورفال عن فسخ خطبة المركيز درفيل مرتين فيما مضى ؟

— نعم يا مولاي انني في نفس ذلك اليوم رجوت والدي ان يسمح لي بمحادثته على انفراد ولما سمعت مدام رولان طلبي هذا خرجت للحال من القاعة التي كنا فيها

ولما خلوت به قلت له .

« انني يا ابتي لا اشعر بنفور من القران الذى تعرضه عليّ ولكن بلغني أن المركيز درفيل خطب فتاتين قبلي ولم ينل يد واحدة منهما ...

— فقطع والدى حديثي واجابني .. — نعم نعم وانا اعلم أن فسخ الخطبتين كان مبنياً على امور ماديه وقد اظهر المركيز درفيل شهامة نادرة المثال ولم يمسه في الامر عيب فاذا كنت لا تجدين غير هذا الاعتراض فاعتبري ان قرانك قد تمّ وايقني انه قران سعيد وانني راعيت فيه مصلحتك وسعادتك . »

— ولا شك أن مدام رولان سُرت بزواجك سروراً لا مزيد عليه ؟

— فاجابته كليمنس بصوت حزين ولهجة تنمّ عن ألم النفس

— نعم يامولاي أنها سرت لذلك سروراً عظيما لان قراني كان من صنع يديها فهي أول من اشارت به على والدي. وكانت تعرف حق المعرفة السبب الذي لاجله فسخ المركيز درفيل خطبتيه من ذي قبل ولذلك كانت دائبة على تزويجي به .

— وما كان غرضها من ذلك ؟

— أرادت أن تنتقم مني لعلمها أن ذلك الزواج كان شؤماً عليّ

— ووالدك ؟ . . . .

— قد انطلت عليه تلك الاكاذيب وصدق أن المركيز دوفيل اضطر الى فسخ الخطبتين لاسباب ماليه.

— يالها من مكيدة فظيعة !... ولكن الا قلت لي ما هو ذلك السبب الخفي في فسخ الخطبتين ؟

— ساذكر لك ذلك فيما بعد يامولاي

وفي الغدوصل المركيز درفيل الى المزرعة فلما ابصرته وتأملت جمال وجهه وتحققت ذكائه اعجبني ولا سيما أن هيئته كانت تدل على الطيبة ودماثة الاخلاق والكآبة وقد لاحظت فيه من التناقض ما ادهشني واعجبني في انٍ واحد : فكان مع تثقيف عقله واتساع ثروته وكرامة أصله وثبات جاشه تلوح عليه من حين لاخر علامات الخجل والارتباك فكانت تؤثر في نفسي تلك المظاهر وقد أعجبني فيه كثيراً إنه كان يحسن معاملة مربيه وهو خادم طاعن في السن ولم يكن يسمح لاحد سواه بخدمته :

وبعد وصوله . الى المزرعة ظلّ يومين كاملين محتجباً في غرفته فاراد والدي ان يراه فمنعه الخادم الشيخ مدعياً أن سيده مصاب بصداع شديد وانه لا يسمح لاحد بالدخول عليه ولما ظهر المركيز درفيل وجدته شاحب اللون متغير الهيئة .. وكلما ازددت به معرفة ازددت اليه ميلا

ولما تحدد يوم الزواج وافق المركيز على كل الافكار التي ابديتها بخصوص المستقبل وكلما قرب يوم الزفاف كان يزداد المركيز فرحاً وتظهر على وجهه علامات البشر والسعادة باكثر وضوح . على انني مرة لمحت على وجهه حزنا وكآبة وفي ذات يوم شخص اليّ والدمع يترقرق في عينيه وكانت هيئته تدل على غصة وارتباك كانما يريد اطلاعي على سر خفي ولا يجسر واذذاك خطر على بالي ذكر خطبتيه وفسخهما فشعرت بخوف وحدثتني نفسي ان زواجي بهذا الرجل سيكون سبباً في شقائي طول حياتي غير انني تغلبت على المخاوف لشدة رغبتي في الخلاص من مضض العيش الذي كنت فيه .

والنفس راغبة اذا رغبتها   واذا تردّ الى قليل تقنع

— ألم يطلعك المركيز درفيل على حقيقة امره ؟

— كلاً . . .

واصفر وجه المركيزة حينما فاهت بهذه الكلمة كانما خانها عزمها . ثم اردفت

— وبعد الاكليل ضمني والدي الى صدره بحنان وقبلتني ايضاً مدام رولان وضغطت بيدها اليابسة على يدي حتى ألمتني وهمست في اذني هذه الكلمات التي لا انساها طول حياتي

«اذكريني من حين لاخر وانت في النعيم لاني انا السبب في زواجك»

غير انني لم أفهم اذ ذاك المعنى الحقيقي المراد من عبارة تلك اللئيمة . وعند الساعة الحادية عشرة بعد الاكليل ركبنا العربة وكانت بصحبتنا خادمتي وخادم زوجي . وكان يلزمنا الاسراع في السير لنصل الى باريس قبل الساعة العاشرة ليلا . ولا يخفى عليك يامولاي ما تولاني من المخاوف وانا عائدة وحدي الى باريس التي فقدت فيها امي منذ بضعة شهور . ولما وصلنا نزلت في بيت المركيز

وتزايد انفعال المركيزة فاحتقن وجهها وأصبح خداها كشقائق النعمان وعادت فقالت بصوت تنفطر له القلوب

— لابدّ ان اطلعك على كل شيء.. والاّ تحسبني جديرة بالاحتقار وما كدنا نستقر حتى ذهبوا بي الى الغرفة المعدة لي.... وتركوني فيها وحدي... وبعد ساعة دخل عليّ المركيز درفيل تخيل اليّ ان دقات قلبي تكاد تقف لشدة الرعب.. وخنقني البكاء... وقلت في نفسي لقد اصبحت له فلا يسعني الاّ الرضوخ لحكم القدر.. وظل زوجي صامتاً برهة ثم صرخ صرخة دوت لها اركان الغرفة وامسك بذراعي بعنف شديد حتى كاد يكسره.. فحاولت أن اتخلص من بين يديه.. فطفقت اتوسل اليه ولكنني كنت كالنافخة في رماد وتقلصت عضلات وجهه وانقلبت سحنته انقلاباً مفزعاً. وصارت تجول عيناه في محجريهما بسرعة مخيفة ثم تشنجت اصابعه فافلت ذراعي واصابته النوبة الهائلة فاغمي عليّ.. تلك كانت ليلة عرسي يامولاي وهكذا انتقمت مني مدام رولان

فقال لها رودلف بصوت ينم عن شدة انفعال النفس

— يالك من تعسة..عرفت الان الحقيقة انه مصاب

يداء الصرع ياله من امر فظيع ! !

— فقالت كليمنس والدموع تتساقط على خديها

— والذي يزيدني ألمًا هو ان ابنتي ورثت نفس المرض عن والدها

— ابنتك ايضاً؟ ان ضعفها وشحوب لونها مسببان اذن عن..

— نعم مسببان عن المرض نفسه . . وقد قال الاطباء ان مرضها لا يشفى لانه وراثي..

وبعد ان فاهت كليمنس بتلك الحقائق خانها الجلد ولم تعد تقوى على الحديث فغطت وجهها بيديها ونكست رأسها الى الارض . ولزم رودلف الصمت وهو يتصور ليلة العرس التي وصفتها المركيزة وعلامات الاشمئزاز بادية على وجهه . وبقيت كليمنس مطرقة برهة لاتجسر على النظر اليه فادرك ماألمّ بها من الحياء بعد الذي أطلعته عليه فقال لها بعد سكوت طويل

— قد أدركت الآن السبب في كآبة المركيز الدائمة . . وعلة ندمه . .

— ندمه ؟ الاجدر بك يامولاي ان تقول وخز ضميره . هذا اذا كان له ضمير لانه ارتكب هذه الجناية مع

سبق الاصرار..

— جناية ياسيدتي !!

— نعم يا مولاي من أفظع الجنايات ان يغش الرجل فتاة وثقت بشرفه ويلتصق بها التصاقاً لافكاك منه وهو مصاب بمرض عضال ترتعد منه الفرائص... والافظع من ذلك ان يورث مرضه لولده ويسبب له تعاسة كان في غنى عنها وهو في عالم الغيب.. فما عذر المركيز درفيل في جلب الشقاء لي ولابنته وتنغيص حياتنا في هذا العالم؟. لم يدفعه الى هذا العمل الفظيع سوى شهواته الحيوانية.. ولا سيما انه وجدني على جانب عظيم من المال وحسن الخلقة.. طمع في هذه الصفقة الرابحة ليتخلص من عيشة العذوبة المملة..

— ألا تشفقين عليه ياسيدتي؟

— لا يستحق الشفقة سوى ابنتي لانها بريئة فقد أكل والدها الحصرم وأطعمني منه مرغمة وهي ضرست.. فكم من ليلة قضيتها ساهرة الى جانب مهدها ابله بدمعي السخين

— أو ليس يقاسي والدها نفس الآلام التي تقاسيها على غير ذنب ارتكبه؟

— اذا كان هو يتألم من مرض ورثه أو اكتسبه فليس من العدل ان يورث ابنته ذلك المرض فتذبل زهرة صباها وتشب ضئيلة معتلة فتقضي حياتها في الشقاء والعذلة لعدم أمكانها الزواج .. نعم انني أحول دون زواجها ما زلت على قيد الحياة لانني أحبها كثيراً . ولا أرضى ان اراها تتألم على مصاب اولادها مثلما أتألم على مصابها .. ولقد قاسيت كثيراً من خيانة زوجي فلا آتي بمثلها ..

— لاألومك الآن على شدة بغضك لامرأة أبيك لأن انتقامها منك كان فظيعاً . فصبرٌ جميل واملك يوماً ما تنتقمين . وقد أتاح لي الحظ ان أرى الكثيرين من الاشرار ينالون جزاء مافعلت أيديهم . وبعد ليلة العرس ماذا قال لك زوجك؟

— اقر لي بان أهل الفتاتين اللتين كان خطبهما علموا بانه مصاب بداء الصرع ففسخوا الخطبة .. اما أنا فوقعت في الاحبولة لانه لم يكن لي من يبحث عن حقيقة أمر هذا الرجل الذي يقال عنهُ انه ذو شرف وعزة نفس

— المشهور عنك ياسيدتي انك طيبة القلب فلا تدعي القساوة تتغلب على عواطفك

— اني مدفعوة الى القساوة على الرغم مني لاني ذهبت ضحية خيانة فظيعة . . وكان المركيز درفيل يعلم حق العلم انني طيبة القلب فلماذا لم يفتح لي صدره ويطلعني على حقيقة أمره؟

— خاف ان ترفضي الاقتران به . .

— هذه هي أسود نقطة في جريمته يامولاي لأنه فعل مافعل على عمدٍ . فكن أنت الحكَمُ العدل وقل لي ناشدتك الله ماهو الذنب الذي ارتكبته لاكون زوجة رجل مصاب بعلة عضالة لاتشفى واقضي طول حياتي اندب سوء حظي وحظ ابنتي ؟ . أو هل يجوز ان أكون وحدي المساولة عن الهفوة التي ارتكبتها هذا الصباح وكاد المركيز درفيل ان يقتلني لاجلها . . نعم ان ذنبي عظيم والذي يزيد عملي قبحاً انني لم أحسن انتقاء الذي أوشك ان يدنس عرضي . والذي استرقته يامولاي من حديث ساره وأخيها يكفيني مؤونة اطالة الشرح عن هذا الموضوع . . وأرجو الآن بعد اقراري بالحقيقة ان يكون اشفاقك عليَّ بقدر لومك اياي

— ان حكايتك أثرت بي جداً .. وقد تصورت ماقاسيت من آلام النفس منذ وفاة أمك حتى ولادة ابنتك

وان كنت استحق الجزاء على ما صنعته معك من الجميل على ماتقولين فاني نلت من ثقتك بي اعظم جزاء .. ولكن بما انك تطلبين نصحي وتريدين ان لا أحيد عن حرية الضمير فيما أقوله لك .

— نعم ! نعم يامولاي هذا ما أرجوه منك

— فاعلمي اذن بانك أن لم تعمدي الى تقوية الخصلة الحميدة التي اعهدها فيك تخسري جانباً عظيما من المسرات التي تقشع الهموم عن فؤادك وتلهيه ... وتضعف فيك ذلك العيب الفطرى الموجود في كل النساء وهو استطلاع كل سر خفي

— ماذا تعني يا مولاي ؟

— اعني انك اذا عمدت الى عمل البر والاحسان تجدين فيهما لذة لا تذكر بجانبها ملذات العالم باجمعها.

فلم تجب المركيزة بكلمه وظلت شاخصة الى رودلف فاردف هذا

— ولا اريد بالبر والاحسان أن تبعثي بشيء من المال الى بؤساء لا تعرفيهم وربما لا يستحقون احسانك وانت غير مبالية بما تصنعين . وانما المراد أن تصنعي ما اصنعه انا وذلك أن تتخذي عمل الخير كسلوى لك . فانك تجدين احيانا كثيرة

في ممارسة الاحسان مواقف تلذلك مشاهدتها اكثر من قرأة الروايات ... فاجابته المركيزة وهي تبتسم

— انني لم افكر قط في اتخاذ الاحسان كوسيلة للمسرة وترويح النفس

— هذا اكتشاف لم يسبقني اليه احد.. والذي ساعدني عليه كرهي الزائد لكل ما هو ممل ومجلب للضجر... فان اردت فعل البر على الطريقة التي يتبعها الآخرون اكتفي بتكليف بعض رجال بطانتي بتوزيع بضع مئات من الدنانير على المعوذين في احياء باريس.. ولكنني لا أفعل ذلك لاني لا أجد فيه أقل لذة... وعلى عكس ذلك أجد لذة عظيمة في عمل البر على طريقتي .. واذا اردت ياسيدتي أن تكوني لي شريكة وتتبعي طريقتي تجدين فيها ما خلا العمل النبيل لذة وسروراً واموراً غريبة مفرحة تلهيك عن كل شيء وتنسيك كل همومك

فهتفت المركيزة قائلة وهي شاخصة الى رودلف

— آه يامولاي! شكراً لك لقد انقذتني.. ان لساني يعجز عن ايضاح الافكار الجديدة والامال العظيمة التي ولدتها في اقوالك هذه.. نعم صدقت أن اهتمام الانسان باسعاد

التعساء واستمالة قلوبهم اليه عمل عظيم يضاهي الحب والغرام. ماذا أقول ؟ بل هو عمل أفضل من الحب واني اذا قارنت بين الحالة التي وصفتها والتي كنت أصبحت فيها لو أني قدمي سارت بي الى هوة العار ازداد قبحاً في عيني نفسي ويزاد بي وخز الضمير

— وكم يكون اسفي عظيما ان انت لم تسلكي الطريق التي وصفتها لك وغاية ما اتمناه هو اعانتك على نسيان الماضي واقناعك بان قلب الانسان يجد في العالم كثيراً من الملاهي غير الحب والغرام .. فهل تريدين أن نشترك ونكون يداً واحدة في عمل البر واغاثة البؤساء بطرق سرية خفية لا يعرف بها احد ؟ فنعين أماكن معلومة نجتمع فيها ويكتب كل منا لشريكه عما اتاه من ضروب الاحسان متقين عين كل رقيب ولا سيما زوجك المركيز لان زيارتك لعائلة موريل هذا الصباح نبهت افكاره وبالاختصار نكون صاحبي دهاء ودسيسة في عمل الاحسان

— نعم اني ارضى بملئ السرور بهذه الشركة الاخوية يامولاي . واول ما ابداء بعمله هو أن أعود الى زيارة

عائلة موريل التعسة التى لم تنل مني هذا الصباح سوى بعض عبارات تعزية . والسبب في ذلك اني صادفت على السلم وانا صاعدة غلاماً أعرج نازلا وحين دنا مني رأى ما كنت فيه من الاضطراب فاختطف من يدي كيس النقود الذي كنت أعطيتنى اياه..

ثم انقبض وجه كليمنس حزناً بعد انبساطه وعادت فقالت

— يارباه !! لو كنت تعلم يامولاى في اية حالٍ من الفقر المدقع وجدت تلك العائلة لتفطر قلبك حزناً عليها اني وايم الحق ما كنت أتصور قط ان الشقاء يبلغ هذا الحد . . ومع هذا ارانى أشكو حالتي . . وأندب سوء حظي !..

فاثر في نفس رردلف عود المركيزة على نفسها بالتوبيخ تأثيراً شديداً . ولكي يخفي عنها ماالمّ به من الانفعال قال لها وهو يتكلف الضحك

— اسمحى لي ياسيدتى ان تكون عائلة موريل من حصتي ولا تعودى الى زيارة ذلك البيت الذى تنقبض لرؤيته النفس لانى ساكن فيه.

تم الجزء الثالث ويليه الرابع

الفكاهات العصرية

مجلة روائية أدبية تاريخية

لصاحبها

عبد الله غزاله

السنة الاولى

العدد ١٨

روايات يثوب الكهل منها ... بتفكهة وتخلية لفكر

ويقرأها الفتى فيطيب نفساً ... بما يلفيه من خَبَر وخُبْر

خليل مطران

رواية

مكنونات باريس

تأليف

القصصي الشهير في عالم التحرير

اوجين سو

تعريب

الكاتب البليغ والطبيب البصري البارع

الدكتور ابراهيم شدودي

مطبعة العرب

تمهيد

تركنا رودلف في بيت المركيزة ويسئلها ان تكون زيارة بيت عائلة موريل التعسة من حصته واخبرها انه ساكن في ذلك البيت . .

....

فسألته المركيزة — انت يامولاى ؟ماهذا المزاح؟

— لا وحقك لست مازحاً وانما أقول الحقيقة .فقد اتخذت لي في ذلك البيت مسكناً صغيراً آجرته مئتا فرنك في السنة. واتفقت مع مدام بيبليه زوجة البواب ان أنقدها ستة فرنكات كل شهر مقابل قيامها بتنظيف منزلي .... نعم ان مدام بيبليه قبيحة الصورة كما تعلمين ....غير أن لي جارة «فرفورة» تعد من أجمل بنات حي التامبل وتدعى الضحوكة ....ولكي لا يرتاب أحد في أمري ادعيت أني موظف في بيت سمسرة كبير واني أربح الفاً وثمانمائة فرنك سنوياً

— ان وجودك في ذلك الحي هذا الصباح يثبت لي أنك لست مازحاً يامولاي وان ماتقوله هي الحقيقة ... ولا ريب عندي في أن غايتك الوحيدة من وجودك في ذلك الحي هي عمل البر. ولكن ماذا أبقيت لي من الاعمال الخيرية؟. وما هي الوظيفة التي تريد مني القيام بها ؟

— ستقومين بوظيفتين : الاولى وظيفة ملاك التعزية والمؤاساة .والثانية وظيفة شيطان الدهاء والحيل . أرجوك أن لا تؤاخذيني على هذا التعبير لانه توجد في نفوس البؤساء جراح داميه لاتحسن تخفيف آلامها سوى يد المرأة.

— ومتى يمكنني استعمال المهارة التي تنسبها لي ؟

— عما قريب تقومين بعملا أنت أهل له ... ولكن لا بدَّ لك من الاستعانة بكل ما لديك من الدهاء

— ومتى تبين لي ما هو ذلك العمل ؟

— أترين كيف بدأنا في طلب المواعيد ؟...أتسمحين لي بزيارتك بعد أربعة أيام؟

— وعلى مَ هذا التأخير؟

— ليبقى أمرنا مكتوماً .. فاذا ظننا الناس متآمرين ينظرون الينا بعين الحذر . لكن المرجح عندي أن اكتب لك ... فمن هي تلك العجوز التي أتتني بكتابك الليلة ؟

— هي خادمة المرحومة والدتي وقلما يوجد بين النساء أصدق منها واحفظ على السر

— اني اذن أسلمها رسائلي لتوصلها لك . واذا تلطفت

بالجواب فارسلي كتبك اليَّ تحت هذا العنوان : «الى الموسيو رودلف شارع بلوميه » » وكلفي خادمتك بوضع خطاباتك في صندوق البوستة

— أما صدَق قولي لك في كتابي بانك ان زرتني الليلة تم نهارك بعمل مجيد مثل ما بدأته ؟ .

فاجابها رودلف وهو يضحك

— نعم ياسيدتي قد تم نهاري بعمل من الاعمال السارة التي تبتهج بها نفسي. قال ذلك واستوى واقفاً ودقة الساعة الحادية عشرة فقالت له كليمنس

— أستودعك الله يامولاي وأرجوك أن تطلعني بأقرب ما يمكن على أحوال عائلة موريل

سأزورهم غداً صباحاً باذن الله .. لانني كنت أجهل أن الغلام الاعرج سرق منك كيس النقود... ويغلب على ظني أن أولئك التعساء في ضنك شديد . وأرجوك أن لاتنسى انني بعد أربعة أيام سأزورك وأبين لك الوظيفة التي تقومين بها ولكن لابد لي من تنبيهك منذ الا ن الى أمر لم يخطر على بالك وهو انك تحتاجين الى التنكر

— التنكر ! ياربّاه ما أسعد حظي ! وكيف يكون ذلك؟ التنكر يامولاي ؟

— لايمكنني أن أحدده لك وأترك لك في ذلك الخيار

الفصل التاسع عشر

عائلة موريل

يذكر القارئ أن عائلة موريل التعسة تسكن حجرة حقيرة في الطابق الاعلى من بيت شارع التامبل وأن مهنة موريل رب هذه العائلة هي بردخة الحجارة الكريمة فليصعد معنا القارىء الى ذلك المسكن الحقير يرى ما يدمي القلوب

دقت الساعة الخامسة بعد منتصف الليل وصاحت الديوك مبشرة ببزوغ الفجر وظلام الليل حالك والبرد قارس والثلج يتساقط ويكسو الارض حلة بيضاء ...في تلك الساعة كان مسكن عائلة موريل مضاء بنور شمعة ملصوقة على قطعة من الخشب وكلما هبت الريح على تلك الشمعة تلاعبة شعلتها وتلاعبة الاشباح على الجدران. وكان في وسط الغرفة (طاولة) مربعة من خشب السنديان خشنة الصنع ملوثة ببقع من الزيت والشحم وفي وسطها قبضة من حجارة الماس والياقوت

الكبيرة الحجم تتألق كأنها زهر النجوم في الليلة الدهماء .

كانت مهنة موريل بردخة الحجارة الكريمة كما تقدم وليس بردخة الحجارة الكاذبة كما كان يشيع وكما كان يظن سكان شارع التامبل ... والفائدة من ذلك الكذب ان موريل كان يأمن شر سرقة الجواهر التي يكلف ببردختها لظن اهل الحي انها حجارة لا قيمة لها .

فاذا تأمل القارىء تلك الجواهر الساطعة التي تبلغ قيمتها الوفا من الفرنكات تسطع على تلك الطاولة القذرة بين ايدي عامل محتاج الى قوت يومه يكفينا وصف ما كان عليه موريل من طهارة الذمة وعفة النفس ..

في ذلك الفجر البارد وعلى ضوء الشمعة الضئيل كان موريل جالساً على مقعد من خشب وقد تغلب عليه البرد والوصب واستولى عليه النعاس بعد أن اجهد نفسه في العمل طول تلك الليلة الباردة فالقى ذراعيه على الطاولة واسند اليها رأسه واخذته سنة الكرى وكان لشدة البرد في تلك الغرفة يرتجف وهو في ثبات النوم وكان السكون شاملا ولا يسمع سوى انفاس هذا النفس اما الستة الاخرون

المقيمون في نفس الغرفة فما كانوا نياماً ... نعم في تلك الغرفة الضيقة كان يقيم سبعة اشخاص وهم خمسة اولاد اصغرهم ابن اربع سنين واكبرهم لا يتجاوز الثانية عشرة ... وامهم وهي مريضة طريحة الفراش ... وعجوز معتوهة تناهز الثمانين وهي جدة الاولاد (ام امهم) فمن هولاي السبعة لم ينم احد طول تلك الليلة ما خلا الوالد الذي انهكه التعب فنام بضع دقائق على رغم تجلده نعم لم ينم منهم احد لان البرد والجوع والمرض تذهب بالنعاس ... ولم يكن لموريل من عدة النوم سوى فراش ارق من رغيف البخيل وقطعة من لحاف تكاد تستره اذا انكمش تحتها وقد اغتصب هذه القطعة من حماته المعتوهة التي قضى جنونها بان تستأثر بسريرها ولا تشغل به احداً

والى جانب سرير الجدة فراش من القش ملقى على الارض وعليه خمسة اطفال . فتق موريل الفراش من عرضه وادخل فيه اولاده الخمسة بحيث اصبحت اجسامهم بين قش الفراش ورؤسهم بارزة الى الخارج .

وكان قش ذلك الفراش ميللاً بالماء لشدة الدلق بذلك المسكن اما الاولاد فهم فتاتان صغيرتان احداهما مصابة بمرض

عضال كانتا ترتجفان لشدة البرد والى جانبهما ثلاثة أولاد وكانوا كلهم مضجعين بثيابهم وهي اطمار بالية رطبة وكان أحد الصبيان ممسكا طرف كسوة الفراش بأصابعه المتوترة ويشده اليه ليغطي به وجهه لعله يخفف ألم البرد . وكان أخوه الى جنبه ممسكا طرف الكسوة بأسنانه لكي لايخرج ذراعيه من داخل الفراش خوفاً من البرد اما الثالث فكان ملتصقاً باخويه . وكانت احدى الفتاتين المريضة مصابة بداء السل ومسندة رأسها الى صدر أختها ولم يكن عمر هذه سوى خمس سنين وكانت تضم اليها أختها المريضة لتدفئها بذراعيها وتنظر اليها نظرة ملئها العطف والحنان . . .

وعند آخر تلك الغرفه فراش آخر من القش ملقى في زاوية وعليه امرأة مطروحة تشويها نار الحمى ويمنعها عن الحركة ألم ويبوسة في المفاصل فلم تبرح فراشها منذ أشهر عديدة وكانت تدعى مادلين موريل وعمرها ستة وثلاثون سنة

قلنا ان السكون كان مخيماً على ذلك المسكن الحقير وان كل من فيه كانوا في يقظة ماخلا موريل وكان كل أولئك المستيقظين من الجدة المعتوهة الى أصغر البنين شاخصين

الى موريل أملهم الوحيد ومورد رزقهم وكانوا كلهم لشدة خوفهم من الهلاك جوعاً في كدر ويأس شديدين لانقطاع والدهما عن العمل واستسلامه لسلطان النوم لشدة الوصب ...

كانت الأم تفتكر في أمر بنيها التعساء والبنون يفكرون فيما أصابهم من الجوع ... والعجوز المعتوهة لا تفكر في شيء ولكنها بعد حين وثبت بغتة من فراشها ومدت ذراعيها الناحلتين ومشت الى حيث كانت الشمعة ولما دنت منها مدت يديها فوق شعلتها تريد تدفئهما على حرارتها وقد تزايد نحولها وشحوب لونها حتى أصبح كفاها شفافتين يرى من خلالهما ضوء الشمعة .

وظلت تدني كفيها من شعلة الشمعة حتى لمستها فاحترقت فتألمت فصرخت صراخاً مزعجاً فاستيقظ موريل من نومه مذعورا

وكان هذا الرجل يناهز الاربعين ذا هيئة تنم عن صفاء السريرة وتوقد الذهن ودماثة الاخلاق غير ان الشقا والبؤس خلفا جدة ملامحه وكانت تكسو وجهه آثار بثور الجدري أقد طال شعر لحيته لانه لم يحلقه منذ أسبوع وكان أصلع

الرأس وعلى جبينه غضون أتت قبـل أوانها واحمرت اجفانه وثقلت لطول السهر

فلما استيقظ من نومه واستوى واقفا على قدميه أقبلت نحوه العجوز المعتوهة فقال لها — مابك ؟ماذا تريدين ياأماه ؟

ثم أردف بصوت خافت خوف ان يوقظ عياله لظنه انهم نيام

— اذهبي واضطجعي في فراشك يا أماه . . . والزمي الصمت فان مادلين والاولاد نائمون

فقالت له اكبر الفتاتين. — انا لست نائمة ياابتي... واني أحاول تدفئة اختي اديل.

وقال له أحد الصبيان انني لا استطيع النوم ياابتي لشدة الجوع ولم تكن نوبتي الليلة في مناولة المرق عند الانسـة الضحوكة

فتفطر قلب موريل حزنا واجاب

— لهفي عليكم يا اولادي كنت اظنكم نياما .

فاجابته زوجته

— لولا خوفي من ايقاظـك لكنت طلبت منك شربة ماء فقد أصابتني نوبة الحمى ولساني محترق لشدة العطش -

— اصبري حتى اعيد أمك الى فراشها

— ثم قال موريل للعجوز وقد رآها تدنو من الجواهر التي على « الطاولة » وتمد يدها نحو ياقوتة كبيرة تبهر النظر

— لا تقربي من هذه الحجارة يا أماه .. اذهبي الى فراشك

قالت زوجته المريضة بصوت يدمي القلوب

— ويلاه!! يا رباه ما أشد عطشي !! تعال اسقني يا موريل

— ما حيلتي يا مادلين لا يمكنني ان ألبي طلبك وادع أمك تبعثر حجارة الماس والياقوت خوفاً من ان تضيع منها حجراً مثلما فعلت منذ سنة .. والله وحده يعلم ماذا كلفنا ضياع ذلك الحجر وما ربما يكلفنا في المستقبل

ثم وجه حديثه الى المعتوهة وقال لها بصوت المهدد اذ رآها مصرّة على اختطاف الياقوتة الكبيرة

— اياك ان تمدي يدك الى هذه الحجارة

فلم تكترث العجوز بتهديده وكشرت له عن ناب الغضب وصارت تجمجم وتتمتم وتصد موريل عنها لتدنو من الجواهر ثم أشارت باصبعها الى واحدة من اليافوت وقالت — هذه؟

فدفعها موريل بتؤدة ولكن بلا جدوى فقالت له زوجته وقد خانها الجلد

— سيطول أمرك معها ان أنت لم تخوّفها بالسوط . وليس لدينا سوى هذه الواسطة لاعادتها الى السكينة

فاجابها موريل : — لاأرى بدأ من ذلك . . . على انني تأبي نفسي تخويف هـذه التعسة بالسوط ولو كانت بلهاء ثم انه أخرج من تحت الطاولة سوطاً صغيراً وضرب به الهواء فاحدث فرقعة وحالما سمعت المعتوهة ذلك الصوت عادت الى فراشها القهقري وهي تتهدد موريل بقبضة يدها

وقد يعجز القلم عن وصف ذلك المنظر المحزن . شكوى الصغار من الجوع . ودمدمة المعتوهة من الغضب . وأنين مادلين من الألم . فقد بشهد موريل مراراً عديدة مثل هذا الحال التي وصفناها ولكنه مع ذلك خانه الصبر فأعاد السوط الى مكانه وهو يقول بصوت ملؤه اليأس

— رباه ارحمني ! . ماهذه الحياة ! ! ماهذه الحياة ! !

فبكت مادلين وقالت له

— ماذنبي اذا كانت أمك فاقدة الرشد ؟

— وما ذنبي انا ؟ . انني على وشك الهلاك من الوصب لاجلكم . . لا انفك عن العمل نهاراً وليلا . . ولا أشكو ولا

اتزمر . . وأظل اعمل مازال في قوس قواي منزع . . غيرانه لايمكنني القيام بعملي وحراسة امرأة مجنونة وتمريض معتلة وسماع شكوى صبية ذهب الجوع بصبرهم لا . لا . ليس هذا من العدل ياربباه ليس هذا من العدل ... ان هذا العبء أثقل من ان ينهض به رجل واحد

قال ذلك بصوت تنفطر له الاكباد ثم انطرح على المقعد الخشبي وغطى وجهه بيديه واذ ذاك سمع مادلين تقول

— ياربباه ! ياربباه ! ما أشد ظمئي ! ! ان جسمي يرتعد والحمى تشويني ! !

— اصبري آتيك بماء فتشربي

ثم اتى موريل بابريق كان عند باب الغرفة . وبعد ان كسر طبقة من الجليد كانت على وجه الماء ملاء كاساً واتى به زوجته وكانت مادة نحوه ذراعيها الناحلين وقد خانها الصبر .. ولكن بعد ان فكر قليلا قال لها

— لا . لا . لا اسقيك من هذا الماء فانه شديد البرودة وانت مصابة بالحمى واخاف أن ينالك من شربه اذى ..

فاجابته مادلين بصوت امر من العلقم

— اتخاف عليَّ من الاذى ؟ وانا اتمنى منتهى الاذى وهو الموت . . . اسقني اسقني لعلي اموت فأستريح من هذا العذاب . . . واريحك من ثقلتي . . . فلا تعود تهتم الا بحراسة المعتوهة وسماع شكوى الصبية الجائعين اما المريضة فتمضي الى سبيلها .

فاجابها موريل وقد اخذ منه الحزن

— لماذا تسمعيني هذا الكلام المؤلم يامادلين؟ . . . . . انني لا أستحقه ناشدتك الله لا تزيدي في حزني فان ما بقي لي من الصواب يكاد لا يكفي للقيام بعملي . . . واني اشعر باضطراب في دماغي فلا اظنه يثبت على احتمال كل هذه النوائب . . . فان صدق ظني وفقدت صوابي ماذا يحل بكم ؟؟ . .

فذاب قلب المرأة حزنا على زوجها وقالت له والدمع يترقرق في عينيها

— لهفي عليك يا موريل !! نعم قد اخطأت في قولي لك أني اتمنى الموت لاخلصك مني . . . فلا تؤاخذني . . . انني ما اردت سوء القصد فيما قلت . . . الست عالة عليك ؟ . .

وما الفائدة مني لك ولاولادنا ؟ ... انني طريحة الفراش منذ سنة واربعة شهور .. يلاه ما اشد عطشي اسقني بريك اسقني !!

— تجلدي بضع دقائق حتى ادفيء الماء بيدي

— ما ارق عواطفك !! ومع هذا اسمعك كلاما مؤلما

— انني لا الومك لانك مريضة والمرض يذهب بالصبر ويجلب نذق الطبع ... فقولي لي ما شئت ماخلا انك تريدين خلاصي منك ...

— وما فائدتك مني ؟

— وما فائدتنا من اولادنا ؟

— ان اولادك كانوا سببا في زيادة شقاك . ولكن لولاهم لكنت قلت لك من عهد بعيد . « لقد كفاك شقاً ياموريل وكفاني فلتغلق علينا باب هذه الحجرة وتشعل شيئاً من الفحم فنموت اختناقا ونرتاح من حياة مرة نقضي لياليها بقضم الجلمد ... » ولكن هؤلاء الاولاد يحولون دون ذلك

لولا بنيات كسرب القطا * رددنا من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع * في الارض ذات الطول والعرض
لكنما اولادنا بيننا * اكبادنا تمشى علي الارض

لو هبت الريح على بعضهم * لأمتنعت عيني عن الغمض

فقال لها موريل .

— اترين الان أن للاولاد فائدة عظيمة .. خذي فاشربي على مهل ولا تكثري فان الما لا يزال شديد البرودة ..

وفي تلك الساعة بدأ نور الفجر يدخل تلك الغرفة المظلمة من خلال زجاج النافذة المتراكم عليه الثلج فزاد النور منظر ذلك المسكن كئابة لان ظلام الليل كان يستر ما به من دلائل الفقر المدقع . وجلس موريل على حافة فراش امرأته واسند جبينه الى يديه وقال .

— ساعود الى العمل متى صحصح نور النهار .

— متى تعود مدام ماتيو لتأخذ الحجارة التي تصقلها ؟

— ستأتي هذا الصباح .. اذ لم يبق لي سوى بردخة جهة واحدة من حجر ماس كاذب

— حجر ماس كاذب ! ... عجباً انك لا تبردخ سوى الحجارة الكريمة على ما يظن اهل الحي .

— كيف ! الا تعلمين ؟ ... نعم . نعم . تذكرت الآن انك كنت نائمة حينما اتت مدام ماتيو . فقد اعطتني عشرة

حجار من الماس الكاذب الذي يدعونه حصى الرين وطلبت مني ان اصقلها واجعلها بنفس حجم وشكل الجواهر التي اتتني بها الملقاة على هذه الطاولة وانني لم ار طول حياتي حجارة من الماس اجمل من هذه العشرة التي تريتها والتي لا ينقص ثمنها عن ستين الف فرنك

— ولماذا سألتك السيدة ماتيو أن تقلد هذه الجواهر بحجارة كاذبة ؟

— اعلمي أن هذه الجواهر تخص امرأة من علية القوم وهي دوقة على ما اظن وقد كلفت الموسيو بدوان تاجر الجواهر ببيعها وبان يصنع لها عوضاً عنها حجارة كاذبة على شكلها تماماً والذي اخبرني بذلك هي مدام ماتيو نفسها لانها تشتغل بسمسرة الجواهر في محل بدوان وهي التي كلفتني ببردخة الحجارة الكاذبة وقد كلفت اربعة مبردخين اخرين غيري بنفس العمل لان عدد الحجارة الكاذبة التي تريد الدوقة عملها يربو على الستين وقد قالت لي مدام ماتيو ان كثيرات من النساء يبعن جواهرهن الثمينة لضيق ذات اليد ويستبدلنها بحجارة من حصى الرين .

— وكم ستدفع اليك مدام ماتيو؟

— لا شيء. لانها دفعت لي ماية وعشرين فرنك مقدما

— لا شيء ! ... الا تعلم اننا انفقنا يوم أمس الفرنك الاخير الذي كان باقياً لنا واصبحنا اليوم وليس لدينا ثمن رغيف خبز .

فاجابها موريل بصوت حزين ... — نعم صدقت ..

— وما الحيلة اذن؟

— لا اعلم ...

— ولم يعد يرضى الخباز ان يبيعنا الخبز ديناً

— صدقت ... لانني أمس استعرت ربع رغيف من مدام بيبليه .

— والعمة بوريت الا تسلفنا شيئاً ؛

— تسلفنا ! ... كيف تسلفنا وقد اصبحت كل امتعتنا مرهونة عندها وماذا بقي لنا لترتهنه وتدفع لنا شيئا مقابله ؟

ثم ضحك ضحكا امر من العلقم واردف .

— ايمكننا أن نعطيها أولادنا رهنا ؟ ...

ما الحيلة اذن وما التدبير ؟

— لعل السيدة الصغيرة التي زارتنا بالامس لا تنسانا

— نعم ... اعتمد على ذلك ... ولكن الا تظن أن مدام ماتيو تسلفك خمسة فرنكات فانك تعمل لها منذ عشر سنين .. فهل يسعها أن تترك في مثل هذا الشقاء عاملا امينا ذا عائلة!

— لا اظن انها تستطيع تسليفنا شيئاً فقد فعلت كل ما تستطيعه بتسليفي ماية فرنك شيئاً فشيئاً وهو مبلغ جسيم بالنسبة الى حالتها لانها ليست سوى سمسارة جواهر ولا تربح اكثر من ماية فرنك في شهرها وهي مثلي يثقل كاهلها عبء ثقيل .

— هذا جزاء من يشتغل للسماسرة ولا يلجاء الى تجار الجواهر مباشرة لانهم اغنى وا كرم ولكنك تتساهل حتى تغبن فانت المخطيء

فخان موريل الصبر عند سماع التوبيخ وهتف قائلا

— أنا المخطيء ! . . أنسيتِ ان أمك هي السبب في تعاستنا ؟ فلو لم نضطر الى دفع ثمن حجر الماس التي فقدته أمك لما كنا في هذا المازق ولكانت بقيت لنا الالف ومائة فرنك التي سحبناها من صندوق التوفير ولم يكن علينا دين لذلك

اللعين جاك فيران الذي تبلغ قيمته ألف وثلثمائة فرنك

— انك صممت على ان لا تطلب بارة واحدة من هذا الرجل وانا لا استصوب رأيك هذا نعم ان فيران بخيل والمرجح عندي ان الاستغاثة به لا تجدي نفعاً ولكن لا بأس من التجربة

— أنا أتذلل الى ذلك الرجل ! انني والله أفضل ان أحرق على ان استغيث به . . . فبربك لا تذكريه لي فان ذكره يفقدني الصواب

— وحين قال موريل عبارته الاخيرة انقلبت سحنته وبدت عليها علامات الغضب واحمر وجهه بعد ان كان شاحباً ونهض قائماً عن مقعده وطفق يروح ويغدو في الغرفة مضطرباً وهو يقول

— انني لست من الاردياء وما أذيت أحداً طول حياتي ولكنني أتمنى لجاك فيران شقاء يعادل الشقاء الذي سببه لي .

— ثم وضع يده على جبهته وقال بصوت خافت حزين :

— يارباه لماذا ابتليتنا بهذا النحس الذي لا نستحقه حتى أصبحنا تحت رحمة ذلك الرجل اللئيم ؟ أيجوز له لانه غني ان يفسد أخلاق من يشاء ويدمي قلوب من يشاء ؟

فقالت له زوجته ... لا تدع غضبك ينفجر عليه لئلا يسجنك فانك في قبضة يده .. أنسيت انك لم تسدد قيمة الكمبيالة التي له عليك وقدرها ألف وثلثمائة فرنك وانه أخذ حكماً عليك فاصبح يلعب بك كما يلعب الولد بالعصفور ؟. اني مثلك اكره هذا الرجل ولكن بما اننا مدينين له فلا بد لنا من ..

— من السماح له بتدنيس عرض أبنتنا أهذا ماتريدين ان تقولي ؟

— يا رباه !.. اسكت ان الاولاد مستيقظون ويسمعون ما تقول

ففاض دمع ذلك الرجـل المسكين وجرى على خديه مدراراً وقال بصوت مختنق

— لهفي على أولادي ! .. ولهفي على ابنتي لويز الجميلة. ويا ليتها لم تكن جميلة لان جمالها كان سبباً في شقائنا . ثم لو لم تكن جميلة لما كان عرض عليّ اولئـك الرجال ان يسلفوني النقود . . واني مجتهد وعزيز النفس فكان تاجر الجواهر يمهلني فلا أتحمل جميـل ذلك اللئيم ولا يقدر هو على تدنيس

ابنتنا بالعار لانه صنع معنا ذلك المعروف .. وما كنت ابقيت ابنتي عنده . . ولكن لا مندوحة من ذلك . . فاني في قبضة يده يفعل بي مايشاء . . الفقر الفقر كم يسبب لصاحبه من الاهانات ورحم الله من قال : « لو كان الفقر رجلا لقتلته »

وما يمكننا ان نصنع ؟ فقد قال للويز : « اذا خرجت من بيتي اسجن أباك . . »

— نعم قال لها ذلك بلهجة المحتقر

— وليس المصيبة في احتقارنا فقط ولكن المصيبة ان يزجك ذلك الرجل اللئيم في اعماق السجن . فماذا يحل بي وبأولادي وأمي ؟ واذا فرضنا ان لويز ابنتنا تربح عشرين فرنكا كل شهر في محل آخر فكيف يمكننا ان نعيش بهذا الراتب القليل ونحن ست أنفس ؟

— نعم . : اننا لم نرض بتعريض ابنتنا لويز لتدنيس عرضها الاّ لنعيش

— انك تبالغ دائما فيما تقول . نعم ان المسيو فيران يداعبها وهي لم تخف عنا ذلك ولكنها محافظة على شرفها كما تعلم

— أي نعم هي شريفة النفس نشيطة طيبة القلب . . .

ألم تري كيف انها لما رأتنا في ضيق بسبب مادهانا من المرض سعت في ايجاد عمل يكسبها عيشها لتخفف عنا الحمل . . والله يعلم كم أثر ذلك في نفسي ولكني كتمت عنك تفطر قلبي على هذه التعسة . . اني اذوب ألماً حين اذكر انها أصبحت خادمة معرضة للاهانات وهي كما تعلمين ذات أنفة ونفس عزيزة . . . وكانت سلوانا الوحيدة في هذه الحياة الشقية . . . ألا تذكرين كيف كانت تبش وتضحك لتقشع عنا غيوم الهم فنشاركها في الضحك ؟ . وكنا ندعوها الاميرة لانها كانت تقول انها بالنظافة تجعل مسكننا هذا الحقير أجمل من قصور الامراء . . مسكينة لويز انها مثال النشاط والبشاشة . حتى انها لزيادة لطفها كانت تجد طرقاً لارضاء امك المعتوهة . وأنت كم كانت تعتني بتمريضك وتبذل جهدها في مؤاساتك . وكم كانت تنظر في أمور أخوتها . . . مسكينة كانت تجد وقتاً للقيام بكل تلك الاعمال . ولما رحلت عنا اضمحل ما كان باقياً لنا من آثار السعادة .

فبكت مادلين وسحت دموعها فتساقطت على خديها الملتهبين بنار الحمى وقالت لزوجها بصوت متهدج

— دعنا من هذه الذكرى ياموريل فانها تقطع قلبي

— وحين اذكر ان ذلك الوحش ربما ... أشعر بدوار وأرى كل شيء أسود فتحدثني نفسي بان اقتله ثم انتحر ..

وما كاد موريل ينتهي من عبارته حتى قرع باب الغرفة بعنف . ودخل رجلان أحدهما طويل القامة ناحل الجسم تدل هيئته على انه جلف من الاجلاف ويدعى ماليكورن . والآخر ربعة ضخم الجثة أحمر الوجه ويدل قبح منظره على قبح مخبره واسمه بوردان وتبع هذين الرجلين الغلام الاعرج الخبيث ابن براروج ولما دخلا الغرفة وقف هذا عند الباب يرقب ويتنسم الاخبار . فقال موريل لزائريه

— ماذا تريدان ؟

فاجابه بوردان . — نريد مقابلة جيروم موريل

— أنا هو

— أنت المبردخ ؟

— نعم أنا هو

فالتفت بوردان نحو رفيقه وقال له .

— لا أرى في هذه القاعة من الرياش سوى السقف

والجدران ياعزيزي ماليكورن على عكس ماوجدناه في قصر الفيكونت سان ريمي

فاجابه الرفيق . — نعم ولكننا حين نجد كثيراً من الرياش لانجد اصاحب المنزل مثلما حصل في شارع شايوفان صاحب البيت أركن الى الفرار

وكانت مادلين لشدة ماتولاها من الرعب ملازمةً للصمت ولكنها حين سمعت كلام ماليكورن قالت بصوت مرتجف .

— يارباه ! ؟ يارباه ! ! نادِ واستغث لعل أحد الجيران يغيثك ويخلصك من أيدي هذين اللصين . . . واياك ان يختطفا الجواهر . .

فتنبه اذ ذاك موريل ولما رأى الرجلين يقتربان من (الطاولة) اسرع وغطى الجواهر بكلتي يديه خوفاً من ان يصدق ظن زوجته . وكان لا يزال الغلام الاعرج منصتاً مراقباً فلما سمع ماقالته مادلين ورأى حركة موريل قال في نفسه .

… ياله من خبيث منافق ! قداشاع في الحي أنه يبردخ الحجارة الكاذبة . ولو كان صادقاً في دعواه لما أظهر مثل هذا

الخوف على حجارته ولما غطاها بيديه ... لا بأس من هـذا الاكتشاف ... وتلك المرأة مدام ماتيو التي تكثر التردد الى هنا هي اذن سمسارة جواهر حقيقية . والحجارة التي تحملها في حقيبتها هي كذلك جواهر حقيقة .. لا بأس أيضاً من هذا الاكتشاف . سأطلع البومة العوراء على ذلك . ودار الجدال بين الرجلين وموريل فقال لهما هذا

— اذا كنتما لا تخرجان من مسكني أستعين على اخراجكما قهراً بقوة رجال الشحنة

فاجابه بوردان . — نحن أولى منك باستدعاء رجال الشحنة .

وقال ماليكورن . — نعم لانهم يعينوننا على جرك الى السجن بالقوة اذا أبديت أقل مقاومة

فبدت علامات الدهشة والذعر على وجه موريل فهتف قائلا

— تريدان أخذي الى السجن ! . أنا ؟

— نعم الى سجن كليشي

فاستولى الذهول على موريل وأجاب . — الى كليشي ؟

قال ماليكورن . — تباً له ما أصاب دماغه

قال بوردان . — اننا نأخذك الى حيث يسجن المدينون

هل فهمت الآن ؟

— لعلّ .. لعلّ .. لعلكم .. كيف ! المسيو فيران هو الذي .. ويلاه . يارباه !

واصفر وجه موريل فانطرح على المقعد ولم يعد يستطيع الكلام فقال له ماليكورن

— نحن مكلفان بالقاء القبض عليك من قبل المحكمة التجارية ان كنت لاتسدد ما عليك من الدين

فصرخت مادلين بصوت يفتت الاكباد

— ويلاه ياموريل قد اتيا ليقبضا الدين الذي علينا للمسيو فيران !.. ياربي الطف بنا لقد هلكنا

واخرج ماليكورن من جيبه ورقة مدموغة وقال لموريل

— وان كنت في ريب مما نقول . فها هو الحكم انظره بعينيك واسمع نصه

وأخذ ماليكورن يقرأ صورة الحكم بأسرع ما يمكنه حتى انتهى الى الفقرة الاخيرة فتأنى في قراءتها واليك نصها

« وبناء على ما تقدم حكمت المحكمة على المسيو جيروم موريل بأن يدفع لامر المسيو بطرس بيتيجان[1] التاجر مبلغ الف وثلثماية فرنك مع الفوائد القانونية منذ يوم البروتستو وحكمت عليه أيضاً بمصاريف الدعوى .

صدر من محكمة باريس التجارية في ١٣ سبتمبر الخ »

ولما انتهى الرجل من قراءة الحكم صرخ موريل قائلاً

— وابنتي لويز أين هي ؟... لقد خرجت اذن من بيت فيران حتى أرسل أناساً يلقون القبض عليَّ ويزجوني في السجن يارباه ماذا أصاب لويز ؟

ولشدّة انشغال باله لم يكن يسمع ما يقال حوله .. وبعد ان فكر قليلا ابرقت أساريره فرحاً وهتف قائلاً

— لاشك ان لويز تركت بيت فيران .. اني اذن أذهب الى السجن عن طيبة خاطر

ولكنه عاد فنظر الى ماحوله وقال صارخاً

— وزوجتي . . . وأمها . . . وأولادي . . . من

---

(١) حول المسيو فيران الكمبيالة لشخص ثالث لعدم امكانه رفع دعوى على موريل مباشرة

يعولهم ؟ ... ولا يعطيني أحد من التجار جواهر لاصقلها في السجن ... لظنهم اني سجنت لجريمةٍ ما ... ان فيران يريد اذن هلا كنا جميعاً ؟

فقال له بوردان وقد أخذته الحدة

— لقد أفهمناك الامر أولاً وثانياً وانت لا تزال مكانك بلا حراك وقد نفد صبرنا فالبس ثيابك وسر معنا

فأرادت مادلين ان تؤثر على قلبي ذينك الوحشين فقالت لاولادها

— هلموا يا أولادي واجثوا عند موطئ أقدام هاذين السيدين وأرجوهما ان لا يذهبا بوالدكم الى السجن فليس لنا من معين سواه .

فلم يجسر الاولاد على الدنو من بوردان ورفيقه وظلوا يبكون في فراشهم وملئ أفئدتهم الذعر . ولما لم ينهض موريل من مكانه ضرب ماليكورن الارض برجله وقال بصوت دوت له أركان الغرفة

— هلمّ بنا ياهذا ! ! . أظننت اننا في عرس هنا ؟ هلمّ بنا والاّ أزلزل الارض تحت قدميك وأجرك بالقوة

قال ذلك وأمسك موريل من كتفه وهزه بعنف ...
فلما رأى الاولاد ذلك كادت تقف نبضات قلوبهم لشدة الخوف فخرج الصبيان الثلاثة من داخل كيس القش وهم يكادون يكونون عراة وانطرحوا على أقدام الرجلين مستغيثين مسترحمين رافعين نحوهما أيديهم الصغيرة وقائلين بين شهيق وزفير

— ارحمانا يرحمكما الله . . . ولا تقتلا ابانا ! ! ...

وحين وقعت عين بوردان على أولئك الاطفال المرتعشة أبدانهم برداً وخوفاً تأثر على رغم صلابة قلبه وخشونة طباعه... والذي زاد ذلك المنظر هولاً ان الفتاة الراقدة الى جانب أختها المريضة صرخت قائلة بغتة

— أماه ! ! أماه ! لا أدري ما أصاب اديل . . . ان جسمها بارد كالثلج ... وهي لاتزال شاخصة اليّ ... ولكنها لا تتنفس . . .

فاضت روح تلك الطفلة المسلولة على مهل بلا انين ولا شكوى . . وظلت عيناها شاخصتين الى أختها لانها كانت تحبها .. ويعجز القلم عن وصف الصوت الذي صرخته زوجة

موريل حين سمعت ماقالته ابنتها الكبرى اذ انها أدركت الحقيقة . خرج ذلك الصوت من أعماق قلبها الدامي . ثم ان الفتاة خرجت من داخل كيس القش وركضت نحو أمها مذعورة وهي تقول

— يا ربي . يا ربي يخال لي أن اختي ماتت .. انا خائفة يا ربي !!

وارادت مادلين المسكينة أن تنهض وتدنو من ابنتها المائتة وقد نسيت أن ساقيها المفلوجتين لا تحملانها فما كادت تخطو خطوة حتى وقعت على الارض وصرخت لشدة الالم واليأس . وكان لذلك الصراخ صدى فى قلب موريل فافاق من ذهوله ووثب نحو كيس القش واخرج ابنته وكان عمرها اربع سنين . فوجدها ميتة لان الجوع والبرد قربا منها اجلها وما كادت تلفظ اخر نسمة من روحها حتى تخشب ذراعاها وساقاها وازرق لونها لشدة البرد .

حمل موريل تلك الجثة المثلجة بين يديه وبدنه مقشعر من اليأس والخوف وظل واقفاً شاخصاً اليها وعيناه ثابتتان جاحظتان محتقنتان . فمدت زوجته ذراعيها نحوه وقالت له وهي

تنتحب

— موريل ـ موريل اعطني اديل .. لا . لا انها لم تمت سوف ترى اني ادفئها واعيد اليها الحرارة

اما موريل فجحظت عيناه وما عادتا تستقران وقال للرجلين وهو يشير الى جثة ابنته

— انظرا ياسيديا انظرا هذه الفتاة الصغيرة اديل .. انها تدعى اديل وعمرها اربع سنين لقد قبلتها الليلة الغابرة وهذا الصباح غدت جثة باردة كما تريان .. ولكن ربما تقولان أن موتها يخفف العبيء عن عاتقي .. نعم ربما تقولان ذلك لانها ليست ابنتكما .

وبداء عقل ذلك المسكن يصاب بالخلل لهول تلك الضربات القوية المتلاحقـة . وكانت مادلين لا تزال مادة يديها نحوه قائلة له

— اعطني ابنتي يا موريل اعطينها

فاجابها موريل : ـ نعم : العدل يقضي بان يتمتع برؤيتها كل منا بدوره

ودنا من زوجته والقى الجثة بين ذراعيها . ثم غطى وجهه

بكفيه وتنهد تنهداً طويلا اما الرجلان فاثر في نفسيهما موت الفتاة بعض التأثير ثم ما ابثا أن عادا الى خشونتهما وتغلبت عليهما صلابة القلب فقال ماليكورن لموريل

— ما الفائدة من الحزن يا صاح ؟ نعم ان موت ابنتك مصاب اليم ولكن ما الحيلة ؟ أن كل العالمين الى فناء ونحن وانت بعد حين ذاهبون. فعد الى صوابك والبس ثيابك واتبعنا فقد ازف الوقت ولدينا اشغال اخرى اذ لا بد لنا من القاء القبض على مدين اخر مثلك فان الصيد اليوم كثير

فلم يجب موريل بكلمة لانه لم يع شيئاً مما قيل له فقال بوردان لرفيقه وهو يشير الى موريل

— يظهر لي ياصاح ان صاحبنا قد اختل عقله .. انظر الى عينيه .. ان هيئته أصبحت مخيفة .. وها العجوز المتوهة تصرخ من ألم الجوع .. ماأبدع هؤلاء الزبائن !! ومع ذلك لا بدّ لنا من حل هذه المسألة . . ولا أدري كيف يمكن هذا الرجل مع ماهو فيه من الفقر المدقع أن يسدد الدين وفوائده والمصاريف مما تبلغ قيمته ألفين وخمسمائة فرنك ؟

فاجابه رفيقه وهو ينفخ في قبضتيه

— والوقوف هنا لا يلذ فان الدم يكاد يقف في أصابعي لشدة البرد . فهلمَّ بنا نأخذه بالقوة فيجد في طريقه متسعاً من الوقت للبكاء والعويل

ثم انه ألقى راحته على كتف موريل وقال له

— هيا بنا ياصاح هيا بنا الى السجن بما انك عاجز عن سداد الدين . . هلمَّ فقد أزف الوقت .

واذ ذاك سمع صوت عذب من صوت الكروان يقول

— المسيو موريل يذهب الى السجن ؟

ثم دخلت الغرفة فتاة جميلة الطلعة سوداء الشعر موردة الخدين يكاد ماء الحياة يقطر من جبينها المشرق ولما أبصرها أحد أولاد موريل قال لها وهو يبكي

— أدركينا يا ضحوكة ! ! انك طيبة القلب. انقذي والدي فانهم يريدون الذهاب به الي السجن وقد ماتت أختنا الصغيرة.

فاغرورقت عينا الضحوكة بالدموع وهتفت قائلة

— اديل ماتت ! ! ويأخذون والدكم الى السجن ! ! أيمكن هذا !

وظلت تلك الفتاة واقفة مذهولة تنظر طوراً الى موريل وزوجته وطوراً الى الرجلين الغريبين . واذ ذاك دنا منها بوردان وقال لها

— اصغي اليَّ ايتها الفتاة فانك لست فاقدة الصواب مثل هولا المجانين . ارجوك ان تفهمي هذا الرجل ان موت ابنته لا يمنعه عن الذهاب معنا الى سجن كليشي . وهو سجن المديونين . ونحن مكلفان بتنفيذ هذا الامر من قبل الحكومة

فهتفت الضحوكة قائلة

— يارباه . يارباه . ماهذا المصاب ! ماهذه البلوى كيف كيف العمل ؟؟ ما الحيلة

فنظر اليها ماليكورن وقال لها بلهجة المتهكم

— الحيلة ان يدفع ما عليه من الدين او يذهب معنا الى السجن فأن كان لديك نقود فاسلفيه ثلاثة آلاف فرنك ليفي منها دينه ولا نطمع باكثر من ذلك

فأجابته الضحوكة باشمئزاز

— ياله من امر فظيع هل تجسر على المزاح في مثل هذا الموقف المحزن ؟

فقال لها الرجل الآخر

— انا اكلمك بلا مزاح وارجوك ان تشغلي زوجة هذا الرجل وتلهيها لكي لا ترانا حين نذهب بزوجها تكفيها الم الوداع

كانت تلك النصيحة على خشونتها حسنة فعملت بها الضحوكة ودنت من مادلين وكانت هذه في حالة بأس لا توصف فلم تنتبه اليها حين جئت عند فراشها وادنت منها الاولاد لكي يحولوا دون امهم وابيهم فلا يرى احدهما الآخر واستسلم موريل ونكس رأسه لحكم القدر فقال له بوردان

— لاي متى نصبر عليك يا صاح فهلم سر بنا

فاشار موريل بيده الى الجواهر المبعثرة على الطاولة واجاب لا يمكنني أن اترك هذه الحجارة هنا وزوجتي تكاد تفقد صوابها لشدة حزنها على موت ابنتها. والسمسارة صاحبة هذه الجواهر ستأتي اليوم لتأخذها وهي ذات قيمة عظيمة

وكان الاعرج لا يزال واقفاً خارج الباب ينصت وحين سمع جواب موريل قال في نفسه حسن ساطلع البومه على كل هذه الاخبار الجديدة

وقال بوردان لموريل . — اذا كنت خائفاً على كل هذه

الجواهر نخذها معك وها عربتنا تنتظر عند باب البيت فتدفع اجرتها من ضمن مصاريف الدعوى ونذهب معاً لعند السمسارة التي ذكرتها فتسلمها الجواهر وان انت لم تجدها تودع الحجارة عند وكيل سجن كليشي حيث تكون في مأمن كانها في بنك..

هلم فلنسرع بالخروج قبل أن يراك زوجتك واولادك

وبينما موريل يهم بالذهاب سمع هذه الالفاظ

— يا ابتي! يا ابتي! فرفع موريل يديه نحو السماء وهتف قائلا

— هذه لويز فيمكنني ان اقبلها قبلة الوداع قبل ذهابي الى السجن وكان يسمع وقع اقدام الفتاة وهي صاعدة مسرعة وتقول

— اشكرك اللهم قد وصلت قبل فوات الوقت

واذ ذاك سمع صوت ثالث حاد عند اسفل الدرج يقول

— كوني مطمئنة ايتها الفتاة فاني اسد الطريق في الممشى واستعين بك وبزوجي وبالمكنسة على منعهما عن الخروج من هنا قبل أن تكلميهما

وكان ذلك صوت مدام بيبليه التي تبعت لويز ابنة موريل ولكنها لضعف قواها لم يمكنها اللحاق بها

وبعد بضع دقائق دخلت لويز الغرفة وانطرحت بين

ذراعي ابيها فقال لها هذا والدمع يترقرق في عينيه

— هو انت يا لويز ! ولكن ما لي اراك شاحبة اللون ؟

فاجابته الفتاة بصوت خافت . — ما بي شيء ولكنني

ركضت مسرعة ! . .. وها هي النقود

— هل كنت عالمة بالامر اذا

— نعم نعم

ثم اخرجت من جيبها قبضة من الذهب ومدت يدها

الى ماليكورن وقالت — خذ يا سيدي ها هي النقود

فقال لها والدها . — من اين اتاك هذا المال

— سأذكر لك ذلك . فاذهب وطيب خاطر امي .

فوقف موريل في وسط الباب وحال دون دخول ابنته

الى الغرفة لكي لا ترى اختها الميتة وقال لها

— قفي الآن هنا ثم تدخلين فيما بعد ولي حديث معك

...من اين لك هذا المال

فقطع ماليكورن حديث موريل وقال للفتاة وهو يعد النقود

— حلمك ايتها الفتاة !.. ثلاثة وستون اربعة وستون

يكون المجموع الف وثلثماية فرنك هل هذا كل ما لديك من النقود؟

فالتفتت لويز نحو والدها وقالت مدهوشة

— انك مدين بالف وثلثماية فرنك فقط أليس كذلك؟

فاجابها موريل — نعم

فقال لها ماليكورن عفواً ايتها الفتاة أن قيمة الكمبيالة هي الف وثلثماية فرنك وهو المبلغ الذي دفعته اليّ .. ولكن المصاريف؟ .. انها تبلغ الف ومايةواربعين فرنك .

فصرخت لويز قائلة وقد تولاها اليأس

— يا ربي يا ربي كنت اظن ان الدين الف وثلثماية فرنك فقط ... فامهلنا يا سيدي بربك قليلا فندفع اليك الباقي

فاجابها ماليكورن

— فيما بعد تدفعون الباقي الى خزينة قلم التصحيل وإذ ذاك يخرجون ولدك من السجن اما الان فلا بد له من الذهاب معنا

— هل تأخذونه!

— نعم نأخذه بلا تردد لان ما سددته عنه ليس سوى جانب من الدين فاذا دفع الباقي يطلق سراحه

فهتفت لويز مستغيثة . — ارحما والدي وارحمانا فاخذت ماليكورن الحدة وقال موجهاً خطابه لرفيقه.

— اننا لا نخرج اليوم من هذا المازق فها قد عدنا الى سماع العويل والاستغاثه مما يجعلك تعرق في ابان فصل الشتاء

ثم اقترب من موريل وقال له

— ان كنت لاتمشي معنا حالا امسك بخناقك وانزلك الدرج ثمانية ثمانية

فقالت لويز والدمع يتصبب من عينيها — لهفي عليك يا ابتي .. كنت اظن اني انقذتك فنظر موريل الى السماء وقال بصوت ينم عن منتهى اليأس اين عدلك يا رباه اين عدلك ؟؟

فاجابه صوت عذب رنان

— كن مطمئناً واعلم ان العناية الالهية لا تتخلى عن ذوي الصلاح والتقوى

وللحال ظهر رودلف عند باب الغرفة من حيث شهد كل الحوادث التي اتينا على ذكرها . وكان اصفر اللون وعلامات التأثير الشديد بادية على وجهه وحين ابصره ماليكورن ورفيقه تراجعا الى الوراء أما موريل وابنته فأخذتهما الدهشة حين ابصراه واخرج رودلف من جيبه رزمة من

الاوراق المالية واخذ منها ثلاثا واعطاها لماليكورن وقال له

— خذ هذه الفان وخمسماية فرنك واعد الى هذه الفتاة المال الذي اخذته منها

فازداد ماليكورن عجباً واخذ الاوراق متردداً وصار يحملق فيها ويفحصها من كل ناحية ويقلبها واخيرا وضعها في جيبه ثم اخذت دهشته تتزايل شيئاً فشيئاً وتغلبت عليه خشونته فنظر الى رودلف شذراً وقال له

— أن اوراقك المالية جيدة صحيحة ولكن كيف امكنك الحصول على هذا القدر من المال فهل هو لك كله ؟

وكان رودلف مرتدياً ملابساً بسيطة متسخة بالتراب الذي علق عليها لانه كان كامناً في حجرة صغيرة فوق غرفة موريل ولذلك ظنه ماليكورن فاعلا من الفعلة فقال له رودلف بلهجة قاسية .

— قلت لك أن تعيد الى الفتاة المال الذي اخذته منها

فدنا ماليكورن من رودلف متهدداً وقال له

وعلى م هذه اللهجة ؟ وعلى مَ تشمخ بانفك ؟

فامسك رودلف بيده وشد عليها باصابعه وقال له .

— المال المال اعده الى هذه الفتاة

فشعر الرجل كأن ملزمة من حديد ضغطت على يده

فصرخ قائلا — اواه ! انك تؤلمني . افلت يدي

— اعد اذن ما اخذته من الفتاة لقد قبضت الدين

فاذهب من دون ان تتلفظ بما يخدش الاذان والا ارمي بك

الى آخر السلم

فاخرج ماليكورن النقود من جيبه واعادها الى الفتاة ثم

نظر الى رودلف وقال له

— ها قد ارجعت النقود الى صاحبتها فارجوك ان لا

تحتقرني لانك اقوى مني

وقال بوردين لرودلف وهو مختبيء وراء ظهر رفيقه

— نعم ومن انت ياهذا حتى تشمخ بانفك كذا ؟ من انت ؟

— واذ ذاك ظهرت مدام بيبليه اتت تلهث وحين

سمعت بوردان يقول لرودلف من انت اجابته .

— كيف تسأل من هذا ؟ ... هذا واحد من سكان

البيت ... هذا سلطان السكان ولكن من أنتما ياقليلي الأدب ؟

انتما من الاوباش . من الاجلاف . من انزعاع القذرين !

من أسافل الازقة

وكانت حاملة قدراً فيها مرق غال جاءت به لتطعم أولاد موريل . فحين أبصرها بوردان وسمع مذمته قال لرفيقه

— من أين أتت هذه الحيزبون القبيحة الصورة؟

فارته مدام بيبليه قبضتها وحملقت فيه عينيها وأجابته بصوت مرتجف لشدة الغيظ

— اذا كنت تسخر بي وتهزأ بصورتي أثب عليك وأعضك . ثم ان المسيو رودلف يرمي بك وبصاحبك الى أسفل السلم كما قال لكما . واتبعكما أنا وأكنسكما كما أكنس الزبالة والاقذار

فلما سمع بوردان تلك اللهجة خاف سوء العاقبة وقال لرفيقه — هلمّ نمضي الى سبيلنا ياماليكورن فان هذه العجوز ثوروية وفي امكانها ان تقيم كل السكان علينا .

فرمى ماليكورن ورقة عند قدمي موريل وقال له بازدراء

— خذ هذه الورقة فهي المستند الذي تثبت به انك سددت ما كان عليك

فأمسك رودلف ماليكورن من ذراعه وأوقفه وأشار

بأصبعه الى الورقة وقال له

— التقطها. أو التقط روحك . . لقد نقدناك ماجئت تطالب به فكن مؤدباً .

فلما شعر الرجل بأصابع رودلف الحديدية أدرك للحال انه غير كفيء لمقاومة هذا الخصم العنيد فانحنى وهو يتمتم والتقط الورقة وأعطاها لموزيل . فأخذها هـذا وهو لايعي كانه في منام . ثم ان ماليكورن ارى رودلف قبضته متهدداً وقال له

— لاتحسب ان قوة يديك اللتين تشبهان ايدي الفعلة تنجيك من انتقامنا فويل لك اذا وقعت في قبضتنا . ! !

وماكاد يتم عبارته حتى ولى مدبراً وقفز عشر درجات قفزة واحدة وتبعه رفيقه مهرولا ملتفتاً الى الوراء لشدة ذعره فارادت مدام بيبليه ان تنتقم لرودلف فنظرت الى القدر التي كانت في يدها وصرخت قائلة لبوردان ورفيقه

— قد أخـذتما ما كان على موزيل من الدين . ولكن لابدَّ لهذا الدين من طعام يأكله اذا جاع في الطريق ...

« اوعا هدومك يللي تحت »

ثم أطلت من فوق حاجز السلم وسكبت المرق الغالي على رأسي ماليكورن ورفيقه قبل ان يصلا الى الطابق الاول وأخذت تصرخ وتقول مقهقهة

— خذا واغتسلا بهذا المرق السخين ياأحقر الخنازير... قه. قه.! ها . ها .. لقد أصبحتما كالخبز المفتوت في الشوربه.

فوقع المرق على الرجلين وبللهما ولا سيما ماليكورن فقد أصابه الجانب الاعظم فاغتسل من قمة رأسه الى أخمص قدميه وكاد الغيظ يخنقه فسب كثيراً وأجاد . وقال للعجوز

— لعنة الله عليك ياحيزبون ! النحس . . . هل بليت بالعمى يافزرة ! ! ياخنزيرة ! !

فهاج غضب مدام بيبليه حين سمعت مذمتها فأخذت تصيح بملئ صوتها وتنادي زوجها من أعلا السلم وتقول

— الفريد . الفريد اضرب هذين الكلبين ! قابلهما بالمكنسة ! ! لقد أرادا اهانة حبيبة قلبك انسطازي . قد سبني هذان الخنزيران . . . فانعم عليهما من ضربات مكنستك بما يستحقان ... اللصان . اللصان . اقبض عليهما . بررر برد .. هو . هو . اضرب يا الفريد اضرب ياعزيزي . بم . بم ! ! !

واسكرت مدام بيبليه خمرة النصر فصارت تفحص الارض برجليها وتولول كالمجانين وختمت كل ذلك بان رمت القدر الفخار من أعلا السلم فكان لانكساره دوي هائل اخرج كل السكان من منازلهم بينما كان ماليكورن ورفيقه ينزلان الدرجات الاخيرة أربعةً أربعةً . وقد زادهما ذعراً صوت انكسار القدر عند قدميهما وحين بلغ ذلك الصوت مسمع انسطازي اضمحل غضبها وتغلب عليها الضحك فوقفت وقفة المنتصر ويديها على خصرها وأخذت تضحك مقهقهة كالقردة .

ولما انتهت تلك المعركة جثا موريل عند قدمي رودلف وقال له — لقد أنقذت حياتنا يامولاي ... فلمن نحن مدينين بهذا الفضل ؟

— لرب العباد رافع السموات وباسط الارض

الفصل العشرون

« الضحوكة »

كانت لويزا ابنة موريل ذات جمال باهر وقامة هيفاء. وعلى رغم اسمرار بشرتها باشعة الشمس وخشونة يديها لكثرة

عملهما وبساطة ملابسها كانت ظواهرها تدل على النبل وعزة النفس . على انها كانت في ذلك اليوم شاحبة اللون وعلامات الكآبة بادية على وجهها غير ان اهلها لم يلحظوا اصفرار وجهها لشدة فرحهم بنجاتهم على يد رودلف . اذ يعجز القلم عن وصف ما ألم بهم من السرور حتى انهم نسوا الفتاة المائتة أما رودلف فلم يخف عليه اضطراب لويز والحزن الظاهر على وجهها على رغم خ‍ ‍ص والدها وأهلها من الورطة التي كانوا فيها . ولكنه لم يهتد الى علة أشجانها

ولكي يفهم موريل وعائلته انهم أصبحوا في مأمن من غوائل المستقبل ويستنبط تعليلا لما أبداه من معونتهم خوفاً من أن يقفوا على حقيقة أمره امسك بيد موريل ومشى به الى خارج الغرفة وقال له

— في صباح قبل الامس زارتكم سيدة صغيرة فهي التي يلزمكم ان تشكروها وليس أنا

— امكن هذا ياسيدي ؟؟ تلك السيدة الصغيرة ! ! . .

— نعم هي المحسنة اليكم . وأنا أعرفها لأنني طالما ذهبت الى بيتها ببعض السلع كانت تشتريها مني . وحين أتيت هذا

البيت لاستأجر لي مسكنا في الطابق الرابع أخبرتني زوجة البواب بما أنتم فيه من الضنك ولعلمي ان تلك السيدة من أهل الاحسان ذهبت اليها مسرعاً وذكرت لها ماسمعته عن سوء حالكم فوعدتني خيراً ثم انها أتت. صباح قبل الامس لتزوركم وتتحقق بنفسها ما أنتم عليه من شظف العيش .

— بارك الله فيها ما أكرم نفسها :

— وانني منذ بزوغ الفجر كامن في الحجرة الصغيرة الملاصقة لغرفتكم وقد سمعت كل ماقيل وشهدت كل ماحدث وتحققت انك على جانب عظيم من الصلاح وطهارة القلب

— ياربّاه ! كيف أمكنك الاختباء في تلك الحجرة المظلمة القذرة ؟

— لم يكن لي بد من ذلك لاراك وأسمعك على غير علم منك وأكون على بينة من حقيقة أمرك . واني بالنيابة عن السيدة التي انقذتك اضمن لك ولعيالك مستقبلا حسناً .

— ياربّاه ! أممكن ماتقول ؟ ناشدتك الله ياسيدي الا ذكرت لي اسم تلك السيدة على الاقل ؟ اسم ذلك الملاك المنقذ

فاطرق رودلف وفكر في ان مدام بيبليه كانت تعلم ان

المركيزة درفيل أتت قبل الامس تسأل عن القومندان نخاف من شقشقة لسانها واذاعة سره فقال لموريل بعد سكوت وجيز

— سأذكر لك اسم تلك السيدة ولكن تحت شرط واحد وهو انك لا تبوح باسمها لاحد . . . أفهمت ؟

— فهمت واقسم لك بانني أقوم بالشرط

— ان تلك السيدة تدعى المركيزة درفيل

— انني لا أنسى طول حياتي هذا الاسم ويطفح قلبي بعاطفة الامتنان كلما اذكر انها انقذتنا جميعاً من الهلاك . ماذا أقول ؟ ما أراد الله ان ننقذ جميعنا .. فقد فقدنا عزيزتنا الصغيرة اديل فلم نعد نراها رحمة الله عليها . . على ان موتها كان منتظراً

وفاضت دموع الرجل فتساقطت على خديه فقال له رودلف .

— لابد لنا الآن من الاهتمام بأمر تلك الميتة المسكينة فاليك ما أشور به : انني لم انتقل بعد الى الغرفة التي استأجرتها في هذا البيت وهي غرفة واسعة طلقة الهواء وقد نصبت فيها سريرا . ويمكننا ان ننقل اليها كلما يلزم من الامتعة حتى

يمكنك أنت وعيالك ان تقيموا فيها ريثما تجد لكم المركيزة درفيل مكاناً أحسن من هذا تأويكم اليه .. . اما جثة ابنتك فتبقى في هذه الغرفة وسأهتم بأمر السهر عليها وحراستها طول الليل وأكلف مدام بيبليه بالقيام بكل هذه الاعمال .

— ولكن كيف يمكننا ياسيدي ان نحرمك من غرفتك واني لا أرى موجباً لذلك ولا سيما الآن بعد ان أصبحتُ في مأمن من الذهاب الى السجن فصرت أرى هذه الحجرة الحقيرة أجمل من قصر نخيم وعلى الخصوص اذا أقامت معنا ابنتي لويز واعتنت بنا مثلما كانت تفعل فيما مضى

— ان ابنتك لويز لن تفارقكم أبداً بعد اليوم فقد اخذ الله واحدة من بناتك وأعاد اليك أخرى .. انك تقبل اذن ماعرضته عليك وسكوتك يدل على الرضى .. والآن قل لي من هو جاك فران؟

فاكفهر وجه موريل عند ذكر فرّان واسودت الدنيا في عينيه ولم يخف ذلك على رودلف فقال له

— أليس جاك فرّان . هذا هو وكيل الاشغال الساكن في شارع سانتيه؟

— نعم ياسيدي . . هل تعرفه؟

وتجسمت مخاوف موريل وعظمت هواجسه وانشغال

باله على ابنته لويز فانتفض كالعصفور بلله القطر وقال

— بما انك سمعت كل شيء ياسيدي فقل لي بربك

أليس من العدل ان اكون ناقما على هذا الرجل ؟ . . . فمن

يعلم اذا كانت ابنتي لويز . . .

— ان سلوك فرّان نفسه يدعو الى الاطمئنان ولاشك

انه سعى في القاء القبض عليك لينتقم لنفسه من احتقار ابنتك

اياه ورده عنها خائبا والمرجح عندي ان هذا الرجل خرب

الذمة عديم الشرف واذا صح ظني فلا مندوحة لك من الاعتماد

على العناية الالهية فهي تنتقم لك منه

لاتظلمنّ اذا ماكنت مقتدراً * فالظلم آخره يأتيك بالندم

نامت عيونك والمظلوم منتبه * يدعو عليك وعين الله لم تنم

وفي تلك الاونة خرجت الضحوكة من غرفة موريل

وهي تمسح دموعها فقال لها رودلف

— ألا تستصوبين مثلي ياجارتي ان يقيم موريل وعائلته

في غرفتي ريثما يجد لهم المحسن اليهم مكاناً آخر؟

فنظرت الضحوكة الى رودلف بدهشة وأجابته .

— كيت ياسيدي ! . . هل أنت محسنٌ الى هذا الحد

— نعم اني اترك لهم غرفتي عن طيبة خاطر ولكن تحت شرط واحد تقومين انت به

انني اقوم بكلما اقدر عليه

— اليك اذن بيان الشرط. انني مضطر لعمل حساب مدقق لصاحب المحل الذي اشتغل فيه وأريد منك ان تسمحي لي بعمله في غرفتك على جانب من طاولتك بحيث لا أمنعك عن العمـل ... فاذا رضيت بذلك ا كلف البواب وزوجته بمساعدة عائلة موريل على الانتقال الى غرفتي حالاً . .

— اذا كان هذا شرطك فمرحباً بك ولا غنى للجار عن جاره ولا بدَّ لهما أن يتعاونا .وانك ياسيدي تعطي المثال الصالح باعانتك عائلة موريل فتصرَّف بغرفتي كيف شئت كانها لك .

— ادعيني (ياجاري) لاتحقق ان لا كلفة بيننا وأتجرأ على دخول غرفتك .

— لامانع من ذلك وماوجه الغرابة في أن أدعوك ياجاري

وفي تلك الآونة خرج أحد اولاد موريل الصغار من

الغرفة وقال لابيه .

— ياأبتي ان أمي تدعوك فتعال اليها فدخل موريل الغرفة مسرعاً فاغتنم رودلف تلك الفرصة وقال للضحوكة

— والآن أرجوك ياجارتي أن تصنعي معي جميلا آخر

— حباً وكرامة ياجاري ان كان ما تطلب في وسعي

— ان المعروف الذي ارجوه منك هو أن تساعديني في الحال على شراء مايلزم من الثياب والاثاث لعائلة موريل لتتوفر لديهم كل ضروريات المعيشة لاني وجدت غرفتهم خاوية خالية واذا انتقلوا الى غرفتي لايجدون فيها سوى أمتعة قليلة لاتفي بحاجتهم فما هي الوسيلة التي نتخذها لشراء تلك اللوازم في الحال ؟

فأطرقت الضحوكة مفكرة برهة ثم أجابت .

— يمكنك في مدة ساعتين ان تشتري كل الحاجات التي تريدها من ثياب جاهزة متقنة الصنع ومايلزم من الاسرة وتوابعها للمرأة وأولادها غير ان ذلك يكلف نفقة باهظة

— يالله ! وكم يلزم لذلك من المال على ما تظنين ؟

— على الاقل خمسمائة اوستمائة فرنك

— ايكفى هذا المبلغ لشراء كل الحاجات التي ذكرتها ؟

— نعم وانك ترى لسوء الحظ ان المبلغ جسيم

— وهل يمكننا كما تقولين ان نشتري كل مايلزمنا في مدة ساعتين ؟ انك اذن ساحرة ياجارتي

— لا لست ساحرة وانما الامر بسيط جداً فان سوق التامبل على بعد خطوتين من هنا وتجد فيه كلما تحتاج اليه

— ماهو هذا السوق ؟

— أتجهل سوق التامبل ياجاري ؟

— نعم

— عجباً كيف تجهل هذا السوق وأنت جدير بابتياع حاجتك منه اذا كنت من المقتصدين لان كل شيء فيه يباع بثمن بخس . اذا فرضنا انك تشتري سترتك التي عليك بثمانين فرنك يمكنك ان تشتريها من سوق التامبل بثلاثين فرنك

— هذا فرق عظيم جداً يدفع الانسان الى الشراء من هذا السوق بالرغم عنه وقد خطر لي خاطر ... هل لك المام بلوازم المنزل؟

— نعم

— امسكي اذن بذراعي وهلمّ نذهب معاً الى سوق التامبل نشتري ما يلزم لعائلة موريل . اتوافقيني على ذلك ؟

— كيف لا ! انني اعد نفسي سعيدة اذا عاونتك على هذا العمل النبيل .. فانهم قوم بؤساء يستحقون الرحمة والمعونة ولكن من اين لنا المال لشراء ما يلزمهم

— لديّ المال

-- حسن .. قلت لك اني أسر بالذهاب معك ولكن لا يمكنني اطالة الغيبة لان الوقت هو كل ما املك ولا سيما انني في تأخير بسبب ما اضعته من الوقت في قضأ حاجاتي وتفقد عائلة موريل من حين الى آخر فاذا فقدت اليوم ساعة وغداً ساعتين وبعد غد ثلاث ساعات لا البث أن افقد من من مجموع ذلك يوما كاملا واجرة اليوم فرنك ونصف فاذا خسرتها وليس لي مورد رزق اخر فكيف أعيش؟ .. على انني مع ذلك ساذهب واياك الى السوق واستعيض ما اضيعه من الوقت بالعمل ليلاً .. فانتظرني اذن قليلا ريثما البس قبعتي وشالي واعود اليك .

— اتسمحين لي بمرافقتك الى غرفتك لاضع فيها

بعض اوراق معي

-- حباً وكرامة وهي فرصة يمكنك أن ترى فيها غرفتي ولا اخشى انتقادك لاني نظفتها ورتبت فرشها منذ الصباح مما يدلك على انني انهض من النوم باكراً فان كنت كسولا من الذين ينامون حتى الضحى فلا تسرك جيرتي لاني اقلقك

قالت الضحوكة ذلك ثم نزلت السلم بخفة كانها العصفور وتبعها رودلف فدخل غرفته أولا ونفض ما كان لصق عليه من التراب وبعد ان تأبط رزمة من الورق دخل غرفة الضحوكة

وكانت هـذه الفتاة من عمر المغنية رفيقتها في السجن . والفرق بينهما كالفرق بين الضحك والبكاء وكالفرق بين النفس الرفيعة الخيالية وبين النفس المبتهجـة النشيطة

فلم تكن الضحوكة تخرج من غرفتها في غير يوم الاحد وفي صباح كل يوم تبتاع مايلزمها من القوت من خـبز ولبن وشيء من الحب لعصفورها .

وكانت بنت ثماني عشرة سنة ذات قامة معتدلة هيفاء متناسبة الاعضاء تستلفت الانظار وتأخذ بمجامع القلوب . ولها مشية أخف من مشية الظبي

وحين رأى رودلف هـذه الفتاة لأول وهلة في غرفة موريل لم يتحقق صورتها لشدة الظلام .ولكنه لما رآها في غرفتها على ضوء الشمس بهره جمالها

وقبل ان تشـعر بدخوله عليها كانت واضعة رجلها على كرسي ومنحنية فوقها تشد رباط حذائها فابصرت عين رودلف على الرغم منه ساقاً بلون العاج و بضاضة العجين فكاد يسيل لعابه وفي تلك اللحظة أجال رودلف بصره في كل ناحية من غرفة الفتاة فوجـدها على حالة من النظافة والترتيب فوق ماوصفته مدام بيبليه في كلامها عن الضحوكة ولم يكن في تلك الغرفة من الفرش سوى الضروري ولكن كل شيء كان على غاية النظافة ممـا يبهج النظر وأبهج ما كان هنالك قفص معلق عند حافة النافذة داخله شحروران يغردان

ولما أحست الضحوكة بوقع أقدام رودلف التفتت نحوه وهي لاتزال في موضعها وقالت له -- أهلا بك من أي وقت أنت هنا ؟

- اني هنا منذ لحظة ولا استطيع النطق لشدة الاعجاب

- وما هو سبب اعجابك

— هي هذه الغرفة الجميلة فانك فيها كالملكة في مقصورتها ولاشك انك انفقت مالا كثيراً لشراء ما في هذه الغرفة من الفرش

— لاتذكرني بما انفقت ! ! انني حين خرجت من السجن كان لدي اربعمائة وخمسة وعشرون فرنكا فانفقتها كلها في شراء هذا الفرش الذي تراه

— كيف ! .. هل كنت مسجونة انت ؟

— نعم ولذلك حكاية يطول شرحها . . . وأرجوك ان لاتظن انني سجنت لجناية ارتكبتها

— حاشا ان أظن ذلك . ولكن كيف سجنت ؛

— انني بعد الهواء الاصفر بقيت وحدي لا نصير لي ولا معين ولا قريب ولا حبيب وكان عمري اذ ذاك عشر سنين

— ولكن من رباك حتى بلغت ذلك السن ؛

— رباني قوم كرام . ولكن الوباء لم يبق منهم أحداً

— ولما أتت الضحوكة على تلك الذكرى اغرورقت عيناها بالدموع وعادت فقالت .

وبعد ان ماتوا جميعهم بعت كل مقتناهم لسداد ما كان عليهم من الديون فأصبحت على الحضيض ولم أجد ذا رحمة

يأويني الى بيته ويقيني عزاب الجوع والبرد فهمت على وجهي واليأس ملء فؤادي ثم انني فصدت مركز رجال الشحنة وقلت للضابط . « اعلم ياسيدي الجندي ان أهلي جميعهم هلكوا بالهواء الاصفر فلم يبق لي معين ولست أدري أين أذهب فما الحيلة ؟ — فرثا الضابط لبلواي وبعثني الى سجن الاحداث حيث أقمت ستة سنين وخرجت في السادسة عشرة من عمري

— الست تعرفين من هم أهلك ؟

— لا أعلم من هو والدي . وحيث فقدت والدتي كنت بنت ست سنين وقبل وفاتها أخرجتني من مدرسة الايتام التي كانت أدخلتني فيها اضطراراً وبعد موتها احتضني القوم الكرام الذين ذكرتهم لك لانهم كانوا جيراننا ولم يكن لهم أولاد فتبنوني وكان الرجل يدعى كريتو ومهنته دهان في البواخر أما المرأة فكانت تدعى رامونيت

— وهل كانا في يسر أم في عسر ؟

— كانا مثل أمثالهما العمال تراهما في يسر اذا وجدا عملا ويوماً في عسر اذا سدت في وجوههم ابواب الرزق ولكنهما كانا على الحالتين في سرور وحبور دائمين وما كانا يطلبان مني

سوى أمر واحد وهو أن اكون دائما مسرورة باشة الوجه فلم أخيب رجاهم حمداً لله ولذلك لقبوني بالضحوكة وبقيت ادعى كذا حتى يومنا هذا وكان هذا الاسم خلق لي وكانني خلقت له فانك ترى ياجاري كيف اتكلم اكثر من قاض معزول وأضحك اكثر من الصبيان يوم العيد .تعال ياجاري (اعمل معروف) واعطني شالي هاهو على السرير وضعه على كتفيّ وأمسك طرفيه حول عنقي بهذا الدبوس الغليظ وبعد ذلك نسرع بالذهاب اذ لابد لنا من الوقت لانتقاء ماتريد شراءه لعيال موريل البؤساء من سوق التامبل .

فأطاع رودولف أمر الضحوكة صاغراً فأخذ الشال عن السرير ووضعه على كتفيها فقالت له

— والآن أرجوك ياجاري ان ترفع (قبة) ردائي قليلا وان تشبك بها طرف الشال بهذا الدبوس ولكن اياك ان تشكني وخذ الآن مفتاح غرفتي لأنه ثقيل جداً فأخشى ان يثقب جيبي

فأخذ رودلف المفتاح ووضعه في جيبه ونزل السلم وراء الضحوكة ولما مر بباب بيت بوليدوري رفع قبة ردائه وانزل

قبعته فوق عينيه خوفاً من ان يراه أستاذه القديم ويعرفه على رغم تقادم العهد على افتراقهما وتغير هيئة كل منهما

وعند آخر السلم وجدا البواب بيبليه جالساً في غرفته وامامه منضدة عليها قطع من الجلد واحذية بالية مقطعة وكان مشتغلا بترقيع واحدة منها . وكانت زوجته غائبة فقالت له الضحوكة :

— أرأيت يا ابتي بيبليه كيف ان موريل وعياله نجوا من المأزق الذي كانوا فيه بفضل هذا الكريم . . . ياربّاه انني كلما اتصور انهم آخذين موريل الى السجن اصاب بدوار . . . ولا شك ان ذينك الرجلين فظان غليظا القلب

فأجابها البواب بصوت مرتجف ينم عن الغضب وهو يشير بحذاءٍ كان مدخلا فيه ذراعه الشمال وقال

— وهما أيضاً قليلا الأدب . . . نعم أنا أقول امام الله والناس أنهما من الاجلاف القليلي الحياء ولا أخاف لومة لائم لانهما حين نزلا السلم اغتنما فرصة وجودهما مع زوجتي في الظلام الدامس فتجاسرا على مد ايديهما الى جسد زوجتي الطاهر وحين سمعت صراخها الدال على عفتها تغلبت عليّ

حدة الطبع . . . ولا أخفي عليكما اني في أول وهلة عزمت على الثبات في مكاني . . .

فكادت الضحوكة تغرب في الضحك عند سماع مقال البواب ولكنها تغلبت على نفسها وقالت

— ولكنك بعد ذلك تبعتهما وشفيت منهما الغليل .

— نعم شفيت منهما الغليل بطريقة أفضلها على الضرب وهي انهما حين مرا بباب غرفتي هاج في عروقي دم النخوة فرفعت يديَّ وسترت بهما عينيَّ لكي لا أراهما . . . وانا لم أعجب لما حصل لانني كنت اتوقع حدوث مصاب حيث رأيت في المنام صورت كبريون اللعين .

فابتسمت الضحوكة وتنهد البواب تنهداً عميقاً منع من ظهور صوته صوت وقع المطرقة على جلد نعل الحذاء فقال رودلف للبواب

— لقد احسنت يامسيو بيبليه في الدفاع عن أصحاب الحق والنفور من عمل الشر . ولكن دع عنك ذكر ذينك الرجلين واصنع معي جميلا

— ماهو ياسيدي ؟

— هوان تصعد الى غرفتي بعض أمتعة سأبعث بها بعد حين الى عائلة موريل

— حباً وكرامة ياسيدي سأفعل ماتريد

وحين خرج رودلف والضحوكة من باب البيت صادفا انسطازي زوجة البواب عائدة من السوق وفي ذراعها سلة مملوءة . فنظرت اليهما نظرة كلها معانٍ وقالت لهما

— حسناً فعلتما . . وقد أسرعتما في الائتلاف فاني أراكما متلاصقين بذراعيكما . . . برافو . برافو . لابأس من ذلك . . ولا بدَّ للشباب من استيفاء حقوقه . . . ولا يوافق الفتاة الجميلة سوى الشاب الجميل . . . برافو . برافو . . . عاش الحب

ثم ولجت الباب وتوارت في الممشى المظلم وهي تصرخ وتقول لزوجها

— الفريد . الفريد . لاتفقد الصبر هاقد عادت اليك حبيبتك انسطازي تحمل ماتشتاق اليه نفسك من المأكول .

وسار رودلف والضحوكة مبتعدين عن بيت شارع التامبل

الفصل الحادي والعشرون

سوق التامبل

ذهب رودلف والضحوكة الى ذلك السوق الكبير الذي كانوا يدعونه سوق التامبل وكانت الفتاة متوكئة على ذراع رودلف بغير كلفة كانما تعرفه من أمد بعيد وعندمامرا بآخر الحوانيت قالت له وهي تشير بيدها الى داخله

— ما أجمل هذه الساعة الدقاقة والانائين الجميلين اللذين الى جانبها !. وانني قدجمعت بالاقتصاد ثلاثة فرنكات ونصف وكان مرادي أن أثابر على الاقتصاد حتى أجمع ثمن ساعة مثل هذه أذين بها غرفتي وأظن انني كنت أجمع ثمنها لو ثابرت على التقتير على نفسي خمس سنين

— كيف يمكنك الاقتصاد ياجارتي ! . فكم تربحين في اليوم ؟..

— أربح فرنكاً ونصف على الاقل كل يوم وأحيانا فرنكين ولكني لا أعول الا على فرنك ونصف فقط واعدل نفقاتي على هذا الربح

وكانت الضحوكة تتكلم بلهجة الجد كانها تبحث في

ميزانية حكومة عظيمة

— وكيف يمكنك الاقتصاد والتوفير وانت لا تربحين سوى فرنك ونصف . لا بل كيف يمكنك أن تعيشي بهذا القدر اليسير ؟

— اليك بيان ما أنفقه . غرش ثمن رطل خبز ونصف غرش ثمن لبن وغرش ثمن خضار في الشتا او فاكهة في زمن الصيف ونصف غرش ثمن زيت وخل يكون المجموع ثلاثة غروش .. ضف الى ذلك ثمن حب لعصفوري في كل أسبوع فيكون مجموع ما أنفقه في الشهر على قوتي ثلاثة وعشرون فرنكا واثنى عشر فرنكا أجرة غرفتي

— أرجوك أن تسمحي لي بمراجعة هذا الحساب . قلت انك تنفقين ثلاثة وعشرين فرنكا على طعامك واثنى عشر فرنكا أجرة غرفتك فيكون المجموع خمسة وثلاثين فرنكا كل شهر .

— أي نعم ويبقى من الخمسة وأربعين أو الخمسين فرنك التي أربحها عشرة أو خمسة عشر فرنكا أنفقها ثمن خشب وزيت في فصل الصيف ونفقات غسيل ثياب اعني ثمن

صابون لانني اغسل بيدي كل ثيابي ماخلا الملاآت واني انفق غرشا ثمن زيت لسراجي فيكون مجموع ما أنفقه ثمن زيت في السنة ثمانين فرنكا

— فلا يبقى لك اذن مما تربحينه في بحر السنة سوى ماية فرنك لملبوسك؟

— نعم ومن هذا المبلغ كنت وفرت الثلاث فرنكات ونصف التي ذكرتها لك

— وكيف تكفيك المايةفرنك لشراءأثوابك وأحزيتك

— هل نسيت سوق التامبل ؟

— وهل تجدين في هذا السوق كلما تحتاجين اليه باثمان بخسة الى هذا الحد ؟

— نعم اجد فيه اثواباً جميلةبخسة الثمن وتعليل ذلك ان كثيرات من النساء الغنيات ينعمن بأثوابهن القديمة على خادماتهن. اقول أثوابهن القديمة اعني انهن يلبسنها شهراً او شهرين ولا يخرجن بها من منازلهن الا في المركبات بحيث تبقى على جدتها وأغلب الخادمات اللواتي ينلن تلك الاثواب يبعنها في سوق التامبل بابخس الاثمان . بحيث

يوجد هنالك اثواب صيف جميلة لا يزيد ثمن الواحد منها عن خمسة او ستة فرنكات واحذية مثل الحذاء الذي البسه تكاد تكون جديدة يباع الزوج منها بفرنكين او ثلاثة . انظر الى هذا الحذاء الذي في رجلي الا يخال لك انه مصنوع على قياسها

ووقفت الضحوكة في وسط الطريق ورفعت رجلها عن الارض وارتها لرودلف وكان حذاؤها جميل بالحقيقة .

— لاشك ان هذه القدم جميلة وانك لاتجدين حذاء على قياسها بسهولة الا اذا قلت لي انهم يبيعون في سوق التامبل احذية اطفال .

— انك من المملقين أيها الجار ولكن مالنا ولهذا الا تقر الآن بان فتاة مثلي وحدها اذا كانت مدبرة يمكنها ان تعيش بفرنك ونصف كل يوم وها قد رأيت انني لا أحرم نفسي من شيء مثلما قلت لك وان أجرة غرفتي هي فوق طاقتي وعندي عصافير أقوم بنفقاتها وفي أغلب أيام الصيف أشتري طاقتين من الذهور أضعهما على الموقدة ومع كل هذا أمكنني ان أوفر ثلاثة فرنكات ونصف على امل ان أجمع يوماً ما ثمن ساعة دقاقة تذدان بها غرفتي .

— وماذا فعلت بالثلاثة فرنكات ونصف التي وفرتها؟

— انني رأيت في هذه الايام الاخيرة ان موريل وعائلته في ضنك شديد فقلت في نفسي : « ليس من العدل ولا من الحكمة ان يكون عندي ثلاثة فرنكات ونصف نائمة في صندوقي بلا عمل وجاري وعياله يتضورون جوعاً . » وحين خطر لي هذا الخاطر أسلفت الثلاثة فرنكات ونصف لموريل أوبالحري قلت له اني أسلفه اياها لكي لا أحمله جميلاً لانني بالحقيقة أعطيتها اياه عن طيبة خاطر ولا أريد استرجاعها

— ولكن بما ان الله قدمن على موريل بالفرج فسوف يرد لك مالك .

— اذا كان في يسر ورده لا ارفضه وأضم اليه ما اوفره حتي أجمع ثمن الساعة الدقاقة

— انك اذن لا تطمعين بشيء ؟

— كلاّ ماخلا الساعة الدقاقة وهذه ساحصل عليها عاجلا اوآجلا ولو كلفني ذلك اطالة السهر

— وما خلا تلك الساعة ؟

— لا اتمني شيئاً منذ ثلاثة أيام ...

— لماذا

لانني قبل الامس كنت أتمنى ان يكون لي جار موافق لرغائبي لاعينه واستعين به مثل ما كنت افعل مع جيراني من ذي قبل.

— هذا غاية ما أتمناه ياجارتي العزيزه.. فتمتنين بثيابي وامسح لك أرض غرفتك . وأرجوك منذ الآن ان توقظيني من النوم باكراً وذلك ان تدقي على الحائط الذي يفصل غرفتك عن غرفتي

— وهل تظن ان كل أعمالنا تنحصر في ما ذكرنا ؟

— ما يمكننا عمله أيضاً ؟

— انك لم تفكر في كل شيء أيها الجار . ألا يلزمك كل يوم أحد ان تذهب بي الى النزهة خارج المدينة أو في الشوارع الكبيرة ؟ . ولا يخفى عليك انني لا استطيع النزهة في غير يوم الاحد . . وسوف ترى كيف أكون جميلة حين ارتدي ثوبي الحرير الازرق البديع الصنع الذي لا ألبسه الا أيام الاحاد والاعياد والبس حزائي الجديد الذي صنعته على قياس رجلي والشال الحرير الشبيه بالكشمير . ولا شك ان الناس

يلتفتون اليناحين نمر بهم فيقول الرجال منهم : « ما أجمل هذه الفتاة انها وايم الحق ارشق من الظبي » وتقول النساء « ما أجمل هذا الشاب وما أبدع شاربيه السوداوين » ولا شك انني أكون من رأي تلك النساء لانني أعشق الشاربين . . ولسوء الحظ لم يكن لجاري القديم الموسيو جرمان شاربان لان وظيفته كانت تقضي عليه بحلقهما اما الموسيو كابريون الذي كان جاري أيضاً فكان شارباه حمراوين مثل ذقنه وانا لا أحب الذقون ولم أكن أحب بعض فعال كبريون الصبيانية اذ كان يعمل ما تخجل منه أولاد الازقه فانه كان يكثر من مشاكسة بيبليه البواب . اما الموسيو جيرود الذي كان جاري قبل كبريون فكان حسن الهندام ولكنه أحول وأول ماعرفته كنت أشعر بملال حين أكلمه لانه كان يخيل لي دائماً انه ينظر الى أحد بجانبي فالتفت لارى ذلك الشخص الوهمي بغير سوء قصد فلا أرى امامه غيري

— وكان روداف مصغياً الى حديث الضحوكة وهو يفكر فيما هي حقيقة امر هذه الفتاة من حيث الطهر والعفاف فطوراً يردد كلامهـا ويذكر ذلك المفتاح الغليظ الذي يحمله

في جبيه فيقول في نفسه انها كانت تحب جيرانها محبة اخوية وطوراً يخطيء هذا الظن ويقول لا يمكن ان فتاة جميلة صغيرة السن ليس لها من ينظر في امرها يمكنها أن تنجو من اغراء ثلاثة شبان مثل جيرود وكبريون وجيرمان . وبعد سكوت وجيز قال لها .

— لقد اسعدتني بتكليفي بالذهاب معك للنزهة ايام الاحد فثقي بانني ابذل وسعي في عمل كلما يرضيك ويسرك . ولكن الا تخشين على سمعتك ؟

— فاستغرقت الفتاة في الضحك واجابته وهي تقهقه

— سمعتي ! سمعة فتاة عاملة مثلي هل يهتم احد بسمعة فتاة على شاكلتي ؟ فلو ان لي ابا او اماً او اخاً او اختاً كنت اخاف من كلام الناس على سمعتي حفظاً لكرامة اهلي ولكنني فريدة في هذا العالم فانا ولية امري وليس لي من يعترض على سلوكي فان كنت طاهرة الذيل في عيني نفسي فلا يهمني ما يقوله الناس عني فقد كان الموسيو جرمان جاري الاخير يقضي لياليه معي ولم يكن يتضجر لذلك وقد قرأ لي كتب ولترسكوت فسررت بذلك كثيراً وكان في ايام الاحد اذا رأى الجو

ممطراً يفضل البقاء معي على الذهاب الى المراسح والملاهي فيشتري شيئاً من الطعام فنأكل معاً في غرفتي ثم نقرأ وكنت أسر بذلك اكثر من الذهاب للنزهة .

— الا تعرفين اين يوجد هذا الشاب جرمان ؟

— اظن انه في باريس

— اما عدت ترينه ؟

— انه لم يزرني منذ غير مسكنه

— الا تعلمين اين يسكن الآن وماذا يعمل؟

— وما سبب هذه الاسئلة؟

— يهمني كثيراً أن اعرف اين يمكنني مقابلته الان وانت لا شك تعرفين اين يسكن فلا تكتمي الحقيقة عني وايقني بانني لا اضمر الشر لاحد وان من وراء معرفتي مسكن جرمان الجديد فائدة تعود عليه

— أن نفسي تحدثني بانك تريد له الخير ولكنه اخذ علي ميثاقا بان لا ابوح لاحد اين يوجد مسكنه الجديد فاعذرني

اذن اذا كتمت ذلك عنك وتمنعي هـذا لا يغضبك لانك أن ائتمنتني على سر تحب أن احافظ عليه محافظتي على سر جرمان

-- لكن ...

-- دعنا من لكن ولا تلح عليّ بالسؤال فقد وعدت الموسيو جرمان بالمحافظة على سره وحاشا لله أن لا ابر بوعدي

وعلى رغم خفة الضحوكة الظاهرية ايقن رودلف حين سمع عبارتها الاخيرة الدالة على ثبات العزيمة أن لا سبيل لوقوفه منها على اخبار جرمان فاسف لذلك وقال لها

-- حسن أنني لن الح عليك بالسؤال عن الموسيو جرمان كما تريدين وان كنت تكتمين اسرار غيرك الى هذا الحد فكيف لا تكتمين اسرارك .

-- اسراري ! ... انا ! .. يا ليت لي اسرار لعلي اجد فيها بعض التسلية .

-- كيف ! الا يشغل قلبك سر ؟

-- سر يشغل قلبي !!

-- دعينا من الانكار وقولي لي بحرية ضمير الم يكن لك عاشق قط ؟

-- عاشق ! هل لدي وقت للاهتمام بالعشق !

-- وما دخل الوقت في ذلك ؟

— لا شك ان الاهتمام بهذا الامر يشغل جانباً عظيما من وقتي واليك بيان ذلك انني اذا احببت احداً اصاب بداء الغيرة واجاب الهم لقلبي من حيث لا ادري فاتحسر واذرف الدمع وهل تظن انني اربح مالا جزيلا حتى يمكنني ان اضيع ساعتين أو ثلاثا من النهار في البكاء والعويل واذا خانني الذي احبه تصور ما يصيبني من الحزن والاشجان .. أن مجرد الفكر في تلك الامور يكرهني بالحب .

— هلاّ فكرتي يوماً في الزواج ؟

— انا اتزوج ! .. انني لا يمكنني الزواج الا برجل فقير مثلي فينالنا من الشقاء متى انضم فقره الى فقري ما اصاب عائلة موريل فارى الاوفق لي أن ابقى فريدة مثل ما انا لانني مهما يكن من الامر استطيع الحصول على قوتي .

— اليس لك اماني ؟ الا تبنين العلالي والقصور على فسحة الامل ؟

— نعم اتمنى أن اشتري ساعة دقاقة لازين بها موقدتي .. وما خلا ذلك ماذا تريد ان اتمنى ؟ . ولكن ها قد وصلنا الى السوق انظر ما اجمل منظره .

فاعجب روداف بما رآه من نظام الحوانيت ووقوف اصحابها على ابوابها يدعون عابري السبيل الى دخولها ويعرضون عليهم بضائعهم.

وحالما وصلا الى الحوانيت التي تباع فيها ادوات الاسرة اخذ التجار يعرضون عليهما البضاعة بأثمان بخسة فدخلا حانوت امرأة تدعى بوفار طلقة المحيا عذبة الحديث ولما رأت الضحوكة تنظر في بعض المفروشات قالت لها

— هذه فرصة حسنة يا سيدتي لا تضيعيها فلديك كل ما يلزم لفرش سريرين كاملين ويخال للناظر الى هذه البضاعة انها جديدة واذا كنت ترغبين في شراء منضدة جميله بخسة الثمن فها هي عن يسارك وقد ابتعتها مع ادوات السريرين صفقة واحدة ومع انني لا اشتري شيئاً من الاثاث عادة فما امكنني الامتناع عن شراء هذه المنضدة لان اصحابها حركوا فيَّ عاطفة الشفقة لما وجدتهم عليه من التعاسة . مسكينة هي تلك السيدة فانها لم تحزن على شيء مما باعته مثل حزنها على هذه المنضدة فلعلها أثر من اهلها

فلما سمع رودلف كلام صاحبة الحانوت دنا من المنضدة

واخذ يمعن فيها النظر فوجدها قديمة العهد ومصنوعة من خشب الورد وهي مثلثة الشكل ولها غطاء اذا فتح يرتكز على قائمتين من النحاس . فتتحول المنضدة الى مكتبة وفي وسط ذلك الغطاء المزركش قرأ رودلف حرفين «م.ر» منقوشين بخشب الابانوس ومن فوقهما رسم تاج الكونتية فاستنتج أن صاحب هذه المنضدة من طبقة الاشراف فازداد رغبة في فحصها ففتح ادراجها الواحد بعد الاخر ولما انتهى الى الدرج الاخير لقي بعض الصعوبة في فتحه ورأى أن السبب في ذلك هو وجود ورقة بين الدرج والفتحة التي يبيت فيها فاخرجها بتؤدة لكي لا تتمزق ولما أمعن فيها النظر وجد انها نسخة رسالة هذا نصها.

«سيدي . كن على يقين أن المصاب الذي دفعني الى الالتجاء اليك أليم . أن تمنعي الذي اظهرته ليس ناشئاً عن الكبر بل لان ليس لدي مستندات على العمل الذي ارجوه منك وان حالة ابنتي التي اصبحت مثلي في فقر مدقع تجعلني اتغلب على ارتباكي . فاسمح لي ان اشرح لك بوجيز العبارة عن سبب المصائب التي احاقت بي .

«بقي لي بعد موت زوجي ثلثمائة الف فرنك ودعها أخي عند الموسيو جاك فران وكيل الاشغال وكنت وانا في انجيه مع ابنتي استولي على فائظ ذلك المال عن يد اخي . وانت تعلم يا سيدي كيف انتهت حياة اخي المسكين فبعد أن خسر كل ثروته في المضاربات انتحر منذ ثمانية شهور وقبل انتحاره بعث اليّ بكتاب ملؤه اليأس وذكر لي في ذيل ذلك الكتاب ان ليس لديه مستند على ثروتي التي اودعها عند الموسيو جاك فرّان لان هذا الرجل لا يعطي ايصالا عادة عما يودع عنده لانه معدن الشرف والذمة الطاهرة وانه يكفيني أن اذهب لعنده لاحصل على تلك الثروة

«ولما أمكنني النظر في شؤوني بعد وفاة المرحوم أخي أتيت الى باريس حيث ما كنت أعرف سواك ياسيدي . قلت لك ان المال المودع عند جاك فرّان هو كل ثروتي وان أخي كان يبعث اليّ بفائظه كل ستة شهور وكان قد مضى أكثر من سنة على آخر مرة قبضت فيها الفائظ فذهبت الى محل المسيو جاك فران لاطلب منه المستحق لي لانني كنت في أشد الحاجة اليه وحينما دخلت عليه وعرف من أنا لم يشفق

على حزني وابتدرني بلوم المرحوم أخي مدعياً انه استدان منه ألفي فرنك وانه خسرَ هذا المبلغ وأردف قائلاً بان انتحار أخي لم يكن فقط جناية امام الله والناس بل كان سبباً في ضياع أمواله فاثر بي ذلك الحديث الخشن ولا سيما انني اعتقد سلامة شرف أخي وطهارة ذمته ثم انه جازف بثروته في المضارابات نخسرها كلها على غير علم مني ومن أصدقائه ولكنه مات وسمعته لم تخدش وراح . أسوفاً عليه من الجميع غير مدين لاحد سوى جاك فران فأجبت هذا بانني افوضه باسترداد الدين الذي له على أخي من الثلثمائة ألف فرنك المودعة عنده لأمري ولما قلت له ذلك نظر اليّ بدهشة وسألني . أي ثلثمائة الف فرنك تعني فاجبته هو المال الذي أودعه أخي عندك منذ ثمانية عشر شهراً والذي كنت تدفع فوائظه لاخي فيبعثها اليّ فلماسمع المسيو فران جوابي ضحك مستهزأ بي كانني مصابة بمسٍ من الجنون وأجابني بان أخي لم يودع عنده شيئا وانه مدين له بألفي فرنك كما تقدم الى ان قال لي . « والمرجح عندي ان أخاك لم يودع ثروتك عندي كما قال لك ولكنه أضاعها في المضاربات التي

عكف عليها على غير علم من أحـد » فقلت له كذبت يا هذا فقال لي أتجسرين على الادعاء بانني أنكر مالاً أودع عندي؟ وما هي المستندات التي تعتمدين عليها لاثبات هـذه التهمة علي؟ فاجبته . ليس لدي مستند سوى ان المرحوم أخي كتب لي منذ ثمانية عشر شهرا كتاباً قال لي فيه . « لقد وجدت لك محلا أميناً تودعين فيه ثروتك بفائظ ستة في المائة فابعثي الي بتوكيل لابيع بموجبه مالك من العقار فاودعه في محل المسيو جاك فران واضيف عليه من جيبي حتى يبلغ ثلثمائة الف فرنك» فبعثت بالتوكيل الى أخي وبعد يومين أتاني منه جواب يقول فيه انه سلمك المال وبعـد ستة شهور من ذلك التاريخ بعث الي الفوائظ المستحقة فقال لي المسيو فران هل لديك ياسيدتي على الاقل بعض رسائل من أخيك يذكر فيها هذا الامر؟ فاجبته لا ياسيدي لانني ما كنت احتفظ برسائله فقال لي افعلي اذن ماتشاءين واشتكيني اذا اردت ولا أخالك تجسرين على ذلك لان هذه الدعوى تلطخ ذكر أخيك بالعار ويغلب على ظني انك تعمدين الى الصبر على مصابك والاستسلام للقضاء والقدر نعم ان مصابك جسيم ولكن ليس لي يد فيه

فقلت له لاتنس يا سيدي انني ام ولي ابنة فاذا ضاعت ثروتي لم يبق لنا من حطام الدنيا سوى أثاث بيتنا ومتى بعناه نصبح على الحضيض ويعضنا ناب الفقر فاجابني لقد غشك أخوك وأضاع ثروتك ولا انكر انه مصاب جلل ولكن لا حيلة لي فيه فان كنت لا تثقين بما اقوله لك وترجحين عليه قول اخيك فاشتكيني والمحاكم تنصف بيننا »

«فخرجت من عند ذلك الرجل والحزن ملء فؤادي حتى كدت اموت لشدة اليأس اذ لم يبقَ لي أمل بعد ذلك المصاب العظيم ولم أعد ادري ما اعمل اذ لم يكن لدي مستند اثبت به دعواي على فيران ومن جهة اخرى كنت على يقين من طهارة ذمة اخي ولم اجد احداً استشيره في الامر لانك كنت اذ ذاك مسافراً ولعلمي ان استشارة المحامين في هذا الامر يستدعي كثير نفقة ولضنّي بالنذر اليسير الذي بقي لنا لم اجسر على رفع دعوى . وفي ذلك الحين . .

هذا كل ماامكن رودلف قراءته من تلك الرسالة لان ما بقي منها كان مطموساً وفي ذيل الرسالة حاشية هذا نصها «اكتب لحضرة الدوقة لوسيني عن يد المسيو سان ريمي »

فظل رودلف برهة مفكراً بعد قراءة تلك الرسالة ولا سيما انه وجـد فيها ذينك الاسمين ثم ذكر جاك فيران وقال في نفسه : — وان كان لا يوجد مع السيدة كاتبة هذه الرسالة مستند تثبت فيه صحة دعواها على فيران فان ماأتاه هذا الرجل من سوء معاملة موريل وتدنيس شرف ابنته لويز يدعو الى الظن بان دعوى السيدة صحيحـة وانه أنكر المال الذي أودع عنده . وهذه المرأة التي تطالب بثروتها المفقودة هي بلا شك من اللواتي تعودن الرفاهية وبسطة العيش فما عسى ان يكون من أمرها وابنتها في باريس بعد ان أصبحتا على الحضيض وليس لهما معين

وبينما كان رودلف مطرقاً يفكر قالت له الضحوكة

— ماهي الورقة التي تقرأها ؟

فاجابها رودلف : — سأذكر لك ذلك بعد حين .. هل اشتريت ما يلزم ؟

— نعم وعما قليـل يصبح الذين أحسنت اليهم مثل أولاد الملوك ولم يبق علينا سوى دفع الثمن لمدام بوفار

فقال لها رودلف : — بينما أدفع أنا للسيدة بوفار ثمن

مااشتريناه منها أرجوك ان تذهبي الى الحوانيت التي تباع فيها الملابس واشتري مايلزم منها لموريل وعياله فانني لست خبيراً بهذه الامور وكلفي صاحب الحانوت الذي تبتاعين منه ان ينقل الى هنا ماتشترينه فنذهب ومعنا كل ما يلزم لاولئك البؤساء .

— ماأحسن رأيك فانتظرني هنا ريثما أعود ولا أطيل عليك الغياب فاني أعرف بائعتين طالما اشتريت منهما حوائجي والمرجح انني أجد عندهما كل ما يلزم لنا

— وبعد ذهاب الضحوكة أعطى رودلف مدام بوفار ورقة مالية قيمتها خمسمائة فرنك وقال لها

— خذي من هذه الووقة ثمن مااشتريناه

— حسن ياسيدي وسأرد لك الباقي

— اين نجد عربة تنقل لنا هذه الامتعة !

— اذا كان المكان الذي تريدون نقلها اليه قريباً فتكفيكم عربة يد . . ويمكنني ان اكلف العم جيروم بنقلها على عربته فهو يقضي حاجاتي ويقيم قريباً من هنا . . اين يوجد منزلك ياسيدي

— في شارع التامبل نمرة ١٧

— شارع التامبل نمرة ١٧ حسنٌ . حسنٌ . . . انني اعرف هذا البيت مثل مااعرف بيتنا

— انك اذن ذهبت اليه

— مراراً عديده . . . وفي بادئ الامر اشتريت ثياباً عتيقة من امرأة ساكنة هناك تسلف النقود على رهونات ومنذ ستة أسابيع ذهبت الى ذلك البيت لاشتري أثاث غرفة شاب يسكن في الطابق الرابع وكان يريد الانتقال الى مسكن آخر

فهتف رودلف قائلا : — لعله المسيو فرنسوا جيرمان

— نعم هو بعينه . . . هل تعرفه؟

— نعم اعرفه حق المعرفة ولكنه لسوء الحظ لم يذكر لاصدقائه عنوانه الجديد بعد ان ترك مسكنه في شارع التامبل بحيث انني لم أعد أعرف كيف أجده ،

— اذا كان هذا الامر يهمك فانا أهونه عليك فاعلم ان هذا الشاب موظف عند وكيل أشغال مقيم في شارع سانتيه

فقال رودلف — لعله المسيو جاك فيران ؟

— نعم بعينه .. بورك فيه انه من الصالحين الاطهار

والدليل على ذلك ان في مكتبه صليباً معلقاً على الحائط وتحيط به اغصان خضراء مقدسة والذي يدخل ذلك المكتب يشعر برائحة بخور كانه في كنيسة

— ولكن كيف عرفت ان المسيو جرمان موظف عند فيران ؟

— جاءني هذا الشاب يوماً ليبيع مفروشات غرفته صفقة واحدة . فاشتريتها منه ونقدته ثمنها ويظهر انه سر من معاملتي لانه بعد خمسة عشر يوم عاد اليّ ليشتري لوازم سريره فلبيت طلبه وحينما أراد ان ينقدني الثمن وجد انه فقد كيس نقوده ولما توسمت فيه الشهامة قلت له « لا بأس خذ ما اشتريت وغداً اذهب اليك وآخذ منك الثمن . فأجابني ولكنك لن تجدني في غرفتي قط فارى الاوفق ان توافيني غداً الى شارع سنتيه في محل الخواجه جاك فيران وكيل الاشغال حيث أنا موظف فأنقدك الثمن »

فذهبت اليه في الغد فدفع اليّ ثمن ما ابتاعه . ولكن الامر الذي عجبت له هو انه باعني ما كان عنده من المتاع والمفروشات كما تقدم واشترى غيرها بعد خمسة عشر يوم

فأدرك رودلف السبب في ذلك العمل الغريب وهو ان جرمان يريد تضليل اللصوص القتلة الذين يطاردونه لكي لا يقفون على اثره . وخوفاً من ان نقل امتعته القديمة يكون وسيلة لاهتداء مضطهديه الى مسكنه الجديد باع امتعته القديمة واشترى غيرها فيما بعد . ثم ابرقت اسارير البرنس عندما فكر في ان مدام جورج ستلتقي بعد حين بابنها بعد ان قضت ردحاً من الزمن في البحث عنه والبكاء عليه وفكر في ما سيتولاها من الفرح حينما تضمه الى صدرها

وفي تلك البرهة عادت الضحوكة مبتسمة وقالت

— لم يخطئ حسابي انك لا تنفق اكثر من ستماية وأربعين فرنكا وبهذا القدر من المال يصبح عيال موريل مثل اولاد الامراء ... انظر انظر الى هذه الملابس التي اشتريتها فلم يعد ينقص عائلة موريل شيء لاني ابتعت لها ايضاً كل الادوات الضرورية حتى القدر و بكرج القهوة لاني قلت في نفسي : بما ان جاري يريد التشبه بالامراء في عمله هـذا فليكن ما نعمله عمل امراء والذي يزيدني سرورا هو انني لم اضع من وقتي سوى ثلاث ساعات . فارجوك ان تدفع حالا

لنذهب فقد ازف الوقت وقرب الظهر . وكم يلزم ابرتي الاسراع لكي تعوض عمل الثلاث ساعات

فدفع رودلف ثمن ما اشتراه وعاد مع الضحوكة وحينما ولجا دهليز البيت في شارع التامبل التقيا بمدام بيبليه وكانت هذه تجري مسرعة فصادمتهما حتى كادت تلقيها على الارض فقالت لها الضحوكة

— ياربّاه !! مابك يامدام بيبليه ؟ الى اين انت راكضة؟

— ادركيني ياعزيزتي الضحوكة ; ان الله ارسلك اليّ .. ساعديني على انقاذ حياة زوجي

— ماذا تقولين

— ادركيني لقد اغمي على زوجي اشفقي عليّ وعليه واجري الى الخمارة وابتاعي قليلا من الابسنت القوي. فهذا دواءه الوحيد حين يصاب بمرض . ولعله يفيق من اغمائه اذا سقيناه منه . أرجوك ياعزيزتي ان لاتخيبي رجاي فيمكنني العودة الى عزيزي الفريد . ياربّاه اني اكاد افقد صوابي

فأفلتت الضحوكة من يد رودلف وجرت الى الخمارة

وعادت زوجة البواب على عقبها فتبعها رودلف وقال لها

— ماذا جرى يامدام بيبليه ؟

— لا ادري ياسيدي انني خرجت في الصباح وذهبت الى المحافظة ثم الى الكنيسة ثم الى الخياط لقضاء بعض الحاجات للسكان فاخفف بعض التعب عن زوجي المسكين. ولما رجعت كدت افقد صوابي حين رأيت زوجي ملقياً على الارض وساقاه وذراعاه مرفوعة مقلصة كانه حصان مائت ومنفوخ منذ اربعة أيام

ثم ان البوابة فتحت باب غرفتها واشارت الى زوجها واردفت .

— انظر بعينيك يا سيدي رودلف .. اليس هذا منظر يفتت الاكباد ؟

فالتفت رودلف فرأى المسيو بيبليه جاثياً على الارض ومسنداً الى رجل السرير وقد افاق من اغمائه واخذ يحرك يديه كمن يدفع عنه عدواً يريد الهجوم عليه. فلما رأته زوجته على تلك الحال هتفت قائلة

— انه يتحرك ! .. هذه علامة حسنة !... لقد عاد

الى صوابه .

ثم انها جثت على ركبتيها وصرخت في اذنه قائلة

- ماذا اصابك يا حبيبي الفريد ؟ .. ها هي حبيبتك انسطازي الى جانبك .. ماذافعلوا بك .. العلهم ارادوا طعنك وقتلك .. لهفي عليك يا الفريد ..

وبعد سكوت وجيز تنهد الفريد تنهداً خرج من اعماق قلبه ونطق كلمة واحدة كانت مفتاحاً لذلك اللغز وهي

- كبريون

ثم اخذ يدفع بيديه خيالات وهمية مخيفة . فادرك رودلف أن كبريون الخبيث جار الضحوكة القديم هو السبب في ما أصاب الرجل فلم يتمالك عن الابتسام وعاد الفريد فكرر لفظة كبريون ورفع قبعته عن عينيه واذ ذاك اقبلت الضحوكة تحمل زجاجة صغيرة من الابسنت فاخذتها منها زوجة البواب وقالت لها

- انني لم ار الطف منك ايتها الانسة واشكرك شكراً جزيلا

ثم انحنت على زوجها وقدمت له الزجاجة وقالت له

- خذ أيها العزيز واكرع ما في هذه الزجاجة فانه

يشفيك باذن الله

ولما رأت انه لم يتناول منها الزجاجة ادنتها من شفتيه وأمسكت رأسه باحدى يديها وادخلت بالثانية فوهتها بين اسنانه وسقته الابسنت بالقوة ثم هتفت قائلة ووجهها يطفح فرحاً

— الآن تعاودك قواك فتنهض كالاسد أيها المحبوب

وهكذا كان فان الفريد بعد ان شرب الخمر ومسح فمه بظهر يده فتح عينيه وانتصب واقفاً وقال سائلا بصوت مرتجف

— هل رأيتموه ؟ .. هل ذهب ؟ ..

— من هو يا الفريد ؟

— كبريون !

— هل تجاسر ذلك اللعين ؟

فلم يفه الفريد بكلمة كأنه صنم من الاصنام ولكنه هز رأسه مرتين علامة للايجاب فكاد يستولي الضحك على الضحوكة ولكنها تملكت على طبعها وقالت للبواب

— هل جاء كبريون الى هنا ؟

وهتفت زوجة البواب قائلة وقد اخذ منها الغضب وتملكتها الحدة

-- اما كفى ذلك الشيطان تحاملا على الفريد ؟ . . فوالله لو كنت هنا ومكنستي في يدى لكنت ادخلتها في بلعومه حتى عصاها . . ناشدتك الله ياعزيزي الفريد تكلم وقص علينا ماجرى لك .

فأشار البواب بيده اشارة تدل على انه عزم على الحديث فشخصت اليه الابصار وتطاولت الاعناق وتوترت الاذان فقال

-- بينما كنت جالساً امام هذه المنضدة وبين يدىَّ حذاء أريد ترقيعه فأعيد اليه رونق جدته بما عهد فيَّ من المهارة في هذا الفن اذ سمعت صوتاً اوبالحري حركة على زجاج النافذة.. فشعرت للحال بانقباض في صدري كانما الهمت ان مصاباً جسيما يتهددني . ثم رفعت رأسي فأبصرت . . أبصرت . .

فضمت انسطازي يديها وأتمت عبارة زوجها والدمع يكاد يترقرق في عينيها

-- أبصرتَ كبريون

فأجاب الفريد بصوت مختنق - نعم كبريون .. رأيت وجهه الشنيع ملتصقاً بزجاج النافذة وعيناه البراقتان شاخصتان الي كانهما عينا هر . . ماذا أقول لابل عينا نمر كاسر .. فتخيل الي انني في حلم لافي يقظة . فأردت ان أنادي مستغيثاً فلم أقدر على ذلك لأن لساني التصق بسقف حلقي . فأردت القيام فلم أستطع لأن مقعدتي كانت ملتصقة بالكرسي . . واصطكت ركبتاي وارتجفت يداي فوقع من بينهما الحذاء وأصابني مايصيبني في كل الاحوال الحرجة التي تعترضني في حياتي وذلك اني لزمت السكون التام . . واذ ذاك لعب المفتاح في القفل وفتح الباب ودخل كبريون

فلما سمعت زوجته ذلك أصابها خوف أشد من خوفه لجسارة كبريون فهتفت قائلة

— دخل غرفتنا ؟ . . ياله من عار ! . .

فأتم الفريد حديثه وقال :

— دخل علي ذلك الشقي متثاقلا في مشيته ثم وقف وشخص الي بعينيه ليسحرني ثم صار يتقدم نحوي ويقف بعد كل خطوة ويخترقني بنظره من دون ان يفوه بكلمة فكان

منتصباً صامتاً متهدداً مفزعاً كأنه الشيطان الرجيم .

فقالت انسطازى : - ان شعر رأسي يقف حين أذكر ذلك الخبيث

واردف الفريد : - فكنت ازداد جموداً كلما ازداد مني قرباً فأصبحت أنا والكرسي قطعة واحدة وظل كبريون يتقدم نحوي ويسحرني بنظره كما تسحر الافعى العصفور .. وعلى رغم كرهي له وخوفي منه لم اتمالك عن الشخوص اليه .. ودنا مني فلم أستطع صبراً .. نخانني الجلد فاغمضت عيناني فتجرأ ان يضع يديه على قبعتي ورفعها ببطء فشعرت بانقطاع انفاسي .. وشعرت بطنين في أذني .. وازددت التصاقاً بالكرسي واغماضاً لعيناى .. ثم ان كبريون انحنى عليّ وامسك رأسي بيديه الباردتين وامال رأسي الى الخلف وقبلنى قبلة غير طاهرة على جبينى المبلل بالعرق

فرفعت انسطازى يديها نحو العلا واردف الفريد

- واغتنم كبريون فرصة ذهولي فأعاد قبعتي الى رأسي ثم ضربها بقبضته فدخل فيها رأسي حتى عيناى مثلما رأيتم فتأثرت لتلك الاهانة ولم يبق في قوس الصبر منزع فشعرت

ان كل شيئ يدور حولي وأغمي عليّ حين رأيته خارج من الغرفة ببطئ وسكينة مثلما دخل ·

وكان ذلك الحديث ذهب بقوة الفريد فانطرح على الكرسي خائر العزيمة ورفع كفيه الى السماء مسترحما مستغيثا اما الضحوكة فلم تعد تمالك عن الضحك فخرجت من الغرفة حتى ان رودلف نفسه لم يحافظ على هيئة الجدالا بكل صعوبة

وفي تلك اللحظة سمع أصوات جلبة وضوضاء ووقع اقدام امام باب البيت وعقب ذلك سمع صوت صليل سلاح داخل الدهليز

الفصل الثاني والعشرون

(القبض على لويز)

وما كاد رودلف يسمع تلك الاصوات حتى أقبلت عليه الضحوكة تجري ووجهها أصفر كالزعفران وقالت له بصوت مرتجف ينم عن الخوف الشديد

— ان بالباب رجال الشرطة ومعهم ضابط

وما كادت تتم عبارتها حتى دخل الضابط غرفة بيبليه وكانت هيئته تدل على الجد والصرامة وحين أبصره البواب

قال له .

-- لقد تأخرت بالمجيء ياحضرة الضابط فقد سبق السيف العذل واركن المجرم الى الفرار .. ولكن يمكنني ان أبين لك أوصافه فان له ابتسامة شيطانية ونظر أحد من نظر النسر .. وله خصال ..

فقال له الضابط - عمن تتكلم

-- عن كبريون ياحضرة الضابط ... فاذا أسرعت يمكنك اللحاق به

فاجابه الضابط بحدة . - أنا لا أعرف من هو كبريون ولكن أتيت طالباً المدعو جيران موريل (صقال الجواهر) فهل هو ساكن في هذا البيت

فاجابته زوجة البواب . - نعم ياحضرة الضابط .

- دليني على مسكنه

ثم التفت الضابط الى رجل كان برفقته وقال له

-- قل للعسكريين ان ينتظرا عند الباب ولا يبرحا الدهليز وأبعث جوستان ليأتي بعربة

ثم انه مشى خلف زوجة البواب وبدأ يصعد السلم

ولكنه وقف بغتة اذ سمع وقع اقدام رودلف والضحوكة اللذين تبعاه ولما أبصرهما قال لهما

- من أنتما ؛ وماذا تريدان

فقالت له البوابة . - هما من أهل البيت ويسكنان الطابق الرابع

فقال الضابط لرودلف

- ارجوك العفو ياسيدي. لم اكن اعلم انك من أهل البيت

فاجابه رودلف وقد أعجبه تأدبه

- سوف تجد ياسيدى عائلة اخنى عليها الدهر وتملكها اليأس ولا ادري ماهي المصيبة الجديدة التي تتهدد ذلك الرجل التعس اما كفاه ما اصابه في الليل الغابر ؛ فقد ماتت احدى بناته امام عينيه لشدة الجوع والبرد

- ايمكن ذلك !!

فاجابته زوجة البواب - هي الحقيقة ياحضرة الضابط ولولا هذا الرجل الذي يكلمك الملقب بسلطان السكان لكان هلك موريل وعياله جوعاً

فنظر الضابط الى رودلف والدهشة بادية على وجهه

فقال له هذا

— ان الامر بسيط ياسيدى فان احد الناس المحسنين علم بما اصاب موريل وعياله من الضنك فكلفني بأن ادفع دينا كان عليه وانقذه من السجن لانه سند عائلته الوحيد . فضلا عن انه رجل شريف النفس صادق

فتوسم الضابط النبل وكرم الاخلاق في رودلف وراقته عزوبة الفاظه فأجابه

— انني لا اشك بحسن طوية موريل ولكن لا بد لي من القيام بما كلفت به ويسؤني أن يكون ذلك امامك مع ما تبديه من الدفاع عن هذا الرجل وعياله

— ماذا تعني يا سيدي ؟

— أن المعروف الذي صنعته مع موريل ودفاعك عنه الان يدلان على انك من القوم الكرام ولا اخفي عنك الغرض من مجيىء الى هنا فهو القبض على لويز ابنة جيروم موريل .

فذكر رودلف اذ ذاك الذهب الذي اتت به لويز لتدفع ما على والدها وتنقذه من السجن فقال للضابط

— وما هي التهمة الملقاة عليها ؟

انها متهمة بجريمة قتل ولدها .

— هي ! هي ! .. يا ويل ابيها المسكين !

— انني اتصور الآن يا سيدي بعد الذي ذكرته لي عن شقاء موريل ما سيكون لهذا النبأ من الوقع الشديد على قلبه ولكن ما حيلتي فلا يسعني الا تنفيذ الامر

فقال له رودلف : ـ ولكنها تهمة وقد يجوز أن تكون باطلة فهل وجدوا ادلة وبراهين تثبتها ؟

— ليس في امكاني أن ازيدك علما .. وغاية ما اعرفه أن الذي وجه هذه التهمة الى لويز واخبر بها الحكومة هو الرجل الذي كانت تخدمه .

فبدت علامات السخط والاشمئزاز على وجه رودلف وقال

— جاك فيران وكيل الاشغال ؟

— نعم ياسيدي

— أن جاك فيران رجل منافق جاني

— ارى بكل اسف انك لا تعرف الرجل الذي تتكلم عنه يا سيدي فاعلم أن الموسيو جاك فيران هو اشرف رجل في العالم وكل الناس يشهدون بامانته واخلاصه

— وانا أعيد عليك القول بان هـذا الرجل منافق جاني .. قد اراد أن يسجن موريل لان ابنته رفضت مطالبه السافلة فاذا لم تكن لويز متهمة الا بناء على شهادته فكن على يقين من بطلان التهمة

— ليس من شأني ولا من مصلحتي البحث في صحة شهادة المسيو فيران او فسادها ولا بدَّ للمحكمة النظر في هـذه الدعوى وعلى القضاة ان يحكموا بالعدل اما أنا فقد أمرت بالقبض على لويز موريل ولا بد لي من تنفيذ الامر

— صدقت. وأاسف على ان الزمان والمكان لا يسمحان لنا بمثل هذا الجدال وغاية ما ارجوه منك هو ان لا تلقي القبض على الفتاة امام أبويها واخوتها فقد كفاهم ماهم فيه من الشقاء وانا أدلك على غرفة يمكنك استنطاق الفتاة فيها

— ان طلبك هذا سهل لا استطيع رفضه

دارت هذه المحادثة بين رودلف وضابط البوليس بصوت منخفض وفي تلك الاثناء كانت الضحوكة وزوجة البواب واقفتين بعيداً عنهما عند أسفل السلم فنزل رودلف نحوهما وقال للضحوكة

— اسألك ياجارتي العزيزة ان تصنعي معي جميلا وهو ان تسمحي لي باستعمال غرفتك مدة ساعة

— يمكنك استعمالها كما تشاء يامسيو رودلف . والمفتاح لايزال معك . ولكن ماذا جرى ياربّاه ؟

— سأطلعك على الحقيقة بعد حين والآن ارجوك ان تعودي حالا الى سوق التامبل وتقولي للذين باعونا الحاجات ان لا يرسلوها قبل مضي ساعة

— حباً وكرامة . ولكن هل اصابت موريل كارثة جديدة ؟

— نعم وأسفاه وهي كارثة تنقبض لها النفس سوف تعلمينها

— هاأنا ذاهبة الى السوق بأسرع مايمكنني . ياربّاه ! كنت ظننت ان الله أنقذ موريل وعياله على يدك ولكن خاب ظني .

ثم انها ذهبت مسرعة . وكانت غاية رودلف مما صنعه ان يبعدها لكي لا ترى ما يحل بصديقتها لويز حين يلقى القبض عليها وبعد ذهابها قالت زوجة البواب للضابط .

— بما ان المسيو رودلف سلطان الساكنين تكلف

بمرافقتك الى المكان الذى عينه لك فاسمح لي ان اذهب الى زوجي المحبوب الفريد لانّي تركته في حالة سيئة مما اصابه بسبب كبريون اللعين

فقال لها الضابط . اذهبي . اذهبي

وبقي هو ورودلف فصعدا السلم حتى وصلا الى الطابق الرابع امام الغرفة التي انتقل اليها موريل وعائلته واذ ذاك خرجت لويز من الغرفة ووجهها اصفر واعضاؤها تضطرب لشدة الذعر وقبل ان تبتعد عن الباب التفتت وقالت

— استودعك الله ياوالدى سوف اعود . ولكن لابدّ لي من الذهاب الآن

وتبع موريل ابنته وهو يناديها ويحاول ايقافها ويقول لها

— لويز قفي كلميني يابنيتي

ولما رأيا رودلف والضابط وقفا في مكانهما وقال موريل لرودلف ادركني يامنقذي وساعدني على منع لويز من الذهاب فلا ادري ماذا اصابها فقد اصبحت في حالة ولدّت في قلبي الرعب. انها تريد الذهاب عنا الست ترى معي ياسيدي انه لاينبغي لها العودة الى خدمة ذلك الرجل وكيل الاشغال ؟

فلم يستطع رودلف الجواب بكلمة اما الضابط فقال للويز بلهجة صارمة

— هل تدعين لويز موريل ؟

فاجفلت الفتاة وأجابته . — نعم ياسيدي

وفي تلك اللحظة فتح رودلف غرفة الضحوكة ثم قال الضابط موجهاً حديثه لوالد لويز

— هل انت جيروم موريل والد هذه الفتاة ؟

— نعم ياسيدي . لكن . .

— ادخل هذه الغرفة مع ابنتك

— واشار الضابط بيده الى غرفة الضحوكة حيث كان رودلف واقفاً ينتظره . فأطاع الرجل وابنته امره لان وجود رودلف شجعهما فدخلا الغرفة والدهشة والرعب آخذان منهما ثم دخل بعدهما الضابط واغلق خلفه الباب وقال لموريل بلهجة تدل على شدة الانفعال

— انا اعلم انك رجل تعس عزيز النفس ويسوؤني ان اخبرك باني آتٍ للقبض على ابنتك بأمر الحكومة

فانطرحت لويز بين ذراعي والدها وهتفت بصوت مضطرب

— ويلياه لقد كشف المخبأ . وادركني الهلاك

فذهل موريل وقال لها

— ماذا تقولين ؟ هل اصابك مس من الجنون ؟لأي سبب ادركك الهلاك ؟ يريدون القبض عليك ؟ من يريد القبض عليك ؟ ولاية علة ؟

فاجابه الضابط . — انا التي القبض عليها بأمر الحكومة

فجثت لويز على ركبتيها وهتفت قائلة . ما اشقاني ! ما اشقاني !

اما موريل فاضطرب دماغه لهذه الصدمة الجديدة وخانته القوى العقلية فبدأت تظهر فيه علامات الجنون وقال للضابط .

— كيف تريد القبض على ابنتي بأمر الحكومة؟ ولاي سبب تريد الحكومة القبض عليها ؟ انا اضمن لويز ابنتي وأؤكد للحكومة انها طاهرة الذيل ولم تأت امراً فرياً . أليس كذلك يا لويز ؟ أن ما تقوله حديث خرافة يا حضرة الضابط لان الحكومة لا تلقي القبض الا على المجرمين . وابنتي لويز ليست منهم بلا شك . اترين يا لويز كيف اخطأ ظن هذا الضابط ؟ انني ادعى موريل اي نعم ولكن الذين يدعون

موريل كثيرون وانت تدعين لويز واللواتي يدعين لويز كثيرات فلا شك يا حضرة الضابط أن قد حصل في الامر خطاء والتباس.

— لا خطاء في الامر لسوء الحظ. لويز موريل ودعي اباك

فتطاير شرر الغضب من عيني موريل وهجم على الضابط متهدداً وصرخ قائلاً

— كيف! هل يمكنك اخذ ابنتي انت؟

فامسك رودان موريل من ذراعه وقال له

— هدئ غضبك. ستعود ابنتك اليك وتثبت برآتها فلا شك انها ليست مجرمة

— مجرمة! وما هي جريمتها؟ لا يمكن أن تكون لويز مجرمة انني اقطع ذراعي والقيها في النار اذا كانت لويز..

ثم ذكر الذهب الذي اتت به ابنته في الصباح لتفي ما عليه من الدين فالتفت نحوها والقى عليها نظرة احد من السهم وقال لها.

— ولكن من اين لك الذهب الذي اتيتني به هذا الصباح؟

فادركت لويز الظن الذي خامر والدها. فاحمرت وجنتاها

واجابته بلهجة تنم عن براتها من التهمة التي يريد الصاقها بها

— انا سارقة . حاشا لله .

— هذا ما كنت اعتقد . ارأيت يا حضرة الضابط ؟ انها تنفي عنها التهمة وهي صادقة وما كذبت قط طول حياتها

فقال له الضابط . — ابنتك متهمة بقتل ولدها .

فاظلمت الدنيا في عيني موريل وازداد عقله اضطرابا واجاب

— انني . . انني . . لا اف . . اف . . افهم . . انك . .

وفاه موريل بالفاظ متقطعة لا يفهم منها شيء

فأثر في نفس الضابط ما الم بموريل المسكين من اضطراب الدماغ ولكنه رأى أن لا بد له من اتمام ما أمر به فقال لموريل

— يتهمون ابنتك بانها وضعت وقتلت ولدها ولكن التهمة لم تثبت عليها بعد

فنهضت لويز واقفة وصرخت قائلة

— كلا يا سيدي كلا . . اقسم لك بانني لم اقتله وانما جاء ميتاً لا حراك به ولا نفس . وكان بارداً كالثلج . جنايتي الوحيدة هي انني اضعت رشدي حين زلت قدمي . . ولكن ما قتلت ولدي . فرفع موريل قبضته فوق رأس لويز كانما

يريد سحقها وقال لها بصوت متهدج ونار الغضب تكاد تندلع من عينيه .

— ابنك يا شقيه . ويل لك .!!

فتضرعت اليه قائلة . — ارحمني يا ابتي . ارحمني .!!

وبعد سكوت مهيب عاد موريل فقال

— يا حضرة الضابط خذ هذه الشقية .. فانها ليست ابنتي

واراد موريل الانصراف فانطرحت لويز على قدميه وضمت ركبتيه بذراعيها وتضرعت اليه قائلة والدمع يسيل من عينيها — يا ابتي .. اصغ ِ اليَّ .. اصغ ِ اليَّ .

فلم يجبها والدها بل التفت نحو الضابط وقال له وهو يحاول أن يتخلص من بين ذراعيها

— خذها يا حضرة الضابط فقد تخليت لك عنها

فدنى رودلف من موريل وامسكه من ذراعه ليمنعه من التخلص من بين ذراعي ابنته وقال له

— اصغ ِ اليها ولا تكن غليظ القلب عديم الرحمة

فارتجفت أعضاء موريل ووضع كفيه على جبينه وصرخ قائلا بصوت تقشعر منه الابدان

— هي ! الهي ! هي ! فقدت شرفها وتلطخت بالعار ! ويل لها من شقية ويل لها من رجسة !!

فقال له رودلف بصوت خافت . — وماذا تقول لو علمت انها تلطخت بالعار لتنقذك ؟

فكان لهذه الكلمات تأثير شديد على موريل أشبه بفعل الصاعقة فنظر الى ابنته التعسة وكانت لا تزال جاثية على قدميه ورمقها بنظرة استفهام يعجز القلم عن وصفها ثم صرخ بصوت مختنق .

وكيل الاشغال ؟

فحاولت لويز ان تجيب وكادت شفتاها تتحركان ولكنها فكرت لحظة ونكست رأسها ولزمت الصمت

فعاد موريل وقال وقد انفجر بركان غضبه

— لا . لا ... ذلك لا يمكن لانه في هذا الصباح أراد ان يسجنني ليس هو الفاعل اذن . ويلاه انها لا تجد عذراً لجريمتها . ولم اكن سبباً في ضياع شرفها فيمكنني أن العنها وضميري في راحة

— لا . لا ! لا تلعنني يا أبتي . اني أقر لك بكل شيء

لك وحدك وسوف ترى. انني أستحق عفوك

فقال له رودلف . — اشفق عليها واصغ اليها.

فالتفتت لويز نحو الضابط وهتفت قائلة

— ارحمني ياسيدي ! واسمح لي ان اطلع أبي على سري قبل ان أفارقه فربما يطول افتراقنا الى الابد

ثم التفتت الى رودلف وقالت له

— أما انت يامنقذنا فيمكنك أن تسمع حديثي مع والدي ولكن لايكون معنا رابع فقال لها الضابط .

— لك ما تريدين

فقال رودلف لموريل

— الا تشفق عليها ؟ أتضن بهذه التعزية الاخيرة على ابنتك ؟ فاذا كنت تظن بانك مدين لي بما صنعته معك من المعروف ففِ الدين باجابتي ملتمس ابنتك ؟

ظل موريل صامتاً برهة ثم اجاب — فلنذهب

فقال له رودلف — الى أين نذهب ؟ . ان عائلتك هاهنا

فاجابه موريل متهكماً

— نذهب الى فوق. الى غرفتنا الى جانب جثة ابنتي فهو احسن مكان لسماع السر . اليس كذلك ؟ فلنصعد وسنرى هل تستطيع لويز ان تكذب امام جثة اختها . فلنصعد

ثم انه خرج مسرعاً كالتائه من دون أن ينظر الى ابنته

فمال ضابط البوليس على رودلف وقال له همساً

— ناشدتك الله ياسيدى ان لاتطيلوا الحديث اذ ليس ذلك من مصلحة هذا الوالد المسكين . لقد صدقت فيما قلت ان عقله أصبح مضطرباً مشوشاً وقد خيل الي أن نظره أصبح كنظر المجانين

— فاجابه رودلف اواه ياسيدى انني مثلك أخشى مصاباً جديداً اليما وسأجتهد في اختصار ذلك الوداع الذى تتفطر له القلوب ثم انه لحق بموريل وابنته ودخل الغرفة حيث كانا ينتظرانه وكانت جثة أديل ملقاة على فراش المعتوهة في وسط القاعة فأسند رودلف ظهره الى الحائط وهو منقبض الصدر وجلس موريل على مقعده الخشبي ونكس رأسه الى الارض وشخص الى الفراش الملقاة عليه جثة ابنته ولم يحد عنه نظره وكان وجه لويز اصفر كوجوه الاموات

فشعرت بضعف شديد في قواها وتملكها الخوف مما ستبوح به من السر وعلى رغم ذلك كله دنت من ابيها وهي مرتجفة وأمسكت يده الناحلة التي شوهها طول العمل فلم يمانعها أبوها فاستخرطت في البكاء وطفقت تقبل تلك اليد وتبلها بدموعها فتزايل غضب موريل وسال دمعه بعد ان طال احتباسه

فهتفت لويز قائلة

— لو كنت تعلم يا ابتي . لو كنت تعلم كم استحق الشفقة

فأجابها والدها وهو يبكي

— ان هذا المصاب يا بنيتي سيكفن قلبي بحزن لا يزول الا متى اصبحت في الكفن؟ انت تسجنين . انت تجلسين على مقاعد المجرمين . انت الشامخة الانف عزيزة النفس كلا . كلا انني افضل ان اراك جثة باردة الى جانب أختك

فأجابته لويز : — وانا أيضاً افضل ذلك

— اسكتي يا شقية ان كلامك يؤلمني . لقد أخطئت فيما قلته لك لقد تعديت العدل في معاملتك هلمَّ تكلمي ولكني استحلفك الله ان لا تكذبي ولا تكتمي عني الحقيقة مهما كنت ترينها فظيعة ولعل جريمتك تهون عليَّ اذا سمعتها من

فيك . تكلمي فان الدقائق معدودة علينا والضابط ينتظرك تحت اواه. اواه. ما أصعب هذا الوداع

فأجابته لويز : - سأقص عليك كل شيء يا أبتي ولكن ارجوك انت ومنقذنا هذا ان تعداني بانكما لا تبوحان بما اقوله لكما فانه اذا علم بانني بحث لكما بالسر تهلكان . كما هلكت . لانكما لا تدركان قوة ذلك الرجل وشراسته .

— أي رجل ؟

— الذين أخدمه

— وكيل الاشغال ؟

فأجابت بصوت خافت وهي تتلفت الى ما حولها — نعم

— فقال لها رودلف . - هدّي روعك مهما كان ذلك الرجل شديد البأس غليظ القلب فاننا نكافحه

— ليس وكيل الاشغال المحور الوحيد الذي تدور عليه حكايتي فان هنالك شخصاً آخر صنع معي جميلا عظيماً فأشفق على أبينا وعلى عائلتنا وكان هذا الشخص موظفاً عند المسيو فيران حين دخلت في خدمته وقد حلفني بان لا أبوح باسمه.

فطن رودلف بأنها تعني في كلامها عن جرمان فقال لها.

— اذا أردت الكلام عن فرانسوا جرمان فلا تخافي فاننا نكتم سره انا وأبوك

فنظرت اليه بدهشة وقالت له

— هل تعرفه ؟

فقال لها موريل

— كيف ! هل كان ذلك الشاب الطيب القلب الشريف النفس الذي سكن هذا البيت ثلاثة شهور موظفاً عند جاك فيران حين دخلت في خدمته . انك لما رايته لاول مرة ؟ تظاهرت بانك لا تعرفينه .

نعم ياوالدي لاننا كنا اتفقنا على ذلك فان بعض الاسباب الهامة تضطره الى أبقاء وجوده في محل فيران سراً مكتوماً وانا التي دليته على الغرفة التي سكنها في هذا البيت لعلمي بانه يكون لك جاراً صالحا

فقال روداف لموريل .

— من ادخل ابنتك في خدمة فيران ؟

— لما مرضت زوجتي قلت لمدام بوريت الساكنة في هذا البيت والتي تسلف نقوداً على رهونات ان ابنتي لويز تريد

الخدمة في أحد البيوت لتكون لنا معينة . وكانت مدام بوريت تعرف مدبرة منزل فيران فاعطتني لها كتاب وصاية تقول لها فيه ان لويز من خيرة الفتيات النشيطات ويا ليت ذلك الكتاب المشؤم لم يكن فانه سبب كل ما أصابنا من الرزايا . هكذا ياسيدي دخلت ابنتي في خدمة وكيل الاشغال .

— فقال رودلف للويز اعلمي أيتها الفتاة بان بعضهم ذكر لي الاسباب التي حملت الموسيو فيران على كره ابيك على اني مع ذلك أرجوك ان تقصي عليَّ بوجيز العبارة ماذا جرى لك مع وكيل الاشغال منذ دخلت في خدمته فلعلنا نجد باباً للدفاع عنك .

فأجابته لويز اني في أول عهد خدمتي عند فيران لم أكن أشكو منه وكانت أشغالي كثيرة والمرأة مدبرة البيت تعاملني بالعنف ولكن لم أجد بداً من الصبر على ذلك اما فيران فكان متخذاً دائما هيئة الجد ويكثر التردد الى الكنيسة لسماع القداس ويستقبل في بيته كثيرين من القسيسين والرهبان فلم أكن أرتاب منه . وفي بدء الامر كان لا ينظر الي الا نادراً ولا يكلمني الا بلهجة قاسية ولا سيما امام الاغراب ولم يكن غيري في

خدمته سوى البواب والمدبرة سيرافين وكنا نبيت في مكان منعزل بين الجنينة وفسحة البيت وكانت غرفتي في الطابق الاعلى . وفي ذات ليلة أطلت السهر اذ كان عليّ ان ارتق ثياباً كثيرة وقبل ان أنام سمعت وقع أقدام في الممشى الموصل الى غرفتي فانصت ومازال الماشي يتقدم حتى انتهى الى باب غرفتي فوقف . فظننت بادىء بدء انها مدبرة المنزل ولكن لما طال وقوف ذلك الشخص المجهول امام الباب تولاني الذعر فلم أستطع حراكاً وبقيت انصت ولكنني لم اعد اسمع اقل حركة ومع ذلك كنت على يقين من ان هناك أحداً فناديت مرتين من بالباب؟ فلم اسمع جواباً ولم يكن لباب غرفتي قفل فقمت وانا مرتجفة ودعمته بخزانة صغيرة

وفي الغد استأذنت مدبرة البيت بوضع قفل لباب غرفتي فاجابتني بان أطلب ذلك من المسيو فيران رأساً فذهبت اليه عملا باشارتها ولما طلبت منه حاجتي رفع كتفيه مذدرياً وقال لي بانني مجنونة فلم أعد أجسر على مفاتحته مرة ثانية

وبعد ذلك بأيام قليلة رزئنا بمصيبة فقد حجر الماس فاستولى اليأس على والدي فلم يعد يعرف مايفعل فقصصت في

الغد خبر مصيبتنا على سيرافين فاجابتني

« ان المسيو فيران من المحسنين العظام فلا يبعد ان يمد لوالدك يد المعونة اذا ذكرت له مصابكم . »

وفي مساء ذلك اليوم بينما كنت اخدم المسيو فيران على المائدة قال لي بغتة

« ان والدك في حاجة الى الف وثلمائة فرنك . فاذهبي الليلة وقولي له ان يأتي الى مكتبي ويقبض هذا المبلغ فهو رجل يستحق ان يؤخذ بناصره »

فلما آنست منه تلك الطيبة والشهامة تأثرت حتى بكيت ولم أعد أدري بأية عبارة اشكره فقال لي حين رآني أتلعثم .

« حسن . . حسن ان ما فعلته أمر بسيط »

وفي نفس تلك الليلة لما انتهيت من عملي اتيت ابشر والدي بذلك الخبر . وفي الغد . .

فقال موريل

— نعم وفي الغد قبضت الالف وثلمائة فرنك وحررت بها كمبيالة تستحق بعد ثلاثة شهور وقد أثر بي ذلك المعروف حتى بكيت مثل لويز وسميت الرجل منقذي من الهلاك .

فقال له رودلف - ألم تخامرك الظنون لما اتخذه فيران من الحيطة عند ما جعلك تمضي على كمبياله قابلة التحويل قريبة الاستحقاق ؟

— لا ياسيدي ظننت أن فيران يفعل ذلك مبالغاً في الحذر هذا فضلاً عن انه قال لي بأن لا أفكر في سداد ذلك الدين قبل مضي سنتين وغاية ماطلبه مني هو أن اجدد الكمبيالة كل ثلاثة شهور ولكن على رغم وعده لي طلب مني سدادها يوم الاستحقاق على يد وكيله فتعذر عليَّ ذلك فحولها الى شخص ثالث وأقام عليَّ دعوى واخذ حكماً. ولكنه قال لي بان لا أهتم بذلك لانه نشأ عن خطاء من وكيله

فقال رودلف . — أراد بهذا العمل أن يجعلك في قبضة يده

— نعم ويلاه نعم فانه منذ ذلك الحكم بدأ ان ...

ثم التفت الى ابنته وقال لها

— أتمي أنت يالويز أتمي اذ لم أعد ادري مااقول وصرت أشعر بدوار وتنتابني أحياناً نوب من الغيبوبة. فلا شك انني سأجن اذ لاطاقة لي بالذي أصابني

فأخذ رودلف يطيب خاطر ذلك التعس وعادت لويز الى اتمام حكايتها فقالت

— فازددت نشاطاً في خدمة ذلك الرجل لاثبت له امتناني وشكري على احسانه علينا ومن ذلك الحين صارت تكرهني مدبرة البيت وظل الموسيو فيران بعد ان اسلف والدي النقود بثلاثة شهور يكلمني بعنف وقسوة امام سيرافين ولكنه حين يراني على انفراد ينظر اليّ نظرة اضطرب لها ظهراً لبطن فيحمر وجهي خجلا فيبتسم حين يراني على تلك الحال. وفي ذات يوم خرجت سيرافين من البيت بعد العشاء على خلاف عادتها وأرسل المسيو فيران البواب الى السوق ليبتاع له بعض الحاجات وبقيت في البيت وحدي وكنت اذ ذاك مشغولة في احدى الغرف فدق لي الجرس فدخلت الغرفة التي ينام فيها فوجدته واقفاً عند الموقدة فاقتربت منه فالتفت الي بغتة وطوقني بذراعيه .... وكان وجهه محتقناً ويكاد الدم يقطر من خديه وكانت عيناه متقدتان فكادت تقف دقات قلبي لشدة الخوف فلم أستطع حراكا لاول وهلة ولكني على رغم قوته الشديدة تمكنت من الافلات من بين يديه

وهرولت مسرعة واعتصمت في غرفتي

فقال موريل لرودلف أسمعت ياسيدي .. أسمعت.. هكذا كان سلوك المحسن العظيم

وأردفت لويز :

— فتبعني المسيو فيران ووقف عند باب غرفتي وناداني فلم أجب فقال لي بصوت مرتجف لشدة الغضب « اذا حاولت الهرب مني يسجن أبوك بسبب الالف وثلثمائة فرنك التي لي عليه ولا يستطيع سدادها » وبالاختصار تمكن من فتح الباب ولا يمكنني أن اقول لك ياوالدي كيف كان النزاع بيني وبينه ولا سيما حين كان يلاحقني بتهديده ووعيده وكان اليأس والخوف يكسباني قوة وكانت مقاومتي له تصيره كالمجنون لشدة الغضب فلم يعد يتمالك نفسه فصار يسيء معاملتي ويضربني حتى يدميني ولما أعياه التعب على غير جدوى ذهب وهو يتهدد قائلا « اذا بحت بكلمة مما جرى يهلك والدك ويهلك، أيضاً اذا حاولت الخروج من خدمتي واذا خرجت من عندي وجاؤا يستعلمون عن سلوكك اكون حجر عثرة في سبيل رزقك وادعي انك سرقتني وانك

من أنحس الخادمات »

وفي غد ذلك الحادث أسرعت الى والدي وشكوته ما اصابني غير مبالية بتهديد فيران ووعيده ولكنني لم أجسر أن أطلعه على كل الحقيقة . فأراد اخراجي على الفور من ذلك البيت ولكنه خشي أن يسجن وأصبح ما كنت أربحه من الخدمة لا يستغنى عنه على قلته بسبب مرض والدتي ولما عدت الى بيت فيران وواجهته عاد الى معاملتي بالقسوة مثل ما كان قبل ذلك الحادث . ولم يذكر لي كلمة مما مضى . وظلت مدبرة البيت تضطهدني وتقتر عليّ فلا تعطيني من الطعام الا القليل وتضع الخبز تحت القفل وأصبح نومي مضطرباً فتولاني الارق وكنت في كل لحظة أخاف ان يغشاني المسيو فيران لان باب غرفتي كان لا يزال بلا قفل أما هو فسنحني مدة من الزمن حتى أنه لم يعد ينظر الي فبدأت أشعر ببعض الاطمئنان وفي ذات يوم احد سمح لي بالخروج واخبرت أبي وامي عن كف المسيو فيران عن مداعبتي فسررنا جميعنا . هذا كل ماعرفته ياابتي اما مابقي عليك ان تعرفه فهو فظيع جداً ولذلك أبقيته مكتوماً عنك

فبدت على وجه موريل علامات الذهول وتشتت الافكار وانقلبت هيئته انقلابا دهش لها رودلف وهتف قائلا لابنته

— اواه انني كنت على يقين من انك تكتمين عني سراً فان اصفرار وجهك وهيئتك كانا يدلان على ذلك وقد اطلعت امك على هواجسي وارتيابي اكثر من مئة مرة ولكنها كانت تخطئني وها قد صدق ظني

ثم ان موريل قطع حديثه بغتة كانما يريد جمع افكاره المشتتة ثم ضرب جبينه بيده وصرخ قائلا

— ويل لي . لم أعد افقه ما اقول وقد تولاني الدوار والصداع الاليم ويخيل اليَّ انني سكران

ثم انه ستر وجهه بيديه . ولم يظهر رودلف للويز شدة رعبه مما بدا على ابيها من اشارات الجنون ولا سيما اضطراب حديثه فقال لها :

— اتمي حديثك ولا تكتمي عنا شيئاً

فعادت لويز الى حكايتها وقالت .

— قلت انني بدأت بالاطمئنان وفي ذات ليلة خرج فيران والمدبرة كل منهما الى ناحية ولم يتعشيا في البيت فبقيت وحدي

وقبل أن تنصرف سيرافين تركت لي شيئاً من الخبز والماء والنبيذ وقفلت خزانة الاكل فبعد أن انتهيت من عملي تعشيت وصعدت الى غرفتي بعد أن اوقدت المصباح في غرفة الموسيو فيران وكانت العادة أن لا ننتظره متى خرج وبقيت اشتغل بالخياطة في غرفتي حتى تولاني النعاس

وقطعت لويز حديثها بغتة ونظرت الى والدها وهتفت قائلة

— انك لن تصدقني وسوف تتهمني بالكذب ومع ذلك انني اقسم لك بجثة اختي هذه بانني اقول الحق

فهتف موريل قائلا وقد عاوده بعض الادراك

— يا رباه ! يا رباه ! ماذا تريد أن تقول !

فقالت لويز . — قلت انني نمت جالسة على كرسي وهذا آخر ما اتذكره .. قبلا .. آه يا ابتي عفوك .. اقسم لك بانني لست مذنبة ومع ذلك .

— آمنت .. آمنت ولكن تكلمي !!

— ولم ادر كم بقيت نائمة ولما افقت وجدت نفسي ملطخة بالعار ووجدت فيران الى جانبي

فهاج غضب موريل وقال بصوت مختنق

— كذبت ! كذبت ! لماذا لا تقرين بانك استسلمت مخيرة خوفاً من أن اسجن ؟

— اقسم لك يا والدي .

كذبت ! كذبت ! فلماذا اذن اراد الموسيو فيران أن يزجني بما انك استسلمت له ؟

استسلمت ! اواه ! لا يا ابتي لم استسلم وانما اشتد عليَّ النعاس حتى اصبحت كالميتة . انك تجد ما اقوله غريباً أو مستحيلا ولا غرابة في ذلك لانني انا نفسي حتى الساعة لم اعرف كيف تم ذلك الحادث الفظيع

فقال رودلف مخاطباً موريل

— اما انا فقد عرفت كل شيء يا موريل فلا تتهم ابنتك بالكذب .

ثم التفت الى لويز وقال لها . — قبل أن تصعدي الى غرفتك لتنامي ألم تشعري بان للماء او النبيذ الذي شربته طعماً غريباً ؟ ارجوك ان تنبهي ذاكرتك

فظلت لويز تفكر برهة ثم اجابت

— نعم . نعم ! تذكرت الآن أن مزيج النبيذ والماء الذي

تركته لي سيرافين حسب العادة كان يخالط طعمه بعض المرارة فلم اكترث بذلك لان سيرافين كثيراً ما كانت تضع في ما اشربه شيئاً من الملح أو الفلفل لتهزاء بي حين اشمئز وقت شربه وتضحك فتجد في ذلك لذة عظيمة

— وهل لحظت في ذلك اليوم أن مزيج النبيذ والماء الذي تركته لك سيرافين كان مراً ؟

— نعم يا سيدي ولكن مرارته كانت خفيفة فلم تمنعني عن شرب المزيج كله .. وقد ظننت ان النبيذ فاسد

وكان موريل يسمع اسئلة رودلف واجوبة ابنته ونظره ثابت وهيئته تدل على انه لا يفقه ما يسمع

— وقبل أن يتغلب عليك النعاس وانت جالسة على الكرسي ألم تشعري بثقل في الدماغ او دوار أو بعض العاقة في حركة ساقيك ؟

— نعم يا سيدي شعرت بصداع عند صدغي وقشعريرة .

فهتف رودلف قائلا . — ويل له من مجرم اثيم !! اتدرى يا موريل ماذا سقى ابنتك ذلك الرجل ؟

فشخص موريل الى رودلف ولم يجبه فقال له هذا

— لا شك ان سيرافين شريكته في الجناية وانها اضافت الى مزيج الخمر والماء الذي تركته لابنتك مادة مخدرة منومة ويغلب على ظني انه الافيون فلما شربت منه تخدرت اعصابها وتولاها ثبات نوم عميق دام ساعتين وبينما هي في تلك الغيبوبة دخل عليها فيران واتى فعلته الشنعاء .

فلما سمعت اويز ذلك التعليل صرخت قائلة

— يا ويلاه !! الآن ادركت كيف تمت مصيبتي! ألم اقل لك يا والدي بانى لست مجرمة بقدر ما تتصور ؟ ابتي . ابتي . . لماذا لا تجيبني ؟

فلم يجبها والدها وظل نظره ثابتاً جامداً مخيفاً وبدأت قواه العقلية تتلاشى شيئاً فشيئاً واخذ الظلام يكتنف افكاره ويبيدها وبعد سكوت لم يطل قال بصوت خافت

— نعم . نعم . . : ان عمله فظيع . . . فظيع جداً . . .

ثم عاد الى ثباته . فشخص اليه رودلف وقلبه يتفتت حزنا عليه ولكي يقصر ذلك الموقف المؤلم قال للويز .

— تشجعي يا بنيتي واتمي حكايتك .

— اواه يا سيدي اني لم اقص الا بعض الحقيقة وما

سمعته من الفظاعة لا يعد شيئاً بالنسبة الى ما سيلي قلت انني
حين افقت من ذلك النوم العميق ابصرت المسيو فيران الى
جانبي . فحين وقعت عيني عليه صرخت مذعورة واردت
الهرب فامسكني ومنعني بالقوة وكنت اذ ذاك ضعيفة
جداً فلم اتمكن من الافلات من بين يديه فقال لي . - لماذا
تريدين الهرب الان وقد قضي الامر . فصرخت كالمأخوذة
عند سماع كلامه وقلت له . - ويل لك !! لقد اغتنمت فرصة
نومي فاضعتني وسيعلم والدي بما جرى » فضحك حتى كاد
يستلقي على ظهره واجابني . » تقولين انني اغتنمت فرصة
نومك انك تهزين ولا شك واي ابله يصدق مثل هذا
الكذب ؟ قد دقت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل وا
هنا منذ الساعة العاشرة افلم تشعري بي في كل ذلك الزمن
الاجدر بك اذن أن تقولي انني اغتنمت فرصة رضاك فدعي
عنك هذا الدلال والتجاهل لكي لا يستحكم بيننا النفور
واعلمي ان اباك في قبضة يدي ولم يبق لك عذر الان ف
النفور مني فكوني مطيعة لتدوم بيننا المحبة والا ترين من
الاهوال . فصرخت قائلة . - ساخبر والدي بالذي جرى

وهو يعرف كيف يأخذ بثأري والبلاد لا تخلو من محاكم تنصفني » فنظر الي فيران مدهوشاً واجابني . « - هل فقدت الصواب ؟ وماذا تقولين لابيك ؟ فقلت له . - الم تدخل هذه الغرفة وتفعل ما فعلت رغم انفي ؟ فاجابني . « - رغم انفك ؟ هل تجرأين على هذا الكذب الفاضح وتدعين اني لجأت الى الاكراه ؟ اتريدين برهانا على فساد هذه الدعوى انني كنت امرت الصراف جرمان أن يعود مساء الامس عند الساعة العاشرة لاتمام عمل هام فجاء وظل يعمل حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل في الغرفة التي فوق هذه اما كان يمكنه أن يسمع صراخك وحركة العراك الذي يدور بيننا لو انك قاومتني مثلما فعلت المرة الاولى حينما دعوتك الى غرفتي : فسلي غداً جرمان الصراف يخبرك بان السكون كان شاملا كل البيت طول الليل الغابر

فقال رودلف بصوت متهدج لشدة الانفعال

— قد اتخذ ذاك الاثيم كل التحوطات التي تنفي التهمة عنه

— نعم ياسيدي ولذلك تولاني اليأس اذ لم أجد لي دليلا أو قرينة تثبت دعواي على ذلك الظالم . فلم استطع جواباً

على كل ماقاله لي . ولم يخطر قط على بالي انه سقاني شراباً مخدراً ولذلك لم أدرك كيف تولاني ذلك النوم العميق. فكانت والحالة هذه كل الظواهر ضدي . وعلمت انني اذا شكوت أمري لا أجد من يصدقني. وكيف لا يشك الناس في صدق مقالي وأنا نفسي لم أكن أدري حقيقة ماجرى ؟

— انك اذن لم تجسري على الشكوى لابيك ؟

— لا ياسيدي . خوفاً من ان يظنني شريكة فيران في الاثم . ثم خشيت ان يثور غضبه فينتقم من فيران ولا يذكر انه قادر على هلاكه وهلاكنا جميعاً .

فقال لها رودلف . — وخوفك من ان يلحق بأبيك أذى ان عصيت ذلك العاتي اضطرك الى الاستسلام والرضوخ لحكمه مكرهة أليس كذلك؟

فاحمر وجه لويز خجلا ونكست رأسها الى الارض ولم تجب . فاردف رودلف

— وهل خفف من قساوته من معاملتك بعد ذلك ؟

— لا ياسيدي بل كان يبالغ في الاساءة التي دفعاً للظنون . فاذا دعا القسيس الى مناولة الطعام معه يسمعني

وهما على المائدة كلاماً جارحاً وتوبيخاً صارماً لاسباب وهمية يختلقها . ويطلب من القسيس على مسمع مني ان يعظني ويقول له . « - انني أخشى ياأبانا ان تحيد هذه الفتاة عن الطريق القويم ان هي ظلت على سلوكها فانها تكثر من المزاح مع موظفي مكتبي والاختلاط بهم وهي بليدة كسولة ولم أرض ببقائها عندي الا رحمة بها وبأهلها ولا سيما والدها الذي أنقذته عالي من السجن وبالتالي أنقذت عياله من الهلاك »

فما خلا الاحسان الى والدي كان كلما يقوله ذلك الرجل كذباً . فانني لم أمزح قط مع الكتبة ولا خالطت أحداً منهم لانهم يشتغلون في مكان منفصل تمام الانفصال عن الذي أقيم فيه . فرضخت لذلك كله ياسيدي ولم يكن لي سوى تعزية واحدة وهي ان والدي سلم من عذاب السجن . على ان مصيبتي لم تقف عند هذا الحد. فانني مالبثت ان أصبحت حاملا فضاقت عليّ مذاهبي وأيقنت من الهلاك

وفي تلك اللحظة عاد موريل الى شعوره فنظر الى ما حوله بدهشة ووضع يده على جبينه وجمع أفكاره وقال لا بنته

— ماذا أصابني؟ لقد تشتت أفكاري لشدة الغم والتعب

ماذا كنتِ تقولين ؟

— لما عرف فيران انني حامل . .

فوضع موريل يده على رأسه اشارة الى اليأس فنظر اليه رودلف نظرة هدأت ثائره وأردفت لويز

— لما عرف فيران ذلك سألته ان يجد لي طريقة اخفي بها ثمرة الاثم الذي أتاه وقادني اليه مكرهة . ويلاه ان هيئتك ياوالدي تدلني على انك لا تصدق ماأقول

— وبعد ؟

— فلما قلت ذلك نظر اليّ فيران بسخرية وتظاهر بالدهشة وتجاهل ثم قال لي وقد أخذ منه الغضب . «هل أصابك مس من الجنون يافتاة ؟ ماهذه الفظائع التي تفوهين بها ؟ هل تظنين انني أتدانى الى مس فتاة سافلة مثلك . . وهل بلغت منك القحة ان تنسبي اليّ ماأتاه غيري من أسافل الرجال الذين تخالطينهم . هل تنسبين اليّ ذلك وقد قلت لك مراراً عديدة على مسمع من شهود عدول انك ان لم تحيدي عن الطريق المعوج الذي تسلكينه لاتلبثين ان تقعي في العار فاخرجي الآن من بيتي انك مطرودة . وغداً ألقي القبض

على أبيك وأزجه في اعماق السجن

فبدت على وجهي رودلف وموريل علامات الرعب حين سمعا ما أبداه فيران من الخسة واللؤم وهتف رودلف قائلا

— لاشك ان خسة ذلك الاثيم ولؤمه هما فوق ما يتصوره عقل الانسان .

اما موريل فلم يفه بكلمة فانقلبت سحنته وأصبحت مخيفة ثم قام عن المقعد الذي كان جالساً عليه وفتح درجاً وأخرج منه مبرداً طويلا حاداً له قبضة من خشب ووثب لجهة الباب فادرك رودلف قصده فامسكه من ذراعه وقال له

— الى أين أنت ذاهب ياموريل ؟ ويل لك انك سائر الى الهلاك

فاجاب موريل وزبد الغضب معقود على شفتيه وهو يحاول ان يفلت من بين يدي رودلف

— كن على حذر أيها الرجل . ولا تدفعني الى ارتكاب جنايتين عوضا عن واحدة

قال موريل ذلك ورفع المبرد فوق رأس رودلف متهدداً فمدت لويز نحوه يديها وصرخت قائلة

— يا أبي ! ! يا أبي هذا منقذنا ! !

فاعادت هذه الكلمات موريل الى صوابه فغطى وجهه بيديه وجثا صامتا عند قدمي رودلف

فاخذ رودلف بيده وقال له بصوت ملؤه الاشفاق والحنان .

— قم أيها الوالد التعس المسكين واصبر صبراً جميلا فاني عالم ما أنت فيه من اليأس . واني أشاطرك الحقد ولكن ناشدتك الله لا تكن حجر عثرة في سبيل انتقامنا من ذلك الوغد الذميم دع ابنتك تتم حديثها فالوقت ثمين والضابط ينتظرنا على أحر من الجمر ولا بد لي من الوقوف على الامر بأكمله

ثم التفت الى لويز وقال لها

— اتمي حديثك يا بنيتي

فانطرح موريل على المقعد واليأس ملئ فؤاده وأردفت لويز موجهة حديثها لرودلف

— وقد يطول الشرح ياسيدي لو ذكرت لك ماذرفته من الدموع وما أبديته من الرجاء والابتهال لذلك الرجل حتى انه أخيراً رق لحالي ورضي بابقائي عنده فكانت تلك منة

عظيمة منه وبعد ذلك الحادث الفظيع كنت من أتعس خلق الله وكان فيران يبالغ في الاساءة اليّ ولم أجد من يبش في وجهي سوى المسيو جرمان الذي كنت أراه نادراً وكان أحيانا يسألني عن سبب أشجاني فيمنعني الحياء عن اطلاعه على الحقيقة

— وهل لم تفكري قط في كشف سرك لجرمان ؟

— لا ياسيدي لانه هو أيضا كان مغشوشا بمسيو فيران نعم كان يقر بخشونته ولكنه كان يعتقد انه أشرف رجل على الارض

وكان موريل مسنداً رأسه الى ذراعيه ونظره جامد ثابت كأن لا أحد حوله يتكلم وعادت لويز فقالت

— وكنت سمعت البوابة تقول ان طبيبا دجالا يسكن هذا البيت

وخان لويز الجلد فلم تستطع اتمام حديثها. وذكر رودلف أنه يوم قابل زوجة البواب لاول مرة وجالسها في غرفتها وطلب منها ان تذهب وتبتاع له شيئاً من الخمر جاء موزع البريد اثناء غيابها واعطاه كتاباً مسطوراً على ورق غليظ بكتابة مقلدة وذكر انه رأى على ذلك الكتاب آثار دموع فبعد سكوت

وجيز قال للويز

— وهل كتبت له يابنيتي منذ ثلاثة أيام وهل غيرت خطك أيضاً لكي لا يعرفه احد و بللت الكتاب بدمعك

فنظرت لويز الى رودلف وعلامات الرعب بادية على وجهها وقالت . — كيف عرفت ياسيدي ؟

— كوني مطمئنة اني كنت وحدي في غرفة زوجة البواب حين أتى الموزع بذلك الكتاب فوقع نظري عليه بطريق العرض .

— نعم ياسيدى اني كتبت ذلك الكتاب ولم اوقع عليه وبعثته الى المسيو بردامتني لاستشيره فيما يمكنني عمله للخلاص مما كنت فيه وبعد ان خرجت من البيت وفي نيتي ان أذهب الى ذلك الدجال واعمل بمشورته فكرت في الطريق اني سأرتكب جناية فظيعة فعدت على عقبي الى البيت وفي تلك الليلة حدث حادث كان هو السبب في الشقاء الاخير الذي لازمني وذلك ان المسيو فيران ظن بانني سأغيب عن البيت ساعتين ولكنني رجعت بعد مضي نصف ساعة وحين مررت على باب الجنينة الصغير وجدته مفتوحاً فاندهشت

لذلك وبعد ان دخلت منه اقفلته وذهبت بالمفتاح الى مكتب الموسيو فيران حيث يوضع مفتاح ذلك الباب عادة وكان ذلك المكتب مجاوراً للغرفة التي ينام فيها وفي ذلك المكتب اعتاد على المقابلات السرية مع زبائنه وبما انني كنت أعرف جيداً كل مسالك البيت دخلت قاعة الا كل وكانت اذ ذاك مضاءة ثم دخلت منها الى قاعة الاستقبال بلا مصباح ثم منها الى المكتب المجاور لغرفة النوم واذ ذاك أصابني نوع من الدوار المؤلم وشعرت بأني أفقد الصواب فهويت وقبل ان أصل الارض تمسكت بعباءة كانت معلقة على الحائط فوقعت وتغطيت بها ولما عدت الى صوابي وجدت باب المكتب الزجاجي مغلقاً . وسمعت صوت الموسيو فيران يتكلم بأعلى صوته .. وكان اذ ذاك الحديث دائراً منذ زمن ودليلي على ذلك بعض الالفاظ التي سمعتها «لا أبسط من ذلك فان رجلا يدعى باروج يسهل على القيام بذلك العمل الذي كنت تتكلم عنه الآن عرفني بعائلة من قرصان الانهر تقطن رأس جزيرة صغيرة بالقرب من آزنير وهم من لصوص الارض فمن هذه العائلة حكم على

الجد والوالد بالاعدام وقطعوا رأسيهما وحكم على ولدين بالاشغال الشاقة المؤبدة وبقي من تلك العائلة الام وثلاث بنين وبنتان وجميعهم لصوص قتلة متساوون في الشر لافرق بينهم ويقول بعضهم ان هؤلاء اللصوص يركبون الزوارق ليلا ويسيرون في نهر السين حتى يصلون الى برسي ويسرقون كلما تصل اليه ايديهم على الضفتين وهم لايحجمون عن قتل أي انسان ليأخذوا فرنكا واحداً من جيبه . ولكن لسنا في حاجة اليهم ولا نريد منهم سوى ضيافة السيدة القروية التى عندك ولا شك انها تظن عائلة مرسيان «هي عائلة القرصان» من عيال الصيادين البسطاء وأذهب أنا من قبلك ازور تلك السيدة مرتين أو ثلاثة واسقيها بعض جرعات من دواء معلوم وبعد ثمانية ايام يذهبون بها الى مقبرة أزنير حيث ترقد الى الابد فالاموات في القرى يذهبون الى المقابر بلا اعتراض كذهاب الخطابات باليد اما في باريس فالمراقبة شديدة . ولكن متى تبعث تلك السيدة الى جزيرة آزنير لكي اخبر عائلة مارسيال عما يلزمهم عمله ؟ فاجابه موسيو فيران ستكون غداً هنا وبعد غد تذهب الى الجزيرة وساعلمها أن الدكتور فنسان يذهب

اليها من قبلي ليداويها فاجاب مخاطب فيران رضيت بهذا الاسم فنسان فهو افضل من غيره

فازداد روداف دهشة وسأل لويز قائلا

— وما هي تلك الجريمة الجديدة الذي يريد ارتكابها ذلك الاثيم؟

— جديدة: لا وسوف ترى انها تتصل بجريمة أخرى تعرفها ولكن أرجوك ان تمهلني حتى أتم حديثي: ثم سمعت حركة كراسي تنبئ بانتهاء الجلسة ثم سمعت فيران يقول - «أنا لا أسألك السر فأنا مرتبط بك مثل ما أنت مرتبط بي او بالحري ان مصالحنا مرتبطة فأجابه مخاطبه صدقت ولذلك لا يسعنا الا السعي في افادة بعضنا بعض وأنظر كم أبذل من الجهد في سبيل مصلحتنا فقد اتاني كتابك عند الساعة العاشرة من ليلة الامس واليوم أتيتك منذ الصباح الى اللقا أيها الشريك لا تنسى جزيرة آزنير والصياد مرسيان والطبيب فنسان وبفضل هذه الكلمات السحرية لا تطول حياة تلك السيدة اكثر من ثمانية أيام فقال له فيران اصبر حتى أنزع الترباس الذي اوصدت به باب مكتبي واتحقق ان لا أحد في

قاعة الاستقبال ليمكنك الخروج من طريق الجنينة مثل ما دخلت » ثم خرج المسيو فيران وما لبث ان عاد ثم خرج ثانية مع الشخص الذي سمعت صوته . ولا يخفى عليك ياسيدي ماتولاني من الرعب في خلال تلك المحاورة وكدري من وقوفي على ذلك السر مرغمة وبعد ذلك الحادث بساعتين جاءت مدام سيرافين الى غرفتي حيث كنت أرتجف لشدة الرعب وقالت لي : « ان سيدي يدعوك فطوباك ان لك من حسن الحظ اكثر مما تستحقين هلم وانزلي فتبعت مدام سيرافين وكان المسيو فيران في مكتبه فلما أبصرته أصابتني رعشة على اني وجدته أقل شراسة من عادته فظل محدقاً في برهة كانه يريد اختراق صدري فيقف على سرائري فنكست رأسي الى الارض فقال لي « يظهر لي انك متألمة كثيراً فاجبته نعم ياسيدي وقد عجبت للهجته اللينة فقال لي ان أمرك بسيط وهو ناتج عن الحالة التي أنت فيها وعما تبذلينه من المجهود لاخفائها ولكن على الرغم من اكاذيبك وسلوكك المشين أشفق عليك فانك بعد أيام قليلة لا تستطيعين اخفاء حبلك وهذا الحادث يشين سمعة محلي ويلحق العار بأهلك

ولذلك امد لك يد المعونة فاذهبي اليوم الى ابيك وخبريه اني مرسلك الى بعض القرى لتدبير منزل اشتريته هناك واثناء غيابك ابعث اليه باجرتك وغداً ترحلين عن باريس فاعطيك كتاب وصاية الى مدام مارسيال فهي امرأة صياد تسكن في جزيرة آزنير ومتى قابلتها قولي لها انك قادمة من بعض القرى ولا تزيدي على ذلك شرحاً وسوف تعلمين فيما بعد الغاية من هذه الوصاية التي لا بغية لي منها سوى صالحك ومدام مرسيال تعاملك بالحسنى كانك بنتها وسأبعث اليك طبيباً من اصدقائي يدعى الدكتور غريفان لينظر في حالتك وما تحتاجينه من العلاج فيما بعد . أرأيتي كيف اني اوسعك عطفاً وحنانة ! »

فصرخ رودلف قائلا وقد وضع يديه على جبينه

— ويل له ما افظع مكايده لقد فهمت الآن ماذا كان يريد وأنت كم كان رعبك شديداً حين سمعت ماعرضه عليك

— قد يعجز القلم عن وصف ما أصابني من الخوف فلم استطع الجواب وبقيت شاخصة الى المسيو فيران ودقات قلبي تكاد تقف لشدة الرعب وتولاني ذهول شديد ولما طال

سكوتي قال لي . « ألم تفهمي ما قلته لك فاجبته بصوت مرتجف

— نعم فهمت ياسيدي ولكنني لا أرغب في الذهاب الى القرى وأوثر الاقامة في باريس لكي لا أبتعد عن أهلي وأفضل ان أقر في كل شيء لوالدي وان أموت خجلا اذا دعت الحالة فصرخ قائلا . انك تلطخين عائلتك بالعار فاخرجي غداً من هذا البيت وأ برى أباك انني طردتك وانه سيزج في اعماق السجون . فلما سمعت ذلك صابني دوار ووقعت على الارض وخانتني قوتي لم استطع النهوض اما سيرافين فلما سمعت صراخ سيدها وهو يكلمني اتت مسرعة وساعدتني على النهوض وسارت بي الى غرفتي فلما دخلتها انطرحت على سريري وبقيت مضجعة حتى جن الظلام واشدة ما أصابني من الاضطراب والالم شعرت بانني سأضع قبل الاوان

— لماذا لم تنادي مستغيثة ؟

— لم أجسر ياسيدي لاعتقادي ان المسيو فيران عقد النية على اهلاكي نخفت ان يستدعي طبيبه فنسان ليقتلني في بيته عوضاً عن ان يقتلني في بيت مرسيال أو ان يثب عليَّ ويخنقني ويدعي انني مت بسبب الولادة أواه ياسيدي نعم

ان مخاوفي اذ ذاك كانت في غير موضعها ولكنها تملكني على الرغم مني وكانت سبباً في شقاي اذ لولاها لكنت تغلبت على الخجل ولما قيل عني زوراً انّي قتلت ولدي فعوضاً عن ان أنادي واستغيث كتمت صوتي وصبرت على الالم فكان كلما أشتدت عليَّ وطأته أعض طرف ثوبي ولا أصرخ . وبعد ان تحملت آلاماً لا تطاق وأنا وحدي أتقلب على فراشي كالافعى في الظلام الحالك وضعت ذلك المخلوق التعس فجاء ميتاً لاني وضعته قبل تمام أشهر الحمل ولكنني ماقتلته كما يقولون لا . لا . بل اني شعرت بلذة حين ضممته الى صدري

وخنق البكاء صوت لويز . اما موريل فكانت هيئته تدل على انه لا يسمع ولا يعي ولما رأى ابنته تبكي قال

— انها تبكي . انها تبكي . لماذا هي تبكي ؟

ثم بعد تردد عاد فقال

— نعم . نعم عرفت . عرفت . انك تتكلمين عن وكيل الاشغال أليس كذلك ؟ أتمي حديثك ياعزيزتي لويز . انك ابنتي وما زلت أحبك . منذ برهة لم أعد أعرفك فكأن دموعي سدلت حجاباً على عينيَّ . ياربّاه ! رأسي يؤلمني ألماً شديداً ..

— أرأيت انني لست مذنبة ياأبتي فهل تغفر لي الآن ؟

— نعم انني لاأزال احبك . . ولو انني لست قادر على القول . لانني اواه رأسي . . رأسي .

فنظرت لويز الى رودلف والرعب باد على وجهها فقال لها رودلف — انه متألم فدعيه يستريح واتمي حديثك

فنظرت لويز والدها بقلق لامزيد عليه ثم قالت

— وضممت ولدي الى صدري وعجبت لكونه لايتنفس على انني قلت في نفسي ان نفس ولد صغير مثل هذا لا يكاد يسمع ولما بزغ الفجر ادنيت المولود من النافذة وامعنت فيه النظر فوجدته بارداً كالثلج فالصقت فمي لفمه لاشعر بنفسه ووضعت يدي على قلبه فلم اشعر بنبضاته. فأدركت انه مات

واستخرطت لويز في البكاء برهة ثم اردفت

— ولم اعد اذكر شيئاً بوضوح كانما ما حصل كان من الاحلام فخشيت أن اتهم بقتل ولدي اذا وجدوه ميتا الى جانبي فلم اعد افكر الا في امر واحد وهو أن اخفي جثته فلا يعلم احد بذلتي وعاري واتخلص من غضب والدي وانتقام الموسيو فيران حيث يمكنني أن اترك بيته متى تخلصت من

لذلك وبعد ان دخلت منه اقفلته وذهبت بالمفتاح الى مكتب الموسيو فيران حيث يوضع مفتاح ذلك الباب عادة وكان ذلك المكتب مجاوراً للغرفة التي ينام فيها وفي ذلك المكتب اعتاد على المقابلات السرية مع زبائنه وبما انني كنت أعرف جيداً كل مسالك البيت دخلت قاعة الاكل وكانت اذ ذاك مضاءة ثم دخلت منها الى قاعة الاستقبال بلا مصباح ثم منها الى المكتب المجاور لغرفة النوم واذ ذاك أصابني نوع من الدوار المؤلم وشعرت بأني أفقد الصواب فهويت وقبل ان أصل الارض تمسكت بعباءة كانت معلقة على الحائط فوقعت وتغطيت بها ولما عدت الى صوابي وجدت باب المكتب الزجاجي مغلقاً . وسمعت صوت الموسيو فيران يتكلم بأعلى صوته .. وكان اذ ذاك الحديث دائراً منذ زمن ودليلي على ذلك بعض الالفاظ التي سمعتها « لا أبسط من ذلك فان رجلا يدعى باروج يسهل على القيام بذلك العمل الذي كنت تتكلم عنه الآن عرفني بعائلة من قرصان الانهر تقطن رأس جزيرة صغيرة بالقرب من آزنير وهم من لصوص الارض فمن هذه العائلة حكم على

الجد والوالد بالاعدام وقطعوا رأسيهما وحكم على ولدين بالاشغال الشاقة المؤبدة وبقي من تلك العائلة الام وثلاث بنين وبنتان وجميعهم لصوص قتلة متساوون في الشر لافرق بينهم ويقول بعضهم ان هؤلاء اللصوص يركبون الزوارق ليلا ويسيرون في نهر السين حتى يصلون الى برسي ويسرقون كلما تصل اليه ايديهم على الضفتين وهم لايحجمون عن قتل أي انسان ليأخذوا فرنكا واحداً من جيبه. ولكن لسنا في حاجة اليهم ولا نريد منهم سوى ضيافة السيدة القروية التى عندك ولا شك انها تظن عائلة مرسيان «هي عائلة القرصان» من عيال الصيادين البسطاء وأذهب أنا من قبلك ازور تلك السيدة مرتين أو ثلاثة واسقيها بعض جرعات من دواء معلوم وبعد ثمانية ايام يذهبون بها الى مقبرة أزنير حيث ترقد الى الابد فالاموات في القرى يذهبون الى المقابر بلا اعتراض كذهاب الخطابات باليد اما في باريس فالمراقبة شديدة. ولكن متى تبعث تلك السيدة الى جزيرة آزنير لكي اخبر عائلة مارسيال عما يلزمهم عمله؟ فاجابه موسيو فيران ستكون غداً هنا وبعد غد تذهب الى الجزيرة وساعلمها أن الدكتور فنسان يذهب

اليها من قبلي ليداويها فاجاب مخاطب فيران رضيت بهذا الاسم فنسان فهو افضل من غيره

فازداد روداف دهشة وسأل لويز قائلا

— وما هي تلك الجريمة الجديدة الذي يريد ارتكابها ذلك الاثيم؟

— جديدة : لا وسوف ترى انها تتصل بجريمة أخرى تعرفها ولكن أرجوك ان تمهلني حتى أتم حديثي : ثم سمعت حركة كراسي تنبئ بانتهاء الجلسة ثم سمعت فيران يقول ـ « أنا لا أسألك السر فأنا مرتبط بك مثل ما أنت مرتبط بي او بالحري ان مصالحنا مرتبطة فأجابه مخاطبه صدقت ولذلك لا يسعنا الا السعي في افادة بعضنا بعض وأنظر كم أبذل من الجهد في سبيل مصلحتنا فقد اتاني كتابك عند الساعة العاشرة من ليلة الامس واليوم أتيتك منذ الصباح الى اللقا أيها الشريك لا تنسى جزيرة آزنير والصياد مرسيان والطبيب فنسان وبفضل هذه الكلمات السحرية لا تطول حياة تلك السيدة اكثر من ثمانية أيام فقال له فيران اصبر حتى أنزع الترباس الذي اوصدت به باب مكتبي واتحقق ان لا أحد في

قاعة الاستقبال ليمكنك الخروج من طريق الجنينة مثل ما دخلت » ثم خرج المسيو فيران وما لبث ان عاد ثم خرج ثانية مع الشخص الذي سمعت صوته . ولا يخفى عليك ياسيدي ما تولاني من الرعب في خلال تلك المحاورة وكدري من وقوفي على ذلك السر مرغمة وبعد ذلك الحادث بساعتين جاءت مدام سيرافين الى غرفتي حيث كنت أرتجف لشدة الرعب وقالت لي : « ان سيدي يدعوك فطوباك ان لك من حسن الحظ اكثر مما تستحقين هلم وانزلي فتبعت مدام سيرافين وكان المسيو فيران في مكتبه فلما أبصرته أصابتني رعشة على اني وجدته أقل شراسة من عادته فظل محدقاً في برهة كانه يريد اختراق صدري فيقف على سرائري فنكست رأسي الى الارض فقال لي « يظهر لي انك متألمة كثيراً فاجبته نعم ياسيدي وقد عجبت للهجته اللينة فقال لي ان أمرك بسيط وهو ناتج عن الحالة التي أنت فيها وعما تبذلينه من المجهود لاخفائها ولكن على الرغم من اكاذيبك وسلوكك المشين أشفق عليك فانك بعد أيام قليلة لا تستطيعين اخفاء حبلك وهذا الحادث يشين سمعة محلي ويلحق العار بأهلك

ولذلك امد لك يد المعونة فاذهبي اليوم الى ابيك وخبريه اني مرسلك الى بعض القرى لتدبير منزل اشتريته هناك واثناء غيابك ابعث اليه باجرتك وغدا ترحلين عن باريس فاعطيك كتاب وصاية الى مدام مارسيال فهي امرأة صياد تسكن في جزيرة آزنير ومتى قابلتها قولي لها انك قادمة من بعض القرى ولا تذيدي على ذلك شرحاً وسوف تعلمين فيما بعد الغاية من هذه الوصاية التي لا بغية لي منها سوى صالحك ومدام مرسيال تعاملك بالحسنى كانك بنتها وسأبعث اليك طبيباً من اصدقائي يدعى الدكتور غسان لينظر في حالتك وما تحتاجينه من العلاج فيما بعد . أرأيتي كيف اني اوسعك عطفاً وحنانة ! »

فصرخ رودلف قائلا وقد وضع يديه على جبينه

— ويل له ما افظع مكايده لقد فهمت الآن ماذا كان يريد وأنت كم كان رعبك شديداً حين سمعت ما عرضه عليك

— قد يعجز القلم عن وصف ما أصابني من الخوف فلم استطع الجواب وبقيت شاخصة الى المسيو فيران ودقات قلبي تكاد تقف لشدة الرعب وتولاني زهول شديد ولما طال

سكوتي قال لي . « ألم تفهمي ما قلته لك فاجبته بصوت مرتجف
— نعم فهمت ياسيدي ولكنني لا أرغب في الذهاب الى القرى وأوثر الاقامة في باريس لكي لا أبتعد عن أهلي وأفضل ان أقر في كل شيء لوالدي وان أموت خجلا اذا دعت الحالة فصرخ قائلا . انك تلطخين عائلتك بالعار فاخرجي غداً من هذا البيت وأبرى أباك انني طردتك وانه سيزج في اعماق السجون . فلما سمعت ذلك أصابني دوار ووقعت على الارض وخانتني قواي فلم استطع النهوض اما سيرافين فلما سمعت صراخ سيدها وهو يكلمني أتت مسرعة وساعدتني على النهوض وسارت بي الى غرفتي ولما دخلتها انطرحت على سريري وبقيت مضجعة حتى جن الظلام ولشدة ما أصابني من الاضطراب والالم شعرت بانني سأضع قبل الاوان

— لماذا لم تنادي مستغيثة ؟

— لم أجسر ياسيدي لاعتقادي ان المسيو فيران عقد النية على اهلاكي نخفت ان يستدعي طبيبه فنسان ليقتلني في بيته عوضاً عن ان يقتلني في بيت مرسيال أوان يثب عليّ ويخنقني ويدعي انني مت بسبب الولادة أواه ياسيدي نعم

ان مخاوفي اذ ذاك كانت في غير موضعها ولكنها تملكني على الرغم مني وكانت سبباً في شقاي اذ لولاها لكنت تغلبت على الخجل ولما قيل عني زوراً اني قتلت ولدي فعوضاً عن ان أنادي واستغيث كتمت صوتي وصبرت على الالم فكان كلما أشتدت عليَّ وطأته أعض طرف ثوبي ولا أصرخ . وبعد ان تحملت آلاماً لا تطاق وأنا وحدي أتقلب على فراشي كالافعى في الظلام الحالك وضعت ذلك المخلوق التعس فجاء ميتاً لاني وضعته قبل تمام أشهر الحمل ولكنني ماقتلته كما يقولون لا . لا . بل اني شعرت بلذة حين ضممته الى صدري

وخنق البكاء صوت لويز . اما موريل فكانت هيئته تدل على انه لا يسمع ولا يعي ولما رأى ابنته تبكي قال

— انها تبكي . انها تبكي . لماذا هي تبكي ؟

ثم بعد تردد عاد فقال

— نعم . نعم عرفت . عرفت . انك تتكلمين عن وكيل الاشغال أليس كذلك ؟ أتمي حديثك ياعزيزتي لويز . انك ابنتي وما زلت أحبك . منذ برهة لم أعد أعرفك فكأن دموعي سدلت حجاباً على عينيَّ . ياربّاه ! رأسي يؤلمني ألماً شديداً ..

— أرأيت انني لست مذنبة ياأبتي فهل تغفر لي الآن ؟

— نعم انني لاأزال احبك . . ولو انني لست قادر على القول . لانني اواه رأسي . . رأسي .

فنظرت لويز الى رودلف والرعب باد على وجهها فقال لها رودلف — انه متألم فدعيه يستريح واتمي حديثك

فنظرت لويز والدها بقلق لامزيد عليه ثم قالت

— وضممت ولدي الى صدري وعجبت لكونه لايتنفس على انني قلت في نفسي ان نفس ولد صغير مثل هذا لا يكاد يسمع ولما بزغ الفجر ادنيت المولود من النافذة وامعنت فيه النظر فوجدته بارداً كالثلج فالصقت فمي لفمه لاشعر بنفسه ووضعت يدي على قلبه فلم اشعر بنبضاته. فأدركت انه مات

واستخرطت لويز في البكاء برهة ثم اردفت

— ولم اعد اذكر شيئاً بوضوح كانما ما حصل كان من الاحلام فخشيت أن اتهم بقتل ولدي اذا وجدوه ميتا الى جانبي فلم اعد افكر الا في امر واحد وهو أن اخفي جثته فلا يعلم احد بذلتي وعاري واتخلص من غضب والدي وانتقام الموسيو فيران حيث يمكنني أن اترك بيته متى تخلصت من

ولدي واخدم في بيت اخر واربح ما اساعد به اهلي

فقال رودلف : — يا لَهُ من عذاب اليم !

واردفت لويز . — ولما اضأ نور النهار لم يبقَ لي سوي وقت قصير قبل نهوض من في البيت فلم اتردد لحظة وقمت للحال ولففت ولدي برداً ونزلت الى الجنينة اريد احفر حفرة لادفنه ولكنني وجدت الارض مكسوة بطبقة من الجليد الصلب فوضعت جثة الولد على الارض وعدت الى البيت فاتيت بفاس يستعملونه لتقطيع الخشب وحاولت أن احفر به . فانتهيت من العمل بعد عناء شديد ثم دفنت الجثة وانا لا ازال ابكي وبعد ان ردمت الحفرة غطيت الارض بالثلج مثلما كانت لكي لا يميز المكان عن غيره ثم عدت الى غرفتي واضجعت ونار الحمى تشويني وبقيت طول نهاري طريحة الفراش لا استعيد شيئاً من قواي وعند المساء نهضت ونزلت الى المطبخ لاصطلي واطات فيه القيام وحدي

ثم عدت الى الجنينة لاصلي على قبر ابني وبينما انا صاعدت الى غرفتي صادفت الموسيو جرمان عند باب المكتب الذي يقيم فيه احيانا للعمل فوجدته اصفر الوجه وحين دنوت منه

قال لي بصوت خافت ولهجة سريعة بعد أن وضع بضعة دنانير بيدي . « سيذهبون غداً لالقاء القبض على والدك لانه مدين بالف وثلماية فرنك ولا يستطيع وفائها . فخذي ها هي النقود وعند بذوغ الفجر اسرعي الى والدك وقد عرفت اليوم أن الموسيو فيران رجل شرير ولا بد لي من رفع الستار عن فضائحه واياك أن تقولي انك اخذت هذا المال مني »

ثم ذهب الموسيو جرمان مسرعا ولم يترك لي وقتاً لشكره وفي هذا الصباح قبل ان يفيق احداً في بيت الموسيو فيران اتيت الى هنا بالنقود التي اخذتها من الموسيو جرمان لانقذ بها والدي ولكن المبلغ لم يكف ولولا كرمك يا سيدي لتعذر عليّ انقاذه ولا شك أن الموسيو فيران صعد الى غرفتي بعد خروجي من بيته ووقف على آثار الولادة ثم اتبع الأثر الى الجنينة فعلم انني دفنت جثة ابني

واخرجت لويز الدنانير من جيبها وقدمتها لروداف وقالت له اتم جميلك يا سيدي واعد هذا المال الى صاحبه الموسيو جرمان فقد كنت وعدته انني لا اقول لاحد انه موظف عند الموسيو فيران ولكن بما انك تعرف هذه

الحقيقة فلست ألآم... والان اعيد عليك يا سيدي امام ربي سامع صوتي اني قلت لك الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان واني ...وقطعت لويز كلامها بغتة وصرخت مذعورة وهي تقول

يا سيدي ! يا سيدي .. انظر والدي .. ماذا اصابه؟

وكان موريل يسمع الى نهاية حديث ابنته بلا اهتمام كان لا ناقة له في الامر ولا جمل ثم انه اخذ يشير بيديه ورجليه كانه يشتغل في صقل الجواهر ويدير بين يديه آلات وهمية فادرك رودلف أن الرجل فقد كل صوابه واصبح مجنونا

وعادت لويز فقالت الى رودلف .

— انظر يا سيدي ناشدتك الله الى والدي .

اما موريل فظل مهتما بعمله الوهمي ونظر الى ابنته وقال لها بصوت خافت ملئه الحنان

— اني مدين لوكيل الاشغال بالف وثلثماية فرنك وهو ثمن دم لويز فيلزمني اشتغل . اشتغل . اذ لا بد لي من سداده

فقال رودلف — موريل ! يا صاحبي نحن هنا .. وابنتك امامك وهي بريئة .

وانطرحت لويز على قدمي ابيها وامسكت بيديه على

الرغم منه وقالت له . — هانذا لويز ابنتك !

فسحب موريل يديه من بين يدي ابنته وعاد الى عمله الوهمي وهو يقول . —الف وثلثماية فرنك . . يلزمني أن افيها والآن . . والآ يقطعون رأس ابنتي

فصرخت لويز المسكينة قائلة وقد ملأ الرعب فؤادها .

— لقد جن . . وانا السبب في ذلك . رباه ! رباه ! لست مذنبة . ما اردت لاحد شراً . وانما هو ذلك الوحش

فقال لها رودلف : — تشجعي يابنيتي تشجعي ولا تقنطي من رحمة الله فقد يجوز ان يكون هذا الجنون الى حين

فبكت لويز وقالت والدمع جار على خديها

— ولكن أمي . . وجدتي المعتوهة واخوتي ماذا يحل بهم فانهم فقدوا أبي وفقدوني وسوف يموتون جوعاً ويأساً

— ألست انا لهم ؛ فلا تقنطي ولا تيأسي فاني أقوم بكل احتياجاتهم . تشجعي فان اقرارك سيكون سبباً في قصاص مجرم أثيم ولقد أقنعني حديثك بانك برية وسيعلم الناس برائتك بلا شك فاذهبي وكوني على يقين تام بانه سيأخذ بثارك وثار أبيك وأهلك أجمعين

— أيؤخذ بثارنا ؟

نعم . . واقسم لك بان هذا الرجل يكفر عن ذنوبه التي ارتكبها متى ثبتت عليه وهي اضاعة شرفك وجنون أبيك وموت ولدك واذا عجزت الشريعـة عن قصاصه وتمكن بدهائه من رفع التهمة عنه أقابل دهائه بمثله ومهارته باحسن منها وسوف ينال جزاءه من يد أقوى من الحديد .

— آه ياسيدي فليسمع الرب ماتقـول واني لاأبتغي الانتقام لنفسي وانما لابي الذي جن وولدي الذي مات

وما كادت لويز تتم عبارتها حتى فتح باب الغرفة وظهر الضابط وقال لرودلف.

— ان وقتي ثمين ياسـيدي فلا يمكنني ان اسمح لكم باطالة الشرح .

فاجابه رودلف بصوت حزين وهو يشير الى موريل قدقضي الامر ولم يعد في امكان لويز ان تقول شيئاً لابيها ولم يعد في امكانه ان يسمع كلامها فانه قد جن

فهتف الضابط قائلا

— يارباه ! هذا ما كنت أخشاه! ماأفظع هذه الكارثة!

ثم انه دنا من موريل وبعد ان حدق فيه النظر دقيقة من الزمن تحقق من صدق مقال رودلف فقال له

— اه ياسيدي انني كنت أتمنى ان تتمكن هـذه الفتاة من اثبات برائتها ولكن بعد هـذا المصاب لم أعـد اكتفي بالتمني . لا لا وانما سأذكر كلما رأيته من صعوبة هذه الكارثة التي ألمَّت بهذه العائلة التعسة ولعل حديثي يؤثر على القضاة فتأخذهم الشفقة ويحكمون ببراءة هذه المسكينة

فقال له رودلف حسناً تفعل ياسيدي وان عملك هذا لايعد من وظيفتك وانما هو عمل برٍ واحسان

— صدقني ان وظيفتنا تجعلنا نقتصر على قدر الامكان للاخيار المتهمين زوراً

وقبل ان ينصرف الضابط قال له رودلف

— أصغ اليَّ ياسيدي فهذا آخر حديثي معك ان اقرار لويز موريل أثبت لي براءتها فهل لك ان تخبرني كيف اتهموها بتلك الجناية الموهومة ؟

فاجابه الضابط

— أتتني هذا الصباح مدبرة بيت الموسيو انوكيل فير

الاشغال واخبرتني بأنها لما علمت بهرب لويز من بيت سيدها وكانت تعلم انها في الشهر السابع من حبلها صعدت الى غرفتها فوجدت فيها آثار ولادة ثم اقتفت الاثر فرأت علامات الاقدام على الثلج فتبعتها حتى انتهت الى الحفرة التي دفن فيها المولود . فلما سمعت مقال تلك المرأة ذهبت الى شارع سانتيه ووجدت الموسيو جاك فيران في كدر شديد لحصول ذلك الحادث الفاضح في بيته وكان معه قسيس كنيسة البون نوفيل فاخبرني انه سمع فيران مراراً عديدة يوبخ لويز ويحذرها من سوء المصير ان هي ظلت تتبع سبيل الفساد وينبئها بشؤم المصير وضياع شرفها وقد تمت نبوته . وأثر بي كدر فيران لانني وجدته عادلا ولما قال لي أن لويز عادت لى بيت أبيها أسرعت بالمجيء الى هنا لالقاء القبض عليها

فكاد رودلف يتميز غيظاً مما سمعه وقال للضابط

— أشكرك كثيراً ياسيدي على حسن صنيعك وعلى المساعدة التي تريد ابدأها للويز وانا أتعهد في ادخال والدها وجدتها أحد مستشفيات المجاذيب

ثم وجه حديثه الى لويز وقال لها وهي لاتزال جاثية

عند قدمي أبيها تحاول رده الى الصواب

— استسلمي الى مشيئة ربك واذهبي من دون أن تقبلي أباك واكفيه شر ألم الوداع ولا تهتمي بامره وأمر أهلك فانني أقوم باعالتهم ولا ادع وسيلة في تطبيب أبيك حتى يعاوده الصواب فتشجعي واعلمي ان الله سبحانه وتعالى يجرب خائفيه بأنواع الشقا ولكنهم يخرجون سالمين مطهرين من المهالك التي يقعون فيها

وبعد ذهاب لويز والضابط بساعتين كلف رودولف طبيبه داود بادخال موريل وام زوجته المتوهة مستشفى المجاذيب في بيستر فامتثل الطبيب وأوصى رئيس المستشفى بزيادة الاعتناء بالمتوهين وعذلهما عن بقية المجانين في مكان خاص وأخذت امرأة موريل ما كان معه من الجواهر وردتها لصاحبتها مدام ماتيو السمسارة التي جاءت لتأخذها ولما عادت هذه المرأة بالجواهر الى بيتها تبعها الغلام الاعرج براروج وظل مقتفيا خطواتها حتى دخلت بيتها في بولفار سان داني

وأخبرت الضحوكة امرأة موريل ما أصاب زوجها وتوخت في كلامها اللين والتؤدة فهلع قلب مادلين وصرخت

مذعورة كانما أصابها مس وبكت بكاء مراً ولكنها حينما رأت ما أصبحت فيه من السعة هي وأولادها بفضل منقذهم كفكفت دموعها وتعزت

الفصل الثالث والعشرون

(جاك فيران ومكتبه)

عند أحد طرفي زقاق سانتيه حائط مستطيل قديم العهد على قمته طبقة من الجبس مغروز فيها مالا يحصى من قطع الزجاج وهو يحد من تلك الناحية حديقة بيت فيران وكيل الاشغال وينتهي عند بيت صغير ذي طبقة واحدة له باب عليه صحيفة من نحاس منقوش عليها الحرفين الاولين من اسم فيران

وهنالك مدخل سلم ضيق مظلم يؤدي الى المكتب والى جانب السلم فسحة مرصوفة بالحجر والى أحد جانبيها غرف مقفرة والى الجانب الآخر سياج من حديد نخل قضبانه الصداء يحد الجنينة . وعند آخر هذه الجنينة بيت فيران .

وكانت ظواهر هذا البيت تدل على انه قديم العهد والجنينة التي حوله مهجورة كثر فيها العشب وامات ما كان

فيها من الزهور والاشجار .

وكان جاك فيران يعلق على تلك الظواهر اهمية كبرى. ذلك لان الناس اذا رأوا واحداً منهم غير مكترث بزخارف المأوى ينسبونه الى الصلاح والتقشف واذا رأوه قذراً قالوا انه من اهل الكرامات . وحين كان زبائن فيران ينظرون الى البون البعيد بين مسكنه الحقير القذر وبين بيوت وكلا الاشغال الاخرين المزدانة بالزخارف ويرون بذخهم وترفهم تزداد منزلته رفعة في اعينهم ويزدادون به ثقة .

وكان فيران هذا عائشاً عيشة شح وتقتر وكانت الناس تقصده من كل الجهات لتودع عنده اموالها وتكلفه بتشغيلها بحسب ما يراه موافقاً مما يدل على انهم كانوا يثقون به وثوقا اعمى . واضطرته عيشة الشح الى اعتزال الناس واجتناب الملاهي والملاذ التي يبذل سواه في سبيلها الاصفر الرنان .

كان من اولاد الاسر المشهورة بالبخل ولكنه امتاز عن اقرانه البخلاء بصفة خاصة به وهي المجاذفة في الاعمال والاعتماد على حذقه ودهائه . وكان مع هذا من الئم اللئام واقدرهم على استنباط الحيل وانواع الخداع . واجرأهم على دفع ما

ينسب اليه من الجنايات وما كان اكثرها. فكان والحالة هذه كالدرة اليتيمة بين أهل البخل والنفاق

أن الرجال المجاذفين النشيطين الذين لا توقفهم عقبة في سبيل احراز المال موصوفون على الغالب بالميل الى الملاهي والملاذ كالمقامرة والتنعم بالمطاعم والملابس وربات الجمال . اما جاك فيران فكان راغباً عن كل تلك الملاذ والملاهي يشغله عنها انهماكه في التزوير وارتكاب الجرائم . ولم تكن له لذة سوى شهوته الحيوانية فانه لم يسلف موريل الالف والثمانية فرنك بفايظ فاحش الا ليجعل ذلك الدين كالفخ يوقع فيه ابنته لويز فينال منها مأربه وهو مع ذلك واثق من استيفاء ماله متى اراد لعلمه بان موريل صادق الوعد

ولكنه مع ما كان عليه من الدهاء والمكر ارتكب خطأين لا ينجو منهما اكبر المجرمين . فقد اضطرته الظروف الى الاستعانة بشريكين على اعماله في أن ذلك الخطأ الماثل كما يدعوه هو كان خفيف الوطأة عليه وذلك بان كلا من شريكيه لا يمكنه اذاه الا اذا عرض نفسه للهلاك فكان ذلك داعياً الى محافظتهم على السر . مما جعل فيران مرتاح البال

من هذا القبيل ولم يكن يفكر في الانفصال عنهما لانه كان في حاجة اليهما ليعاوناه على ارتكاب جرائم جديدة .

وكان عمره خمسين سنة ولكن الناظر اليه يظنه ابن اربعين . ربعة محدودباً عريض الكتفين عريض الصدر قوي العضل اشقر شعر البدن كثيفه كانه الدب وله عينان سوداوان حادتان يتطاير منهما شرر الذكاء مستترتان تحت نظارة ذات زجاج ازرق وكان يتعمد عدم الاهتمام بلباسه الى درجة القذارة مما كان يزيده مكانة في اعين زبائنه وكان ربحه لا يقل عن ستين الف فرنك سنويا ولم يكن في بيته سوى خادمة واحدة ومدبرة وكان يذهب الى الكنيسة كل يوم احد لسماع القداس ويفضل صوت الارغن على انغام الموسيقة في دور التشخيص ويؤثر معاشرة القسيس وقضاء جانب من الليل معه بقرب الموقد على عشرة الناس في المحافل والنوادي فكان يقول الناس عنه أن غاية ما تصبو اليه نفسه الصدق والامانة والمحافظة على الشرف

وعند الساعة الثانية بعد الظهر دارت بين موظفي مكتب فيران محاورة على غير المعتاد فقال احدهم لزميله :

— حقاً لو أن أحداً قال لي أن فرنسوا جرمان سارق لاجبته : « كذبت »

— وانا أيضاً

— سبعة عشر الف فرنك هذا مبلغ جسيم !!

— والغريب أن جرمان امين على الصندوق منذ خمسة عشر شهر ولم ينقص المال المودع فيه بارة واحدة

— وانا ارى أن الموسيو فيران مخطيء في القاء القبض على جرمان لان هذا الشاب اقسم باغلظ الايمان انه لم يأخذ من الصندوق سوى الف وثلثماية فرنك ذهباً

— فضلا عن انه اتى صباح اليوم بهذا المبلغ لارجاعه الى الصندوق في نفس الوقت الذي ارسل الموسيو فيران يستدعي رجال الشحنة .

— ويقول الموسيو فيران انه يريد القأ القبض على جرمان لتأديب بقية موظفيه

— وماذا يفيد هذا العمل ؟ اما الامناء فلا خوف منهم ولا هم في حاجة الى الارهاب والذين ليسوا امناً يعلمون حق العلم انهم لا يقدرون على اخفاء جريمتهم اذا سرقوا ولكن

يظهر أن الموسيو فيران يريد أن يكون من زبائن رجال البوليس

— كيف ذلك ؟

— اعني أنه يريد أن يكون البوليس في محله على الدوام اما رأيت رجال الشحنة حين اتوا هذا الصباح للقبض على لويز المسكينة ثم جاؤا لحادثة جرمان ؟

— اما انا فارى مسألة جرمان لا تخلو من الامور الغامضة

— ولكنه اقر بما فعل

— أقر أنه اخذ الف وثلثماية فرنك نعم ولكنه ينكر كل الانكار انه أخذ الاوراق المالية التي قيمتها الف وخمسماية فرنك والسبعماية فرنك التي فقدت من الصندوق

— نعم وبما انه أقر بشيء فلماذا لا يقر بالشيء الآخر مع علمه أن السارق يجازى على سرقة خمسماية فرنك مثلما يجازى على سرقة الف وخمسمايه

— نعم ولكن سارق الالف وخمسماية يحافظ عليها وبعد خروجه من السجن تكون له كرأس مال يعمل به عملا

— انظر هاهو جابولو قد عاد فكم ستكون دهشته عظيمة

— ولما دنا جابولو وسمع ما قيل عنه قال للمتكلمين

— عما تحدثان يا رفيقي ؟ هل حدث أمر جديد اما أنا فقادم من عند الموسيو سان ريمي وقد وجدت عربته مشدودة وبعث الي خادمه يقول لي بانه قادم الى هنا حالا ولكنه متكدراً جداً على ما قاله لي الخادم اما القصر الذي يسكنه فهو على غاية من العظمة كانه من قصور ملوك الازمان الغابرة

— يقال أن الموسيو سان ريمي قد اثقلت كاهله الديون

— لا بد له من السداد الان هذا الفيكونت الجميل لانه عاد من القرى حيث كان مختبأ عن اعين المطالبين

— ولكن كيف لم يحجز على بيته ؟

— لايمكنهم الحجز على بيته لانه ليس له والاثاث الذي فيه مكتوب باسم خادمه كما ان خيوله وعرباته مكتوبة باسم الحوزي وهذا يدعي انه يؤجر الفيكونت تلك العربات مقابل أجرة معلومة يأخذها آخر كل شهر فتراه يعرف من أين تؤكل الكتف ولكن ماذا قلت هل جاء الى هنا من جديد ؟

— ان المسيو فيران دخل المكتب منذ ساعتين ونار الغضب تشتعل في صدره وصرخ قائلا : «هل جرمان هنا ؟ فاجبناه لا فقال لنا ان هذا الشقي سرق من صندوقي ألف

وسبعمائة فرنك يوم أمس . »

فقال جابولو . جرمان يسرق ماذا تقول ! هذا لا يمكن .

— سوف ترى فدعني أتم مادار بيننا و بين المسيو فيران من الحديث . قلنا له . « كيف ذلك هل أنت متحقق مما تقول فان ذلك بعيد الامكان . — فاجابنا اني وضعت أمس في درج المكتبة التي يشتغل عليها خمس عشرة ورقة قيمة كل منها ألف فرنك والفي ذهباً في صندوق صغير وقد فقد كل هذا المال »

وفي تلك اللحظة دخل ماريتون البواب وقال « ان رجال الشرطة يأتون حالا ياسيدي » و بعد ربع ساعة جاء جرمان المسكين وهو لم يدر بشيء مما جرى فسلم على المسيو فيران وعلينا بكل سكينة فقال له المسيو فيران « انك تأخرت في المجيء ياجرمان فأجابه جرمان — انني ذهبت الى بلفيل هذا الصباح — ذهبت لتخفي المال الذي سرقته من صندوقي . »

فلما سمع الشاب تلك التهمة اصفر وجهه حتى اصبح كوجوه الاموات وأجاب بصوت خافت « عفواً ياسيدي لاتكن سبباً لهلاكي ... — انك تقر يا أيها الشقي ؟ — نعم ياسيدي ولكن ها هو المال الذي اخذته وقد ظننت انه

يمكنني ارجاعه هذا الصباح قبل قيامك من النوم ولكن لسوء الحظ لم اجد صديقاً لي كنت اودعت عنده شيئاً من المال وقد قيل لي انه ذهب الى بلفيل منذ يومين فاضطررت الى اللحاق به ولهذا تأخرت عن المجيء الى هنا وها هي الالف وثلثمائة فرنك التي اخذتها فصرخ المسيو فيران قائلاً - ماذا تقول الف وثلثمائة فرنك؟ انك سرقت من مكتبة القاعة العليا اوراق مالية قيمتها خمسة عشر آلاف فرنك كانت موضوعة في محفظة خضراء وسرقت أيضاً الفي فرنك ذهباً - فاضطرب جرمان ظهراً لبطن وصرخ قائلاً - انا! .. أبداً! نعم اخذت الف وثلثماية فرنك ذهباً ولكني لم آخذ بارة واحدة غيرها ولم أر محفظة في الدرج ولم اجد سوى الفي فرنك ذهباً فهتف فيران قائلاً - ويل لك ما اكذبك لقد سرقت الف وثلثماية فرنك كما تقول فما المانع ان تسرق زيادة عن ذلك ولسوف تنظر في أمرك المحاكم اما أنا فلا ارحمك لاني أمنتك فخنتني وسأجعل قصاصك عبرة لغيرك»

وبالاختصار اعلم ياعزيزي جابولو ان رجال الشرطة أتوا بعد حين وبرفقتهم بسكرتير ضابط البوليس وبعد عمل

المحضر قبضوا على جرمان وذهبوا به

— بئس هـذا الخبر انه وقع كالصاعقة على رأسي . . :
جرمان . . جرمان ! الذي كان يتظاهر بشرف المبادئ . . .
والذي كنا نعتقده أصدق صادق على الارض ؟

— قد لاح لي ان جرمان مضطرب الافكار منذ بضعة أيام

— لعل لويز سبب اضطرابه ؟

— هذا ما اعتقده ولا أزال أعيد ما قالته سيرافين هـذا
الصباح ان جرمان عشيق لويز . . وانه والد ابنها

— هذه تهمة باطلة

— كيف عرفت ذلك ياجابولو ؟

— لانه منذ خمسة عشر يوم أسرّ اليَّ جرمان انه يحب
فتاة صغيرة حباً يبرحه حتى أصبح في هواها كمجنون ليلى وان
محبوبته هذه عاملة نشيطة شريفة النفس عرفها في بيت كان
يسكنه وحين كلمني عنها رأيت الدمع يترقرق في عينيـه ولا
ريب عندي في انه كان صادقا فيما يقول

— وفي تلك اللحظة دخل رئيس الكتاب وقال لجابولو

— هل قمت بكلما أمرت به ؟

— نعم يامسيو دوبوا انني ذهبت الى بيت المسيو سان ريمي فقال لي انه آت الى هنا بعد حين لسداد ماعليه

— وهل ذهبت الى الكونتس ماك جريجور ؟

— أي نعم واليك الجواب.

— وهل ذهبت أيضاً الى الكونتس دوريني

— نعم وهي تشكر المسيو فيران وقد عادت أمس صباحاً من نورمنديا ولم تكن تنتظر ان تقف على جوابه وها هو كتابها ثم انني مررت بمكتب وكيل المركيز درفيل حسب طلبه لاقبض نفقات الشروط التي ذهبت الى المركيز ليوقع عليها منذ بضعة أيام فقد قال لي المسيو بادينو انه يترك للمسيو فيران الخيار في عمل مايراه موافقاً لصالح المركيز اما المسيو شارل روبير فسيأتي الى هنا لمقابلة المسيو فيران ويقال انه تبارز مع الدوق لوسيني

— وهل جرح ؟

....

﴿ تم الجزء الرابع ويليه الخامس ﴾

الفكاهات العصرية

مجلة روائية أدبية تاريخية

لصاحبها

عبد الله غرالة

السنة الاولى

العدد ١٩

روايات يثوب الكهل منها بتفكهة وتخلية الفكر
ويقرأها الفتى فيطيب نفساً بما يلقيه من خبر وخبر

خليل مطران

رواية

مكنونات باريس

تأليف

القصصي الشهير في عالم التحرير

اوجين سو

تعريب

الكاتب البليغ والطبيب البصري البارع

الدكتور ابراهيم شدودي

مطبعة العرب

بيان

تركنا مستخدمين مكتب جاك فران يسألوا بعضهم عن مبارزة الدوق لوسيني مع شارل روبير وهل جرح الاخير واجاب احدهم

— لا اظن لانهم لم يذكروا لي شيئاً عن ذلك في بيته . اسمع هذا صوت عربة الفيكونت سان ريمي

وبعد لحظة دخل الفيكونت المكتب وقد شرحنا للقارىء فيما مضى صورة هذا الرجل الجميل وقد قدم في اليوم الغابر من مزرعة ارنوفيل التي تملكها الدوقة لوسيني حيث اختبأ عن اعين ماليكورن وبوردين المكلفين بمطالبته بالدين من قبل المحكمة.

وظل حين دخوله المكتب لابساً قبعته وانفه شامخ كبراً ثم سأل بلهجة تنم عن الازدراء

— اين وكيل الاشغال؟

فاجابه رئيس الكتبة

— ان الموسيو فيران يشتغل في مكتبه الخصوصي فارجوك يا سيدي أن تدخل هذه القاعة المجاورة للمكتب بينما اذهب وادعوه لك

— وبعد ربع ساعة دخل الفيكونت المكتب وقبل أن ينطق بكلمة شعر فيران بكره زائد اليه اولاً لانه كان ينظر اليه نظر القرين الى قرينه في الخبث والدهاء ثانياً لان قذارة فيران وعدم اعتنائه بلباسه جعلاه يكره كل الذين يتأنقون في لباسهم ولا سيما الشبان الذين على جانب من الجمال . وكان فيران يقابل زبائنه عادة بفظاظة وخشونة مما جعل بعضهم ينظر اليه بعين الاعتبار فاراد أن يقابل سان ريمي على تلك الصورة فلم ينزع قبعته حين دخل عليه الفيكونت وظل هذا لابساً قبعته وقال ساعة دخوله

— من الغريب يا سيدي انك تضطرني الى المجيء الى هنا عوضاً عن أن ترسل أحداً من قبلك ليقبض قيمة الكمبيالات التي حررتها لامر رادينو ولاجلها رفع عليَّ دعوى وقد بعثت تقول لي انك تريد تكلمني في امور ذات بال .. فلك ماتريد ولكن كان الاجدر بك أن لا تدعني انتظر ربع ساعة قبل أن تأذن لي بالدخول عليك وهو امر لا يليق بك يا سيدي

اما فيران فبعد أن حدق نظره في الفيكونت برهة قال له بصوت جاف مقتضب ـ اين النقود ؟

فاجابه الفيكونت بلهجة مثل لهجته - اين الكمبيالات ؟

فلم يجبه فيران بل انه مد يده المكسوة بشعر كشعر الدب وضرب بها محفظة من جلد كانت امامه فاشتعلت نار الغيظ في فؤاد المركيز سان ريمي واخرج من جيبه محفظة صغيرة من جلد ففتحها واخذ منها اربعين ورقة مالية قيمة كل واحدة منها الف فرنك واراها لفيران فقال له هذا

— كم قيمة هذه الاوراق ؟

— اربعون الف فرنك

— اعطني اياها

— خذ واسرع في نهو هذا العمل ياسيدي وقم بمصلحتك خير قيام خذ المال واعد الي الكمبيالات .

قال الفيكونت ذلك ورمى الاوراق على المكتبة فاخذها فيران وقام فدنا من النافذة واخذ يقلبها ويفحصها واحدة واحدة بتدقيق لا مزيد عليه فكانت تلك اهانة صوبت الى الفيكونت فاشعلت في صدره نار الغيظ وقد ادرك فيران ذلك فهز رأسه والتفت الى الفيكونت وقال له

— انه امر جائز . . .

فظل الفيكونت صامتاً برهة ثم قال بلهجة خشنة ؟ — ما هو

فاجابه فيران وهو لا يزال يفحص بقية الاوراق

— هو وجود الاوراق المالية المزورة

— وما هو الداعي الى هذا التنويه يا موسيو ؟

فنظر فيران الى الفيكونت لحظة ثم هز كتفيه وعاد الى فحص الاوراق من دون أن يفوه بكلمة ثم عاد الى مكتبته وهو يقول — انها اوراق صحيحة

واخذ من المكتبة ملفاً من الورق المدموغ ومعه كمبيالتين ثم انه وضع ورقة مالية قيمتها الف فرنك وثلثماية فرنك ذهباً على ظهر الكمبيالتين واشار اليهما بيده وقال للفيكونت بصوت خشن

— هذا ما بقي لك من الاربعين الف فرنك لانني خصمت المصاريف عملا بارادة موكلي

فخانه الصبر الفيكونت فعوضاً عن أن يأخذ الكمبيالتين وما بقي له من النقود صرخ قائلا بصوت خنقه الغضب

— قل لي لماذا ذكرت وانت تقلب الاوراق التي اعطيتك اياها انه يجوز وجود اوراق مزورة ؟

— لماذا ؟

— نعم

— لانني انذرتك بدعوى تذوير

— وما هي علاقتي بتلك الدعوى ؟

فظل فيران صامتاً برهة ثم اجاب الفيكونت بلهجة قاسية

— اتعلم ما هي الوظيفة التي يقوم بها وكيل الاشغال ؟

— أن وظيفته بسيطة للغاية وهي أن يدخل عليه أحد الناس وفي جيبه اربعون الف فرنك ثم يخرج من حضرته ولم يبق له منها سوى الف وثلثماية

— لا شك انك تريد المزاح في ما تقول . . : . اما انا فازيدك علما بان وكيل الاشغال يقف احيانا كثيرة على اسرار فاضحة وأن الظروف تضطره احيانا الى مخالطة اللصوص والى بذل جهده في صيانة الاسم الشريف ووقايته من التلطخ بالعار

— وأية نسبة بين وظيفتك وبيني ؟

— انك دنست اسم والدك يا موسيو وهو اسم شريف

— ما هي التهمة التي تجسر على نسبتها الي ؟

— لولا اسم والدك الذي يحترمه كل ذوي المكانة لكنت الآن واقفاً امام قاضي التحقيق عوضاً عن أن تكون

واقفاً امامي

-- لا افهم المراد من كلامك هذا

-- انك منذ شهرين خصمت كمبيالة قيمتها خمسون الف فرنك محررة من محل مولاير وشركاه في همبور لامر وليم ثمث تدفع قيمتها بعد ثلاثة شهور في مصرف جريء الذي في باريس... فهذه الكمبيالة مزورة

-- كذبت !..

-- لا بل انت الكاذب . . . فاعيد عليك أن تلك الكمبيالة مزورة لان محل مولاير وشركائه لم يكتب كمبياله لوليم ثمث ولا يعرف هذا الرجل

فاجابه الفيكونت متعجباً -- ايمكن ذلك؟ لقد غشوني اذن ... لانني قبضت تلك الكمبيالة كانها ورقة مالية من الموسيو وليم ثمث نفسه فلم يخامرني ريب لان محل مولاير وشركائه مشهور ولعلمي بان الموسيو وليم ثمث رجل طاهر الذيل ولذلك قبضت الكمبيالة منه مقابل دين كان لي عليه

-- أن وليم ثمث لا يوجد على الارض وما هو الاّ رجل وهمي . . . وامضاؤه مزور

— وانا اقول لك أن وليم ثمث حي يرزق وانما انا وقعت في احبولة

— ان الذي بيده الكمبيالة الان على يقين من انك انت المزور

— ماذا تقول !.

— ويدعي أن لديه الدليل على ذلك. وقد جاءني قبل الامس وسألني أن استدعيك الى هنا واعرض عليك أن يعيد اليك تلك الكمبيالة المزورة وهو طلب عادل. اما الامر الغير عادل فهو انه يطلب منك مائة الف فرنك تدفعها اليوم والا تقدم الكمبيالة المزورة غداً لى النيابة العمومية

— هذا عمل سافل !..

— وهو أيضاً عمل يدل على قلة الادراك... لانك اصبحت مفلساً وكنت مديناً بمبلغ من المال وهاربا من وجه الدائنين ولا ادري كيف امكنك الحصول على قيمة هذا الدين الذي سددته الآن.. وقد اطلعت حامل الكمبيالة المزورة على حقيقة امرك فاجابني بان سيدة غنية تعضدك فلا تدعك عرضة للاهانة وتفتديك بمالها

— كفى يا موسيو . . . كفى ! . .

— وقد رضيت ان أبلغك الخبر بعد تلطيفه على قدر الامكان فأنت وشأنك الآن . فان كنت مذنباً فاختر لنفسك اما السجن او اجرة سكوت حامل الكمبيالة . . واني متداخل بينكما بطريقة غير رسمية لاني أكره المداخلة في مسائل جنائية فاضحة مثل هذه . وحامل الكمبيالة تاجر زيوت يدعى المسيو جان بيتي ومقيم على شاطيء السين عند رصيف بيلي نمرة ١٠ فيمكنك الاتفاق معه . ويسهل عليك ذلك اذا كنت مزوراً كما يقول

لما دخل الفيكونت سان ريمي مكتب جاك فيران كان شامخاً بانفه كبراً ذلك لانه كان لايزال محافظاً على الانفة الموروثة عن اجداده وعلى شجاعة طبيعية ماخانته قط ولم تكن حياته سليمة من بعض شوائب العار فلما فاتحه جاك فيران بأمر التزوير شعر بضعف وانخفاض واحس بان فيران أصبح قابضاً عليه ولولا قوة ارادته النادرة وقدرته على كبح جماح عواطفه لكان ظهر على وجهه التأثير الذي أحدثه ماسمعه من فيران على غير انتظار لعلمه أن تلك الاشاعة يكون لها عواقب وخيمة

فبعد سكوت وجيز ضغط الفيكونت على نفسه المتكبرة العاتية ووطدها على استعطاف ذلك الرجل الغليظ القلب فقال له بلهجة رقيقة

— انك ياسيدي تبرهن لي في ما قلته ان أمري يهمك فأشكرك على ذلك وانني آسف على مافرط مني من الحدة

فاجابه وكيل الاشغال بخشونة

— اني لا أهتم بك مطلقاً ولكنني أشفق على شرف أبيك ولا أريد ازعاجه ولا اطلاعه على انك دنست اسمه وهذه غايتي كلها

— أعيد عليك انني ما ارتكبت الذنب المنسوب الي

— قل ذلك للمسيو بيتي

— لا أنكر ان عدم وجود المسيو ثمث الذي غشني لعظيم ثقتي به جعلني في مركز حرج غير اني بريء فليرفع علي دعوى من أراد وأنا أثبت براءتي غير ان مثل تلك الشكوى تخدش سمعة رجل شريف مثلي فارجوك أن تدفع المبلغ الذي نقدتك اياه الآن الى حامل الكمبيالة

— ان هذا المال لاحد زبائني فلا استطيع مسه لانه مقدس

— ولكني بعد يومين أو ثلاثة أعيده لك

— أما انا فلا أعلم كيف يمكنك سداد هذا المبلغ اذ لم يبق لديك مال فضلا عن ان فرش بيتك وخيلك وعرباتك مكتوبة باسم غيرك مما لا يخلو من الكذب والتزوير

— انك شديد القسوة ياسيدي ولكن لو فرضنا صحة ماتقول ألا يمكنني أن ابيع كل ما أملك للخروج من هذا المازق ؟ ولكن بما انه يتعذر عليَّ الحصول على مئة الف فرنك من هنا الى ظهر الغد فأرجوك أن تستعمل المال الذي دفعته لك الآن لاسترجاع تلك الكمبيالة واذا تمنعت عن ذلك محتجاً بأن مال زبائنك مقدس لا يمكنك مسه فلا يصعب عليك وأنت على جانب عظيم من الثروة ان تسلفني مبلغاً ولا تدعني في مثل هذا المركز الحرج .

— أنا ؟ انك مجنون

— أرجوك ياسيدي واستحلفك بالله وبشرف والدي اشفق عليَّ وكن طيب القلب

— اني طيب القلب للذين يستحقون ولكن المبادئ القويمة التي ربيت عليها تجعلني اكره الختل والخداع وطالما

تمنيت ان أرى واحداً من الشبان امثالك العديمي المبادىء المنعكفين على الموبقات يسجن ويهان ليكون عبرة لامثاله.

وبعد سكوت وجيز أردف فيران مبتسما

— ولكنني أسمع صهيل حصاني عربتك وضربات حوافرهما مما يدل على انهما ينتظرانك بذاهب الصبر.

وفي تلك اللحظة قرع باب المكتب فصرخ فيران قائلا

— من بالباب؟

فاجابه رئيس الكتبة — هذه الكونتس دربيني

— سلها ان تنتظر برهة

فهتف الفيكونت — ماذا أسمع؟ حماة المركيز درفيل هنا

— نعم قد تواعدنا على اللقاء هنا

ثم دق فيران الجرس فدخل رئيس الكتبة فقال له.

أدخل مدام دربيني

ثم التفت الى الفيكونت وقال له

— خذ ياسيدي هذه الالف والثلثماية فرنك الباقية لك فيمكنك ان تدفعها اليتي فتخصم لك من قيمة ما يطلبه

ثم دخلت مدام دربيني «وكانت تدعى فيما مضى

مدام رولان » وحين دخولها كان الفيكونت سان ريمي خارجاً من المكتب وسحنته مقلوبة لتذلله لوكيل الاشغال بلا جدوى فلما وقع نظرها عليه قالت له — أهلا بحضرة الفيكونت سان ريمي لقد مضت أيام عديدة لم أرك فيها

فانحنى لها سان ريمي وأجابها متكلفاً البشاشة

— اني من عهد عرس درفيل الذي كنت شاهداً فيه لم أتشرف بمشاهدتك فهلا زلت في نورمنديا منذ ذلك العهد ؟

— نعم لان المسيو دربيني لم تعد تحلو له الحياة في غير القرى . . وأنا أحب مايحب . . ولذلك تراني أصبحت من القرويات ولم آت الى باريس منذ زواج حفيدتي العزيزة بالموسيو درفيل .. فهل تراه أحيانا ؟

— لم يعد أحد يرى درفيل لانه صار يؤثر العزلة ولا يرى في المجتمعات الا نادراً وهو على الدوام كئيب حزين

— ولعل حفيدتي العزيزة ليست محتجبة عن العالم مثل زوجها؟

— ان مدام درفيل سائرة مع تيار الموضة والناس يحومون حولها كالفراش حول الضوء . . ولكني أخاف ياسيدتي ان اكون أضعت وقتك . وان . .

— لا لا صدقني واني أعد نفسي سعيدة بمقابلة أظرف الشبان وسلطان الموضة فانني ان أقمت معك عشر دقائق اقف على كل أخبار باريس كأني لم ابارحها ..وكيف حال صديقك الحميم الدوق لوسيني الذي كان شاهداً معك في فرح المسيو درفيل ؟

— انه لا يزال شاذ الطباع مثل ما كان فقد ذهب الى الشرق وعاد منه وتبارز أمس صباحا فاصابته ضربة سيف

— ان هذا الدوق مسكين ! اولا تزال زوجته جميلة تأخذ بمجامع القلوب ؟

— أنت تعلمين ياسيدتي بانني من جملة أصدقائها الاخصاء ولذلك لا يعتمد على شهادتي فمتى عدت الى اوتيه أرجوك ان تبلغي سلامي الى المسيو دريني

— اني أبلغك امتنان زوجي بالنيابة عنه

— فانحنى الفيكونت مسلما عليها ثم خرج واليأس ملئ فؤاده وكانت عربته تنتظره عند الباب فركبها وقال للسائق اذهب بي الى قصر الدوق لوسيني

﴿ الفصل الرابع والعشرون ﴾

(الوصية)

وبعد خروج سان ريمي قالت مدام دربيني لفران

— ان الفيكونت سان ريمي هو من أجمل الشبان

— لاشك . . ولكن أرجوك ياسيدتي ان نتكلم في الموضوع الذي أتيت لاجله . . فقد كتبت لي من نورمنديا انك تريدين استشارتي في أمور مالية ذات بال . . .

— ألست موضوع ثقتي ومستشاري منذ اهداني اليك الدكتور بوليدوري ؟ أتعرف شيئاً عن أخبار هذا الطبيب ؟

— انه منذ ذهابه من باريس لم يكتب لي قط

وكان كل منهما منافقاً يكذب ليخدع الآخر فان وكيل الاشغال كان تقابل مع بوليدوري . « وهو واحد من شريكيه في الجرائم » وطلب اليه ان يذهب الى اسنير عند عائلة مرسيال وهم قرصان النهر الذين سنجيء على ذكرهم فيما يلي وعرض عليه ان يسم لويز موريل ويدعي انه طبيب وينتحل اسم فنسان ومدام دربيني اتت باريس لتقابله

وبعد سكوت وجيز عادت فقالت لفيران

— لا يهمني أمر الطبيب وانما يهمني أمر زوجي فانه مريض وقواه تنحط يوماً عن يوم نعم انني لا أرى خطرا يتهدد حياته . ولكن الحالة تقلقني أو بالحري تقلقه. وهو لا يشغله سوى أمر واحد وهو عمل وصيته

وبعد ذلك غطت وجهها بمنديل وظلت على تلك الحال بضع دقائق فقال لها وكيل الاشغال

— ان ماذكرته لي عن زوجك يدعو الى الاسف ولكن اهتمامه بأمر الوصية سجية يمدح عليها . وهل تعلمين كيف تكون الوصية

فتنهدت مدام دربيني تنهداً عميقاً وأجابت

— أظن انه لا يكتفي باعطائي ماتسمح به الشريعة بل سيهبني جزاء عظيما من ثروته

فهتف المسيو فيران قائلا

— وابنته ؟ فاعلمي ياسيدتي ان الكونت درفيل كلفني باشغاله وقد اشتريت له منذ عهد قريب عقاراً حسناً وأنت تعلمين صلابتي في الاشغال ولا يهمني ان المسيو درفيل من زبائني وانما يهمني الحق فاذا كان زوجك يريد ان يأتي عملا

مجحفاً بحق ابنته وهو عمل مشين فاعلمي انني لا أساعد على ذلك فان ذمتي لا تسمح لي بالحياد عن سبيل الاستقامة

— وأنا أيضاً ذمتي لا تسمح لي بعمل أمر مشين حتى ان زوجي لما رآني أرفض مايعرضه عليّ من الهبة قال لي .

« اني لا أشور عليك بمخابرة وكيل أشغالي بهذا الموضوع لئلا تظني اننا متفقان وانما أرجوك ان تستشيري الرجل الذي طالما حدثتني عن طهارة ذمته وهو المسيو جاك فيران فاذا وجد هذا الرجل ان شرفك يخدش اذا قبلت ماهبه اياك من مالي فلا أعود أكلمك بهذا الموضوع والا فلا يسعك الا الامتثال »

وهكذا أصبحت يامسيو فيران القاضي بيننا ثم ان زوجي عاد فقال لي . « واذا استصوب المسيو فيران رأيي أفوضه تفويضاً تاماً ببيع كل ما أملكه من العقار والمقتنيات وابقاء قيمتها امانة عنده وبعد وفاتي تتمتعين بعيشة تليق بامثالك . »

ولولا نظارة فيران لكانت مدام دور بيني نظرت لهيب الفرح المتطاير من تلك العينين الوقادتين حين سمع بتلك الامانة التي ستودع عنده . على انه أجابها بلهجة تكلف فيها قلة الاكتراث

— كم تكون قيمة ما يودعه عندي بوجه التقريب ؟

— قال لي مراراً عديدة ان مجموع الامانة يبلغ من أربعمائة الى خمسمائة ألف فرنك

— ان هذا المبلغ أقل مما كنت أتصوره ولا أرى في قبولك هذا المال أمراً مشيناً لانك تقومين بخدمة زوجك خير قيام وتتفانين في حبه . هذا فضلا عن ان ابنته غنيَّة وانك فقيرة فارى ان تقبلي هذه الهبة

فانطلى نفاق ذلك الخبيث على المرأة اذ لم يحذرها منه بوليدوري فهتفت قائلة

— أحقيقي ماتقول ؟ أيمكنني القبول ؟

— نعم يمكنك ذلك

فتنهدت مدام دوريني مثنى وثلاث وقالت بصوت خافت — سأقبل اذن

وما كادت تنتهي من عبارتها حتى قرع الباب رئيس الكتبة مستأذناً فقال له فيران ماذا تريد؟

— ان حضرة الكونتس ماك جريجور تريد مواجهتكم

— دعها تنتظر قليلا

وبعد انصراف الكاتب قالت مدام دريني

— استودعك الله اذن وارجوك ان تكتب لزوجي لانه يريد ذلك منك وغداً يبعث اليك بالتوكيل

— سأكتب له .

— فانحنت وانصرفت وبعد خروجها دخلت ساره وهيئتها تدل على ثبات الجاش والسكون مثل عادتها ولم يكن فيران يعرفها ولا يعلم سبب زيارتها فحين وقع نظره عليها نهض واقفاً عن كرسيه وقدم لها كرسياً وقال لها

— طلبت مواجهتي اليوم ياسيدي وقد حالت أشغالي الكثيرة دون جوابي على كتابك يوم أمس ولم أتمكن من الجواب الا صباح اليوم فارجوك المعذرة

— أردت مقابلتك ياسيدي لامر مهم جداً وأنا أعلم انك من الذين يجودون بأرواحهم قبل ان يبوحوا بأسرارهم

— ان واجباتي تقضي عليّ بذلك

— يقال انك رجل عفيف النفس ولكن اذا قيل لك ان في يدك ارجاع الحياة لام مسكينة بل ارجاع العقل اليها وسئلت ان تأخذ بناصرها أيطاوعك قلبك على رفض ملتمسها ؟

— صرحي ياسيدتي في كلامك فاجيب

— انه منذ أربع عشرة سنة في أواخر شهر دسمبر عام ١٨٢٤ جاءك رجل شاب لابسا ثياب حداد وعرض عليك الاهتمام باستثمار مبلغ ماية وخمسين ألف فرنك بأسم فتاة بنت ثلاث سنين يريد والداها ان يبقيا تحت طي الخفاء

— وبعده ياسيدتي ؟

— وقد رضيت أن تهتم باستثمار ذلك المال وضمنت للفتاة ريعاً سنوياً قدره ثمانية آلاف فرنك مازالت على قيد الحياة وان نصف هذا الريع يضاف الى رأس المال حتى تبلغ الفتاة سن الرشد والنصف الآخر يدفع الى الشخص المكلف بتربيتها وبعد سنتين من ذلك العهد في الثامن والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٢٦ توفيت الفتاة.

— أرجوك ياسيدتي قبل الاستمرار في الحديث أن تخبرني ماهو شأنك في هذا الامر ؟

— ان أم هذه الفتاة الصغيرة أختي ولدي اثباتاً لما أقول شهادة وفاة تلك المسكينة والخطابات المرسلة من الشخص الذي كان مكلفاً بتربيتها ومستند على أحد زبائنك الذي كلفته باستثمار ذلك المال

— أريني هذه الاوراق

فاخرجت سارة أوراقاً من محفظة صغيرة كانت بين يديها واعطتها لفيران فتأملها هذا ملياً ثم قال

— وماذا تريدين الآن ؟ ان شهادة الوفاة حقيقية لا ريب فيها والماية وخمسين الف فرنك قد استولى عليها المسيو جان بيتي أحد ذبائني بعد وفاة الفتاة اذ هكذا كان الشرط بيني وبين الذي اودع عندي المال . اما الريع فقد دفعته حتى وفاة الفتاة بالضبط

— انك سلكت سبيل الاستقامة في كلما فعلت ياسيدي كما ان المرأة التي عهد اليها أمر الفتاة استحقت شكرنا لانها بالغت في الاعتناء بابنة أختي المسكينة

— صدقت ياسيدتي واني سررت بسلوك تلك المرأة سروراً عظيما ولما رأيتها بلا عمل بعد وفاة الفتاة أدخلتها في خدمتي وما زالت عندي حتى يومنا هذا

— هل مدام سيرافين في خدمتك ؟

— نعم انها تدبر منزلي منذ أربع عشرة سنة ولا يسعني الا الرضا من عملها

— اذا كان الامر كذلك فيمكنها أن تكون لنا معينة اذا ... رضيت ... ان تستجيب طلباً .. ربما تجدة غريباً .. وقد يظهر لك جناية لاول وهلة ... ولكنك متى عرفت الغاية .. وعلى كل حال أرجوك المحافظة على السر

— لك ماتريدين

— اليك اذاً بقية الحكاية: ان موت تلك الفتاة المسكينة كان شديد الوقع على أمها حتى ان حزنها عليها اليوم ما زال مثلما كان منذ أربع عشرة سنة وبعد ان كنا نخشى على حياتها من شدة الحزن صرنا نخشي على عقلها

فتكلف فيران هيئة الكدر وأجاب

— يا لها من أم مسكينة ! . . . ولكن لا حيلة في ذلك لسوء الحظ لان شهادة الوفاة صريحة لا ريب فيها

— نعم اعلم ان الفتاة قد توفيت ياسيدي ومع هذا يمكنك تخفيف وطأة المصاب اذا اردت فلو أن اختي تجد غداً ابنتها الا تعاودها الحياة فقط ولكنها تتزوج بلا ريب والد ابنتها فقد اصبح اليوم ارملا حراً مثلها . أن ابنت اختي ماتت وهي في السنة السادسة من عمرها وقد محي ذكرها

فافرض اننا نجد فتاة تبلغ من العمر سبع عشرة سنة وهو عمر ابنة اختي لو انها بقيت على قيد الحياة وتقول لاختي . (خذي ها هي ابنتك ردت اليك فانها لم تمت وانما اشاع خبر موتها قوم لهم فائدة من ورا ذلك والمرآة التي ربتها واحد وكلاء الاشغال المشهورين يثبتان لك بالبرهان انها ابنتك »

فلم يقاطع فيران المركيزة في بدء حديثها ولكنه لما انتهت عبارتها وثب قائما وصرخ قائلا متكلفاً هيئة الاشمئزاز

أتجسرين ان تعرضي عليَّ... أنا .! مثل هذا التزوير . وافساد شهادة الوفاة.. هذه جناية .. انني ما أهنت ياسيدتي طول حياتي مثل هذه الاهانة

— ولكني لا أرى ياسيدي ضرراً يعود على احد من وراء ذلك العمل . فان اختي والرجل الذي تريد تتزوجه كلاهما ارملان ولا بنين لهما وكلاهما حزينان على فقد الفتاة التي اضاعاها فاذا غشيناهما فاننا نعيد عليهما الفرح والسعادة ثم اننا بعملنا هذا نسعد فتاة من الشقيات المنبوذات فترى ان هذا العمل شريف يعد من قبيل الاحسان ولا يعد جريمة كما توهمت

— اعيد عليك ان هذا العمل جناية فاضحة وعار على

سيدة من علية القوم مثلك ان تشرع في هذا العمل المشين..

— ياموسيو !!

— كفى كفى ! انني لست من الظرفاء الرقيقي العبارة فاقول لك الحقيقة بلهجة خشنة فنظرت ساره الى فيران نظرة ارادت ان تخترق بها صدره وقالت له بثبات جاش

— اترفض طلبي ؟ كن على حذر

— اتتهددينني ؟؟

نعم اتهددك . ولكي اثبت لك ان تهديدي ليس بالبرق الخلب فاعلم اولا ان لا اخت لي وانني ام الفتاة

— انت ؟

— نعم أنا ! قد سلكت هذا المسلك للوصول الى غايتي واختلقت تلك الحكاية لعلي اوثر على فؤادك فوجدتك أصلب من الصوان فازحت الستار عن الحقيقة فان كنت تريد الخصام والنزال فاستعد للقتال

— أتريدين قتالي لانني أرفض مشاركتك في جناية فظيعة يالها من وقاحة !

— اصغ الي ياسيدي ان شهرتك لاريب فيها واعتماد

الناس بامانتك ومباديك الشريفة لايتزعزع

— لانني نلت تلك الشهرة عن استحقاق.

— نعم أنا اعلم من سواي بذلك واعلم مايخفي برقع ظواهرك فمنذ بدء حديثنا عرفت لماذا أشك في استحقاقك الشهرة التي لك بين الناس

— كفانا ياسيدتي من هذا الحديث

— لابد لك من الوقوف على ما صممت عليه وأول ما أقوله لك بانني معتقدة صحة موت ابنتي ولكن يمكنني الادعاء بأنها لم تمت وأنت الآن في مركز يحسدك عليه كثيرون ويتمنون ان يجدوا سبيلا للهجوم عليك وان ذلك من المنزلة التي أصبحت فيها وأنا أسهل لهم السبيل الى ذلك

— أنت؟

— نعم أنا وذلك باتهامك تهمة باطلة بفساد شهادة الوفاة مثلاً وادعي ان ابنتي لم تمت وبما ان مصلحتي تقضي عليّ باقناع الناس بانها لاتزال على قيد الحياة فان هذه الدعوى يكون لها شأن عظيم في كل النوادي وبما أنني أم تطالب بدم ابنتها فقد يكون اشفاق الناس عليّ عظيما وينضم اليّ كل

حسادك ومبغضيك وكل ذوي الشهامة والنفوس الابية

— انك تبرهنين في عملك هذا على انك مختلة الشعور

فاي صالح لي في الاشاعة بأن ابنتك ماتت وهي لاتزال حية

— ان كنت تناسيت ذلك الصالح فانا أذكرك به وهو

انك تريد أنت وعميلك اقتسام المال الذي اودع للفتاة عندك

وادعيت انها ماتت بعد ان أخفيتها

فلم يتأثر وكيل الاشغال ورفع كتفيه علامة لعدم

الاكتراث وقال — لو انني مجرم لهذا الحد لما كنت

أخفيت الفتاة بل كنت قتلتها

فانتفضت سارة لشدة الدهشة وبقيت صامتة برهة

ثم قالت بصوت حزين

— اذا كنت من الاولياء فلا تلام اذا عددت ماقلته

لك جناية وان الام.. يدعوني الى التفكر وسأفكر ولكن

اسمح لي أن اقول لك آخر كلمة في هذا الموضوع لقد رأيت

من أنا بين النساء وعلمت انني ادوس كلما يعترضني في سبيل

الوصول الى غايتي فتبصر في الامر واطلعني غداً على ماصممت

عليه واعلم بأنك تقدر على عمل ماطلبته منك ولا خوف عليك

من عاقبة . فان والد الفتاة لشدة فرحه للقاء ابنته لا يجادل في كيفية وجودها ولا يشك بأن ابنته لم تمت ان نحن أحسنا التصرف ولا سيما ليس لديه برهان على موت ابنتنا سوى ما كتبته له عن ذلك منذ أربع عشرة سنة فلا يصعب عليّ اقناعه بان ما كتبته كان كذباً ولا نتقم منه لما كان بيننا اذ ذاك من البغضاء واقول له انني لما اشتد عليّ الحزن اردت ان اقطع ما بيننا من الصلة. فترى بانك لا تمس في هـذا الامر وغاية ما ارجوه منك ان تؤيد بشهادتك دعواي وتقول انما انا وانت وسيرافين اتفقنا على اخفاء الفتاة فيصدّق قولك اما الخمسون الف فرنك المودعة باسم ابنتي فلا شأن لغيري فيها وانا اتنازل عنها لعميلك الذي يجهل حقيقـة الامر اما انت فانقذك مقابل خدمتك الاجرة التي تطلبها

فظل فيران ثابت الجأش على رغم المركز الحرج الذي اصبح فيه والخطر المحدق به . ذلك لانه كان من الدهاء على جانب عظيم كان يعلم ما يحف بمركزه من المخاطر ويعلم قوة تهديد ساره فاراد أن يتقي ضرباتها الخطرة فقال لها

— سألتني يا سيدتي أن اوقفك في ظهر الغـد على ما

اصمم عليه وانا امهلك الى بعد الغد لتقلعي عن مشروعك هذا المحفوف بالاخطار فان انت لم تكتبي لي في تلك الفترة كتابا تنبئيني فيه بانك نبذت مشروعك الجنائي اضطر الى اطلاع رجال الحكومة على حقيقة امرك وهي كفيلة بحماية المباديء الشريفة ومعاقبة المذنبين

— ادركت مرادك وهو انك تطلب مني يوم اخر للنظر فيما عرضته عليك . وهو دليل على انك لنت فلا بأس من ذلك وبعد غد في مثل هذه الساعة اعود الى هنا اما الى الصلح او الى الحرب وان دارت بيننا هذه فاعلم انها تكون حربا حامية الوطيس تشيب لهولها الولدان

قالت ذلك وانصرفت وما كادت تبتعد بضع خطوات عن بيت وكيل الاشغال حتى ولج بابه شارل روبير وصعد الى المكتب ودخله بغير كلفة فوجد فيران مقطب الحاجبين مكفهر الوجه وحين حياه قال له بلهجة خشنة

— اعلم أن مقابلة زبائني تشغل كل وقتي بعد الظهر فتى اردت مقابلتي تعال في الصباح

— ان الامر الذي اضطرني الى المجيء اليك يهمني

كثيراً : فقد اتيت اذكرك بما بيننا من الاتفاق وهو انني اذا انذرتك قبل ثلاثة شهور بسداد مبلغ الثلثماية وخمسين الف فرنك التي اسلفتك اياها لشراء وظيفتك يجب عليك سدادها

— وبعد ؟؟

— وبعد ... انني .. لا .. لكن .. . انت تعلم

— ارجوك أن تفصح مقالك فقد عيل صبري !

— قد عرض علي بعضهم شراء ارض . فاريد أن اسحب مالي في ذمتك اذا كان ذلك لا يصعب عليك وبناء على ما بيننا من الاتفاق جئت انذرك بذلك لتجهز لي المبلغ وارجو أن لا يغضبك عملي هذا

— لماذا يغضبني ؟

— ولا تظن أن الذي دفعني الى هـذا العمل هو ما يشاع عنك من الاراجيف

— ماذا يشاع عني ؟

— لا شك أن الاشاعة عارية عن الصحة وهي انك اتيت بعض اعمال عادت عليك بخسارة جسيمة وجعلتك في مركز حرج ولكنها اراجيف فارغة

.. انك اذن لم تعد تأتمني على مالك ؟

— حاشا وكلا وانما افضل أن يكون بين يديَّ

— انتظرني هنا : واغلق فيران درج مكتبه وقام

— الى اين أنت ذاهب يا صديقي ؟

فاجابه فيران متهكماً — اريد أن آتيك ببرهان يقنعك بانني في مركز مالي حرج كما يشاع

ثم أنه فتح بابا يؤدي الى سلم ضيق ودخله وما كاد يتوارى حتى قرع باب المكتب رئيس الكتبة فقال له روبير

— أدخل

— اتت سيدة ذات نقاب تريد مواجهة الموسيو فيران

— سيأتي الموسيو فيران بعد حين فاخبره بالامر

وبعد أن خرج الكاتب عاد فيران وفي يده بعض اوراق فاعطاها لشارل وقال له

— هذه اوراق مالية قيمتها ثلثماية وخمسون الف فرنك وبعد بضعة ايام اقدم لك حساب الفوائد فاكتب لي ايصالا

فدهش شارل واجاب — ارجوك أن لا تتصور انني ..

— اكتب الايصال واذهب وخبر الذين يشيعون انني في

مركز مالي حرج كيف اجيب على تلك الاشاعات

— لا شك انهم متى علموا انك سددت مالي في زمتك بلا تردد تزداد ثقتهم فيك ولكن ارجوك أن تعيد هذا المال الى صندوقك لانني لست في حاجة اليه الآن وانما اريد الاستيلاء عليه بعد ثلاثة شهور كما قلت لك

— لا اريد معاملة الذين يخامرهم ريب في حسن طويتي فارجوك أن تكتب الايصال

— انك اصلب من الفولاذ

وجلس شارل ليكتب الايصال وقال لفيران

— بالباب سيدة تريد مقابلتك حالا لتكلمك في بعض الشؤون المهمة .. خذ ها هو الوصل .

— حسن ارجوك الآن أن تخرج من هذا الباب المستتر

فخرج شارل روبير واوصد فيران الباب خلفه وبعد لحظة دخلت المكتب الدوقة لوسيني وكانت مرتدية ملابس بسيطة وعلى وجهها نقاب اسود . وكانت كل حركاتها تدل على الاضطراب فمشت نحو المكتب بقدم غير ثابتة وتقدم فيران لاستقبالها وقال لها بخشونة اذ كان نار الغضب تتقد

في صدره لما سمعه من ساره ومن شارل روبير

— من انت يا سيدتي وماذا تريدين مني ؟

فنكست الدوقة رأسها وبالغت في اخفاء وجهها تحت النقاب واجابته بصوت مضطرب خافت

— ايمكنني يا سيدي ان أأتمنك على سري؟

— يمكن ولكن لا بد لي أن اعرف من هي محدثتي

— لا أرى موجباً لذلك وانا اعلم انك معدن الصدق والامانة

— ارجوك أن لا تطيلي في المقدمات فان شخصاً اخر ينتظرني.. من انت ؟

— لا يهمك اسمي يا سيدي ان احد اصدقائي بل احد اقاربي خرج من مكتبك

— ما اسمه ؟

— فلوريستان دي ساف ريمي

فرمق فيران الدوقة بنظرة اراد أن يخترق بها النقاب الذي على وجهها واجابها

-- وبعد يا سيدتي ؟

-- قد اطلعني على كل شيء

- ماذا قال لك ؟

- اخبرني بأمر فظيع جداً

- اني اعلم امور فظيعة عديدة منسوبة اليه

- آه .. لقد قال لي انك عديم الشفقة

- نعم اني عديم الشفقة على امثاله من اللصوص المزورين فهل هو من أقاربك ؟ الاجدر بك انكاره اذا كان من أهلك وهل أتيت لتليني قلبي ببكائك ؟ انك تطمعين بالمحال فضلا عن ان عملك هذا السافل لا يليق بسيدة شريفة النفس

فهاج الدم في عروق الدوقة عند سماع تلك الاهانة فرفعت رأسها وأزاحت عن وجهها النقاب ونظرت الى فران نظرة كبر وشمخت بانفها وقالت

- اعلم بانني أنا الدوقة لوسيني

فلما وقع بصر فران على وجهها ورأى هيئتها الدالة على رفعة المقام تراجع الى الوراء ورفع قبعته عن رأسه وانحنى مسلما خاشعاً. وقد بهره جمالها . وكانت هذه المرأة في الثلاثين من عمرها وعلامات التعب بادية على وجهها . اما عن حسن عينيها. وسواد شعرها ونحول خصرها ورشاقة قامتها وبهاء طلعتها فحدث ولا حرج

نعم ان فيران كان من الاجلاف ولكنه مع هذا قدر جمال الدوقة قدره وأدرك انها من علية القوم . وازداد حقده على سان ريمي حين أبصر جمال خليلته الباهر . فحقده على الرجل وشغفه بجمال المرأة أوقدا في صدره نار هيام محرقة

وبعد سكوت وجيز قالت له الدوقة

— ان دي سان ريمي من أصدقائي . وقد أوقفني على المركز الحرج الذي أوقعه فيه بعض اللصوص المزورين غير ان المال قاضي الحاجات والمنقذ من الملمات فكم تطلب من المال لتضع حداً لتلك الاعمال المشينة ؟

فدهش فران عند سماع ذلك المقال الصريح الدال على حرية الضمير والشهامة وأجاب

— المطلوب ماية ألف فرنك

— لك ذلك فاردد على الفيكونت سان ريمي تلك الاوراق التي تهددونه بها

— يلزم دفع المال المطلوب قبل ظهر الغد والا تقدم الشكوى الى النيابة

— أرجوك اذن ان تدفع عني المساية ألف فرنك وانا

أردها لك . أما اتعابك فقـدرها أنت كما تشاء . ولا تحاول اقناعي بان وكيل أشغال مثلك لا يوجد في صندوقه ماية الف فرنك

— وما هو الضمان على هذا المبلغ ؟

— ألا تعلم انني أملك أرضاً في جوار باريس ريعها السنوي ثمانين ألف فرنك ألا تكتفي بهذا العقار تأميناً على نقودك

— نعم اكتفي به على شرط ان يرهن تحت يدي وهذا لا يمكن الا برضا زوجك

فخان الدوقة الصبر وأجابت

— ولكن هذه الارض ملك لي .. لي وحدي

— هذا لا يكفي فانك تحت تصرف زوجك ولا يخفى عليك ان عقود الرهونات تستدعي الحذر والتدقيق

— أتريد اقناعي اذن ان ايجاد ماية الف فرنك في برهة ساعتين من رابع المستحيلات ؟

ألا يوجد معك هذا المبلغ ؟

— عندي أضعاف أضعافه بين أوراق ـ لية وذهب رنان هنا في صندوقي

— ما أكثر كلامك ؟ هـل تريد امضائي ؟ اني أوقع

على ماتريد

— لو سلمنا ياسيدتي انك الدوقة لوسيني ...

— يمكنك الذهاب الى بيتي فاوقع على الكمبيالة التي تكتبها

— وهل يوقع الدوق أيضاً ؟

— انني لاأفهم قصدك

وكان فيران مسروراً باطناً مما ألمّ بالدوقة من الضجر وذهاب الصبر . فكانت هذه المرأة تخفي تحت تجلدها ناراً تضطرم في احشائها لان في تلك الساعة لم تجد سبيلاً الى الحصول على نقود وبالامس رهنت جواهرها عند أحد التجار تأميناً على مال استدانته. وقد عرف القارئ ان موريل كلف بتقليد بعض تلك الجواهر . وقد استعانت الدوقة بهذا المال لتسدد كمبيالة كانت مستحقة على سان ريمي وتمحي عنه ديوناً أخرى . لانها كانت تعتقد ان الفيكونت بريء من تهم التزوير المنسوبة اليه فانه قال لها ان اثنين من اللصوص المحتالين نصبا له أحبولة فوقع فيها . غير ان اعتقادها ببرائته لم تكن تخفف صعوبة المركز الذي أصبح فيه وكلما فكرت في انه سيحاكم ويسجن تصاب بقشعريرة وكانت تعلم حق العلم انه لوهرب من

وجه الحكومة فلا يحول هربه دون ضياع شرفه . والباعث الى تلك الافكار انها كانت تحب الفيكونت حباً أعمى

وكان فيران يراقب كل حركات الدوقة وسكناتها وكلما أمعن النظر في وجهها ازداد شغفاً بجمالها وكان يجد لذة في تعذيبها برفض مطالبها لعلمه انها تحتقره اشد الاحتقار . وبعد سكوت وجيز عادت فقالت له

— اذا كان المال المطلوب موجوداً في صندوقك وكنت تعلم أن ضمانتي كافية فلماذا ترفض طلبي وما الموجب الى هذا العمل المضر بصوالحك فقد قلت لك انني أرضى بشروطك

فابتسم فيران وقال لها بصوت تكلف فيه الرقة

— أتقبلين بكل الشروط ياسيدتي ؟

— نعم أقبل بها كلها فاعطيك مقابل خدمتك هذه الفين ثلاثة آلاف فرنك وأكثر اذا أردت لان آمالي كلها منحصرة فيك فلا أجد عند سواك ما اطلبه من المال للغد . ولا بد لي من الحصول على ذلك المال هل سمعت ؟

فتواترت أنفاس فيران واشتد نبضان عروق صدغيه واحمر جبينه وارتبكت أفكاره وخانه جنانه فانتفض قائماً

وتقدم نحو الدوقة فلما رأته هذه مقبلا عليها دهشت وانتصبت واقفة مثله ولما دنا منهـا قال لها بصوت مرتجف

— ان خدمتي لا تكلفك شيئاً لانك على جانب عظيم من الجمال فاسلفك ما تطلبين من النقود تحت شرط واحد واقسم لك بشرفي ان ...

وقبل ان يتم عبارته الغرامية ضحكت الدوقة ضحكا عالياً مستطيلا لانها لما تأملت قذارته وثقل دمه وبلادته وانقلاب هيئته بعوامل الغرام والهيام لم تتمالك عن ذلك الضحك على رغم ما كانت عليه من القلق والاضطراب

فلما رآها فيران على تلك الحال تراجع الى الوراء مذعوراً وقبل ان يفوه بكلمة ارخت المركيزة النقاب على وجهها وهي لا تزال تقهقه وتركت فيران حيث هو وانصرفت وهي لا تزال تضحك حتى لم يغ صوت ضحكها مسامعه بعد خروجها من مكتبه . ولما عاد اليه صوابه اخذ يلوم نفسه على ما اتاه من الطيش على انه عاد الى الطمئنينة شيئاً فشيئاً عند ما فكر ان الدوقة لا تبوح بشيء مما حصل فان ذلك ليس من مصلحتها ولكنه مالبث ان عاودته الافكار السوداء فطفق يروح

ويغدو في مكتبه وهو غارق في لجة الافكار وبينما هو على تلك الحال فتح الباب السري ودخلت عليه سيرافين مدبرة منزله والاضطراب باد على وجهها وقالت له

— لقد صدقت في قولك لي اننا سنهلك لاننا لم نهلكها

— من هي؟

— تلك الفتاة الصغيرة الملعونة

— كيف ذلك؟

— ان المرأة التي أتى بها تورنمين واعطاها الفتاة ليخلصنا منها منذ اربعة عشر عاماً حينما اشعنا انها ماتت .. يارباه من كان يصدق ذلك..

— تكلمي .. أتمي حديثك

— اتت تلك العوراء الى هنا منذ حين وقالت انها تعرف انني انا التي اسلمت الفتاة

— ويلاه ! رباه ! من قال لها ذلك؟ فان تورنمين في السجن

— اما انا فأنكرت كل الانكار وقلت للعوراء انها كاذبة ولكن ذلك لم يغن فتيلا فهي تؤكد انها وجدت تلك الفتاة

وتعرف اين هي وفي امكانها افشاء السر وجلب الفضيحة لنا

— قد حاقت بي اذن كل المصائب اليوم فاجابته سيرافين

— يارباه ! ماذا اقول لتلك العوراء ؟ بماذا الجم لسانها ؟

— هل هي في سعة من العيش ؟

— اني لما نظرت اليها نظري الى المتسولات ادركت ذلك فارتني كيساً ودقت عليه بيدها فاسمعتني رنة النقود

— وهل تعرف اين توجد الفتاة الآن ؟

— انها تؤكد ذلك

ما اغرب هذا الاتفاق ! ان تلك الفتاة هي ابنة الكونتس سارة ماك جريجور ومنذ برهة كانت امها هنا وعرضت علي مالا جزيلا لاشيع ان ابنتها لا تزال على قيد الحياة والفتاة مازالت حية ترزق فيمكنني ان اردها عليها . ولكن ما الحيلة في شهادة الوفاة المزورة ! فان حقق رجال القضاء هذا الامر اهالك لا محالة لان هذه الجريمة تدلهم على جرائم اخرى

وبعد سكوت وجيز عاد فقال لسرافين

— قلت ان تلك العوراء تعرف اين مقر الفتاة

— نعم

— وهل تعود هذه المرأة ؟

— نعم غداً

— اكتبي الى بوليدوري بان يوافيني الى هنا عند الساعة التاسعة ليلا

— هل تريد ابادة الفتاة والعجوز معا ؟ هذه فظاعة عظيمة يافيران

— قلت لك اكتبي الى بوليدوري ان يأتي الى هنا

وفي مساء ذلك اليوم قال رودلف لمورف

— قل للمسيو جرون ان يبعث رسولا في الحال اذ لا بد من وجود سيسيلي في باريس بعد ستة أيام

— هل لازلت مصراً على استدعاء تلك المرأة الجهنمية زوجة داود المسكين فما الفائدة منها يامولاي ؟ وأنت تعلم ان سوء سلوكها يعادل جمالها

— أتسألني لماذا يامورف ؟ أرجوك ان تلقي نفس هذا السؤال على وكيل الاشغال جاك فيران بعد شهر

الفصل الخامس والعشرون

(الوشاية)

في مساء اليوم الذي اختطفت فيه زهرة مريم وصل

فارس الى مزرعة بوكفال وزعم انه قادم من قبل رودلف ليهدي روع مدام جورج ويخبرها ان لا تقلق على ضياع المغنية لانها سالمة وستعود اليها بعد حين واخبرها ان رودلف كلفه باحضار الخطابات التي تريد مدام جورج ارسالها له وهو يرجوها ان لا تكتب له لباريس رأساً وكان ذلك الفارس مرسلا من قبل ساره التي أرادت بهذه الحيلة ان تهدئ بال مدام جورج فلا يصل خبر اختطاف الفتاة الى رودلف الا بعد بضعة أيام

وكانت ساره تؤمل انها في تلك الفترة يمكنها الضغط على جاك فيران واجباره على اجابة طلبها فيما يتعلق بالفتاة كما سبق . وكانت لها غاية أخرى وهي ان تتخلص من المركيزة درفيل خوفاً منها على رودلف . وأملت ان لا يفشل مسعاها هذه المرة مثلما فشل في المرة الاولى بفضل تيقظ رودلف

وفي اليوم التالي لليوم الذي فيه تبع المركيز زوجته الى بيت زقاق التامبل ذهب توم سيتون الى ذلك البيت

وبعد محادثة مدام بيلبه علم منها ان امرأة صغيرة السن أتت ذلك البيت لموافاة حبيبها فتبعها زوجها وأوشك ان يقبض عليها وهي متلبثة بالاثم ولكنها نجت من ذلك المازق بفضل

مهارة أحد سكان البيت يدعى رودلف

فلما وقفت ساره على ذلك الخبر ولم يكن لديها برهان على وعد كليمنس لشارل روبير دبرت مكيدة أخرى فظيعة وهي ان تكتب كتابا بلا توقيع الى المركيز درفيل لعلها بذلك توقع النفور بينه وبين رودلف فتنقطع صلة المودة بينهما أوانها على الاقل توجد الريب في صدره فيسيء الظن بصديقه ولا يعود يسمح لزوجته بقبول ذلك البرنس في بيته

واليك نص الكتاب الذي عزمت على ارساله للمركيز

« لقد غشوك غشاً فاضحا وذلك ان بعضهم علم بانك ستتبع زوجتك الى بيت زقاق التامبل فسبقك اليه ونبه زوجتك فادعت حين وجدتها في ذلك البيت انها وجدت هنالك لاغاثة بعض البؤساء . والحقيقة انها ذهبت للاجتماع بخليل لها من ذوي المقام الرفيع يسكن غرفة من ذلك البيت متنكراً تحت اسم رودلف . وأن كنت في ريب مما اقوله لك على ما فيه من الغرابة فاذهب الى زقاق التامبل نمرة ١٧ واستعلم عن الرجل الذي نوهت لك عنه ومتى عرفت بعض اوصافه تعلم انك وضعت حسن ظنك في غير موضعه

وأن الذي خانك يدعي أنه اصدق صديق لك وغاية ما انصحك به أن لا تذدري بهذا التنبيه لئلا يظن الناس انك عالم بما يأتيه البرنس وتتغاضى عنه و ... »

وضعت الكونتس ساره هذا الكتاب في صندوق البريد عند الساعة الخامسة من مساء اليوم الذي قابلت فيه جاك فيران

وفي نفس ذلك اليوم بعد أن شدد رودلف الوصية على جرون بالاسراع في اعادة سيسيلي زوجة الطبيب الى باريس ذهب لزيارة المركيزة درفيل ليخبرها بانه وجد لها عملا خيرياً سرّياً ترتاح اليه نفسها

فليسر معنا القارىء الى بيت المركيزة درفيل فيراها بدأت في اتباع نصيحة رودلف وصارت تعامل زوجها باللين والحسني بعد أن كانت تأباه وتنفر منه. وقبل وصول رودلف كان المركيز وزوجته خارجين من قاعة الطعام وكانت هيئة المركيزة تنم عن اللين والانعطاف اما المركيز فكان حزيناً مثل عادته ذلك لان زوجته مع تحسين معاملته افهمته بصريح العبارة انها ستكون له بمنزلة الاخت لا بمنزلة الزوجة

فلما سمع المركيز ذلك التصريح نظر اليها نظرة المستغيث

المسترحم وهتف قائلاً بصوت مختنق

— ابداً ؟

— أي نعم

وكان جواب تلك المرأة يدل على عزم لا يتزعزع وهو أن تعود الى معاملة زوجها بالحسنى وعمل كل ما يجعله سعيداً حسب نصيحة روداف ما خلا القرب منه لانها لم تكن تشعر بميل اليه لا بل كانت تنفر منه نفوراً يعجز عن وصفه القلم

وبعد سكوت وجيز غطى المركيز عينيه بيده ليخفي مدامعه وقال لزوجته بصوت حزين

— اسألك المغفرة على ما فرط مني من السهو ..

وما كاد يتم عبارته حتى فتح الباب ودخل خادم وقال

— جاء مولاي الدوق الاكبر دي جيرولستين

فنهض المركيز قائماً وتكلف ثبات الجأش وتقدم لملاقاة البرنس ولما دخل هذا القاعة انحنى مسلماً على كليمنس وقال لها انني أعد نفسي سعيداً بوجودك الليلة في البيت

ثم التفت الى المركيز وقال له

— والذي يضاعف سروري هو انني وجدتك أيضاً

— وبعد ان تصافح الرجلان دخل القاعة خادم يحمل كتاباً للمركيز وهو الكتاب المرسل اليه من ساره والذي تقول له فيه ان رودلف خليل زوجته فاعتباراً لمقام البرنس رفض المركيز أخذ الكتاب من الخادم وقال له بصوت منخفض

— فيما بعد . . فيما بعد . . .

فقال له رودلف بلهجة تدل على المحبة

— عهدي ان لا كلفة بيننا الى هذه الدرجة فارجوك ان تقرأ هذا الكتاب

فاخذه المركيز من الخادم ودنا من الثريا وفضه وقرأه فلم يظهر أقل انقلاب في سحنته ولكنه أحس برعشة هزت كل جسمه وبعد تردد وجيز طواه ووضعه في جيب صدريته ثم نظر الى رودلف وبش في وجهه وقال له

— اسمح لي يامولاي ان اذهب الى مكتبي واجاوب على هذه الرسالة فانها تتعلق بامور هامة جداً

وخرج المركيز تاركا زوجته مع رودلف فقال هذا

— يظهر لي ان زوجك مشغول البال وانه تكلف تلك البشاشة بعد قراءة الرسالة

— لما وصلت سموكم كان زوجي مضطرب الافكار فلم يتمالك عن ظهور ذلك على وجهه .

— العل مجيئي كدركما ؟

— لا يا . ولاي أن مجيئك كفاني شر الاستمرار في حديث مؤلم كان دائراً بيني وبين زوجي

— كيف كان ذلك ؟

— انني افهمت المركيز درفيل كيف يكون سلوكي معه في المستقبل ووعدته أن اكون بمثابة الاخت الحنونة

— كان الاحرى به أن يسر بهذا الحديث ولا ادري كيف أن توددك هذا جرّكما الى حديث مؤلم مثل ما قلت

فاحمر وجه كليمنس خجلا واجابت وهي منكسة رأسها الى الارض

— لما رأى زوجي انني عدت الى معاملته بالحسنى طمع فلما سمعت منه لهجة الهيام شعرت بانقباض في صدري وتولاني الذعر ولما اراد ان يقبل يدي شعرت بقشعريرة فسحبت يدي من بين يديه ولطمته لطمة اوجعته وافهمته بصريح العبارة انه لاينال بغيته مني ولو شاب الغراب واني اسفة

على ما فرط مني ولكنني بعملي هذا وضعت حداً لمطامع زوجي فلم يعد يؤمل مني سوى المحبة الاخوية

— اني اعذرك ولا يمكنني لومك ... مسكين البير فهو مثال الطيبة والشهامة وسلامة القلب وقد ظل حزنه يشغل بالي زمناً طويلاً لانني لم اكن اعرف له سبباً فانصبر منتظرين اصلاح الحال من الزمن ولا ريب عندي أن زوجك سيرى بعد حين أن عودتك اليه تعزية كبرى ودعينا نهتم الآن بمصاب غيرنا . لقد وعدتك بان اجدلك عملا خيرياً يليق بك ويسري عنك الهم وقد اتيت لانجاز الوعد .

— هل امكنك العثور على الغرض المطلوب بهذه السرعة ؟

— ما كان احسن الهامي في استئجار تلك الغرفة الحقيرة في زقاق التامبل ولا يمكنك أن تتصوري كم وجدت هناك من الامور المدهشة فاعلمي اولا أن العائلة الفقيرة التي اصبحت تحت رعايتك تعد نفسها سعيدة بما سينالها من الخير على يدك ولكنها لا تزال حتى الساعة تحت عوامل الشقاء ولا اريد أن اطيل الشرح في ذلك لكي لا تحزنين ولا تتألمين وسوف يأتي يوم تعلمين فيه كم من الرزايا تحيق بعائلة واحدة غير أن

اسرة موريل اصبحت الآن في مأمن من الفاقة فلنفكر في غيرها مثل مشروعنا الخيري السري فاعلمي انه توجد ام وابنتها كانتا في رغد من العيش وسعة من الرزق فتسلط عليهما بعض ذوي المطامع الاشرار فسلبوهما ثروتهما فاصبحتا على الحضيض

— لهفي عليهما ! ما اشقاهما !.. واين تسكنان يا مولاي؟

— لا ادري

— فكيف عرفت اذن انهما فقيرتان تعستان ؟

— اني بينما كنت افحص خزانة قديمة معروضة للبيع وجدت في احد ادراجها رسالة كتبتها امرأة الى رجل تقول له فيها انها هي وابنتها اصبحتا فقيرتين والسبب في ذلك أن احد وكلاء الاشغال غشهما فسألت التاجر الذي وجدت الخزانة في حانوته من اين اتته فاجابني انه اشتراها مع قطع اخرى من أمرأة لا تزال صغيرة السن ولا شك أن الفقر دفعها الى ذلك وقد قال لي أن ظواهر تلك المرأة وابنتها تدل على أنهما من بيت مجد اصيل وانهما تحملان مصابهما بالصبر الجميل

— أو لست تعلم اين مسكنهما يا مولاي ؟

— لا واني اسف على ذلك ولكنني أمرت البارون

جرون بان يبحث عن مسكنهما وأن يستعين على ذلك برجال البوليس والمرجح عندي أن الفقر المدقع ساقهما الى احد الفنادق الدنيئة فاذا صدق ظني يصبح املنا بالعثور على تينك التعيستين عظيما لان اصحاب تلك الفنادق يقيدون كل ليلة اسماء الناس الذين يدخلون الفندق في النهار .

— ما اغرب هذه الصدف المساعدة !! وما اميل النفس الى مثل هذه الفعال !!

— ثم اني قرأت في احدى زوايا الكتاب الذي وجدته في الخزانة هذه الفقرة . « اكتب للدوقة لوسيني »

— ما اسعد حظنا !! لعلنا نقف من الدوقة على حقيقة الامر

وبعد أن تنهدت عادت فقالت

— ولكن كيف يمكننا الاستعلام من الدوقة عن امر تلك المرأة ونحن نجهل اسمها ؟

— يلزمنا أن نسألها هل تعرف ارسلة صغيرة السن تدل هيئتها على انها من علية القوم ولها ابنة تبلغ السابعة عشرة وتدعى كلير .. . لقد تذكرت اسمها

— انها اذن سمية ابنتي ! ... وهذا يحدو بي الى زيادة

الاهتمام بامرهما

-- ونسيت ان اذكر لك أن شقيق هذه المرأة انتحر منذ بضعة شهور

-- اذا كانت الدوقة لوسيني تعرف هذه الاسرة فان ما ذكرته لي من اخبارها يكفيها للاهتداء . واذا كانت عالمة بانتحار شقيق الارملة فلا يمكنها أن تنساه . يا رباه اصبحت اتمنى مقابلة الدوقة باقرب ما يمكن وارى أن اكتب لها هذا المساء واخبرها بانى ارغب في مقابلتها غداً صباحا وبهذه الطريقة اضمن وجودها في بيتها .:. من هي هذه المرأة يا ترى ؟ .. أن ما ذكرته لي عنها يا سيدي يدل على انها من بيت مجد شريف... والان قد اصبحت هي وابنتها على الحضيض

-- نعم والسبب في ذلك رجل منافق لص عرفت له جرائم كثيرة غير هذه ويدعى جاك فيران

فدهشت كليمنس وهتفت قائلة

-- هو وكيل اشغال زوجي وحماتي !! انك مخطيء يا مولاي اذ المشهور عن هذا الرجل أنه معدن الصدق والاستقامة

-- أن لديّ براهين دامغة تثبت عكس ما تظنين عنه

ويظن غيرك . ولكن ارجوك أن لا تبوحي لاحد بماذا ذكرته لك من الحقيقة عن هذا اللص المنافق . اذ لا يمكنني اظهار جرائمه للناس وايقافهم على حقيقة امره الا اذا ظل بضعة ايام أيضاً معتقداً انه بعيد عن طائلة العقاب : نعم هو السبب في تعاسة تينك المرأتين وفقرهما لانه انكر مالا لهما كان ودعه شقيق الارملة عنده وهو كل ما تملكان على الارض

— رباه !! انها جريمة لا تغتفر ..ولا بد اولا من العثور على الارملة وابنتها . يا ربي كم ستطول الساعات من الآن الى الغد ! ... سانجح باذن الله . أن هذه الحادثة تؤلمني المـاً شديداً . والغريب أن قلبي يرق كلما فكرت في ابنتي .

وبينما المركيزة تتكلم كان رودلف شاخصاً اليها وهو يبتسم مفكراً في سلامة قلبها وميلها الى عمل البر واغاثة الملهوف فلما انتهت من عبارتها ورأت انه شاخص اليها تورد خـداها ونكست رأسها ثم قالت بصوت مضطرب خجلا

— انك يا مولاي تضحك من تحمسي ..لا تلمني فقد اصبحت اتشوق الى اللذة بعمل الخير تشوق الظمآن الى المنهل العذب فان بهذا العمل تصبح حياتي مفيدة في العالم ولا شك

ان الاعمال الخيرية تغنيني عن الحب . وهذه الافكار اقتبسها من بحر علمك الطامي .. أن في نفسك يا مولاي كنز طيبة لا يفنى . فما الذى جعلك شفوقا رحيما الى هذا الحد ؟

— لقد قاسيت آلاماً شديدة وما زلت اتألم وهذا هو السبب في وقوفي على كثير من اسرار الاحزان

— انت يا مولاي ! .. هل يمكن أن تكون تعسا ؟

— نعم بلاني الدهر بكل المصائب ليرق قلبي لكل مصيبة تثقل كاهل غيري . اراني الدهر المكروه في اعز صديق لي وفي اول امرأة كنت احبها حبا يقرب من العبادة واثق بها ثقة عمياء وبعد زواجي اراني المكروه في زوجتي . وحين اصبحت ابا اراني المكروه في ولدي ..

— كنت اظن يا مولاي انك لم ترزق ولداً من زوجتك

— نعم ولكن قبل زواجي كان لي ابنة ماتت وهي طفلة فنغص موتها حياتي كلها . والغريب انني كلما تقدمت في السن يزداد حزني عليها . ولو أن تلك الفتاة بقيت على قيد الحياة لكان عمرها الآن سبع عشرة سنة

— وامها . لا تزال على قيد الحياة ؟

فلما فكر رودلف في ساره اكفهر وجهه وبدت عليه علامات الكدر وهتف قائلا

— ويلاه ! لا تذكريني بامها فهي امرأة سافلة ذات قلب صخري يشغله حب الذات عن كل شيء في العالم. وطالما قلت في نفسي أن موت ابنتي افضل من بقائها مع والدتها

فاغرورقت عينا كليمنس بالدموع وقالت

— ثق يا مولاي باني اشاطرك احزانك . اليس لي حق في ذلك ؟ . ألم تشاطرني احزاني ؟ غير انى لسوء الحظ عاجزة عن تعزيتك

— يكفاني انك تشاطريني الالم فذلك عندي تعزية كبرى . تشجعي فان هذا الحديث اراح بالي عليك

فاستخرطت كليمنس في البكاء واجابت

— واؤمل أن تشملني على الدوام بنصائحك وارشاداتك يا مولاي .

— سأظل أفكر فيك على البعد والقرب واهتم بكلما يهمك . وأبذل جهد المستطاع لاجاب السعادة لك وللرجل الذي أقسمت له يمين المودة والاخاء

وما كاد رودلف يتم عبارته حتى فتح باب مستتر وراء ستار من حرير فصرخت كليمنس مذعورة وارتعدت فرائص رودلف اذ ابصر المركيز درفيل مقبلا عليهما ووجهه اصفر وجسمه مرتعش والدمع يتساقط على خديه ثم انه دنا من رودلف وقدم له الرسالة التي اتته من ساره وقال له

— خذ يامولاي . هذه هي الرسالة التي استلمتها منذ برهة امامك . فاقرأها ثم احرقها

— فشخصت كليمنس الى زوجها مدهوشة اما رودلف فبعد ان قرأ الرسالة هتف قائلا بصوت مرتجف

— تباً لها من نذالة !

— لاشك ان ارسال هذا الكتاب بلاتوقيع عمل سافل ولكن يوجد عمل اكثر سفالة منه يامولاي وهو تصرفي

— ماذا تعني ؟

— انني حين أخذت هذه الرسالة عوضاً عن أطلعك عليها بلا تردد كتمتها عنك وتكلفت السكينة ونار الحسد والبغضاء تتأجج في صدري . وياليتني اكتفيت بذلك بل انني اختبأت خلف هذا الستار وسمعت كل مادار بينكما من

الحديث فتحققت انني مجرم في اساءة الظن فيك يامولاي وهو ذنب عظيم يلزمني أن اسألك عنه المغفرة وانا جاث عند قدميك ابللهما بدموعي

فمد له رودلف يديه وقال له بصوت حنون

— ماهو الذنب الذي ارتكبته ياعزيزي البير حتى تلتمس مني المغفرة ؟ وقد عرفت الآن أسرارنا فاصبحت سعيداً والذي يزيدني سروراً هو انك سمعت مقال المركيزة وتحققت من حسن طويتها وما تكنه لك

فالتفت المركيز الى زوجته وقال لها بصوت حزين

— وأنت ياكليمنس هل تصفحين عني أيضاً ؟

— نعم على شرط ان تساعدني على اسعادك

ومدت يدها لزوجها فصافحها بكلتي يديه فقال له رودلف

— ان اعداءنا لجهلهم لم يعرفوا كيف يسيئون الينا . وقد جلبوا لنا المنفعة من حيث ارادوا الاذى فلولاهم لما تحققت من حسن طوية المركيزة ولما عادت اليك عن رضى . وكفانا بذلك انتقاماً من أعدائنا

ثم انصرف رودلف فشيعه المركيز حتى العربة وعاد الى

غرفته من دون ان يقابل زوجته

الفصل السادس والعشرون

الكارث

يعجز القلم عن وصف الحالة التي كان عليها المركيز درفيل حين دخل غرفته بعد انصراف رودلف فانه كان بين عاملين عامل الفرح وعامل اليأس . فرح لانه تحقق ان ما كتب له في الرسالة عن زوجته ورودلف كاذب . واستولى عليه اليأس لانه ايقن مما سمعه من حديث زوجته من انه لا ينال منها مأرباً طول حياته

وقضى ليله ساهداً يتقلب على فراشه كانه على شوك القتاد وهو غارق في لجة من الافكار وكأن ماالم به من التعب اضاع اضطرابه فبعد ان فكر في أمره ملياً صمم على عمل سيقف القارىء عليه وظل ينتظر انقضاء الليل ولما لاح نور الفجر دق الجرس فجاءه خادمه يوسف يجري وقبل ان يدخل عليه سمعه يغني فاخذ منه العجب وقال في نفسه «ان سيدي المركيز منشرح الصدر هذا الصباح وهو امر نادر» ولما دخل الغرفة قال له المركيز

-- الم تقل لي يا يوسف ان صديقي الدوق لوسيني الذي جرح جرحاً خفيفاً في مبارزته مع شارل روبير اتى هنا بالامس ليقابلني فلم يجدني ووعد انه يزورني هذا الصباح ليتناول معي الشاي؟

-- نعم يا سيدي

-- لقد خطر لي خاطر وذلك ان ادعو الى الفطور الدوق لوسيني وجماعة من اصدقائه لنسر ابتهاجاً بخروجه من المبارزة سالما فيسر الفيكونت بذلك الاجتماع سروراً عظيماً لانه لم يكن ينتظره

-- حسناً تفعل يا سيدي المركيز وكم يكون عدد المدعوين لاصدر الاوامر الى الطاهي وخادم المائدة؟

-- سيكون المدعوون خمسة اشخاص وافضل ان تمد المائدة في قاعة الطعام الشتوية.

— ومتى تكون الدعوة

-- ساشرع في كتابة رسائل الدعوة حالا فتكلف احد رجال الاسطبل ان يركب فرساً ويوزع الرسائل على اصحابها ولا شك انه يجدهم جميعهم في بيوتهم في هذه الساعة..

دق الجرس

— فدق يوسف الجرس وكتب المركيز رسائل الدعوة على صورة واحدة هذا نصها

« ايها الصديق .... ارسل اليك هذه الدعوة على عجل لانها كانت غير منتظرة. ان الدوق لوسيني سيتغدى عندي اليوم وهو يظن انه لايكون على المائدة ثالث معنافارجوك ان تشرفني لمناولة الطعام فيسر الدوق بوجودك بلاوعد وسابعث بنفس هذه الدعوة الى بعض اصدقائه

لا اقبل لك عذراً ان انت لم تحضر فكن عندي الظهر تماماً »

المركيز درفيل

ولما انتهى من كتابة الرسائل قال للخادم الذي لبى صوت الجرس — كلف احد رجال الاسطبل بان يركب فرساً ويوصل هذه الرسائل الى اصحابها

ثم التفت الى يوسف وقال له

— اجلس انت واكتب العنوان على كل رسالة

فجلس يوسف واملى عليه الاسماء الآتية ..

« الفيكونت سان ريمي . المسيو دي مونفيل . اللورد دوجلاس

البارون دي سيزان »

ولما انتهى يوسف من الكتابة قال له المركيز

— أوصي الرجل الذي تكلفه بارسال هذه الرسائل الى أصحابها ان يسرع في الذهاب واذهب الى الانسة جوليت احدى وصيفات المركيزة درفيل وهي المكلفة بالمحافظة على جواهرها وسلها سراً عن اسم الجوهري الذي تعامله المركيزة وعن محل اقامته وشدد عليها الوصية بان لاتذكر للمركيزة كلمة من هذا الحديث

— أدركت الغرض يامولاي انك تريد تدهش المركيزة

— اذهب حالا

فخرج الخادم مسرعاً وبقي المركيز يروح ويغدو في غرفته وتغيرت هيئة وجهه بغتة فبدت عليه علامات الحزن وظل على تلك الحالة بضع دقائق ثم انطرح على المقعد منهكا تحت ثقل اشجانه وألقى مرفقيه على المكتبة وغطى وجهه بيديه وبعد هنيهة رفع رأسه ومسح دمعة ترقرقت في عينه وقال لنفسه

— تشجع يادرفيل... تشجع!

كتب لعدة أشخاص عن أمور شتى وأجل مواعيد

مقابلته مع كثيرين من الذين كتب لهم وما كاد ينتهي من كتابة تلك الرسائل حتى سمع صوت الجرس المنبيء بقدوم زائر

وبعد لحظة دخل عليه الدوق لوسيني وكان قد شفي من الجرح الذي أصابه في ذراعه اثناء مبارزته مع شارل روبير وما زالت هيئته مثل ما كانت تنم عن السخرية والكبرياء وما زال سريع الحركة كثير الاضطراب يميل الى المشاكسة حيث ماوجد ولكن على رغم طباعه هذه وميله الى المزاح الثقيل وعلى رغم كبر انفه الهائل المرتكز في وسط وجهه كالهرم لم تكن هيئته هيئة رجل من أسافل الناس بفضل ما كان يظهره أحيانا من شموخ الانف والجرأة في القحة

فبعد ان سلم على المركيز جلس على مقعد ثم استلقى على ظهره وأمسك عصاه وأدخل طرفها بين الحائط وبين برواز صورة كانت معلقة فوق رأسه وطفق يداعب تلك الصورة ويهزها فقال له المركيز

— كنت انتظرك ياهنري وقد أعددت لك أمر يدهشك .

فاضطرب الدوق وهز الصورة هزة كادت توقعها وقال

— وما هو ذلك الامر ؟

— لقد دعوت بعض أصدقائنا لمناولة الطعام معنا

فاخذ الدوق يضرب بعصاه على مسند المقعد ضرباً شديداً وأجاب بصوت قاصف كالرعد

— لقد أحسنت أيها المركيز بورك فيك وفي أجدادك وأجداد أجدادك . ومن هم المدعوون ؟ لعلك دعوت سان ريمي ؟ . لا انه لا يزال بعيداً عن باريس في احدى القرى وقد كتبت له وسألته ان يكون شاهداً لي فلم أجده وكان شاهداي اللورد دوجلاس والبارون دي سيزان

— ما احسن هذه الصدفة فان شاهديك مدعوان أيضاً للغدا معنا .

— برافو ؟ برافو ؟

قال الدوق ذلك وأخذ يتمرغ على المقعد ويتلوى كالافعى وفيما هو على تلك الحال أقبل الفيكونت سان ريمي وقال وهو يبتسم

— ما احتجت الى سؤال الخادم عن وجود الدوق لوسيني هنا لاني سمعت صوته من أسفل السلم فاستوى الدوق جالساً بغتة وهتف قائلا وقد بدت على وجهه الدهشة

— كيف ؟ هو أنت أيها القروي الجميل ؟ كيف أراك هنا وعهدي بك انك متجول في القرى ؟

— قد عدت الى باريس يوم أمس وأتتني دعوة المركيز درفيل هذا الصباح فلبيت مسرعاً مسروراً بهذا الاجتماع الغير منتظر

ثم صافح الدوق والمركيز ولما جلس قال له الدوق

— خبرني بالله عليك ماذا ذهبت تصنع في القرى في فصل الشتاء ؟ ان هذا أمر يدعو الى العجب

فالتفت الفيكونت الى المركيز درفيل وقال له

— ألا تقر معي بان الدوق فضولي ؟

ثم وجه حديثه الى الدوق وأردف

— ذهبت الى القرى مبتعداً عن باريس كما يبعد المفطوم عن ثدي أمه ليعتاد على فرقتها لأنني بعد حين سأتركها بتاتاً

— نعم تذكرت الآن ما تعني وهو انك ستذهب بعد حين للخدمة في السفارة الفرنساوية في جيرولستين.. فدعنا من هذه الامور السياسية فانك لم تذهب قط الى تلك البلاد هكذا تقول زوجتي وهكذا يقول كل الناس وقد قالت لك

زوجتي على مسمع مني بان فعلك هذا ضرب من الجنون

— ليست هذه أول مرة جننت في حياتي .

— ولكن بعض الجنون يختلف عن البعض الآخر اما جنونك في البذخ والترف وخسارة ثروتك فلا ألومك عليها ولكني الومك على ذهابك الى جيرولستين ودفنك في بلاطه حياً هذا هو الجنون المركب ولا أدري كيف يمكنك ان تقيم في تلك البلاد الخاوية المقفرة وأنت أجمل زهرة في باريس ولا تقدر حق قدرك في غيرها

ثم أقبل باقي المدعوين ودخل الخادم يوسف وهمس بعض كلمات في اذن المركيز فقال هذا موجها كلامه لضيوفه

— اسمحوا لي ياسادتي ان انتقي بعض الحلي من التي بعثها الي الجوهري فاني أريد ان اشتري هدية لزوجتي من دون ان تعلم

ثم التفت الى الدوق لوسيني وأردف

— ولا شك انك توافقني على ذلك ياعزيزي الدوق لانك مثلي تبحث عن كل مايسر زوجتك

فهتف الدوق قائلا

— ليست كل الامور الغير المنتظرة تسر فان زوجتي باغتتني بالامس بأمر غير منتظر وغير مألوف وهو انها طلبت مني ماية ألف فرنك

— وبما انك من الكرام أعطيتها ذلك المال

— لا بل أسلفته لها ورهنت الارض الزراعية التي لها في ارنوفيل ومع ذلك أرى ان تسليف ماية ألف فرنك أمراً نادر المثال

ثم التفت الى الفيكونت سان ريمي وقال له

— ألا تقر معي ياعزيزي سان ريمي ان عمل زوجتي يعد اسرافاً فانك أمير المسرفين والمستدينين

فاحمر وجه الفيكونت برهة على رغم ماعهد فيه من الشجاعة ثم عاوده ثبات الجأش وأجاب

— ماية ألف فرنك هذا مبلغ جسيم . . كيف يمكن ان امرأة تحتاج الى ماية ألف فرنك ؟

— وحقك لا اعلم لاي شيء تريد زوجتي هذا المال . ولكن ماذا يهمني ذلك فلعلها تريد ان تسدد ديوناقديمة عليها ثمن ملابس وحلي ولا يبعد ان يكون الدائنون ألحوا عليها في

انطلب فهي وشأنها وأنت ترى ياعزيزي سان ريمي مثلي انه
ليس من اللياقة ان أسأل زوجتي على أي شيء تريد انفاقه
وفي تلك الاونة دخل الجوهري الذى كان ينتظره المركيز
درفيل حاملا بين يديه حقيبة من الجلد فيها عدة قطع من
الحلي ولما أبصره الدوق لوسيني هتف قائلا

-- ماذا أرى هذا المسيو بوردان

— نعم ياسيدي اني على الدوام مستعد لخدمتكم

فقال له الدوق : لاشك انك أنت الذي سلبت أموال
زوجتي .فان معروضاتك لا تنقطع

فارتبك الجوهري وأجاب بصوت متلعثم

— اكتفت حضرة الدوقة هذا العام بتنظيف حليها
وقد مررت بها وأنا آت الى هنا وأرجعت لها جواهرها
وكان الفيكونت دي سان ريمي يعلم حق العلم بان الدوقة رهنت
جواهرها واستبدلتها بجواهر كاذبة لتنقذه من الضيق المالي
الذي كان فيه . فكدره مجيء ذلك الجوهري وخاف سوء
العاقبة ولكنه ظل ثابت الجأش وقال للجوهري

— ما اشد فضول الرجال وأميلهم الى التداخل في مالا

يعنيهم من أمر زوجاتهم ! ! فلا تجاوبه يامسيو بوردان

فاجابه الدوق

— ماأصبت ياعزيزي الفيكونت في قولك اني فضولي. وأيقن من اني لاأهتم بما تنفقه زوجتي على شراء الجواهر مازالت هي تدفع الثمن. وهي حرة في ان تعمل كل مايسرها ولا بأس من ذلك لانها أغنى مني

وبينما الدوق يتكلم أخرج الجوهرى بوردان من حقيبته عدة قطع من الحلي المصوغة من أنفس الجواهر ووضعها على منضدة فلما وقع نظر اللورد دوجلاس عليها هتف قائلا

— ماأجمل هذه الحلي وما أصفى ماء جواهرها ! !

وأشار المركيز درفيل الى عقد جميل وقال لبوردان

— كم ثمن هذا العقد ؟

— أرجو سيدي المركيز الانتباه الى أمر مهم جداً وهو ان كل حجارة هذا العقد صافية الماء ولا عيب فيها

فضحك الفيكونت دي سان ريمي وقال للمركيز

— هذه مقدمات فلسفية سوف يكون لها مفعول سيء على جيبك ياحبيبي المركيز فاستعد لثمن فاحش فقال المركيز

الجوهری — ماهو آخر ثمن تطلبه؟

— انا اعرف ياسيدي المركيز انك تكره المساومة فاعلم أن آخر ثمن هو أربعون الف فرنك

فهتف الدوق لوسيني قائلا

— الا تقرون معي ياسادتي جميعكم بأن عمل درفيل هذا يدعو الى الدهشة والعجب ؟ والاجدر بنا نحن المتزوجون أن لا نرفع اصواتنا لا بداء عجبنا واعجابنا وان نبقي هذا الخبر مكتوماً لكي لا يتخذه غير المركيز مثالا

فأجاب المركيز وعلامات البشر بادية على وجهه

— اضحكوا مني ما استطعتم ياسادتي.. اما أنا فاعترف بانني مغرم بزوجتي ولا استحي بذلك لا بل افاخر فيه

فاجابه الفيكونت سان ريمي

— لست في حاجة الى الاقرار بغرامك فان هذا العقد الذي تريد شراءه أفصح من بيانك

— نعم قد صممت على شراء هذا العقد اذا كنت تراه جميلا ياعزيزي سان ريمي

— اني اراه جميلا جداً

فقال المركيز للجوهري — حسن قد اشتريت هذا العقد وسا كلف المسيو دوبليه وكيل اشغالي بان ينقدك الثمن

فاجاب بودوان ـ ان المسيو دوبليه اخبرني بذلك

ثم انه جمع قطع الحلي التي كانت على المنضدة واعادها الى الحقيبة من دون ان يعدها لشدة امانته وكان الفيكونت دي سان ريمي اكثر من تقليبها بين يديه حينما كان الجوهري مشغولاً في مساومة المركيز ولما انصرف بودوان . دخل الخادم واعلن ان المائدة على تمام الاستعداد لقبول المدعوين . فدخل هؤلاء قاعة الطعام واكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً وكانوا جميعهم في هناء وحبور واكثروا من المزاح والضحك . واكثر المركيز درفيل من شرح ماصمم عليه من الاعمال في المستقبل

وبعد الفراغ من مناولة الطعام عادوا الى قاعة المركيز الخاصة وكان الباب المؤدي الى الغرفة التي ينام فيها مفتوحاً وكانت تزين جدران تلك القاعة مجموعات من الاسلحة الجميلة فبعد ان اشعل الدوق سيكاراً كان اول من تبع المركيز الى القاعة فقال له هذا وهو يشير الى الاسلحة

— أنظر كيف انني لا ازال مغرماً بالات القتل

فاجابه الدوق لوسيني

— صدقت فاني ارى بنادق انكليزية واسلحة فرنساوية جميلة جداً ويحار الناظر اليها في ايهما افضل

— تعال يا عزيزي دوجلاس وانظر هذه البنادق

فتقدم اللورد نحو الحائط وتبعه الفيكونت سان ريمي واثنان اخران من المدعوين ليتفرجوا على مجموعة الاسلحة فاخذ المركيز درفيل طبنجة وقال وهو يضحك

— هذا هو يا سادتي دواء الهموم وصابون الاحزان والضجر

ثم ادنى فوهة الطبنجة من فمه وهو يمزح فقال له الفيكونت

— اما انا فافضل انواع العلاج الاخرى اما هذا النوع فلا يستعمل عادة الا في الامراض التي لا رجاء في شفائها فاجابه المركيز — ولكنه دواء سريع المفعول . ففي طرفة عين يقضى الامر وليست الارادة باسرع منه فلا شك انه دواء ثمين

ولحظ الدوق لوسيني أن المركيز درفيل ما زال يدني فوهة الطبنجة من شفته فقال له

— كن على حذر يا عزيزي درفيل وابعد فوهة الطبنجة عن وجهك فان ساعة القدر تعمي البصر وكثيراً ما ادى مثل

هذا المزاح الى نتائج وخيمة جداً

فاجابه المركيز . - اتظن يا حضرة الدوق انني العب بهذه الطبنجة على هذه الطريقة اذا كانت محشوة ؟

— نعم ولكن مهما يكن من الامر فليس المخاطر محموداً ولو سلم

فلم يكترث المركيز درفيل بكلامه بل وجه حديثه الى الجميع وقال لهم — انظروا يا سادتي هكذا يفعل الذي يريد أن ينتحر. انه يدخل فوهة الطبنجة بين اسنانه .. ثم ..

فهز الدوق لوسيني كتفيه وقال له

— ما ابلدك يا درفيل حين تمزح هذا المزاح

فاردف المركيز درفيل قائلا — ثم يدني اصبعه من الزناد

— لا شك أن درفيل مثل الاولاد الصغار

واردف المركيز قائلا

— ويحرك اصبعه حركة خفيفة فتذهب روحه الى خالقها

ولما اتم هذه الكلمات دوى طلق الطبنجة فخر المركيز قتيلا وقد يعجز القلم عن وصف ما ألم باصدقائه من الذعر والذهول.. وفي الغد نشرت بعض الصحف الخبر الآتي

« لقد حصل في الامس حادث محزن لم يكن في الحسبان اقام حي سان جرمان واقعده وكان ذلك بسبب مجازفة وهذا تفصيل الحادث

« أن المركيز درفيل المثري الشهير الذي لم يتجاوز سنه ستة وعشرين ربيعاً المشهور بطيبة قلبه تزوج منذ بضع سنين امرأة احبها محبة تقرب من العبادة وفي ظهر الامس دعا بعض اصدقائه للغدا وبعد قيامهم عن المائدة دخلوا غرفة المركيز الخاصة حيث يوجد على الحائط مجموعة اسلحة ثمينة فاخذ المدعوون يتفرجون عليها وأمسك المركيز طبنجة وادناها من فمه يريد بذلك المزاح لعلمه انها ليست محشوة ثم ضغط على الزناد فدوى صوت الطلق في القاعة وخر ذلك التعس يتخبط بدمه وقد فتت الرصاص عظم جمجمته ومزقت دماغه فليتصور القارىء ما ألم باصدقائه من الذعر . وكان المركيز رحمه الله في مقتبل العمر ورغد العيش لا يخشى غدر الزمان في المستقبل والذي يزيد هذه الكارثة تأثيراً في النفوس هو أن المركيز في صباح اليوم الذي قتل فيه اراد أن يفاجيء زوجته بما يسرها فاشترى لها قطعة ثمينة من فاخر الحلي وقبل

أن يسر بتقديم هديته الى زوجته المحبوبة عاجله القضاء فذهب مبكياً على شبابه فكل من يفكر في هذا الحادث المحزن لا يسعه الا الرضوخ لحكم القضاء والقدر . »

كذا شاع بين الناس أن موت المركيز درفيل كان قضاء وقدراً والحقيقة انه تعمد الانتحار ودفن معه ذلك السر وقلما يوجد بين الرجال من يقدم على مثل هذه الميتة وهو باسم الثغر ثابت الجاش مثلما فعل ذلك الشاب الشجاع وقد اتخذ تلك الطريقة في انتحاره لكي لا تعلم زوجته كليمنس

الفصل السابع والعشرون

سجن سان لازار

لا يدخل سجن سان لازار سوى السارقات والفاجرات وفي كل يوم يزور كثيرات من السيدات المحسنات اللواتي تنحني لهن الرؤوس اجلالا تلك النساء الغنيات بنات الحسب والنسب يقضين ساعات طويلة الى جانب المسجونات التعسات يطيبن خاطرهن و يعزينهن واذا وجدن في واحدة منهن اقل ميل الى الخير أو اقل ندم على جرائم الماضي يقوين فيها ذلك الميل و كثيراً ما ينقذنها من هاوية الهلاك

وفي صباح اليوم الذي انتحر فيه المركيز درفيل ذهبت زوجته كليمنس الى ذلك السجن بعد ان استعلمت من الدوقة لوسيني عن الارملة وابنتها التعستين اللتين حدثها عنهما رودلف وقال انهما أصبحتا في ضنك لان وكيل الاشغال جاك فيران أنكر مالهما المودع عنده فقابلها مدير السجن بكل حفاوة واكرام وأدخلها قاعة الاستقبال ودخلت معها امرأة كهلة من الموظفات في السجن تدعى مدام ارمان تعرف صفات كل مسجونة وكان المدير يعتمد على رأيها ويستشيرها في أمور جمة فلما اختلت بالمركيزة قالت لها

— بما انك ياسيدتي المركيزة تكلفينني بان أدلك على بعض المسجونات الحسنات السلوك النادمات على ما فرط منهن في الماضي المستحقات حسن التفاتك وتعطفك فاسمحي لي أن ادلك على امرأة أظنها تعسة اكثر مما هي مجرمة وهي فتاة مازالت في شرخ الشباب اذ لم تتجاوز السابعة عشرة

— وما هو الذنب الذي سجنت لاجله هذه الفتاة ؟

— ذنبها الوحيد أن بعض رجال الشرطة وجدوها في ساحة الشان اليزيه في الليل... ذلك لانه محرم على أمثالها

التجول في بعض أماكن محدودة نهاراً وليلا والا يقعن تحت طائلة العقاب وبما أن ساحة الشان اليزيه معدودة بين تلك الاماكن القى البوليس القبض على الفتاة لانه وجدها هناك

— وهل لاح لك ان هذه الفتاة تمتاز ببعض الصفات عن رفيقاتها المسجونات

— انني لم أر طول حياتي أجمل من صورتها ولا أطهر من نفسها فان لها وجهاً كوجه البتول والذي زادهيئتها بساطة انها كانت مرتدية يوم دخلت السجن ملابس القرويات المقيمات في ضواحي باريس

— انها اذن من بنات القرى ؟

— لا ياسيدتي المركيزة ان بعض المفتشين عرفوها وعرفوا أنها سكنت بضعة أسابيع بيتاً حقيرا في أقبح أحياء باريس ثم تغيبت عنه ثلاثة شهور

— لعلها ابتعدت عن باريس لتتوب الى الله عن ذنوبها

— هذا ما أرجحه ياسيدتي وهو الذي جعلني أهتم بهذه الفتاة فسألتها عن ماضيها وعما اذا كانت قادمة من بعض القرى وأخذت أشجعها وأحيي آمالها وأبشرها

بمستقبل حسن اذا حادت عن الشر ومالت الى الخير .

— وبماذا أجابتك؟

— رفعت نحوي عينيها الزرقاوين الذابلتين المغرورقتين بالدموع وقالت لي بصوت عذب ملائكي «اشكرك ياسيدتي على طيبة قلبك ولكنني لاأستطيع ان أذكر لك شيئاً عن الماضي وغاية ما أقوله لك انهم القوا القبض عليّ بحق لاني خالفت القانون ولذلك لاتجوز لي الشكوى»

فقلت لها من أين أنت قادمة وأين كنت مقيمة منذ غيابك عن المدينة ؟ فان كنت ذهبت الى الضواحي لتفتشي على خدمة تكسبك العيش بعرق الجبين فاذكري ذلك واثبتيه بالبرهان فنكتب الى وكيل السجون ونلتمس منه ان يطلق سراحك ونمحو اسمك من سجل البوليس ونساعدك على الاستمرار في السير على هذا السبيل القويم فاجابتني — «أتوسل اليك ياسيدتي بأن لاتلحي عليّ في السؤال اذ لاأستطيع ان أجاوبك» فقلت لها ومتى خرجت من السجن هل تعودين الى ذلك البيت الدنس ؟ فهتفت قائلة كلا كلا

— ما أغرب هذا الامر ! وبأي لسان تعبر عن افكارها

— باحسن لسان وأفصح عبارة ياسيدتي ولها هيئة متواضعة تدعو الى الاعتبار ولكنها ليست غافلة وعلى رغم عزوبة الفاظها وذبول عينيها يمازج حزنها شيئ من عزة النفس

— ان ماتقصينه عليَّ يشبه الروايات .. وكيف سلوكها مع بقية المسجونات؟ لاشك انها تتألم من وجودها في وسطهن

— اعلمي ياسيدتي المركيزة انني وجدت كل أطوارها غريبة مدهشة اذ لم يمض عليها ثلاثة أيام في السجن حتى تسلطت على أفكار كل رفيقاتها فاصبحن يعتبرنها

— كيف ! لايكرهها رفيقاتها ؟

— كلا ياسيدتي لان ليس بينهن واحدة تعرفها قبل دخولها هذا السجن ويوم دخلت عليهن بهرهن جمالها وعجبن لسكوتها لان أغلبهن يكثرن من الجلبة والصياح والاشارات والذي لم يجعل رفيقاتها ينفرن من فتورها هذا هي انها كانت شفوقة وفضلا عن ذلك يوجد هنا امرأة عاصية تدعى الذئبة شرسة الطباع قبيحة الخصال تبلغ من العمر عشرين سنة طويلة القامة حسنة الصورة ولكنها فظة وكثيراً مانضطر الى سجنها في مكان مظلم لنضع حداً لشقاوتها ونتقي شرها وقبل الامس خرجت من

ذلك السجن المظلم وكانت نار الحقد لا تزال متقدة في صدرها لصرامة ذلك القصاص وكانت الفتاة الدمسة الاخلاق التي ذكرتها لك قليلة الاكل فعند مناولة الطعام قالت لرفيقاتها بصوت حزين . « من يريد خبزي ؟ فاجابتها الذئبة أنا أأخذه . فهتفت امرأة اخرى حدباء تدعى مون سان جان . — لا بل انا أأخذه وكانت هذه المرأة موضوع سخرية المسجونات وكثيراً ما كنّ يضربنها ويعذبنها على رغم دفاعنا عنها وهي مع ذلك حبلى منذ عدة شهور . فاعطت الفتاة خبزها لهذه الحبلى فاستشاطت الذئبة غضباً وقالت للفتاة . « أنا طلبت خبزك قبل هذه البلهاء فاجابتها . — نعم ولكن هذه المرأة حبلى وهي أحوج منك فازدادت الذئبة غضباً لما رأته من ثبات جاش المغنية « هكذا تدعى الفتاة لانها ذات صوت رخيم » فوثبت عليها شاهرة خنجراً فذعرت المسجونات وصرخن مستغيثات ما خلا المغنية فانها ظلت ثابتة الجأش باسمة الثغر وقالت للذئبة بصوت ملؤه العذوبة . « اقتليني . اقتليني . انني أتمنى الموت . ولكن لا تطيلي عذابي » وقيل لي ان كل المسجونات بكين حين سمعن كلام المغنية .

فتأثرت المركيزة درفيل لتلك الحكاية وأجابت

— لاغرابة في انهن بكين .

— ولما سمعت الذئبة مقال المغنية هدأ ثائر غضبها فرمت السكين وداستها برجلها وهتفت قائلة . « لقد أخطأت في تهديدك يامغنية لاني أقوى منك . وأنت لم تخشي خنجري فلا شك انك شجاعة . . . وأنا أحب كل النساء اللواتي على شاكلتك .

— ماأغرب طباع هذه المرأة ! !

— وازدادت سلطة المغنية على نفوس المسجونات بعد الذي قالته للذئبة . وأصبحن كلهن يكرمنها ويعتقدن انها أرفع منهن رتبة

وبعد سكوت وجيز قالت المركيزة لموظفة السجن

— لاشك ياسيدتي انك على جانب عظيم من الشجاعة وقوة الارادة والفضيلة . ولولا ذلك لما أمكنك الاستمرار على هذه الخدمة الشاقة بين تلك الشقيات الناكرات الجميل

— لا ياسيدتي . ان ماأفعله يفعله غيري باكثر تعقل ونجاح ويوجد بين النساء الموظفات في هذا السجن واحدة تخدم في

الجهة المقابلة لهذه ووظيفتها مراقبة المتهمات بجرائم متنوعة .
وهي على جانب عظيم من الذكاء . وقد أخبرتني صباح اليوم
ان قد دخلت السجن فتاة متهمة بقتل ولدها. ولا اذكر انني
سمعت حكاية أثرت في نفسي مثل هذه فان والد المتهمة جن
حين بلغته التهمة الملقاة على ابنته وكان صانعاً ماهراً وحرفته
صقل الحجارة الكريمة . ويقال ان ماقاسته عائلة تلك الفتاة
من الفقر المدقع يعجز القلم عن وصفه . وهي تقيم في مسكن
حقير في زقاق التامبل

فبدت علامات العجب على وجه المركيزة وهتفت قائلة

— زقاق التامبل !! وما هو اسم ذلك الصانع الذي جن

— ان ابنته تدعى لويز موريل

— لقد صدق ظني ..

— وكانت هذه الفتاة في خدمة رجل من اهل الصلاح
والتقوى يدعى جاك فيران وظيفته وكيل أشغال

فاحمر وجه المركيزة وقالت . _ ان بعضهم أوصاني بهذه
العائلة الفقيرة غير انني لم اكن انتظر ان أراها تصاب بهذه
البلوى الجديدة المهولة .. وماذا تقول لويز موريل ؟

— تقول انها بريئة وتقسم ان ولدها مات موتاً طبيعياً ويظهر من لهجة حديثها انها صادقة . أفلا تريدين ياسيدتي المركيزة ان تزوري هذه الفتاة التعسة بما انك تعرفين أهلها؟ ولا شك ان مثل هذا التعطف منك يخفف احزانها فقد قيل لي انها تكاد تموت لشدة الغم واليأس

— نعم . نعم أتمنى من صميم فؤادي ان أراها فيكون لي في هذا السجن اثنتان تحت رعايتي المغنية ولويز موريل. فان كل ماذكرته لي عن هذه الفتاة أثر في نفسي . وما يلزم عمله للافراج عنها ؟ ومتى خرجت من السجن أجد لها عملا واهتم بمستقبلها

— أظن يامولاتي المركيزة انه يسهل عليك اخراجها من السجن نظراً لما لك من العلاقات بذوي الكلمة النافذة. والامر موقوف على ارادة حكمدار البوليس فهو لايحجم عن الافراج عنها اذا سأله ذلك وجيه من علية القوم. ولكن ذكر لويز موريل انسانا المغنية ياسيدتي

— هل لديك خبر آخر عنها ؟

— نعم ياسيدتي المركيزة يلوح لي ان هذه المغنية بعد

خروجها من هوة العار التي وقعت فيها . أشغل قلبها حب طاهر كان سبب سعادتها وشقائها في آن واحد

— وما الذي حدا بك الى هذا الظن ؟

— انني أمس مساء بينما كنت اتجول في غرف النوم للمراقبة دنوت من فراش المغنية فوجدتها نائمة نوماً عميقاً فوقفت أتأمل وجهها الصبوح الملائكي وبينما أنا كذلك سمعتها تلفظ بصوت خافت ينم عن الخشوع والمحبة اسم رودلف

فتذكرت المركيزة البرنس وقالت مدهوشة . — رودلف

ثم انها فكرت وقالت في نفسها . — لا يمكن ان يكون سمو دوق جيرولستين هو نفس رودلف الذي ذكرته المغنية في نومها . ثم قالت لموظفة السجن

— قد أدهشني ذكر هذا الاسم لان أحد أقاربي يدعى رودلف . وكلما زدتني أخباراً عن هذه الفتاة المغنية زدت اليها ميلا وبأمرها اهتماما . . أفلا يمكنني ان أراها اليوم . . . في هذه الساعة ؟

— نعم يا سيدتي يمكنك ذلك فاسمحي لي ان استدعيها وفي الوقت نفسه يمكنني الاستعلام عن لويز موريل في قسم

السجن الآخر

— افعلي فاكون لك شاكرة حامدة

خرجت الموظفة وبقيت المركيزة وحدها في قاعة الاستقبال . ولما دقت الساعة الثانية في كنيسة سان لازار خرجت المسجونات للنزهة في ساحة السجن وطفقن يركضن ويصرخن . وكانت بينهن المرأة الشرسة التي تدعى الذئبة . وهي قوية البنية تناهز العشرين طويلة القامة متينة الاعضاء جميلة الوجه سوداء الشعر يكسو شفتيها زغب أسود ناعم . وكان لها حاجبان سوداوان كثيفان مقرونان بين عينيها . وكانت هيئتها تدل على الشراسة والخشونة البهيمية وكلما أصيبت بنوبة غضب تتقاص شفتها العليا كما تتقلص شفاة الوحوش الكاسرة وتكشر عن أسنان بيض مفلوجة ولذلك لقبت بالذئبة ثم ان هذه المرأة دنت من فتاة ذات شعر أشقر كانت منفردة والحزن باد على وجهها وقالت لها

— تعالي يامغنية فان لي معك كلام

ثم أمسكت زهرة مريم من ذراعها ومشت بها نحو بركة من الرخام كانت في وسط ساحة السجن وجلستا على مقعد خشبي

هناك بعيدتين عن رفيقاتهما وكانت هيئة الذئبة تدل على الكآبة فبعد سكوت وجيز قالت لها المغنية

— عن أي أمر تريدين ان تكلميني ؟

فاجابتها الذئبة بصوت خشن .

— لابدّ لنا ان نضع حداً لما بيننا فان هذه الحالة لاتدوم

— لم أفهم مرادك ياذئبة

— قلت لك ان هذه الحالة لايمكن ان تدوم

— ماذا فعلت معك

— انني بعد عشرتك تغيرت احوالي فضعفت عزيمتي ووهنت قوتي وذهبت شجاعتي .

ثم قطعت الذئبة حديثها بغتة وشمرت عن ساعدها وارت المغنية وشما منقوشاً عليه وهي صورة خنجر ازرق مغروز في قلب احمر وعند اسفل هذه الصورة مكتوب العبارة الآتية « فليمت الانذال — مرسيال — (على طول الحياة) — »

— عند ما كتب مرسيال خليلي هذه الكلمات على زراعي بابرة محماة على النار كان يظنني انني شجاعة فلو انه عرف سلوكي منذ ثلاثة ايام لكان اغمد خنجره في صدري مثلما هذا الخنجر

مغمد في هـذا القلب ولو فعل ذلك لا يلام لانه كتب على زراعي فليمت الانذال وانا نذلة

— ما الذي فعلته من النذالة ؟

— كل ما فعلته نزالة انني حتى الساعة ماطأطأت رأسي لاحد وانني ادعى الذئبة فلا يقال انني طوع امر فتاة صغيرة مثلك تسحقني تحت قدميها

— انا ! وكيف ذلك ؟

— لا اعرف كيف .. انك لما جئت هنا بدأت تأمرين لكي تهينيني

— اهينك ؟

— نعم .. انك لما سألت من يريد يأخذ خبزك كنت اول من اجابك ولم تجاوبك المرأة مون سان جان الا بعدي ومع ذلك فضلتها عليّ واعطيتها الخبز فاتقدت نار الغضب في صدري ووثبت عليك شاهرة خنجري .

— فقلت لك . « اقتليني اذا اردت ولكن لا تطيلي في عذابي » وهذا كل ما كان ..

— كل ما كان ؟

نعم كل ما كان !.. ومع ذلك عند ما سمعت كلامك رميت الخنجر وطلبت منك العفو..

انت التي اهنتني فهل تظنين أن هذا امر طبيعي ؟..فانني كلمافكرت في الامر اهزأ بنفسي. ولماذا اصبحت انا وباقي المسجونات نستحي أن نخلع ثيابنا امامك بعد ذلك الحادث

— لا ادري

فاجابتها الذئبه بلهجة التهكم.

— ماذا تقولين ! لا تدرين ! انا اقول لك لماذا. لانك مثلما قلنا لك مراراً على سبيل المزاح لست مثلنا ولكنك من فصيلة اخرى.

— ارجوك أن تصغي الي

— كلا لان اصغاي اليك اضر بي كثيراً ولا سيما حين ارى وجهك لانني لا اذكر قط انني حسدت احداً طول حياتى ولما رأيتك تنازلت وحسدتك على صوتك الجميلة وهيئتك الدالة على العذوبة والكئابة وتمنيت أن يكون لي شعرك الذهبي وعيناك الزرقاوان مع انني طول حياتي اكره ذوات الشعر الاشقر فيا رباه كيف تمنيت أن اكون مثلك

انا الذئبة !.. انا !.. فلو أن احداً قال لي ذلك منذ ثمانية ايام لكنت اوردته حتفه ولا ادري كيف احسدك وانت دائماً حزينة كئيبة ولا تبرحي تزرفين الدموع اليس كذلك ؟

فاحمر وجه المغنية واجابت ـ نعم صدقت

— واني كلما اراك تزرفين الدموع تتولاني الكئابة ويرق لك قلبي وهذا ما لا اريده فاني قبل أن اعرفك كان لي قلب اصلب من الصوان وهكذا اريد أن يبقى وبما أن عشرتك تضر بى وتلين قلبي فلابد لي أن اضع حداً لها لكي ابقى مثلما كنت ولا يسخر الناس بي

فامسكت زهرة مريم بيد رفيقتها وقالت لها

— اوكذلك يا ذئبة انك تشفقين عليّ ليس لانك نذلة جبانة مثلما تقولين بل لانك كريمة النفس وليس على الارض من يرق لمصائب الناس سوى اصحاب القلوب الطاهرة

فاجابتها الذئبة بعنف

— اما انا فلا ارى في ذلك عزة نفس ولا شجاعة وانما ارى جبناً .. ثم اني لا اريد أن تقولي عني أن قلبي رق لك فهو قول كاذب وسوف اعود الى شراستي متى خرجت من

هذا السجن

— الى اين تذهبين متى خرجت من هنا ؟

— اذهب الى بيتي، في زقاق بيير ليسكو .

— وهل تسرين بلقيا خليلك مرسيال بعد غيابك عنه ؟

فاجابتها الذئبة بتلهف المشتاق

— نعم .. نعم لانني يوم سجنت كان ناقهاً من حمى شديدة اصابته لانه يكثر من الوقوف في الماء فبقيت سبعة عشر يوما وسبع عشر ليلة ملازمة له لا ابتعد عن فراشه طرفة عين وبعت نصف ما في حانوتي من العقاقير لادفع اجرة الطبيب واني افاخر بذلك. واذا كان خليلي لا يزال على قيد الحياة فالفضل لي

— واين هو مرسيال الان وماذا يصنع؟

— انه يقيم بالقرب من جسر اسنير في جزيرة مع عائلته في بيت منعزل يظل على الدوام يتشاجر مع حراس الصيد ومتى كان في قاربه والى جنبه بندقيته ذات الطلقين لا اشور على احد بالتحرش به

— ماهي حرفته؟

-- انه يصطاد الاسماك ليلا خلسة وهو أشجع من أسد وفي النهار أزوره في الجزيرة وهو يزورني ليلا في باريس والجزيرة التي يقيم فيها تدعى رفاجور وهي بالقرب من أسنيير والذهاب اليها غير شاق لانها قريبة ولكن لو كانت بعيدة لما كان ذلك يعيقني عن الذهاب للقاء خليلي وان لم أجد زورقاً أركبه اقطع النهر سباحة وأصل الى الجزيرة لانني أسبح كالبطة .

فتنهدت زهرة مريم وقالت لها

— ستكونين سعيدة بالعودة الى الخلاء ولا سيما اذا كنت مثلي تحبين النزهة بين الحقول

انني افضل على ذلك التجول في الغابات والاحراش الكثيفة مع خليلي

— في الغابات! . لا تخافين؟

— أخاف ماذا تقولين ؟ هل تخاف الذئبة انني كلما زادت الغابة كثافة وظلاما زدت حبوراً وأتمنى ان يكون خليلي صياداً مختلساً (أي غير مصرح له بالصيد) فاقيم معه في كوخ صغير وسط الغابة وأقضي النهار في الصيد والقنص فاذا هاجمنا حراس الصيد نختبيء بين الادغال ونشويهم برصاص

بنادقنا. ما أحلى تلك المعيشة؟

— من الذي أوجد فيك مثل هذه الافكار ؟

— هو خليلي مرسيال فانه كان صياداً مختلساً في غابة رامبوليه وقد اتهم منذ سنة بانه أطلق الرصاص على حارس اعتدى عليه ولكن التهمة لم تثبت ومع ذلك اضطر مرسيال الى هجر تلك البلاد والعودة الى أهله في اسنيير حيث يصطاد في النهر ولكنه لا يزال آسفاً على فراق الاحراش ولا بد أن يعود اليها يوماً ما ولكثرة ما حدثني عن الصيد في الاحراش خلسة صرت أتمنى هذه الحرفة وكل ما يريد الخليل يحلو للخليلة فلو كان مرسيال لصاً لكنت أشاركه في اللصوصية

— وهل انت سعيدة ياذئبة؟

— هنا في سجن سان لازار؟

— لا بل هناك مع خليلك

— نعم انا سعيدة هناك

— الا تريدين ان يبدل حظك بحظ آخر .

— اي حظ ؟ ليس لي حظ غير الذي انا فيه

فنكست المغنية رأسها الى الارض وظلت صامتة برهة

ثم قالت

— خبريني ياذئبة الا تتمنين أحيانا بعض الاماني الا تبنين القصور والعلالي على الامل؟

— ماخطر ذلك على بالي

— اسمحي لي اذن ان أتمنى لك ولخليلك مرسيال ما اظنه حسناً. قلت ان خليلك صياد مختلس فهل ارتكب جريمة غير هذه؟

— كلا هو صياد مختلس في النهر مثل ماكان في الغابة ولا يلام على ذلك فان الاسماك مثل الطيور مباحة للذين يصطادونها فمن يستطيع ان يدعي انه مالكها

— حسن افرضي أن خليلك ترك حرفته هذه الخطرة وأراد أن يصبح رجلا صالحا وانه برهن على حسن مقاصده لغني من أهل البر. وافرضي أن ذلك الغني وثق بكلامه ووجد له عملا يرتزق منه كوظيفة حارس صيد مثلاً فان هذه الوظيفة تشبه الصيد خلسة لان صاحبها يقضي أغلب أوقاته في الغابات. ولكنه لا يعطي هذه الوظيفة الا تحت شرط وهو أن يتزوجك ويأخذك معه

— أتزوج مرسيال ؟.... أذهب مع مرسيال ؟

— نعم ألم تقولي لي بانك تكونين سعيدة اذا سكنت معه في الغابات أولست تفضلين أن يكون لكما بيت صغير تأويان اليه عوضاً عن ان تكونا في كوخ حقير مثل الذي يختبيء فيه خليلك الآن خوفاً من ان يراه حراس الصيد ؟

— انك تهزأين بي فهل ماتقولين ممكن ؟

— من يعلم قد يجوز ان يكون ذلك مقدوراً لكما في عالم الغيب ومع ذلك فقد قلت لك اننا الآن نبني العلالي والقصور على فسحة الامل وصار يخيل الي ياذئبة انك مقيمة في بيتك الصغير وسط الغابة والى جانبك زوجك وولدان اوثلاثة . . . الا تسعدين اذا رزقت اولاداً ؟

فبدت على وجه الذئبة علامات الشوق والحنان وهتفت قائلة

— اولاد من خليلي ؟ نعم انني أتمنى ذلك واذا رزقت منه اولاداً أحبهم حباً شديداً واصير أدعي اذذاك مدام مرسيال

— وأظن ان هذا الاسم افضل من الذئبة

وبينما كانت زهرة مريم تتكلم نسيت الذئبة حاضرها ولم تعد تفكر الا في مستقبلها وعلامات البشر بادية على وجهها مثل ما كانت المغنية يوم وصف لها رودلف المعيشة في مزرعة بوكيفال كما تقدم

ولما رأت المغنية ان الذئبة مأخوذة بحديثها سرت بذلك وعادت فقالت وهي تبتسم

ـ ثم يامدام مرسيال .. اسمحي لي ان أدعوك بهذا الاسم واظن ان ذلك لا يكدرك

ـ لا بل اني اسر بهذا اللقب الجديد . ولكن الست ترين مثلي اننا كالاطفال الذين يشخصون وهم يلعبون فيدعي الصبي انه زوج وتدعي اخته انها زوجته .. ومع هذا ارجوك ان تستمري فاني اجد لذة في حديثك

ـ فلو صحت هذه الاحلام الا تباركين ذلك الغني المحسن الذي أوجد لك معيشة حسنة وكفاك شر معيشة التشرد والشقاء التي تقضينها في باريس ؟

وكأن لفظة باريس أعادت الذئبة الى الحقيقة فرأت ان المغنية تسلطت على أفكارها وسحرتها بحديثها فبعد سكوت

وجيز رفعت رأسها وانتصبت قائمة وقالت للمغنيـة بصوت مرتجف .

— أرأيت كيف أني مصيبة في نفوري منـك وعدم رغبتي في سماع حديثك لان عاقبته تكون وخيمة عليّ فلماذا ذكرت لي ماذكرت ؟.. ألكي تسخرين بي ! ألكي تعذبينني ولا ذنب لي سوى اني قلت لك اني أرغب السكن في وسط الغابات مع خليلي !.. ولكن من أنت ياهذه؟ ولماذا شوشتي أفكاري ؟ انك لاتعلمين مافعلت ياشقية فقد أصبحت الآن على الرغم مني افكر في الغابة والبيت اللذين وصفتهما وفي الاولاد والسـعادة التي لن أنالها أبداً وان أنا لم أنس ماسمعته منك تصبح حياتي منغصة وأقاسي على الارض عذاب جهنم وانت وحدك السبب في ذلك فاجابتها زهرة مريم ـ اصغي اليّ اتظنين اني ردیئة الى حد ان اولد فيك تلك الافكار واوجد في نفسك تلك الامال اذا لم اكن على ثقـة من انى قادرة على اخراجها الى حيز العمل

— انت ؟ انت تقدرين على ذلك؟

— انا .... لا .... ولـكن يقدر عليه شخص طيب القلب

عظيم قادر . فاصغي اليّ ياذئبة اني منذ ثلاثة شهور كنت مثلك في هوة الهلاك لا نصير لي وفي ذات يوم جاءني الشخص الذي ذكرته لك وعزاني بكلام عذب وكانت تلك اول تعزية سمعتها في حياتي وقد قصصت عليه كل ماقاسيته من جور الزمان ولم اخف عليه شيئاً كما فعلت انت منذ برهة وبعد ان سمع حكايتي لم يلمني بل رق لحالي واخذ يصف لي عيشة المزارع بعيداً عن الضوضاء وعاملني معاملة الولد المريض فارسلني لاستنشاق الهواء النقي المنعش في الخلاء وكنت قبل ان اعرفه مقيمة بين قوم من الاشرار المجرمين فاسكنني مع قوم اطهار محصو نفسي من ادرانها . ارى ان كلامي يؤثر في نفسك ياذئبة فان كانت دموعي تستدر دموعك فذلك لان روح ذلك الشخص توحي اليّ ما اقول وان كنت احدثك عن المستقبل السعيد الذي تنالينه بالتوبة ففي امكاني ان اعدك بالحصول على تلك السعادة بالنيابة عنه ولو انه يجهل هذا الحديث الذي دار بيننا

وأشرق جبين المغنية وهي تتكلم فازدادت جمالا على جمال وكانت الذئبة شاخصة اليها فلما رأت ذلك النور الروحاني

يفيض من وجهها اخذ منها العجب وهتفت قائلة

— افي يقظة انا ام في منام ؟ هذا امر محال ... فمن انت اذن ؟ لقد صدقت حين قلت انك من غير فصيلة البشر ولكن اذا كنت تحسنين الكلام الى هذا الحد وتقدرين على اسعادي وتعرفين اناساً من المحسنين القادرين كيف سجنت هنا مع النساء الشريرات

وقبل ان تجيب المغنية على سؤال الذئبة أقبلت عليها مدام ارمان لتذهب بها الى المركيزة درفيل واستولى الذهول على الذئبة فقالت لها موظفة السجن

— ارى بسرور ان وجود المغنية في السجن اسعدك واسعد رفيقاتك المسجونات وقد بلغني انكن جمعتن شيئاً من المال لتحسن به على المرأة مون سان جان وهذا عمل حسن ياذئبة ويحسب لك وقد كنت مصيبة حين ظننت ان باطنك افضل من ظاهرك وبما انك اتيت ذلك العمل الحسن فاعدك بانى أبذل غاية جهدي لتقصير المدة الباقية لك في السجن

— ثم امسكت مدام ارمان بذراع المغنية وذهبت بها

الفصل الثامن والعشرون

المحسنة

ولما دخلت الموظفة قاعة الانتظار قالت لها وهي تشير الى المركيزة درفيل

— لقد رق لك قلب حضرة المركيزة حينما سمعت ما ذكرته لها عنك فارادت أن تراك وربما سعت في اخراجك من هذا السجن قبل انتهاء مدتك فيه

فاجابتها زهرة مريم بحياء . — اشكرك يا سيدتي

ثم خرجت مدام ارمان وتركت زهرة مريم والمركيزة وحدهما فبدأت كليمنس بالحديث فقالت للمغنية

— اعلمي يا بنيتي أن مدام ارمان مدحت حسن خصالك وطيبة قلبك وحسن سلوكك ولكنها شكت من قلة وثوقك بها

فنكست المغنية رأسها الى الارض ولم تجب فاردفت المركيزة

— أن الملابس القروية التي كانت عليك يوم سجنت وسكوتك عما يتعلق بالبيت الذي وجدوك فيه يثبت انك تكتمين اموراً غريبة وانا لا حق لي في استنطاقك يا بنيتي ولا سيما اذا كان يؤلمك ولكن قيل لي انني اذا طلبت من

اولي الامر الافراج عنك بمجاب طلبي . ولكن قبل أن اسعى في ذلك اردت أن احدثك عما نويت تصنعينه في المستقبل وعما لديك من الوسائط فماذا تصنعين بعد خروجك من هذا السجن ؟ واما اذا ظللت مثابرة على الخطة القديمة التي اتخذتها هنا فثقي باني اكون نصيرتك واجد لك عملا ترتزقين منه

فبكت المغنية لشدة تأثير كلام المركيزة عليها وبعد تردد وجيز قالت لها

— اتتنازلين يا سيدتي الى مواساتي؟ أن عملك هذا يضطرني الى الاباحة لك باسرار ايامي الماضية على رغم القسم الذي ابديته

— قسم ؟

— نعم يا سيدتي اقسمت أن لا ابوح لرجال القضاء وذوي السلطة في هذا السجن بالاسباب التي لاجلها سجنت ومع ذلك اذا وعدتني يا سيدتي ..

— اعدك بماذا ؟

— بان تكتمي السر وعكنني بواسطتك أن اهدي بالى قوم من ذوي الحسب والنسب راعهم امري واشغل بالهم

— ثقي باني اكتم سرك ولا اقول الا ماتسمحين لي بقوله

— اشكرك يا سيدتي من صميم الفؤاد لانني كنت اخشى أن ينسب المحسنون الي اللؤم ونكران الجميل

فلما سمعت المركيزة درفيل عبارة المغنية الفصحى ورنة صوتها العذب اخذها العجب فقالت لها .

لا اخفي عنك أن وقفتك وكلامك وكل ما فيك يدهشني كثيراً فكيف امكن مع ما انت عليه من حسن التربية أن تكوني ..

فاتمت المغنية عبارة المركيزة وقالت

— أن اكون واقعة في هذه الهوة الدنسة اليس كذلك يا سيدتي ؟ فاعلمي أن تربيتي التي نوهت عنها لم احصل عليها الا من عهد قريب بفضل محسن كريم اخذته الشفقة علي مثلك من دون أن يعرف اصلي وفصلي ومن دون أن يشهد احد بحقي شهادة حسنة مثل التي سمعتها

— ومن هو هذا المحسن الكريم

— لا ادري

— اين التقيت به

فنكست المغنيه رأسها الى الارض واجابت

— بينما كنت ذات ليلة في حي الفعلة وثب عليَّ رجل وأراد أن يضربني فدافع عني ذلك المحسن الغريب

— انه اذن من عامة الشعب؟

— حين نظرته لاول مرة كان لابساً لباس الفعلة ويتكلم كلامهم ولكن فيما بعد تحققت من لهجة حديثه معي واحترام رجاله له انه كان متخفياً بزي الفعلة

— وهل تعرفين اسم ذلك الغريب ؟

— اي نعم يا سيدتي أن منقذي يدعى رودلف واني افضي ليلي ونهاري ابارك هذا الاسم الكريم

فاحمر وجه كليمنس وسألت المغنيه قائلة

— أليس لذلك المحسن اسم اخر؟

— لا ادري يا سيدتي فان كل سكان المزرعة التي ذهب بي اليها يدعونه رودلف

— وكم عمره ؟

— لا يزال في مقتبل العمر

— هل هو جميل؟

— نعم هو جميل ويزيده جمالا كرم اخلاقه

فلما سمعت كليمنس حكاية المغنية حدثتها نفسها بان رودلف الذي انقذها هو نفس البرنس فاخذت تناجي نفسها قائلة : « ماهي العلاقة ياترى بين البرنس الرفيع المقام وبين هذه المرأة السافلة ؟ وما الذي حمله على انقاذها من هوة المهالك التي كانت فيها واكتنافها بحمايته ؟ فلا يبعد ان يكون شغف بجمالها فانقذها ليتخذها خليلة له اولم تذكر لي ساره مراراً ان رودلف يأتي مثل هذه الفعال ؟ »

واعتقدت كليمنس ان المغنية تزاحمها على محبة رودلف التي تكتمها في صميم فؤادها فاشتعلت نار الغيرة في صدرها فقالت للمغنية بلهجة قاسية — وكيف تخلى عنك ذلك المحسن حتى دخلت هذا السجن ؟ وكيف حالك هنا ؟

فدهشت ذهرة مريم لانقلاب لهجة المركيزة وقالت لها

— يارباه اتراني اسأت اليك في شيء ياسيدتي ؟

فاجابتها المركيزة بعظمة . . — وكيف يمكنك ذلك

— قد لاح لي انك في بدء الحديث كنت تكلميني باكثر تعطف وحنان

-- لست حرة في ان اغير لهجتي مثل ما اشاء ؛ وان كنت رضيت بالاهتمام بامرك افلا يجوز لي ان القي عليك بعض الاسئلة ؛

فنفر قلب المغنية من المركيزة اما هذه فلكي تمحو ماربما خامر الفتاة من الظنون قالت لها

— اعيد عليك ماقلته لك وهو انني لا افقه كيف تسجنين هنا مع ماذكرته من صفات الحسن اليك وكيف انك بعد توبتك على يد ذلك الرجل سقطت ثانية فالقوا عليك القبض وانت تتنزهين في محل محرم عليك ! وقد قلت لي انك اقسمت يمينا لاتجيز لك الاباحة بحقيقة امرك والسبب الذي لاجله دخلت هذا السجن وهذا أيضاً يدعو الى العجب .

— لقد قلت لك الحق

— لاريب عندي في ذلك فان من يراك ويسمع حديثك لايشك في انك صادقة . غير ان تكتمك يزيدني رغبة في الوقوف على كل الحقيقة . هذا هو السبب في ما أظهرته من الحدة . فارجوك ان لاتؤاخذيني اذ لاغاية لي سوى الاخذ بناصرك . ويكفاني انك وعدتني باطلاعي على اسرار كتمتها

عن غيري فاشكرك على حسن ظنك بي . واني أعدك بالتحفظ على سرك ومساعدتك على قدر الامكان حتى تنالي ما تتمنين .

وبهذا الحديث الرقيق عادت المركيزة درفيل فاستمالت المغنية اليبا بعد ان كادت تنفر منها فقالت لها هذه

— عفوك ياسيدتي لاشك اني أخطأت في تأخري عن اطلاعك على ما ترغبين في الوقوف عليه. ولكنك سألتني عن المحسن اليَّ فدفعت بالرغم عني الى اطالة الحديث عنه لان حديثه وحديثي عنه يطربني

— وهذا يزيدك رفعة في عيني اذ قد اتضح لي انك من الذين لاينكرون الجميل وهم اندر من الكبريت الاحمر ولكن خبريني ناشدتك الله ماهو السبب الذي لاجله خليت القوم الابرار الذين انزلك رودلف بينهم واسكنك معهم فهل السبب في ذلك هو السر الذي تريدين كتمه عني ؟

— نعم ولكن صرت الآن بفضل حسن مسعاك يمكنني مع عدم الحنث بيميني ان اهدئ بال المحسنين اليَّ وازيل ما نالهم من الكدر بسبب اختفائي عنهم منذ ثلاثة شهور تقريباً فاعلمي ان الموسيو رودلف كان عهد بالنظر في

امري الى سيدة صالحة طيبة القلب فاحببتها كأمي .

— وهل كان الموسيو رودلف يكثر التردد الى المزرعة؟

— لالم يزرنا سوى ثلاث مرات في المدة التى اقمتها هنالك فابرقت اسارير كليمنس وقالت .

— وكنت تسرين بزيارته اليس كذلك ؟

— نعم ياسيدتي . وكيف لااسر بمشاهدة المحسن اليّ ؟ فاني احب هذا الرجل واحترمه واخشاه اذ ان بينه وبيني وبين بقية الناس بوناً بعيداً

— ماهي منزلته بين الناس ؟ ماهي مرتبته ؟

— لاعلم لي

— لماذا تقولين اذن ان البون بينه وبين الآخرين بعيد؟

— ان مايرفعه عن الناس هو حسن اخلاقه وحنانه الدائم على النساء المتألمين . ومطاردته للاشرار الذين حين يعرفونه يهابونه بقدر مايحترمونه . . . ولكن عفوك ياسيدتي لقد اكثرت من الكلام عنه

— لاالومك على ذلك يابنيتي . ولكنك لم تذكري لي كيف تركت تلك المزرعة التي كنت فيها سعيدة؟

— انه في ذات مساء بينما كنت عائدة من كنيسة القرية وثبت علي امرأة خبيثة كانت تعذبني وانا صغيرة وكان معها رجل أعمى وغلام اعرج لا اعرفهما وبعد ان شدوا وثاقي وكمموني حملوني الى عربة

— وما كانت غايتهم ؛

— لا اعلم ياسيدتي : اما الاعمى فيدعى معلم المدرسة والمرأة تدعى البومة ولما اركبوني العربة وسارت بنا أخرجت العوراء من جيبها زجاجة وقالت : « تداتيت بزجاجة ماء النار لاغسل به وجه المغنية واشوهه »

— يالها من فظاعة ! ومن أنقذك من هذا الخطر ؟

— هو رفيقها الاعمى معلم المدرسة فانه لما سمع مقالها وثب عليها . ودارت بينهما معركة انجلت عن فوز الاعمى فاجبر العوراء على القاء زجاجة ماء النار من نافذة العربة . وكان ذلك أول معروف صنعه معي مع انه عاون العوراء على اختطافي وكان الظلام حالكا . وبعد مسيرة ساعة ونصف وقفت العربة عند الطريق التي تخترق مرج سان ديني وكان فارس ينتظر هنالك . فدنا من العربة وقال «هل أتيتم بها؟» فاجابته

البومة بلهجة تنم عن الغضب الشديد. — نعم أتينا بها واذا كنت تريد التخلص منها فلدي طريقة حسناء وهي ان أطرحها على عرض الطريق وأجعل السائق يمر بعربته على رأسها فيظن الناس ان موتها كان بالقضاء والقدر

— يارباه ما أفظع هذه الفعال !!

— وما كانت البومة تحجم عن قتلي على تلك الصورة ولكن لحسن حظي أجابها الفارس بانه لايريد الاضرار بي وانما غاية ما يطلبه ان أسجن مدة شهرين في مكان حصين من حيث لا يمكنني مخاطبة أحد او مكاتبته. فعرضت البومة أن تذهب بي الى رجل يدعى براروج صاحب خمارة في ساحة الشانزيلزه فيسجنني في قبو حصين تحت خمارته فرضي الفارس بذلك ثم دنا مني وقال لي بانه ينظر في أمر مستقبلي ويسعدني ان أنا لزمت الصبر والسكون شهرين في سجني

— ما أغرب هذه الحكاية !

— ثم انه أعطى البومة شيئاً من المال ووعدها بان يعطيها اكثر من ذلك حين أخرج من السجن وأعمل المهماز في شاكلة حصانه فراح ينهب به الارض. واستطردت

العربة المسير الى باريس ولما دنت من سور المدينة قال معلم المدرسة للبومة « تريدين ان تسجني هـذه الفتاة في القبو الـكائن تحت خمارة برا روج وأنت تعلمـين ان ذلك القبو تغمره المياه في فصل الشتاء لقربه من النهر . فهـل تريدين هلاكها» فاجابته البومة — نعم هذا ما أريد

— هل أسأت الى تلك اللعينة حتى ارادت الانتقام منك؟

— لا ياسيدتي ما أسأت اليها قط وطالما عذبتني وأنا طفلة .فلما سمع معلم المدرسة جوابها الفظيع قال لها

« أما نا فلا أوافقك على اغراق المغنية ولا أدعك تذهبين بها الى براروج » فتعجبت البومة مثل ما عجبت انا حين رأيت معلم المدرسة يدافع عني ثم أخذ منها الغضب كل مأخذ وقالت « ماذا تريد أن تصنع بها اذن ؟ وأين تريد أن تضعها لـكي تبقى مختفية شهرين ؟ » فاجابها معلم المدرسة ان لديّ وسيلة وهي أن تسير بنا العربة الى ساحة الشانزيلزه وتقف بالقرب من مركز البوليس ثم تذهبين أنت الى براروج وتفهمينه ان يأخذ الفتاة الى مركز البوليس ويدعى انها من المتشردات وانه وجدها حول خمارته.وبما أن جزاء أمثالها

اللاواتي يوجدن في ساحة الشانزيليزيه هو السجن ثلاثة شهور
فيلقي معاون البوليس القبض على المغنية ويبعثها الى سجن
سان لازار حيث يحافظ عليها اكثر مما لو سجنت في قبو
خمارة براروج »فاجابته البومة...ولكنَّ المغنية لا ترضى القبض
عليها ومتى وجدت امام معاون البوليس تقول اننا اختطفناها
فنقع في شر أعمالنا ولو فرضنا انهم سجنوها فيمكنها ان تكتب
من السجن الى ولي أمرها فينكشف أمرنا »فقال لها معلم
المدرسة «لا بل انها تذهب الى السجن عن طيبة خاطر وقبل
ان نمضي بها الى مركز البوليس تقسم لنا انها لا تشتكي علينا
لاحد مازالت في السجن وبعد خروجها منه . ولا اخالها
ترفض طلبي هذا لانني دافعت عنها ومنعتك عن تشويه
وجهها بماء النار واغراقها تحت خمارة براروج وان هي حلفت
لنا وحنثت بيمينها واغرت بنا احداً اتعهد باحراق مزرعة
بوكيفال وقتل اهلها» ثم التفت اليَّ وقال لي «اقسمي يا بنتي هذه
اليمين فلا ينالك من الاذى سوى الاقامة شهرين في السجن
والا اترك البومة تذهب بك وتلقيك في ذلك القبو حيث
تموتين غرقاً ثم نذهب الى مزرعة بوكيفال ونحرقها فاقسمي

اذن ولا تترددي وانا على يقين من انك لاتحنثين باليمين»

— وهل أقسمت؟

— نعم أقسمت لشدة خوفي من أن يصيب المحسنين الي أذى وخفت ان تحرق المزرعة وأموت أنا غرقاً بيد البوءة على اني وأيم الحق لا اخشى الموت اذا كان على غير تلك الصورة

فنظرت المركيزة الى الفتاة نظرة تنم عن الدهشة وقالت

— على مَ هذه الافكار السوداء وأنت لا تزالين في شرخ الشباب. فمتى خرجت من السجن وعدت الى المحسنين اليك الا تكونين سعيدة؟ أولا يمحو ندمك ما ارتكبت من الاثم؟

- هل يُمحى الماضى وهل يُنسى؟ وهل تنفي الندامة الذكرى؟

قالت المغنية ذلك بصوت يدل على اليأس فتأثرت المركيزة وقالت لها — مهما كان الذنب عظيما يمكن التكفير عنه

— أولا يزداد ذكر العار وطأة على النفس كلما طهرت؟ وكلما صعدت منزلة الانسان يزداد في عينيه عمق الهوة التي كان واقعاً فيها

— انك اذن تيأسين من اصلاح حالك والحصول على العفو

انني لا أيأس من عفو الغير عني وانما أراه فيك من

رقة العواطف يثبت ظني هذا اما أنا فلا اعفو عن نفسي

— انك اذن تكونين ظالمة نفسك

— نعم لان الناس ربما يجهلون و يصفحون أو ينسون اما أنا فلا أنسى قط

— وهل تمنين الموت أحيانا ؟

فابتسمت المغنية ابتساماً مراً وأجابت - نعم ياسيدتي

— كيف يمكن ان تمني الموت وقد خفت ان تشوه البومة وجهك بماء النار فهل تخشين على جمالك أيتها المسكينة

— ربما كان خوفي من تشويه وجهي دليلا على ضعف عزيمتي ولكنني اذا كنت جميلة مثل ماتقولين فاتمنى ان أموت جميلة وأنا أردد ذكر المحسن الي

فاغرورقت عينا المركيزة درفيل بالدموع لان بساطة حديث المغنية وهيئة وجهها الملائكي اثبتا انها تقول الحقيقة والذي زادها تأثيراً هو اقرار المغنية بقبح ماضيها وقولها « اني لن أنسى أبداً ماكنت » وندمت كليمنس على مافرط منها من اساءة الظن في كرم أخلاق البرنس المجرد عن كل غاية وعلى ماخامر قلبها من الغيرة عند ما أعربت المغنية عن

محبتها وامتنانها لرودلف. وبعد سكوت وجيز قالت لزهرة مريم

-- ؤمل انك في المستقبل تكونين أقل صرامة على نفسك مما أنت الآن. واسمحي لي ان نتكلم عن اليمين التي اقسمتها فقد فهمت الآن السبب في سكوتك وهو انك لم تريدي ان تبوحي بامر اولئك اللصوص القتلة الذين اختطفوك

— نعم ياسيدتي لانني خفت سوء العاقبة .. ثم ذهبت البومة وعادت مع براروج فمضى بي الى مركز البوليس وادعى انه رآني أجول حول خمارته فلم أنكر ذلك فقبضوا علي

— لاشك اذن ان أهل المزرعة التي كنت فيها أصبحوا في قلق عليك واضطراب .

— هذا المرجح ياسيدتي وهو السبب الاكبر في كدري وأظن اني لا أحنث بيميني اذا رجوتك ان تكتبي لمدام جورج في مزرعة بوكيفال وتخبريها ان تكون في راحة بال من جهتي من دون ان تعلميها أين أنا لانني وعدت بكتمان ذلك

— أرى يابنيتي ان لافائدة من كل هذا الحذر اذا أمكنني الحصول على الافراج عنك والمرجح عندي اني انجح في هذا المسعى فتخرجين من السجن غداً أو بعد غد وتعودين الى

المزرعة من دون ان تخشي بيمينك .

-- هل تظنين ياسيدتي انك تقدرين عن اخراجي من هنا عاجلا ؟

-- اني اؤمل ذلك وارجو ان تخرجي بعد غد وتذهبي بنفسك الى المزرعة فتقر برجوعك عين المحسنين اليك

وما كادت المركيز تتم عبارتها حتى دخلت مدام ارمان مضطربة وقالت . - يسؤني ياسيدتي ان انبئك بالخبر الذي كلفت به فاعلمي ان الدوق لوسيني جاء من بيتك لامر ذي بال وهو ينتظرك اسفل .

- ياربّاه ! لقد هلع قلبي خوفاً من هذا النبأ ! فماذا جرى ؟

-- لاأدري ياسيدتي ولكن الدوق دي لوسيني قال ان لديه خبراً محزناً يريد اطلاعك عليه وقد علم من زوجته الدوقة بانك هنا فاسرع بالمجيء

فاصفر وجه المركيزة وقالت في نفسها : - خبر محزن !

ثم صرخت قائلة بلهجة حزينة تنفطر لها القلوب

- ابنتي .. ابنتي .. ربما .. اواه .. ارجوك ياسيدتي ان تذهبي بي الى الدوق لوسيني .

قالت ذلك وخرجت من القاعة مذعورة وتبعتها مدام ارمان

الفصل التاسع والعشرون

(أول أشجان الضحوكة)

وفي ذات يوم ذهب البواب بيبليه الى مركز البوليس يشتكي على كبريون الذي ظل يشاكسه وبقيت زوجته وحدها في الغرفة وبينما هي مشغولة بتنظيف ثياب زوجها اذ فتح الباب ودخلت مدام سيرافين مدبرة بيت فيران وكيل الاشغال وقبل ان نذكر للقارئ مادار من الحديث بين تينك المرأتين نعلمه بان انسطازي زوجة البواب ما كانت تشك بكرم اخلاق جاك فيران وفضائله ولكنها على رغم حسن ظنها فيه لم تستحسن ماأبداه من الصرامة والقسوة في معاملة لويز موريل وجرمان وكانت تعتقد ان مدام سيرافين أساءت أيضاً الى الفتاة والغلام ولكنها لشدة دهائها لم تظهر لسيرافين شيئاً من سوء ظنها بها بل كانت تبش في وجهها لاسباب سنذكرها فيما يلي. فبعد تبادل التحية قالت سيرافين — خبريني كيف حال المسيو برادامنتي (بوليدوري)؟ فقد كتبت له مساء الامس لم يجاوبني وأتيت صباح اليوم لاراه فلم أجده فلعلي لا اخيب

الآن أيضاً

فاظهرت مدام بيبليه الاستياء وأجابت

يعز عليّ ان أخبرك بان المسيو برادامنتي لم يعد بعد الى بيته

— ان هذا لا يطاق ! فان لديّ أخباراً هامة لا بد لي من اطلاعه عليها وفضلا عن ذلك يلزمني ان اختلق سبباً لمجيئ الى هنا لان المسيو فيران اذا علم ان لي علاقة مع رحل دجال يتولاه الكدر نظراً لما عهد فيه من الاستقامة .. أولا تعلمين متى يعود المسيو برادامنتي؟

— ان أحد أصدقائه سيزوره في الساعة السادسة من هذا المساء. فاذا عدت الى هنا في تلك الساعة ترينه لا محالة

وقالت مدام بيبليه في نفسها: «بعد ساعة يسافر برادامنتي الى نورمنديا»

— سأعود اذن الليلة. ولديّ خبر آخر أطلعك عليه ياعزيزتي انسطازي ولعلك علمت بما جرى للفتاة لويز موريل

فرفعت انسطازي عينيها الى السماء وهتفت قائلة

— لا تحدثيني عنها فأن ذكرها يوقف شعر رأسي

— قد ذكرتها لك لتعلمي اننا ما زلنا حتى الساعة بلا خادمة فاذا عرفت فتاة حقيرة عاقلة شغيلة فارجوك أن تبعثيها اليّ

— لك ما تريدين يا مدام سيرافين فمتى سمعت بفتاة حائزة على الصفات التي ذكرتها ابعث بها اليك

ثم قالت انسطازي في سرها «لاسمح الله أن ابعث اليك بفتاة مسكينه لتهلك جوعا في بيت فيران البخيل»

-- ولا بد لي من تنبيهك الى أمر ذي بال وهو أن الموسيو فيران يفضل أن لا يكون للفتاة الخادمة اقارب لكي لا تخرج من البيت وتصاب ما اصيبت به لويز الشقية اذ لا يخفى عليك الضرر الذي ينتج من حصول مثل ذلك العار في بيت طاهر مثل بيت الموسيو فيران. الى اللقاء يا عزيزتي وسأمر بالعمة بوريت وانا صاعدت لبيت برامنتي

— الى اللقاء يا مدام سيرافين انك الليله تجدين بردامنتي

وبعد انصراف مدام سيرافين اخذت انسطازي تناجي نفسها قائلة: «ما اشد الحاحها في السؤال عن برادامنتي وما اشد رغبتها في مواجهته! فماذا تريد منه يا ترى؟ وهو على عكس ذلك يبذل غاية جهده لكي لا يراها قبل رحيله الى

نورمنديا وكم خشيت أن لا تنصرف سيرافين قبل مجيء السيدة التي ينتظرها الليلة بردامنني وقد زارته في الامس ولم اتمكن من امعان النظر فيها ولكن الليلة سابذل جهد المستطاع لارى وجهها عن قرب مثل ما فعلت بخليلة ذلك القومندان الذي لا يسوى نجلة اننا لم نعد نراه قط هنا ولم ينعم علينا بيارة واحدة فلكي اجازيه ساحرق كل ما بقي له من الحطب . . ولكن من هذا القادم؟ هذا سلطان الساكنين .

ثم أن انسطازي وقفت عند عتبة الباب وسلمت سلاما عسكريا وقالت — السلام عليك يا سيدي رودلف

وكان القادم رودلف حقيقة ولم يكن بلغه بعد خبر موت المركيز درنيل فلما سلمت عليه رد عليها التحية وقال

— هل الانسة الضحوكة في غرفتها؟ أن لي كلاما معها

— اعندك ريب يا سيدي بانها ملازمة لغرفتها وهل يمكنها الكف من العمل لحظة واحدة!

— وكيف حال زوجة موريل؟ هل تعزعا نوعا ما؟

— نعم يا سيدي انها اصبحت سعيدة هي واولادها بفضلك أو بفضل المحسن الذي تقول انك وكيله وقد اصبحوا

كأنهم السمك في الماء فصار لديهم نار يصطلونها وهواء نقي يستنشقونه واسرة نظيفة ينامون عليها وغذا جيداً وخادمة تعتني بهم ثم جاءهم من عندك طبيب اسود البشرة ليعالج امرأة موريل ويظهر أنه طبيب ماهر فقد وصف لها دواء افادها كثيراً

-- اسفي على هذه المرأة فلا شك انها لا تزال حزينه

-- نعم يا سيدي وكيف لا تكون حزينه وقد جن زوجها وماتت ابنتها اديل وسجنت ابنتها لويز وهو اكبر مصاب لديها وعندما افكر في أن سيرافين مدبرة بيت وكيل الاشغال جات تقدح في تلك الفتاة المسكينه تضطرب كل اعضائي ولولا رغبتي بايقاع سيرافين في حفرة عميقة لما كنت صبرت عليها حين سبت لويز ولاغرب من ذلك أن تلك اللعينة كلفني أن اجد لها فتاة اخرى تقوم مقام لويز عند وكيل الاشغال ولشدة بخل هذا الرجل يريد أن تكون الخادمة يتيمة لكي لا تخرج من البيت على زعمهم وهي دعوى كاذبة والحقيقة أن فيران يريد ان تكون الخادمه يتيمة لا نصير لها ولا مرشد لكي يأكل عليها نصف اجرتها اليس كذلك ؟

فاجابها رودلف وهو مطرق الى الارض مضطرب البال : - نعم .. نعم ..

والذي اشغل بال رودلف هو ما علمه من انسطازي من أن فيران يريد استخدام فتاة يتيمة تقوم مقام لويز المسكينة فرأى أن تلك فرصة للانتقام وفكر للحال في سيسيلي زوجة داود الطبيب التي ستكون آلة العقاب لجاك فيران انتقاما للويز المسكينه وبعد سكوت وجيز قال لمدام بيبليه

-- اتريدين أن تصنعي معي جميلا عظيما !

والله يا موسيو رودلف لو سألتني أن القي بنفسي في النار أو ان أبل شعري المستعار بالزيت الغالي او ان أعض أنف احد فلا اتردد طرفة عين فربما تشاء وعلي الطاعة فانا وقلبي من عبيدك فافعل كل ما يرضيك ما خلا امر واحد وهو خيانة حبيب قلبي الفريد

ـــ كوني مطمئنة البال يامدام بيبليه واليك بيان الذي ارجوه منك : انني اريد ان اجد خدمة لفتاة يتيمة وهي غريبة عن هذه البلاد ولم تأت باريس قط فأريد ادخالها في خدمة

-إلك فيران

— ماذا تقول ياسيدي اتريد ادخال تلك اليتيمة المسكينة في خدمة فيران البخيل ؟

— لا بأس من ذلك واذا كانت الفتاة لا تصبر على الاقامة عنده فيمكنها الخروج من خدمته وتكون قد ربحت شيأ تسد به الرمق حتى تجد عملا آخر

— هذا شأنك ياسيدي رودلف وقد حذرتك فان كنت تجد مع ماذكرته لك من بخل فيران ان ادخال الفتاة في خدمته موافق فلا سبيل للاعتراض لانك ولي أمرها ولا سيما ان لوكيل الاشغال حسنات مثلما له سيئات فكما انه ابخل من كلب واغلظ من حمار واقسى من جلمود . فهو أيضاً شريف النفس للدرجة القصوى .

— لديّ سر أريد ان اطلعك عليه يامدام بيبليه وارجو ان لا تبوحي به لاحد

— اقسم لك بشرف انسطازي بيبليه ابنة جاليمار باني لا ابوح بسرك لمخلوق فتكلم

— اعلمي ان الفتاة التي نحن في صددها ارتكبت ذنباً . فانها كانت خادمة في بيت نسيبة لي فشاركها في فعل المنكر

ابن تلك النسيبة هل فهمت ؟

-- كيف لا ! ... قد فهمت مرادك كأني انا مرتكبة المنكر

-- ولما طردتها نسيبتي جاءت باريس فوعدتها بان اجد لها عملاً يكسبها القوت ولكن بما انها غريبة وليس لها من ينظر في أمرها يصعب ايجاد خدمة لها فاذا قلت لمدام سيرافين ان الفتاة ابنة نسيب لك في المانيا وانه ارسلها لك لتجدي لها عملاً فلا يتردد فيران في ادخالها في خدمته واذا تم ذلك اكون سعيداً لان سيسيلي « هكذا تدعى الفتاة » لم ترتكب المنكر لانها ردية الجبلة بل لان ابن نسيبتي اغراها فاذا دخلت في خدمة فيران فلا تلبث ان تعود الى السبيل القويم لما تجده من الصرامة في بيته . ولا ريب عندي في انه لا يخيب رجاك لما يعهده فيك من الصدق والشرف ..

-- اخجلتني يا مولاي ! ..

-- وعزة النفس والشهامة ...

-- عفوك يا مالك السكان ... كن مطمئناً . سوف اقوم بما انتدبتني له خير قيام فأقول لسيرافين ان لي ابنة عم فقيرة في المانيا توفي زوجها ثم توفيت هي وتركا فتاة لا نصير لها ولا

معين وقد كتب لي صديق بان الفتاة اليتيمه عزمت على المجيء لباريس لتقيم عندي اذ ليس لها نصير سواي.

— حسن وأرى الاوفق ان تذهبي بالفتاة سيسيلي الى جاك فيران مباشرة بعد ان تكلمي سيرافين بشأنها واذا سألك عن ابنة عمك قولي له انك لم تريها منذ عشرين سنه وانها منذ رحلت الى المانيا لم تكتب لك

— وهل تتكلم الفتاة غير اللغه الالمانيه ؟

— انها تحسن اللغة الفرنساوية وسالقنها كل مايلزمها ان تقوله . فلا تهتمي بأمر سوى تشديد الرجا على سيرافين لتكون معينة لك على ادخال الفتاة في خدمة فيران . . . ولكن لا لا . الاوفق ان لاتلحي على سيرافين لكي لاتسيء الظن . واصبري حتى تأتي لهنا فاخبريها فقط بان سيسيلي يتيمه صغيرة السن جميلة الصورة وانها عبء ثقيل على عاتقك وانك ترغبين في التخلص منها لانك لاتحبينها بسبب عداوة قديمه كانت بينك وبين امها

— يالله ما اشد دهاك ! ! فكانك مجبول من طينه انسطازي وكم كنت تعيش في وفاق ووئام لو انك كنت من عمري

وامتزجنا امتزاجاً مناسباً أي أصبحنا جسداً واحداً

— اسكتي لئلا يسمعك الموسيو بيبليه

— صدقت .. مسكين عزيزي الفريد . انه مضطرب الافكار بسبب مكيدة جديدة كادها له الخبيث كبريون . وسوف أذكر لك ذلك فيما بعد . اما الفتاة فسأجعل سيرافين تطلبها للخدمة في بيت فيران من تلقاء نفسها

— واذا نجحت في هذا العمل يامدام بيبليه اكافئك بماية فرنك ذهبا . نعم انني لست غنياً ولكن ..

— انك تهزأ بي يامسيو رودلف ولا شك . أتظن اني أفعل ماطلبته مني طمعاً بالجزاء ! لا وربك اني لست مدفوعة بعامل غير المحبة .. ماية فرنك ياسلام !!

— ولكن لست ترين انه لو بقيت هذه على عاتقي اضطر الى الانفاق عليها مالا كثيراً لاتعد المايه فرنك بجانبه شيئاً

— تريد ان تقول اذن باني اصنع معك جميلا اذا أخذت منك الماية فرنك ! ان الله في ارسالك الى هذا البيت أراد ان نصبح من الاغنياء . فلا بدّ لي من المناداة على رؤس الاشهاد بانك أمير الكرماء وملك السكان

ثم قطعت انسطازي حديثها بغتة وانصطت لحظة وقالت

— سمعت صوت عربة وقفت . . لاشك انها السيدة الصغيرة التي ينتظرها برادامنتي. قد أتت بالامس ولم أتمكن من رؤيتها. اما الآن فلا أدعها تصعد قبل ان امعن النظر في وجهها ولي طريقة عجيبة اعرف بها اسمها . فسوف ترى يامسيو رودلف كيف احسن العمل . وكيف اريك وجهها

ـ فاستتر رودلف في زاوية من غرفة انسطازي وهو يقول لا . لا تفعلي اذ لا تهمني رؤية هذه السيدة ومعرفة اسمها

فلم تصغ انسطازي الى قول رودلف بل وثبت خارج الغرفة حين رأت السيدة مقبلة وقالت لها

— الى اين انت ذاهبة ياسيدتي ؟

فبدت على السيدة علامات الاضطراب لوقوف انسطازي في سبيلها واجابت — اريد مقابلة المسيو برادامنتي

ـ انه غائب عن بيته

— لا يمكن ان يكون غائباً لان بيننا موعد . فاظنك مخطئة

فاجابتها انسطازي وهي تبذل كل جهدها لترى وجهها

ـ لا ياسيدتي لست مخطئة قد خرج المسيو برادامنتي او

بالحري انه لا يريد مقابلة احد ماخلا سيدة واحدة

-- انا هي تلك السيدة فدعيني اصعد فقد عيل صبري

-- ارجوك ياسيدتي ان تذكري لي اسمك لاعلم هل

هو اسم السيدة التي ينتظرها. فان كان غير الاسم الذي ذكره

لي فلا ادعك تصعدي الا اذاقتلتني ودست على جثتي

فدهشت السيدة واضطربت ظهراً لبطن وقالت ·

— كيف. هل ذكر لك اسمي ؟

- نعم ياسيدتي

- يالها من مجازفة

وبعد سكوت وجيز وتردد قالت تلك المرأة بصوت

خافت كانما تخشى ان يسمعها احد - اسمي مدام دوربيني

وكان رودلف ينصت داخل الغرفة فلما سمع هذا الاسم

اضطربت كل اعضائه لانه اسم حماة المركيز درفيل. وللحال

خرج من مكمنه المظلم وامعن النظر فيها فتحقق من انها هي

بعينها لان المركيزة درفيل وصفتها له مراراً عديدة حتى

نقشت صورتها في مخيلته

فقالت لها انسطازي · - نعم ياسيدتي هذا هو الاسم

الذي ذكره لي الموسيو برادمنتي فيمكنك أن تصعدي

فمرت حماة المركيزة درفيل سراعاً والتفتت انسطازي الى رودلف وقالت له

— لقد وقعت السيدة في الفخ بكل سهولة فرأينا وجهها وعرفنا اسمها .. مدام دور بيني ما أجمل هذا الاسم !!

فاجابها رودلف . _ هل اتت هذه السيدة الى بيت برادمنتي قبل هذه المرة ؟

— نعم جاءت امس مساء وبعد ذهابها خرج الموسيو برادمنتي مسرعاً ولعله ذهب ليستأجر محلا لها في عربة الدليجانس المسافرة اليوم وبرهاني على ذلك انه لما عاد كلفني بنقل صندوقه صباح اليوم الى المحطة لانه لا يأمن لخادمه الغلام الاعرج.

— وهل تعرفين الى اين يذهب

— نعم انه ذاهب الى نورمنديا عن طريق الانسوت

— فتذكر رودلف أن مزرعة اوبيه التي كان يسكنها الموسيو دور بيني واقعة في نورمنديا فلم يبق عنده شك في أن برادمنتي ذاهب لعند والد كليمنس لغرض فظيع وبعد سكوت وجيز قالت مدام بيبليه:

— واعلم يا سيدي أن سفر برادامنتي سيكون ضربة شديدة على سيرافين لانها تبذل كل جهدها لتراه وهو يبذل كل جهده لكي لا يراها وقد شدد عليّ الوصية بان لا اقول لها انه مسافر هذا المساء وسوف تعود بعد رحيله فلا تجده فاغتنم الفرصة واحدثها عن سيسيلي .

— حسن وها انا الآن صاعد لعند الانسة الضحوكة

قال رودلف ذلك وصعد وهو مشغول البال بعد أن رأى مدام دور بيني وعلم انها عند بوليدوري

وفي ذلك اليوم كانت الضحوكة حزينة كئيبة لاول مرة في حياتها فلم تغني طول النهار وكأن عصفوريها شعرا بحزنها فشاركاها في الكآبة وكفا عن التغريد ولم يكن حزنها مسبباً عمّا رأته من شقاء عائلة موريل لانها تعودت رؤية بؤسهم وسماع شكواهم

وكان كل سكان ذلك البيت ينسبون الضحوكة الى الطيش حيثما يرون ميلها الى الضحك والمزح ولا سيما مع جيرانها الشبان فاساؤا بها الظن جميعهم ما خلا الشاب فرانسوا جرمان فانه كان ينظر اليها بعين الاعتبار وما زال يتودد اليها

حتى استمال فؤادها فاصبح يهواها ولكنه كتم عنها حبه وكان يقضي معها كل ايام الاحاد وساعات الفراغ من الايام الاخرى وكانت الضحوكة ترتاح الى عشرته وتكثر من المزاح والضحك والغناء اما هو فكان يتخذ دائما هيئة الجد وكانت تلوح عليه احيانا علامات الكآبة .

لم تكن الضحوكة حزينة فقط في ذلك اليوم بل كانت شاحبة اللون ذابلة العينين تدل هيئتها على تعب شديد لم تتعوده فانها ظلت ساهرة تشتغل جانباً عظيما من الليل وكانت في كل آونة تنظر الى رسالة مفتوحة موضوعة على منضدة امامها وردتها من جرمان وهذا نصها

« من سجن الكونسيرجري

« ايتها الآنسة

« لست في حاجة الى شرح ما بي من الغم لان اسم المكان الذي اكتب لك منه افصح من بياني . لقد تهمت بسرقة واعتقد الناس جميعهم انني مجرم ومع ذلك لا استحي من مكاتبتك واول ما اتمناه هو أن لا تظنيني مجرما قبل أن تقرأي هذه الرسالة . وان انت نفرت مني تكون تلك الضربة

القاضية علي

« فاليك شرح ما حصل انني منذ ايام معدودة لم اعد أسكن في زقاق التامبل ولكنني علمت ان عائلة موريل التي طالما اشتركنا في الاهتمام بامرها اصبحت في ضنك شديد ويوم أمس تأخرت عن الخروج من مكتب الموسيو فيران اذ كان لدي رسائل هامة مستعجلة يلزمني كتابتها ويوجد في الغرفة التي كنت اشتغل فيها مكتبة يضع فيها الموسيو فيران كل الاوراق التي كنت اكتبها . ولما انتهيت من كتابة الرسائل فتحت الدرج لاضعها فيه فوقع نظري على رسالة مفتوحة قرأت فيها اسم جيروم موريل مبردخ الجواهر ولشدة اهتمامي بهذا الرجل وعائلته قرأت تلك الرسالة وعلمت أن فيران يطالبه بمبلغ الف وثلثماية فرنك بموجب كمبيالة وانه سيلقي عليه القبض يوم غد ويسجنه اذا تأخر عن سداد الدين « فادركت ما سيحل بعائلة موريل من الشقاء اذا سجن سندها الوحيد فتأثرت تأثيراً شديداً وبينما انا اعيد قراءة تلك الرسالة وقع نظري على كيس مفتوح في الدرج وفيه نقود قيمتها الفا فرنك . وفي تلك اللحظة سمعت اقدام لويز

على السلم فاغتنمت الفرصة فاخذت من الكيس الف وثلثماية فرنك ولما مرّت بي لويز اعطيتها ذلك المال وقلت لها « علمت انهم يريدون القبض على ابيك صباح الغد لانه مدين بالف وثلثماية فرنك نخذي هاهو المبلغ وانقذيه ولكن لاتذكري لاحد اني اعطيتك هذا المال لان فيران رجل شرير

« فترين ايتها الانسة أن غايتي كانت حسنة ولكن الواسطة مشينة اما عذري فاليك بيانه انني تمكنت بالاقتصاد والتقتير على نفسي من جمع جانب صغير من المال تبلغ قيمته الف وخمسماية فرنك ودعتها في احد المصارف ومنذ ثمانية ايام كتب لي صاحب ذلك المصرف يخبرني بان قد انتهت المدة المعينة لتشغيلها في مصرفه وانه مستعد أن يدفعها اليّ او تجديد تشغيلها . فترين انني املك من المال اكثر مما اخذت من صندوق فيران وانه كان في امكاني أن اقبض في الغد الف وخمسماية فرنك ولكن صرف البنك الذي كنت واضعاً نقودي فيه لم يكن يأتي الى البنك لاعند الظهر وكان موريل مهدداً بالقبض عليه عند بزوغ الفجر فكان يلزمني والحالة هذه أن اجد طريقة يتمكن بها موريل من

دفع دينه باكراً والا لو انني صبرت الى الغد حتى اقبض
من البنك نقودي لكان سجن موريل واضطررت الى اخراجه
من السجن بعد ان يهان وتجرح قلوب عائلته وفضلاً عن ذلك
فان نفقات القبض عليه تضاف الى الدين وتزيد الطين
بلة فترين مما تقدم انني امنع حصول كل تلك المصائب اذا
اخذت من صندوق فيران الف وثلثماية فرنك على سبيل
السلفة على امل أن اردها في الغد قبل أن يعلم الموسيو فيران
بعجز الصندوق ولكن لسوء حظي خاب ذلك الامل

« وفي الغد بعد أن قبضت نقودي من المصرف وعدت
الى المكتب كان اطلع فيران على الامر ولو انه اتهمني بسرقة
الالف وثلثماية فرنك فقط لهان الامر ولكنه يدعي بانني
سرقت ايضاً اوراقا مالية قيمتها الف وخمسماية فرنك كانت في
درج المكتبة مع كيس النقود وهي تهمة باطلة والله على ما اقول
شهيد ولكن هل تثقين في كلامي أو تقولين ما قاله فيران ؟
« أن الذي يسرق الف وثلثماية فرنك لا يحجم عن سرقة الف
وخمسماية »

« ان ما اعهده فيك ايتها الانسة من سلامة القلب

والعطف على البؤساء يؤكد لي أنك ستلهمين الى معرفة الحق فثقي بما اقوله لك واعذريني على اخذ الالف وثلثماية فرنك من صندوق فيران فان غايتي كانت حسنة

«اني اكتب لك من غرفة في السجن امكنني الانفراد فيها بعد أن نقدت السجان شيئاً من المال لان بعض المساجين الذين كنت معهم قبل انفرادي حيث انا بدأوا ينظرون اليّ بعين الغدر ويشتمونني

« وبعد استنطاقي سانقل الى سجن آخر يدعى سجن الفورس . وقد وعدني السجان بايصال هذه الرسالة اليك وأرسلت لك أيضاً مفتاحاً صغيراً ومكتوباً لبواب غرفتي في شارع سان ريني نمرة ١١ قلت له فيه بانه يمكنك التصرف بكل مافي غرفتي كانه ملك لك . فمتى دخلت غرفتي تجدين فيها خزانة صغيرة فافتحيها بالمفتاح الذي بعثت به اليك تجدي فيها غلافاً كبيراً داخله أوراقاً عديدة أرجوك الاحتفاظ بها وبين تلك الاوراق كتاب لك كما سترين . وكتب أخرى أنت موضوعها . وأرجوك أيضاً أن تأخذي المال القليل الذي تجدينه في الخزانة وبيعي كل أمتعتي وثيابي لاني سأرحل عن

باريس بعد خروجي من السجن ولو حكموا ببراءتي ومدام بوفار تاجرة المفروشات التي في سوق التامبل تبتاع منك كل أمتعتي .. وأرجوك أيضاً أن تعطي بواب البيت الذي أسكنه شيئاً من المال ولا تؤاخذيني على ما أحملك من الثقلة فاني لاأعرف غيرك لا كلفه بما كلفتك به

« واسمحي لي ان اكتب لك من حين لآخر فانني أجد في ذلك تعزية عظيمة لانني منقطع وحيد في هذا العالم لاقريب لي ولاحبيب سواك وثقي بانني بريء مما اتهمت به وانني كنت طول حياتي اكره الشر والاشرار والذي يثبت لك ذلك الاوراق التي تجدينها في الغلاف فاقرأيها ولكن كيف يمكنني اثبات براءتي والناس كلهم يشهدون لخصمي فيران بالصدق وطهارة الذيل على ان قلبي يحدثني بانك لا تسيئي بي الظن وأن تزوريني يوم أحد في السجن. واذا كتبت لي فابعثي كتابك الى سجن الفورس

أستودعك الله أيها الانسة السليمة القلب وأرجوك أن لاتنفري مني فانت أملي الوحيد في هذا العالم»

«فرنسوا جرمان»

ذلك كان السبب في كآبة الضحوكة حين صعد رودلف ليزورها فلما دخل عليها قال لها بعد التحية

— مالي أراك كئيبة شاحبة اللون ذابلة الاجفان مما يدل على انك بكيت كثيراً فماذا أصابك؟

— كيف لا أبكي ولا أحزن وقد أصابت جرمان مصيبة

ثم انها أعطته الكتاب الذي أتاها من جرمان وقالت له

— خذ واقرأ ماحل بذلك الشاب من الشقاء وقد قلت لي انك تهتم بأمره وهاهي الساعة التي يمكنك أن تثبت ذلك

وبعد ان قرأ رودلف رسالة جرمان قال للضحوكة

— وعلى أي عمل عزمتِ؟

— عزمت على ان افعل كل ما طلبه مني جرمان ولولا هذا العمل المستعجل الذي لابد من انجازه لكنت مضيت لقضاء حاجة جرمان ثم عليّ ماخلا ذلك ان أذهب وأرى لويز في سجنها عملا بارادة أمها مدام موريل

— لقد تحصلت على تصريح لدخول السجن فها هو

— أشكرك ياسيدي رودلف

— وهلا تخشين الذهاب الى سجن جرمان؟

— كلا لانه حين كان حراً طليقاً كان يفعل كل مايسرني فيذهب بي الى النزهة أفلا يجدر بي الآن ان افيه بعض ما علي؟ نعم انني لا أقدر على اسعافه لضعفي ولكنني أفعل كل ما استطيع لاثبت له انني لا أزال على وداده ولا أحتقره ناشدتك الله خبرني لماذا يتهمه بالسرقة فيران البخيل؟ اما انا فلا أشك انه بريء من تلك التهمة وكل من عرفه وثبر اخلاقه يدفع عنه تلك التهمة الدالة على خبث جاك فيران وسوء طويته

— بورك فيك فقد اعجبني منك هذا النفور من فيران

— آه كم اتمنى ان اكون رجلا لاذهب اليه واوسعه ضرباً

فابتسم رودلف لما رآه من حدة الضحوكة وقال لها

— انك سريعة العقاب

— اعذرني على ما انا به من الهياج فان عمل فيران يذهب بالصبر الجميل ويولد الحقد في اسلم القلوب ولا سيما ان الناس يثقون بصدقه ويكذبون جرمان افلا نقدر على الاخذ بناصره يامسيو رودلف؟ فانك تعرف كثيرين من ذوي المروؤة

— لقد عرفت بالاختبار انك تكتمين السر فاعلمي انه لا يمكننا الاخذ بناصر جرمان الا اذا بقي أمر سجنه

مكتوماً وان لا يعرف احد ولا يعرف هو نفسه ان له اصدقاء اشداء ساهرون على مصلحته

-- ولكن الا تظن بانه اذا عرف ذلك يتعزى ويتشجع

— بلا شك ولكنه ربما لا يستطيع السكوت واذا علم فيران بذلك يتحوط للدفاع عن نفسه لانه على جانب عظيم من المكر والدهاء فلا نعود نستطيع الانتقام منه وكذلك يجب على لويز ابنة موريل ان تلزم السكوت وقد اتيتك بالتصريح لتذهبي الى سجنها وتقولي لها ان لا تطلع احداً على ماذ كرته لي وهي تفهم المعنى المقصود ولكن لابد لها ان تطلع على كل اسرارها محامياً سارسله اليها وكلفته بالدفاع عنها فاخبريها بكل ذلك ولا تنسي شيئاً

— سافعل كل ماتامرني به ولكنني لاحظت امراً وهو انني اراك دائما الى جانب الذين يصابون بالشقاء لتأخذ بناصرهم

— لقد قلت لك انني موظف بسيط في بيت حقير لا حول لي ولا قوة ولكنني حين اتجول في المدينة في اوقات الفراغ واقف على شقاء البؤساء اوجه اليهم التفات رجل محسن غني فيكلفني باسعافهم على قدر الامكان . ولكن مالنا ولهذا الان

وأخبريني الا تفضلين ان أذهب معك لزيارة جرمان في
في سجنه عوضاً عن ان تذهبي وحدك

— نعم أعني ذلك أيها الجار ولا سيما قد جن الليل وأنا
اكره المشي في الازقة ليلا. ولكنني قبل الذهاب الى السجن
لابد لي من أخذ هذه الملابس التي انتهيت من خياطتها الى
أصحابها وهم بالقرب من الباله رويال وأخاف أن تتعب

— لا أتعب ولا تتعبين لانني اكتري عربة

— ما اسعد حظي بالذهاب في عربة وكم كنت أسر بذلك
لولا ما تولاني من الحزن على جرمان.

— هلمّ ولا تخشي من ضياع الوقت فانك تذهبين
وتعودين معي في العربة

— أشكرك شكراً جزيلا

— ولا تريدين أن تتعشي معي في أحد المطاعم

— لا يا سيدي أشكرك لاني لا أشعر بجوع قط. وانما
متى خرج جرمان من السجن أقبل دعوتك وأمكنك بان
تذهب بى الى أحد الملاهي. فهل تعدني بذلك؟

— لك ما تريدين. ثم خرجت الضحوكة وتبعها رودلف

الفصل الثلاثون

الوصية

وركب رودلف والضحوكة عربة سارت بهم الى شارع سانت اونوري فاعطت الضحوكة الثياب التي خاطتها لاصحابها ثم عادت بهما العربة الى شارع سان ريني نمرة ١١ حيث كان جرمان ساكناً . ولا بد لنا ان نذكر للقاريء ان مدام ماتيو سمسارة الجواهر التي عرفناها اثناء الكلام عن موريل كانت ساكنة في نفس البيت الذي أقام فيه جرمان . ولما وقفت العربة عند باب ذلك البيت نزل رودلف والضحوكة . ونادت هذه البواب وأعطته الكتاب المرسل له من جرمان فبعد ان قرأه بدت على وجهه علامات الكدر وقال للضحوكة

— يسؤني ان يترك المسيو جرمان هذا البيت لانه قلما يوجد بين السكان من يضارعه في كرم الاخلاق اما غرفته فهي في الطابق الرابع

فصعد رودلف والفتاة الى تلك الغرفة فوجدا مافيها من الفرش على غاية البساطة فقالت الضحوكة لرودلف

— يلزمني ان اضع على حدة بعض الثياب لاخذها له

وبعد ان انتهت من ذلك العمل قالت

— والآن يلزمني ان أبحث عن النقود والاوراق التي ذكرها في كتابه .. هاهي الخزانة التي أرسل لي مفتاحها ولما فتحت الخزانة وجدت النقود والى جانبها غلاف كبير داخله أوراق ومكتوب عليه باحرف كبيرة مايأتي . «اذا مت أرجو الذي يقع هذا الغلاف تحت يده ان يسلمه للآنسة الضحوكة الخياطة المقيمة في شارع التامبل نمرة ١٧ »

ففتحت الفتاة الغلاف فوجدت فيه عدة رسائل منها واحدة معنونة باسمها وهذا نصها

« ياحضرة الآنسة حين تقرأين كتابي هذا أكون في عالم الاموات . فان مت قتيلا بيد الاشرار الذين يقتفون أثري للايقاع بي فيمكن الاهتداء اليهم من الاطلاع على مذكرة دونتها عن حياتي تجدينها بين الاوراق »

فقطعت الضحوكة القراءة وقالت لرودلف

— قد أدركت الآن السبب الذي لاجله كانت الكآبة ملازمة لجرمان لزوم الظل لجسمه .

— نعم ان اضطهاد أعدائه وخوفه من الموت غيلة وغدراً

كانا السبب في حزنه الدائم. اما الآن فقد انتهت مدة احزانه وبعد خروجه من السجن لا يجد حوله سوى الاصدقاء وأنت أولهم ثم يعود الى احضان أمه المسكينة التي فقدته منذ كان طفلا

— أمه ! : هل تزال أمه على قيد الحياة ؟

— نعم وكانت تظن انه مات . فتصوري عظيم فرحها حين تراه وتضمه الى صدرها . . ولولا ثقتي بك لما كنت أطلعتك على كل هذه الحقائق . فارجوك ان تكتمي هذا السر

— أشكرك على حسن ظنك بي وأؤكد لك باني لا أبوح بأسرارك .

ثم عادت الضحوكة الى تلاوة كتاب جرمان فقرأت ما يأتي

« ومتى قرأت المذكرات التي تجدينها في هذا الغلاف تعلمي ان التعاسة لازمتني طول حياتي ما خلا الايام التى قضيتها بالقرب منك . وما لم أكن أجسر على قوله لك تجدينه مكتوباً في المذكرة التي عنوانها (أيام سعادتي الوجيزة)

« وكنت ما أسمعه منك من عبارات المودة والاخاء تعزيتي الوحيدة في هذا العالم وما كنت تحسبينه مودة بيننا كنت أعده حباً ولكنني أبقيت حبك مكتوماً في فؤادي

حتى أصبح في عالم الاموات وكم أعجبني نشاطك وجدك وانكماشك على العمل وأدركت مايلزمك من الحكمة وحسن التدبير لتعيشي من القليل الذي تربحينه بشق النفس وكم ابتهج حين افكر بان في امكاني تخفيف وطأة الشقاء عنك »

فقطعت الضحوكة القراءة وقالت لرودلف

— لم ادرك ماذا يعني جرمان بهذه الفقرة

— اتمي القراءة لعلنا ندرك المعنى

فعادت الضحوكة الى قراءة ما ياتي

« اني لا اجهل عيشة الضنك التي انت فيها واود من صميم فؤادي اصلاح حالك ولكن ضيق ذات يدي يحول دون بلوغ تلك الامنية ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله فاعلمي انني فقير ولكنني تقترت على نفسي حتى جمعت بالاقتصاد الف وخمسمائة فرنك ودعتها في احد المصارف وهذا كل ما املك من حطام الدنيا وقد ذكرت في وصيتي التي تجدينها في الغلاف انني وهبتك ذلك المال القليل فارجوك ان تقبليه من يد صديق حميم واخ حنون مات وظلت روحه ترف عليك »

فاغرورقت عينا الضحوكة بالدموع ولم تعد تستطيع القراءة

فقاطعت الكتاب لرودلف وهي تقول بين شهيق وزفير

— ما أطيب قلب هذا الشاب وما اكرم نفسه انني لم اكن اتصور انه يحبني الى هذا الحد ويهتم بمستقبلي .

فتأثر رودلف واجابها . — لاشك انه شهم نادر المثال ولكن هدي روعك يابنيتي فان جرمان لم يمت حمداً لله وكفى من هذه الوصية فائدة ان أثبتت لك مايكنه فؤاده من الشغف بك

وما كاد رودلف يتم عبارته حتى قرع باب الغرفة وسمع صوت يقول .

— اريد مقابلة مدام ماتيو

فلما بلغ اذن رودلف ذلك الصوت تذكر انه سمعه من ذي قبل فاخذ المصباح بيده وفتح الباب فرأى شاباً شاحب اللون ضئيل الجسم يدعى بربليون كان رآه في خمارة مدام بونيس وهو الذي كان متخفياً بزي حوزي وأركب في عربته معلم المدرسة والبومة يوم ذهبا الى القرب من مزرعة بوكيفال وكمنا للمغنية في الطريق ولكن هذا اللص لم يتذكر رودلف ولذلك لم يعجب حين رآه فقال له رودلف

— ماذا تريد ؟

— ان لدي خطاباً أريد تسليمه لمدام ماتيو

— ليست هذه غرفتها فسل عنها في الجهة المقابلة

— أشكرك ياسيدي قد قيل لي ان باب غرفتها في جهة الشمال وقد أخطأت

ثم ذهب بربيليون الى الجهة المقابلة وظل رودلف واقفاً بالباب ليرى من هي مدام ماتيو التي يريد مقابلتها ذلك الشقي ولم يتصور انها هي سمسارة الجواهر لانه لم يعد يذكر اسمها ولما قرع بربيليون باب غرفتها فتحت للحال

فوقع نظر رودلف على امرأة سمينة تناهز الخمسين وفي يدها شمعة فقال لها بربيليون — أنت مدام ماتيو ؟

— نعم أنا هي يابني فماذا تريدمني

— أتيتك برسالة يلزمك الجواب عليها

وناولها الكتاب فقرأته وقالت له

— قل للسيدة التي أعطتك هذه الرسالة انني سأقضي حاجتها واذهب اليها في نفس الساعة التي ذهبت فيها آخر مرة .

— ثم نزل بربيليون السلم مسرعاً وكان ينتظره في الشارع رجل رث الثياب تدل هيئته على الشراسة والخبث فقال له

— تعال ياتقولا نشرب كأساً من الخمر فان العجوز وقعت في الفخ وسوف تذهب لعند العوراء وتساعدنا زوجة مرسيال على أخذ الجواهر منها ثم نقتلها ونلقي جثتها في النهر

— فلنسرع اذن اذ يلزمني ان اكون في اسنير قبل فوات الوقت وأخشى ان يشك أخي مرسيال في أمرنا

ثم اتجه اللصان نحو شارع سان ديني وبعد تلك الحادثة بزمن وجيز خرج رودلف والضحوكة من غرفة جرمان وركبا عربة سارت بهما الى زقاق التامبل ووقفت هناك ولما نزل منها رودلف رأى على ضوء المصباح صديقه مورف الذي كان ينتظره عند باب البيت فتكدر عند رؤيته لانه استدل من مجيئه على حصول مصاب عظيم فقال له — ماذا جرى ؟

— حصل مصاب عظيم يامولاي وذلك ان المركيز دوفيل دعى للغداء بعد اصحابه وبعد مناولة الطعام حصل المصاب

— أتمم حديثك بسرعة!!

— بينما كان المركيز يقلب بين يديه طبنجة .

— لعله جرح جرحاً بليغاً ؟

— لا بل انه مات فصرخ رودلف قائلا بصوت يدل

على شدة الحزن!!

— المركيز درفيل ! ياله من كارث أليم

واذ ذاك نزلت الضحوكة من العربة ولما سمعت هذ

رودلف صرخت قائلة — ياربّاه ! ما بك يا سيدي

فلم يستطع رودلف الجواب لشدة الحزن فقال مورف

— انه لقد أحزنه خبر مكدر جئته به

وبعد سكوت وجيز قال رودلف

— ياله من حادث مفجع

ثم تذكر ان الضحوكة معه فالتفت اليها وقال لها

- لا تؤاخذيني يا صديقتي أن انا لم ارافقك الى غرفتك وغداً

ابعث اليك برسالة اذكر لك فيها عنواني وارفقها بجواز في

دخول سجن جرمان وسوف نلتقي قريباً

— ثق يا موسيو رودلف بانني اشاطرك ما ألم بك من

الحزن واشكرك على مرافقتك اياي

ثم أن البرنس ومورف ركبا العربة فسارت بهما الى

شارع بلوميه وما كاد رودلف يستقر في بيته حتى كتب الى

المركيزة درفيل الرسالة الآتية .

« سيدتي

« قد بلغني الان نبأ الكارث المشؤم الذي اصابك وافقدني اعز صديق لي على الارض فلا استطيع أن اعرب لك عن ذهولي وحزني ولا بد لي ان اطلعك على امر هام لا دخل له في موت المركيز وذلك اني علمت أن زوجة ابيك في باريس منذ بضعة ايام وانها ذاهبة الى نورمنديا مستصحبة معها بوليدوري ومن هـذا النبأ تعلمين الخطر المهول الذي يتهدد والدك فاريد ان أنصحك نصيحة لا أظنها الا مفيدة وهي أن تسرعي بالسفر الى نورمنديا لعلك تصلين قبل ان ينفذ السهم وتنقذين والدك من مخالب الموت ولا يلومك أحد على سفرك السريع بعد وفاة زوجك فان الناس يحملون ذلك على محمل حسن ويظنون ان الاقامة في باريس لم تعد تطيب لك بعد وفاته وأيقني انني اظل ساهراً عليك في البعد والقرب واسأل الله ان يساعدنا على رد كيد امرأة ابيك في نحرها »

« صديقك المخلص رودلف »

فعملت المركيزة درفيل باشارة رودلف وبعد اطلاعها على كتابه بثلاث ساعات كانت تسير هي وابنها على طريق نور

منديا سيراً سريعا وكانت تتبعهما عربة بريد سارت من بيت رودلف ولسوء الحظ لم تخبر المركيزة درفيل رودلف قبل سفرها بانها رأت ذهرة مريم بسجن سان لازار

ويذكر القارئ ان البومة تهددت سيرافين مدبرة بيت فيران بان تعلن وجود المغنية وقالت لها انها تعرف مقر تلك الفتاة ويذكر القارئ ايضا ان فيران خاف سوء العاقبة حين بلغه تهديد العوراء فرأى من مصلحته ان يجد طريقة لاخفاء المغنية فكتب الى بردامنتي ليوافيه فيتفقا على قتل ذهرة مريم غير ان بردامنتي لم يجب طلب فيران لانه كان مشغولا بعمل آخر وهو الذهاب الى نورمنديا مع صديقته القديمة طمعا بمكافئة تناسب مطامعه فسافر من دون ان يقابل سيرافين . فتلبدت غيوم الشرق فوق راس جاك فيران في ذلك اليوم الاسود فذهبت اليه العوراء وجددت تهديدها ووعيدها وقالت له أن الفتاة الصغيرة التي تخلت عنها سيرافين موجودة الآن في سجن سان لازار تحت اسم المغنية وأنه أن لم يدفع عشرة الاف فرنك ترسل الى الفتاة اوراق تثبت بموجبها أنه عهد اليه بتربيتها وهي طفلة

فانكر فيران ما عزته البومة اليه وطردها من بيته واهانها ولكنه كان يخشى باطناً سوء العاقبة. وفي نفس ذلك اليوم علم فيران أن المغنية موجودة حقيقة في سجن سأن لازار وانهم سيفرجون عنها قريباً مجازاة لها على حسن سلوكها فرأى أن يدبر وسيلة لهلاكها ولكنه شعر باحتياجه الى معونة برادامنتي لاخراج فكرته الشيطانية إلى حيز العمل ومن ذلك يعلم القارئ السبب في الحاح سيرافين لمواجهة برادامنتي. وفي مساء ذلك اليوم لما بلغ فيران خبر رحيل برادامنتي وكان لا بد له من انجاز تصميمه تذكر عائلة مرسيال قرصان النهر المقيمين عند جسر آسنير فارسل اليها خادمته بعد سفر برادامنتي لتتفق معهم على طريقة يهلكون بها المغنية

الفصل الحادي والثلاثون

جزيرة الرافاجور

لما شنق كبير عائلة مرسيال مثل والده ترك اربعة بنين وبنتين وقبل شنقه حكم على ثاني اولاده بالاشغال الشاقة المؤبدة ولم يبق من تلك العائلة المديدة في جزيرة الرافاجور سوى ثلاثة بنين مرسيال خليل الذئبة التي عرفناها في سجن

سان لازار وعمره خمسة وعشرون سنة والاخ الثالث وهو
ابن عشرين سنة واصغر البنين وعمره اثنتي عشرة سنة. وبنتان
عمر احداهما ثماني عشرة سنة والاخرى تسع سنين وكان
لكبير هذه العائلة خمارة يتخذها وسيلة لاخفاء جرائمه وبعد
شنقه ظلت زوجته تعمل في تلك، الخمارة وتؤجر القوارب
للنزهة وكان ابنها البكر خليل الذئبة ابعداخوته عن الشروحرفته
الصيد خلسة. وكان الضعفاء من الناس يستعينون به على اخذ
ثارهم من اخصامهم الاقوياء مقابل اجرة يدفعونها له واحيانا
كثيرة كانت لا تزيد عن لفظة «عفارم» اما ثالث الاولاد
المتيد ان يكون شريك بربيليون في قتل مدام ماتيو وسرقة
جواهرها فكانت حرفته اللصوصية ويعد من امهر قرصان
النهر. واصغر الاولاد يدعى فرانسوا ومهنته نوتي اما الثاني
فقد حكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة كما سبق لانه ارتكب جريمة
السرقة والشروع في القتل. واكبر البنتين تدعى كلمياس تساعد
امها على شغال المطبخ وخدمة زبائن الخمارة وتعاونها اختها
امندين الصغرى على قدر استطاعتها وفي تلك الليلة كان الظلام
حالكا وكانت أرملة مرسيال جالسة في المطبخ الى جانب النار

وحولها ثلاثة من بنيها. وهي طويلة القامة نحيلة تناهز الخامسة والاربعين وكانت مشتغلة بالخياطة هي وابنتيها وكانت كاليباس اكبر البنتين تشعل نار الموقدة من وقت لآخر وتراقب القدر التي عليها ثم تعود الى جانب والدتها وبعد سكوت وجيز قالت لها

— لم يعد نقولا بعد واخشى أن تكون العجوز التي ذهبت به هذا الصباح لتقابله برجل غني مرسل من قبل برادامنتي اوقعته في التهلكة والذي يحملني اسيء الظن بها انها كتمت عنا اسمها ولم تذكر لنا من اين اتت

فرفعت الارملة كتفيها مستهزئة ولم تجب بكلمة فاردفت ابنتها

— هل تظنين يا امي أن لا خوف على نقولا ؟ قد يجوز أن تكوني مصيبة. أن العجوز طلبت منه أن يكون في الساعة السابعة ليلا عند رصيف بيلي تجاه المحطة وأن ينتظر هناك رجلا يأتيه ويحدثه بعد ان يذكر له كلمة السر وهي برادامنتي وبالحقيقة ليس في هذا شيء من الخطر ولعل غياب نقولا ناتج عن كونه وجد شيئا في الطريق مثل الامس فانه سرق الثياب اذ رآها منشورة على ظهر قارب من قوارب

الغسالات . وعلى ذكر سرقة الثياب ابشرك باننا وجدنا موردا جديدا للرزق . فانت تعلمين أن رجلا طاعنا في السن سكن منذ بضعة ايام بيت الموسيو جريفون طبيب مستشفى باريس . وتعلمين أن ذلك البيت منعزلا عند شاطئ النهر تجاه اتون الجبس

فنكست الام رأسها ولم تجب فاردفت كالبياس

— وبالامس سمعت نقولا يقول أن في ذلك البيت غنيمة يمكننا سرقتها ولكن لا بد لنا قبل الشروع في العمل من ارسال اختي اماندين فتتسم الاخبار وتجول حول البيت ثم تعود وتخبرنا بما رأت وما سمعت

والتفتت كالبياس الى اختها اماندين وقالت لها :

— هل سمعت ما اقول؟

فاجابتها الفتاة وهي ترتجف من شدة الخوف :

— نعم يا اختي ساذهب عملا بأمرك

— انك تقولين دائما « افعل » والا تفعلين. الا تذكرين يوم كنا في حانوت بقال ازنيه وامرتك أن تسرقي خمسة فرنكات من درج الصندوق بينما أنا اشغل البقال فلم تطيعيني

— لان الرعب تولاني فلم اجسر على مد يدي

— وكيف تجرأت اذن على اختطاف المنديل من البائع بينما كان يبيع في الخمارة

— لانك اجبرتني على هذا العمل واخذته انت ثم أن سرقة منديل لا تعادل سرقة المال

فاجابتها كاليباس بتهكم : لا شك أن اخاك مرسيال هو الذي لقنك هذه المبادئ ايتها الملعونة . فهل ظننت اننا نخشى بأسه ؟

ثم التفتت الى امها واردفت

— ارأيت يا اماه فعال مرسيال ؟؟ فان هو استمر على هذا السلوك تكون العاقبة وخيمة عليه فهل يريد أن نعمل بامره هنا ؟ أن اخاه تقولا نافم عليه مثلي لانه يحرش اماندين وفرنسوا علينا وعليك . فهل يمكننا الصبر على ذلك؟

فاجابتها امها بصوت خشن :— كلا

— وقد ازداد تحامله علينا منذ سجنت خليلته الذئبة

وبعد سكوت وجيز قالت الام

— كيف تقولين أن في بيت ذلك الشيخ غنيمة يمكننا

الاستيلاء عليها وظواهره تدل على انه فقير متسول ؟

— أن ظواهره لا تنفي كونه من الاشراف الاغنياء وذهابه الى باريس وايابه منها على قدميه لا ينفيان ان كيسه طافح بالذهب .

— كيف عرفت أن كيسه طافح بالذهب ؟

— انني منذ برهة ذهبت الى مكتب البريد في اسنيه لاستعلم هل لنا خطابات من طولون...

فعند ذكر طولون تذكرت الام ولدها المسجون في تلك المدينة سجناً مؤبداً فتنهدت تنهداً عميقاً وأردفت كاليباس

— وكان الازدحام شديداً امام شباك مكتب البريد فوقفت أنتظر دوري وسمعت ذلك الشيخ الساكن في بيت الطبيب يسأل الموزع « هل لديك خطابات من انجيه باسم الكونت سان ريمي ؟ فاجابه – نعم هاهو خطاب فقال الشيخ – هو لي وهذا الباسبورت الذي في يدي يثبت لك صحة ما أقول » وبينما موزع الخطابات يفحص الباسبورت أخرج الشيخ من جيبه كيس النقود ليدفع الناولون فامكنني أن أرى قطعاً ذهبية لا أظنها تنقص عن أربعين أو خمسين قطعة و..

وقبل أن تتم كالياس عبارتها. سمع صوت نباح فقالت -
هذه الكلاب تنبح فلا شك انها أبصرت قارباً يقطع النهر
فلعل القادم مرسيال أو نيقولا

وكان الغلام فرنسوا وأخته اماندين يتصتان فلما سمعا
اسم مرسيال أبرقت أساريرهما فرحاً وظلا شاخصين الى جهة
الباب وبعد لحظة دخل نيقولا لسوء حظهما وكان حاملا على
كتفه كتلة كبيرة من النحاس فالقاها في وسط الغرفة وقال

— كانت الغنيمة حسنة هذه الليلة يا أماه فمازال في قاربي
ثلاث كتل من نحاس مثل هذه وصرة ثياب وصندوق ممتل
ولكن لا أدري مافيه لانني مافتحته بعد

وبينما الام شاخصة الى ولدها وملازمة للصمت قالت
له كالياس - والرجل الذي عند رصيف بيلي ؟

فلم يجبها بل وضع يده في جيب سراويله وهزها فسمعت
رنة النقود فهتفت قائلة

— أخذت منه كل هذا المال ؟

— لا وانما دفع من تلقاء نفسه مئتي فرنك وسوف يدفع
ثمانية مئة ... كني سوف أطلعك على كل شيء ولنشرع الآن

في تفريغ القارب . أين أخي مرسيال؟

— لم يأت بعد .

وبينما كانت الام مشغولة باعداد مائدة الطعام خرج نيقولا وكاليباس لتفريغ القارب وأخذا معهما فرنسوا واماندين وما لبثوا ان عادوا محملين فكان على كتفي فرنسوا قطعتان من النحاس يكاد ينوء تحتهما وعلى رأس أماندين صرة ثياب كبيرة وحمل نيقولا وكاليباس صندوقاً أبيض عليه كتلة النحاس الرابعة . ثم كسروا الصندوق فوجدوا فيه قطعاً عديدة من المنسوجات الصوفية والحريرية . ففرزت كاليباس قطعة من الموسلين الصوف . وقالت وهي تقهقه لشدة السرور

— بورك فيك يانقولا هكذا تكون الغنائم والا فلا

واذ ذاك دنت الام وبعد ان فحصت الغنائم قالت

— أظن أن العمة بوريت تشتري الكل بخمسماية فرنك

فاجابها نيقولا — اذا كانت بوريت تشتري هذه الاشياء بخمسماية فرنك فهو دليل على انها تساوي الف وخمسماية فرنك ولكن ما الحيلة وكل الذين يشترون الغنائم لصوص

ثم انه أخذ من الصندوق قطعتين من الحرير «فولار»

ورمى بهما الى فرنسوا وأخته أماندين اللذين كانا يحملقان باعينهما وقال لهما

— هذه حصتكما من الغنيمة وهي لقمة يسيل لها لعابكما وتفتح شهيتكما للسرقة . فخذاها واذهبا الى فراشكما حالا . فلي كلام مع امكما لا أريد ان تسمعاه

فابرقت أسرة الولدين وصارا يصفقا بايديهما ويضمان قطعتي الحرير الى صدريهما فقالت لهما اختهما كالياس

— هل بعد هذه الهدية تطيعان أخاكما مرسيال ؟

فنكس الولدان رأسيهما ولم يجيبا فقالت لهما كالياس بصوت خشن

— لماذا لا تجيبان؛ هل أهداكما مرسيال مثل هذه الهدية

فاجاباها : لا .

فقالت لهما :— اذكرا اذن هذه النعمة واصعدا الان الى غرفة النوم وانتظرا حتى آتيكما بالطعام

وقال لهما نيقولا — وبعد ان تأكلا اياكما ان تناما قبل ان تطفيا المصباح . واياكما ان تذكرا لاخيكما مرسيال خبر الصندوق وقطع النحاس وصرة الثياب والا اعلمكما الرقص بلا

دف ولا مزمار واسترجع القطعتين الحرير

وبعد ان صعد الولدان الى غرفة النوم . أخفى نيقولا وأخته كالياس كل المسروقات في قبو تحت المطبخ ولما انتهيا من هذا العمل قال نيقولا لامه

— الي ياأماه بشيء من الخمر أفتح به باب معدتي فاني أستحق هذا الالتفات من لدنك بعد الذي أتيته من عظيم الفعال هذه الليلة . وآتني بالطعام بعد الخمر اما مرسيال أخي فيكفيه ماتتركه له من الطعام . اسرعي وعودي لنتكلم عن الغني المقيم عند رصيف بيلي اذ لابد من مهمة حامية الوطيس اذا أردت أخذ المال الذي وعد به . وسأقص عليك كل ذلك ولكن بربك آتيني بالخمر . الخمر

فاتته أمه بالخمر ثم بالطعام وجلست على المائدة بينه وبين ابنتها كالياس وأخرج نقولا من تحت حزامه خنجراً مسنوناً له وميض كوميض البرق ونظر اليه نظرة المستعز وقال

— كن دائماً على مضائك أيها الخنجر الكريم مثلما أظل على مضاء عزيمتي

ثم التفت الى أمه وقال لها . اعطيني هذا الرغيف واشربي

معنا كأساً من الخمر تقشع عنك الهموم

فابعدت أمه كأسها وهزت رأسها وقالت له

ماذكرت لنا بعد شيئاً عن الرجل المقيم عند رصيف بيلي

فاجابها نقولا من دون ان يقطع الاكل والشرب اليك ماجرى : لما وصلت الى المحطة ربطت القارب وصعدت الى الرصيف وكانت اذ ذاك الساعة السابعة ليلا . وكان الظلام حالكا فلا يرى الانسان أصابعه وطفقت أروح واغدو على الرصيف بضع دقائق ثم سمعت خلفي وقع اقدام فالتفت فرأيت رجلا ملتفاً بعباءته يدنو مني فوقفت ووقف . فلم أر وجهه لانه كان ساتراً رأسه بعباءته

« يلزمنا تنبيه القاريء الى ان هذا الرجل المتخفي هو جاك فيران وكيل الاشغال وقد سبق انه بعث مدبرة بيته سيرافين لتتفق مع عائلة مرسيال على هلاك زهرة مريم »

وعاد نقولا الى حكايته فقال . — وكان الاتفاق بيني وبين العجوز ان يقول لي الرجل كلمة « برادامنتي » لاعرفه وأنا أقول له « رافاجور » ليعرفني . ولما قال كلمته وقلت كلمتي دنا مني وقال لي همساً — هل أنت من عائلة مرسيال ؟

قلت : ـ نعم ياسيدي

— هل لك رغبة في كسب المال ؟

— نعم ياسيدي لي رغبة عظيمة

— هل لديك قارب ؟

— لدينا أربعة ياسولاي

— اليك بيان مايلزمك عمله اذا كنت لاتخاف

— أخاف من أي شيء ياسيدي ؟

— من رؤية شخص يموت غرقاً بطريق العرض . ولا يطلب منك سوى المساعدة . . هل فهمت ؟

— فهمت تريد ان تسقي خصمك من ماء السين حتى ينتفخ ويرقد في القاع فيقال انه غرق قضاء وقدراً ولست ترى اقدر مني على هذا العمل . ولكنه يكلفك نفقة باهظة

— كم تطلب اجرة على اغراق اثنين ؟

— خمسماية فرنك عن كل رأس

— أي انك تأخذ على الاثنين ألف فرنك . . رضيت

— والقيمة تدفع سلفاً ياحضرة المحترم

— لا وانما انقدك الآن مئتي فرنك وغداً عند الساعة

التاسعة ليلا أدفع اليك هنا الثمانية فرنك الباقية

— كيف تعلم اني أغرقت خصميك ؟

— لا يصعب عليَّ معرفة ذلك. فلا تهتم بهذا الامر

— قد رضيت

— خذ اذن هاهي المئتي فرنك . واصغ اليّ الآن. هل تعرف العجوز التي قابلتك هذا الصباح اذا رأيتها ؟

— نعم أعرفها .

— غداً أو بعد غد تأتيك تلك العجوز عند الساعة الرابعة مساء ومعها فتاة شقراء وتقفان على شاطيء النهر مقابل جزيرتكم وتشير اليك العجوز بمنديلها

— حسن ياسيدي

— هل لقاربك قاع مسطح ؟

— نعم قاعه مسطح مثل الكف

— يلزمك اذن ان تفتح فوهة في قاعه وتسدها بصمام يمكنك فتحه بسهولة فيمتليء القارب ماء ويغرق بأقل من لمح البصر . هل فهمت ؟

(تم الجزء الخامس ويليه السادس)